مع بحر النور

الهادى البشير ﷺ

تأليف

أحمد بن محمد طاحون

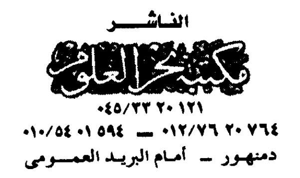
جامعة الأزهر عام ١٩٥٥ من الميلاد

وتربية عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

رقم الإيداع : ١٦٧٧٥ / ٢٠٠٦



بسم الله الرحمن الرحيم

إشارة .

هذا الكتاب أنيس القارئ، وجليس الأسرة، وصديق الرفقة، ورفيق المتحدث والواعظ، وزميل المعلم والطالب بأسلوب سهل، ولفظ قريب من لغة الحياة، وعرض واضح، مع رعاية ظروف القارئ فى عصرنا وحاجته إلى ما قلّ ودلّ، وإلى زادٍ كزاد المسافر ممّا يخفُّ حمله وتزيد بركته ومنفعته، مع المعانى والأفكار المنبِّهة على كل ما هو مفيد ونافع، مما تبقى آثاره فى النفس والمسالك.

بهذا يتضمن هذا الكتاب أربعة أقسام:

الأول: تجد فيه فرحة القلوب وبهجتها فى رحاب مولد الهادى الحبيب ﷺ.

الثانى: قطوف دانيةٌ عظيمة الخير والنفع من السيرة الهادية تجد فيها الإيجاز مع سمو المعانى والأفكار والمفاجآت التى تثير الشوق لقراءة الكتاب مرة بعد مرة بعد مرة.

الثالث: مقالات متنوعة من وحى هديه ﷺ وتوجيهاته الشريفة.

الرابع: دراسة ممتعة فى التربية مستقاة من أدب النبوة فى العلاقات الإنسانية.

إنه حبيب الأسرة والمدرسة والنادى والكبير والصغير.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

* * *

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

[الأنبياء]

* * *

«لو كان موسى وعيسى حيَّيْنِ لما وَسِعَهُمَا إلَّا اتِّباعى»

[من حديث شريف]

* * *

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ وفَمُ الزَّمانِ تبسُّمٌ وثَناءُ

[شوقى]

القِسمُ الأَوّلُ:

بَهجَةُ القُلُوب
في
رِحَابِ مَولِدِ الهَادِي الحَبيب
صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ

هو أحمد وهو مُحَمّد ﷺ

«أحمد» لأنه أكثرُ أولياءِ اللهِ الصالحين ثناءً على الله ومعرفةً بقدر نِعَمه سبحانه، ولأنه أحمدُهم لربّه وأعظمُهم شكرًا، اختار له ربُّه من الأسماء ما جعل الاسْمَ مطابقًا للمُسَمَّى، وهو هو، فهو «محمد»[١] معنًى ومسلكًا، وهو «أحمد»[٢] قلبًا وقالَبًا فكلُّ جارحةٍ فيه خاضعةٌ دومًا لمُقْتضى العبوديةِ للإلَهِ الواحدِ الأحد، وإن قلبه الشريفَ فى اليقظة وفى المنام يزداد نورًا ويقينًا وفهمًا عن ربه وعلمًا، وينفسح بالهُدى والضياء، فماءُ هذا القلبِ هو اليقينُ الصادق، ونَبْضُه هو الحمدُ والشكر، وتَطلُّعه هو التفكُّرُ الصحيحُ وتلقّى أعْظَمِ ما فى الوجود من حقائقِ العلم ودلائله ومن نور الحكْمةِ مع صحة القراءةِ لآيات اللهِ فى الكَون ولسطورِ صَنعتِه سبحانه فى الآفاق وفى النفس البشرية، لذا كان ﷺ أعلمَ الناس بالله، وأخشاهم له.

ومن منزلته وقَدْره: وحَسْبُه ﷺ شرَفًا وقَدْرًا أن الله شرحَ له صدْرَهُ بنور العلم اليقينى والحكمة، وأعطاه الكوثر، ورفع له سبحانه ذِكْرَه فلا يُذكَرُ اسمُ الله عزَّ وجلَّ إلا وهو مقرونٌ بذكر حبيبه وصَفيِّه بأعظم أسمائه، فلا تخلُو لحظاتٌ على مدار اليوم من سماعِ كلمة: «لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله» فى الشهادتين على ألسنة المُؤذّنين والمُتحدّثين والذاكرين والخطباء وفى التَشهُّد فى الصلوات، تنبيهًا على منزلته عند ربّه، وأنَّ دينَه هو الدينُ الوارثُ لجميع الأديانِ السماوية قبله، والتأكيد على وجوب اتّباعِه ونَصْرِه والعملِ بشريعته.

---

(١) هو محمد: بضم أوله، وبميم مشددة مفتوحة قبل آخره اسم مفعول من «حَمد» مضموم الأول مضعف ثانيه بشدة مكسورة مبنى للمجهول وفى التضعيف زيادة فى الدلالة على الحمد والثناء عليه ﷺ على لسان الموحّدين فى الأرض والسماء.

(٢) وهو أحمد: فعل مضارع من الحمد وفى المضارع دلالة على تَجدُّدِ الحدث واستمراره وهو أيضًا اسم تفضيل من الحمد، أى أنه أحمد الناس لله أو أكثرهم حمدًا لله.

وكان رحمة للعالمين ونورًا للحائرين

❋ إيذان بنور الرحمة والعدل وتكريم الإنسان:

كان مولده ﷺ مُؤْذِنًا بمولد جديد لبنى الإنسان، وقد طال على الدنيا دُجاها، وتحيَّر الإنسانُ فى ظلمات الشرك والضلالات والأوهام، واختلَّت موازينُ العلاقات الاجتماعية، وضَعُفت الهممُ عن مقاومة طغيان الأقوياء الذين بيدهم الوفرةُ والكثرة، فانقاد عوامُّ الناس لمنطق القوة والبأس، وتحيَّرت العقولُ فى متاهات العقائد الباطلة والقيم الفاسدة ورضخت نفوسُ المشركين للوهم والباطل فصار لهم الحجرُ والقمرُ والشَّمسُ والنَّارُ ونحو ذلك إلهًا، وسادت الفوضى العشائريةُ والقبليةُ فى السياسة، والإدارة، والأخلاق، وأخضع كثيرٌ من أهلِ الديانتين شرائعَ الدين للأهواء والأغراض فأحلُّوا وحَرَّموا حسبما تُمليه مصالحهم، ولم يكن حالُ أهل التوراة بأصلحَ من حال أهل الإنجيل وجعلوا لله ولدًا وندًّا وصاحبة، وكان الانحراف حادًّا بعيدًا عن جادَّة الحق وعن صراطِ الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن حالُ الإنسان والمناخُ السياسى والاقتصادى فى دولتى الفرس والرُّوم بأقلَّ بشاعةً وظلامًا ممَّا كان فى جزيرة العرب، إذ كانت كلٌّ من مملكتى الروم والفرس فى صراعٍ دمويٍّ مَرير، كما كانتا تَئِنَّان من الخلل الاجتماعى ومن الاضطرابات الداخلية ومن ضعفِ الاقتصاد وخواءِ الخزانة من المال اللازم لاحتياجات كلٍّ من الدولتين، كما شاعت الفوضى فى الأخلاق، وانتشر الفساد، وانقلبت مقاييسُ القِيَم والفضائل وكان لا بدَّ للنَّاس من هداية السماء، ومن مُخلِّصٍ ومُنقذٍ بنور الوحى الإلهى من الضلال وسوءِ الأحوال.

وكانت المملكتان تتنافسان فى بسط نفوذهما فعاشتا رَدْحًا من الزمان فى مَدٍّ وجَزْرٍ فيما بينهما إلى جانب التهام ما يُمكن التهامُه من أرض العرب الغنيَّة بالموارد الطبيعية، ولموقعها الجغرافى المتميِّز والمساعدِ على الوصول إلى

شِبه القارة الهندية.

واشتدَّت المظالمُ الاجتماعيةُ فى بلاد العرب وغيرها، وقد أُرهق الناسُ بها فى كلٍّ من الدولتين - فارس والروم - وكان لسان حال بنى الإنسان فى كل مكان يجأر: هل من نورٍ جديد؟ هل من مُنقذٍ من الحيرة والضلال ومن أسباب الهلكة والدَّمار؟ هل من مُبصِّرٍ للخروج من الإذلال والمخاوف؟ وجاء مولده ﷺ مُؤْذِنًا بفجرٍ جديدٍ يَنعم الإنسانُ فيه بكرامته وبحريته ومساواته فى الحقوق والواجبات، كان مولده رحمةً من الله، ثم كانت بعثتُه نورًا للقلوب والعقول فقد عرف الإنسانُ ربَّه ووحَّده وعَبده، ونبذَ الشِّركَ والأوثان، كما عرف الإنسانُ العدلَ والعلمَ والقِيمَ الفاضلةَ الثابتة الصالحةَ لكلِّ النَّاس فى كلِّ مكانٍ وحتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، فالحمدُ لله على نعمة الإسلام، ففى رحابه عادتْ للإنسان كرامتُه، وسَلِمتْ له نفسُه من المخاوف والقلق، وعاش مطمئنًّا على عبادته ومعابده وعلى ماله وعِرضه، فلا إكراه فى الدين، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين المُبادئين بالسطوة والقوة للسيطرة وانتهابِ الحقوق، وإذلال النُّفوس.

إنه دينُ السِّلْم والسَّلام والمحبة والسكينة ودينُ الدعوةِ إلى الخير والحقِّ وإلى الهُدى بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالدليل والبرهان الذى يُنير للعقل طريقَه، ويستميل القلبَ بالرِّفق والرحمة.

أخرج الله الإنسانَ بالإسلام من ظلمات الجهل والكفر والإلحاد إلى نور العلم والتوحيد والاستقامة على الطريق الذى لا عِوَجَ فيه ولا انحرافَ، إنه الطريقُ المستقيم: فى العقيدة، وفى العمل، وفى الأخلاق، وفى المُعاملات، وفى دفْع المضارِّ والمفاسد والشُّرور وفى جلْبِ المصالح التى تنفع الناسَ وتحققُ لهم الاستقرار والتفاعل لترقية أحوالهم دومًا نحو ما هو أفضل.

إن عصرنا الحاضرَ - وجميع العصور والأماكن - فى أشدِّ الحاجة إلى نورِ الإسلام وهدايته والانضواء تحت لوائه - تأمَّلْ وقُل: أليس كذلك؟

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد .

الحَمدُ للّه الذى أعطانى هذا الغُلامَ الطيِّبَ الأردانِ

«عبد المطلب»

❋ بشائر وإرهاصات:

قال أبو الحسن على بنُ محمدٍ الماوردى فى كتابه «أعلام النبوة»: إنه لا حادثَ أعظمُ مِمَّا جَدّدَه اللهُ تَعَالَى بنبوة محمَّدٍ ﷺ فاقتضى أن تكونَ بشائرُ نبوتِه أشهرَ، وشواهدُ آياتِه أظهرَ.

ومن بدائع ما جاء من البشائر وإلهاماتِ العقول بظهوره ﷺ وبنبوته:

أن كعب بنَ لُؤى بن غالب، كان يخطبُ فى الناس يومَ العَروبةِ - أى يومَ الجمعة - ويقولُ بعد خطبته: «حَرمُكم عَظِّموه، وَتَمَسَّكوا بِهِ فسيأتى له نبأٌ عظيمٌ، وسيخرجُ به نبى كريم، واللهِ لو كنتُ فيه ذا سمعٍ وبصَرٍ، ويدٍ ورِجْلٍ لتنصَّبْتُ تنصُّبَ الخيل، ولأرقَلتُ إرقالَ الفَحْل»، أى لأسرعتُ إليه وبادرتُ إلى الإيمان به ﷺ.

ومن هذا ما حكاه ابنُ قتيبةَ أن أبا كُريب بنَ أسعد الحِمْيرى آمَنَ بالنبى محمدٍ ﷺ قبل ظهوره بسبعمائةِ سنة وقال:

شهدتُ على أحمدَ أنَّه رسولٌ من الله بارِى النَّسَم
فلو مُدَّ عُمرى إلى عُمْره لكنتُ وزيرًا له وابنَ عَمّ

وخبر غريب:

ومن غريب الأخبار: أنَّه كان لقريشٍ فى جاهليتها عيدٌ يجتمعُ فيه النساءُ دون الرجال، فاجتمَعْنَ فيه، فوقف يَهودِى فى هذا الْجَمْع وفيهنَّ خديجَةُ بنتُ خُوَيْلدٍ، فقال لَهُنَّ: «يا معشَرَ نساءِ قُريش يُوشِكُ أن يُبعَثَ فِى مكةَ نَبِى،

فأَيَّتكُنَّ استطاعت أن تكونَ لَهُ أرضًا، فلتَفْعَلْ، فَحصَبْنَهُ وَوَقَرَ ذلك فى نفس خديجةَ، حتى حقَّقَهُ اللهُ لَهَا، فكانت أولَ مَنْ آمَنَ بِهِ ﷺ كَمَا كانت زوجَهُ الأمينةَ الوفيةَ.

حصبنه: أى رَمَينه بالحصباء.

تلك بعضُ الإلهاماتِ والبشائِر بنبوة محمدٍ ﷺ.

وبشائر نبوته ﷺ فى الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزَّبور كثيرةٌ، إذ كان أهلُ الأديان السابقة يَعرفون صفتَهُ ﷺ، وصفةَ زَمَانِهِ الذى يُبعثُ فيه من الكتب السماوية.

❋ زمن مولده ﷺ:

جاء عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ - رضى الله عنهما-: «أنَّ النَّبى ﷺ وُلِدَ يَومَ الفيلِ».

وجاء فى بعض كتب السِّير عن أبى جعفر محمد بن علىٍّ: «وُلِدَ رَسُولُ الله ﷺ يومَ الاثنين لعشر ليالٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول، وكان قدومُ أصحاب الفيل قبل ذلك فى النِّصف من المُحرَّم».

وقال ابن إسحاقَ: وُلدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يومَ الاثنين لاثنتى عشرةَ ليلةً خَلَتْ من شهر ربيع الأول عام الفيل.

وكانت ولادته ﷺ بالشِّعب، وقيل بالدار التى كانت عند الصفا.

❋ موافقات:

ومن الموافقات ما جاء عن ابن عباس قال: «وُلِدَ نبيُّكُمْ ﷺ يومَ الاثنين، ونُبِّئ يومَ الاثنين، وخَرَجَ من مكَّةَ يومَ الاثنين، وقَدِمَ المدينةَ يومَ الاثنين، وفَتَح مَكَّةَ يومَ الاثنين، ونزلت سورةُ المائدة يومَ الاثنين وتُوفِّى ﷺ يومَ الاثنين». [رواه أحمد وبعض المؤرخين].

❁ **آمنة بنت وهب والتسمية:**

وجاء فى سيرة ابن هشام أنَّ آمنةَ بِنْتَ وهبٍ كانت تحدِّث: أنها أُتِيَتْ حين حملتْ برسول الله ﷺ، فقيل لها: «إنك حَمَلْتِ بسيِّد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى: أُعِيذُه بالواحدِ، من شَرِّ كلِّ حاسد، ثم سَمِّيه محمدًا»، ورأت حين حَمَلَتْ بِهِ أَنَّهُ خَرجَ منها نورٌ رأتْ بِهِ قصورَ بُصْرَى من أرضِ الشام.

ولم يُعرف فى العرب من تَسمَّى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثةٌ، طمِعَ آباؤهم حين سمعوا بذكْرِ محمدٍ ﷺ، وبقُرب زمانِه، وأنه يُبْعَثُ فى الحجاز أن يكونَ ولدًا لهم، وكان آباءُ هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض المُلوك وكان عندهم علْمٌ من الكتب السماوية فأخبرهم بقرب مبعث النَّبِى محمد ﷺ - بأرض العرب - وكان كُلُّ واحدٍ منهم قد ترك امرأتَه قبل سفره حاملًا، فنذر كلُّ واحدٍ منهم إن وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ أن يُسَمِّيَهُ محمدًا، وأصحابُ الاسم هم: محمد بن سفيان ابن مجاشع جدّ جدّ الفرزدق الشَّاعر، والثانى محمد بن أُحَيْحة بن الجلاح، والثالث محمد بن حمران بن ربيعة.

❁ **الفرحةُ بنور وجهه ﷺ:**

ولمَّا وضعته أُمُّهُ ﷺ أرْسَلَتْ إلى جَدِّه عبد المُطلب: أنه قد وُلد لكَ غُلامٌ فأْتِهِ فَانظُرْ إليه، فأتاه فنظَرَ إليه، وحدَّثتْهُ آمنةُ بِمَا رَأتْ حين حملَتْ بِهِ، وما قيل لها فيه، وبما أُمِرَتْ بهِ أن تُسَمِّيَهُ.

فرح عبد المطلب بالمولود المبارك، ورأى فيه سماتِ المجدِ، وتَوَسَّم فيه أماراتِ السُّؤدَد، فقال: لن يموتَ محمدٌ حتى يسودَ العربَ والعجَمَ.

ثم قال:

الحمدُ لله الذى أعطانى   هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردان[1]

---

(١) الطيِّب الأردان: جمع رُدْن - بضم أوله وسكون ثانيه. هو: أصلُ الكمِّ، ويُقال: هو الكُمُّ وما يليه، والعبارة كناية عن الشرف والعفّة والطُّهر.

أعِيــذُه بــالــواحــد الــمـنَّــان   من كل ذى عينٍ وذى شَنآن
حتـى أراه شـامـخَ الـبـنـيـانِ

وقال الذَّهبى فى سيرته: إنَّ ابن عباس قال: «إنَّ عبدَ المُطلب خَتَن النَّبىَّ ﷺ يوم سابِعه، وصَنع له مأدبةً وسمَّاه محمَّدًا».

ويقول الذَّهبى: وهذا أصحُّ مِمَّا رواه ابنُ سعدٍ عن ابن عباسٍ عن أبيه العباس قال: «وُلِدَ النبى ﷺ مختونًا مسرورًا، فَسُرَّ عبدُ المطلب وقال: ليكُونَنَّ لابنى هذا شأنٌ».

إنَّ ميلادَ الحبيبِ المصطفى ﷺ كان إيذانًا بحياةٍ جديدة يُكْرَم فيها الإنسان، ويُزاح عن صدره مرارةُ الظلم، ويجد فيها الإنسانُ الرحمةَ والعدل والعلمَ والأمن.

ومن أحسن الشِّعر:

وشَـقَّ لَهُ مـن اسـمـه لـيُـجِـلَّهُ   فذو العرش محمودٌ وذاك محمدٌ

اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ على الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أحمد بن محمد طاحون

١٤١٥ من الهجرة

١٩٩٤ من الميلاد

فَأُقْسِمُ ما أُنثى من الناسِ أنجبَتْ   ولا ولَدَتْ أُنثَى من الناس واحِدَهْ
كما وَلَدتْ زُهْرِيَّةٌ ذاتُ مَفْخَرٍ   نَجِيَّةٌ مِن لُؤْمِ القبائِلِ مَاجِدَهْ
وقد ولدتْ خيرَ البريَّةِ أحمدًا   فَأُكْرِم مولُودٌ وأَكْرِم والِدَهْ

[هاتف مجهول على جبل بمكة والراوى عبد الرحمن بن عوف]

زُهْرِيَّة: هى آمنة بنت وهبٍ من بنى زُهْرة من قُريش.

فى ظلال:

مولد رسول الهُدى والنور

تاللَّهِ ما حَمَلَتْ أُنْثَى ولا وَضَعَتْ مِثْلَ الرسُولِ نبى الأُمةِ الهادى

«حسَّان بن ثابت الأنصارى»

إيذانٌ بمولد جديد للإنسانية:

فى القرن السادس من الميلاد [٥٧١ بعد ميلاد رسولِ الله عيسى بن مريم - عليهما السلام] - وُلِد نبيُّ الهُدَى والرحْمة محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطَّلبِ ابن هاشم بنِ عبدِ منافٍ القرشى العدنانى، وكان مولدُه ﷺ إيذانًا بمولدٍ جديدٍ لبنى الإنسان، وبشيرًا بأنَّ عصورًا ثقيلةً عاش تحت وطْأتِها البشرُ قد آذنَتْ بالرحيل، هذه العصُور التى ذاق فيها الإنسانُ مرارةَ ظُلم أخيه الإنسان، ورانَ فيها على القلوب والعقولِ جهلٌ بقيمةِ الإنسانِ ومكانته من الكونِ المحيطِ به، فصار الإنسانُ وهو السَّيِّد المتسلِّطُ على قُوى الطبيعة من حوله بإذن ربِّه وبحُكم تسخيرِها لخدمتِه ومنفعتِه صار ذليلًا خاضعًا لبعض الظواهرِ الطبيعية فاتَّخذَ منها آلهةً يعبدُها ويتقربُ إليها، ويرجوها، ويخشاها: عبدَ القمرَ، والشَّمسَ والبحرَ، والحجرَ، والرِّيحَ وغيرَ ذلك من المعبودات التى فرضها على نفسه وروحِه الوهمُ والخيالُ والجهلُ.

❋ **الحكيم العربى زيد بنُ عمرو بنُ نُفيل:**

وقد عَبَّر عن رَفْضِه لكلٍّ ما يُعْبَدُ من دونِ اللهِ هذا الرجلُ الذى عاش فى العصر الجاهلى بعد أن تيقَّظت فيه الفِطْرةُ الإنسانيةُ وأدرك بفطرته السليمة ضلالَ الناس وبُعْدَهم عن الحقِّ ففارق دِينَ قومِه العرب، ولم يجد فى اليهودية المُحرَّفَةِ، ولا فى النصرانية المُحَرَّفةِ ما يُرضى نفسه التى اطمأنت إلى أنَّ الإلهَ الخالقَ واحدٌ لا شريكَ له، ولا ينبغى لإنسان أن يَعْبُدَ سِواه، ولكنْ

كيف؟ فهذا ما كان يَشْغَل بالَه، فهام فى حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، واعتزل الأوثانَ ولم يأكل الميتةَ ولا ما يُذبح على الأصنام، عَبَّر زيدُ بن عمرو عمليًا عن رفْضه الأوثانَ، وعن عدمِ خوفه من الأصنام ونحوها أو عدم رجائِه الخيرَ من أى ظاهرةٍ فى الكون المحيط به تعبيرًا عمليًّا برفضه ما عليه النَّاسُ من الشِّرك، كما عَبَّر عن ذلك بالقول فى شعرٍ رائِع ومنه:

أربًا واحدًا أم ألفَ ربٍّ ... أدِينُ إذا تُقُسِّمَتِ الأمورُ
عزلتُ اللات والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعلُ الجلْدُ الصَّبُورُ

ثم يقول:

ولكنْ أعبدُ الرحمَنَ ربِّى ... ليغفرَ ذنبِى الربُّ الغفورُ
فَتَقْوى اللهِ ربِّكم احفظُوها ... متى ما تحفظُوها لا تَبُوروا
تَرى الأبرارَ دَارُهم جِنانٌ ... وللكفَّار حاميةٌ سَعِيرُ
وَخِزْى فى الحياةِ وإن يَموتُوا ... يُلاقُوا ما تَضِيقُ به الصُّدُورُ

❁ يُبعثُ أمةً وحْدَه:

وزيدُ بنُ عمرو بنِ نُفيَل قائلُ هذه الأبيات، وصاحبُ هذا الموقف من الأوثان ومن سائر ما يُعبد من دون الله هو والدُ سعيدِ بنِ زيدٍ زوجِ فاطمةَ أخت عمرَ بنِ الخطَّاب - رضى الله عنهم - ولكنَّ زيدًا لم يُدْرك البعثةَ ويروى ابنُ إسحاق أنه بَلَغَه أن سعيدًا وعمرَ بنَ الخطَّاب - رضى الله عنهما - [وعمر ابنُ عم زيد] قالا لرسول الله ﷺ: «أنستغفرُ لزيدِ بنِ عمرو؟ قال: نعم، فإنَّه يُبْعَثُ أمةً وحْدَه». وذلك أنه مات مُوحِّدًا غيرَ راضٍ أن يَعبُدَ الناسُ غيرَ خالقهم.

❁ ومِن شعره - أيضًا - فى التوحيد:

ألا أيُّها الإنسانُ إيَّاك والرَّدَى ... فإنَّكَ لا تُخْفِى من الله خَافِيا
وإيَّاكَ لا تجعلْ مع اللهِ غيرَه ... فإنَّ سبيلَ الرُّشْدِ أصبحَ بادِيا
حَنَانَيْك إنَّ الجِنَّ كانتْ رجاءَهم ... وأنت إلهى ربَّنا وَرَجَائِيَا
رضيتُ بِكَ اللَّهُمَّ ربًا فَلَنْ أُرَى ... أدِينُ إلهًا غيرك اللهُ ثانيا

حَنَانَيكَ: أطلب منك يا الله رحمةً موصولةً برحمةٍ فأنت وحدك رجائى ورازقى.

اللهُ: أى «يا اللهُ» فى الشطر الأخير منادى مبنىٌ على الضمِّ فى محل نصبٍ وأداةُ النداء محذوفةٌ لفظًا.

وفى هذه الأبيات يحذِّر الشاعرُ الحكيم الإنسانَ من تعريض نفسِه للعذاب إذا هو لقِى ربَّه مُسيئًا غيرَ مُحْسنٍ، كما حذَّره من الشِّركِ وعبادةِ الجنّ والشيطان، فإنه لا يُرجى غيرُ اللهِ، فهو الربُّ المنعم الرَّزَّاقُ، ثم قَرَّر اطمئنانَهُ إلى الإيمان بالإلهِ الواحدِ الربِّ المحسن، وأكَّد رَفْضَه اتخاذَ معبودٍ من مخلوقات الله.

ثمَّ يقرِّر أنَّ الله هو المعبودُ بحقٍّ لأنه مجيبُ الدعاءِ، وتُطلَبُ منه وحده الحاجاتُ، فكيف يُدْعَى أو يُعبد إلهٌ غير الخالقِ الوهَّاب المُغيثِ العِباد فقال:

أدِينُ لربٍّ يُستَجابُ ولا أرَى أدِينُ لمن لَّم يَسْمَعِ الدَّهرَ داعيا

فزيدٌ هذا كان بين المشركين من المُوحِّدين القلائِل الذين هدتهم الفطرةُ السليمةُ وما كانوا يسمعونه من بقايا دينِ إبراهيم الخليل - عليه السلام - إلى أن إلهَ الكونِ واحدٌ لا شريكَ له، ولا يجوز أن يُعْبدَ أو يُرجَى أو يُخافَ سواه.

وهذه القصيدةُ فى الوقت ذاته وثيقةٌ تاريخيةٌ تسجِّل مدى الضَّلال الذى عاش فيه الناسُ قبل الإسلام، ومدى قُبحِ الخضوعِ لقُوى الطبيعةِ والتقرُّبِ إليها بالعبادة، أو اتِّخاذِ الأصنامِ رموزًا لصالحين لَقُوا ربَّهم لتُعبدَ وَيُتَقَرَّبَ إليها، وهذا غايةُ الامتهانِ للإنسان الذى كَرَّمَهُ الله، ومنحَه عقلًا وفكرًا وعاطفة وشعورًا.

❋ نبى عربى قَرُب زمانُ مَبْعَثِه:

وإن زيدَ بنَ عمرو بن نُفيل حينما أفصحَ عن رأيه فى ضلال قومه وفى

بُعْدهم عن الصواب وبيّن لهم فسادَ ما هم عليه من معتقداتٍ باتّخاذهم أربابًا من دون الله، إنه حين أفصح عن ذلك آذاه قومُه حتى أخرجوه من مكة وانتهى به المطافُ بعد رحلةٍ طويلةٍ وحياةٍ شاقةٍ إلى راهبٍ بأرض البلْقاءِ من أعمال دِمشقَ، فسأله زيدٌ عن الحنيفية دينِ إبراهيمَ، فقال له الراهبُ الذى كان على علمٍ بالكتب السماوية التوراةِ والإنجيل: «إنَّك لتطلبُ دينًا ما أنتَ بواجدٍ من يَحْمِلُك عليه اليوم، ولكن قد أظلَّ زمانُ نبى يخرجُ من بلادِك التى خرجتَ منها يُبعَث بدين إبراهيمَ الحنيفيةِ فالحقْ بها، فإنه مبعوثٌ الآن، هذا زمانُه».

فخرج زيدٌ من الشام سريعًا حين قال له الراهب ذلك يريد بلده مكةَ المكرَّمةَ، حتى إذا توسَّط بلادَ لَخْمٍ عَدَوْا عليه فَقَتلوه، وكانت تلك عادةً جاهليةً من مساوئهم الاجتماعية لنهب عابرِ سبيلٍ أو سَبْيِه حتى أكرمنا الله بالإسلام.

❋ كان الناس فى لهف شديد:

كان الناسُ قبل مبعثه ﷺ فى لَهَفٍ شديدٍ إلى نورٍ جديدٍ، يُبدِّد ظلام الحيرة، وَيُزيل عن العقول والأفهامِ كابوسَ الجهل المخيِّم، ويضع الإنسانَ فى مكانه اللائقِ به، وقد استوى فى ذلك العربُ وغيرُ العرب فلم يكن الناسُ فى إسار الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطوريةِ الفارسية بأحسنَ حالًا من العرب فى جاهليتهم، حيث تفاقمَت المظالمُ على الناس مع كثرة الفتن والحروبِ بسبب المطامع والأهواء.

❋ وسلمانُ الفارسى يبحث عن الحق أيضًا:

وكما كان يفعلُ زيدُ بنُ عمرو العربى القرشى فى بحثه عن الهُدى والحقِّ كان سلمانُ الفارسى من إحدى قُرى أصبهان بفارس تتوقُ نفسُه إلى الخير والحقِّ، وينفر قلبُه من عبادة النار، مع أنَّه كان خادمَها الذى يُوقدها حتى لا

تُطفأ وعَرَفَ منه أبوه أنَّه عازفٌ بطبعه عن هذا الإلهِ المخلوق الذى لا يرضاه ذوقٌ ولا يقبله عقلٌ، فَلقِى من أبيه أذًى كثيرًا إلى أن واتته الفرصةُ فرحل سلمانُ إلى الشام يبحث عند أهل الكتاب عمَّا يَروِى ظمأَ نفسِهِ إلى الحقِّ، وهناك لزِمَ بعضَ الرُّهبان الذين هم على علمٍ بالتوراة والإنجيل، وكان آخرُ من صَحِبهم سلمانُ أسْقُفَّ عَمُّوريةَ، فلما دنا أجَلُه طلب منه سلمانُ النصيحةَ ماذا يفعل بعد موته؟ ومن يصحب من أهل الدِّين؟

أجابه الرَّاهب: «أى بُنَى، واللهِ ما أعلمُه أصبح اليومَ أحدٌ على مثل ما كنَّا عليه من الناس آمُرك به أن تأتيه، ولكنَّه قد أظلَّ زمانُ نبى، وهو مبعوثٌ بدين إبراهيمَ - عليه السلام - يخرج بأرض العربِ: مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين بينهما نخلٌ، به علاماتٌ لا تخفى يأكل الهدية، ولا يأكلُ الصدقة، وبين كتفَيْه خاتمُ النُّبوة، فإن استطعتَ أن تلحقَ بتلك البلادِ فافْعَل».

وانتهى المطافُ بسلمانَ الفارسى إلى الأرض ذاتِ الحرَّتين وهى يثربُ - المدينة المنورة - فعاش وهو فى لَهَفٍ شديدٍ إلى لقاءِ النبى المنتظر، فلمَّا هاجر النبى محمدٌ ﷺ إلى يثربَ وسمِع بذلك سلمانُ، طار قلبه من الفرح، وأسرع للقائه فى «قُباء» قبل أن يدخل المدينة، وأخذ سلمانُ يَلْحَظُ رسولَ الله ﷺ فى جُملةٍ من أحواله وصفاته حتى عرف أنَّه النَّبى الذى بشَّر به الإنجيلُ، فأسْلمَ وحسُنَ إسلامُه وجاهد فى الله حقَّ جهاده مشاركًا فى تخليص الإنسانية من آلامها.

❋ وبَحِيرى الراهب فى الشام كان يترقَّب ويسأل:

وبَحيرى ويقال اسمُه «جرجسُ» كان حَبْرًا من أحبار يَهودِ تَيْمَاءَ، وقيل كان راهبًا نصرانيًا وكان على عِلْم بالكُتب السماويةِ، كما كان عابدًا ناسِكًا طالبًا الحقَّ، سَمِعَ هاتِفًا يهتف: «ألا إنَّ خَيْرَ أهلِ الأرضِ ثلاثةٌ: بَحِيرى، وربابُ

الشنِّى، والثالثُ المُنتظَر»، فكان الثالثُ رسولَ الله ﷺ.

كان بَحيرى يعرف صفةَ الزمان الذى سيُبعث فيه النبى العربىُ الأمىُ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، فاتَّخذ لنفسه صومعةً فى بُصْرى من بلاد الشام على طريق القوافل العربية يتلقَّاها ليسأل عن النبى المنتظر.

ومضت الأيامُ وخرج الشابُ محمدُ بنُ عبد الله مع عمِّه أبى طالبٍ فى تجارةٍ إلى الشام وكان بَحيرى فى صومعته يلحظ القافلةَ القادمةَ من شِبه الجزيرة، فرأى غَمامةً تُظِلُّ غلامًا من بين القوم، ولمَّا جلس بعضُ القوم تحت شجرةٍ وفيهم هذا الغلام رأى بَحيرى أغصانَ الشجرةِ تَميلُ وتتدلَّى على الغلام، فسعى بَحيرى إلى مخالطة القوم، وأخذ يَلْحَظُ الغُلامَ لحظًا شَديدًا، ويسألُه عن أحواله فى نومه وهيئته وفى سائر أموره ورسولُ الله ﷺ يُخبره، فيوافق ذلك ما عند بَحيرى من صفتِه ﷺ عنده، ثم نظَر إلى ظهرِه فرأى خاتَم النبوةِ بين كَتِفَيْه على مَوضِعه مِن صِفَتِه عِنْدَه.

أقبلَ بَحِيرى على أبى طالب ينصحُه أن يعودَ بابن أخيه إلى مكةَ خوفًا عليه من اليهود، وأخبره أنه كائنٌ لابن أخِيك هذا شأنٌ عظيمٌ.

❊ وفى الإنجيل جاءت الإشارة إلى هذه القصَّة:

وفى إنجيل «برنابا» صاحبِ عيسى – عليه السلام – وهو أحدُ الحوارِيِّين هذا الإنجيلُ الذى لم تلحقه يدُ التحرِيف والتعديل والتغيير جاءت الإشارةُ إلى قصَّةِ الغَمامة وبَحِيرى الراهبِ مع النبى محمدٍ ﷺ وذلك فى سياق البِشَارات التى وردتْ فيه.

فقد جاء فى الإنجيل: أن المسيحَ عليه السلامُ أخبر الحوارِيِّين أنَّه سينصرفُ عن هذا العالَم، فَبَكَوْا، فأخبَرهُم أنه سيأتِى بعْده نبى يُخَلِّصُ العَالَم، ثم سأله أندراوسُ: يا معلِّمُ، اذْكُرْ لنا علامةً لِنَعْرِفَهُ؟

أجاب يَسوع: «إنه لا يأتِى فى زمنِكُم، بل يأتى بَعْدكم بعِدَّةِ سنين حينما يَبْطلُ إنجيلى، ولا يكادُ يُوجد ثلاثون مؤمنًا، فى ذلك الوقتِ يرحمُ اللهُ العالَم، فيرسلُ رسولَه الذى تَسْتقِرُّ على رأسِه غمامةٌ بيضاء، يَعرِفُه أحدُ مُختارى اللهِ - أى بَحِيرى الراهب - وهو سَيُظْهِرُه للعالَم، وسيأتى بقُوةٍ عظيمةٍ على الفُجَّار، ويُبيد بيده عبادةَ الأصنام من العالَم، وسينتقم من الذين سيقُولون: إنِّى أكبرُ مِن إنْسان».

❋ ومن صفته ﷺ فى الإنجيل:

مِمَّا أوْحَى اللهُ إلى عِيسى عليه السلام: «بَلِّغ مَن بَيْنَ يَدَيْكَ أنِّى أنا اللهُ الحى القيُّوم الذى لا أزولُ، صَدِّقوا النبى العربىَّ الأمىَّ صاحبَ الجَملِ والمدْرَعةِ والعمامة - وهى التاجُ - والهراوةِ - وهى القَضِيبُ أو العصا - الجَعْدَ الرأس الصلْتَ الجَبين، المفروقَ الحاجِبَين... إلخ».

وصاحب الجمل أو راكب الجمل: تُستعمل كنايةً عن «العربى» فى بادية العرب، وحين يقال: «راكب الحمار» فهى كناية عن «الشامى» ونحوه من أهل الزرع والأرض الخضراء.

❋ وفى التوراة:

وَمِمّا جاء فى التوراة مِمّا رواه التابعى الفقيهُ عطاءُ بنُ يَسارٍ عن عبد الله ابنِ سَلامٍ وكان حَبْرًا يهوديًا ثم أسلم بعد وصول النبى ﷺ إلى المدينة قال: «إنَّا لَنَجِدُ صِفَةَ رسولِ اللهِ ﷺ فى التوراة: «إنَّا أرْسَلْنَاكَ شاهِدًا وَمُبشِّرًا وَنذِيرًا وَحِرْزًا للأمِّيِّين، أنت عَبدى ورسولى، سَمَّيْتُه المتوكِّلَ، ليس بِفَظٍّ ولا غَليظٍ ولا صَخَّابٍ فى الأسواق ولا يَجْزى بالسيِّئة مِثْلَها ولكن يَعفُو ويغفرُ ويتجاوزُ، ولن أقبِضَه حتى يُقيمَ المِلَّةَ المُتعوِّجة، بأن يَشهدوا: أن لا إلهَ إلا اللهُ، يَفْتَحُ اللهُ به أَعْيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا».

❁ وفى الزبور:

وَمِمّا جاء من صفته ﷺ فى الزَّبور كما روى وهبُ بن مُنبِّه:

«يا داودُ، إنه سيأتى من بَعدِك نبى يُسَمَّى أحمدَ ومحمدًا صادقًا سيِّدًا لا أغضبُ عليه أبدًا، ولا يُغضِبنى أبدًا، وأُمَّتُه مرحومةٌ، يا داودُ، إنه من لَقِينى من أمَّةِ محمدٍ يَشهدُ أن لا إلهَ إلا أنا وَحْدى لا شريكَ لى صادقًا بها، فهو مَعِى فى جَنَّتى وَكرامتى، وَمَن لَقِيَنى وقد كَذَّب محمدًا، وكَذَّب بما جاء به، واستهزأ بكتابِى صببتُ عليه فى قبره العذابَ صَبًّا، وضربتِ الملائكةُ وجْهَه وَدُبُرَهُ عِند مَنْشرِه من قبره، ثم أُدْخِلُه فى الدَّركِ الأسفلِ من النَّار».

❁ حدِّثْنا عن نفسِك يا رسولَ الله:

وَرَدَ كما فى سيرة ابن هشامٍ وغيره أنَّ نفرًا من أصحاب رسولِ الله ﷺ قالوا له: «يا رسولَ الله أخْبِرنا عن نفسك؟ قال: نعم، أنا دعوَة أبى إبراهيمَ، وَبُشرَى أخى عيسى، ورأت أُمِّى حين حَمَلَتْ بِى أنه خرَجَ منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام..».

أمَّا الدعوةُ المباركة المستجابةُ فهى دَعوةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام وهما يَرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة).

وأمَّا بُشْرَى عيسى عليه السلامُ فَهى قولُه لِبَنِى إسرائيلَ مبشرًا بالنبى الأُمى العربى المنتظَر: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف).

وفى الصِّحاح عن جُبير بنِ مُطعم - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لى خمسةُ أسْماء: أنا محمدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الحاشرُ الذى يُحْشَرُ

الناسُ على قَدَمَى - أى يُحشرون بعده - وأنا العاقبُ - والعاقبُ الذى ليس بعده نبى - وأنا الماحِى. أى الذى يَمحو اللهُ به الكفر».

وفى مسلم عن واثلةَ بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ الله اصطفى كِنانةَ من وَلَدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشًا مِن كِنانةَ، واصطفى من قريش بَنى هاشمٍ، واصطفانى من بنى هاشم».

* * *

ومِمّا جاء فى الكتب السابقة على ألسنة بعض الأنبياء:

النبى العربى المُنتظر: «تُضىء لوَجْهِهِ الأرضُ، وتُحْمَلُ خَيلُه فى البحر» إشارة إلى عموم رسالته واتّساع الفتوح الهادية.

«المُتَنبى حبقون» زمن «دانيال النبى عليه السلام»

«أحمدُ، يَحْمَدُ اللهَ حمدًا حديثًا - أى مُتجدِّدًا مستمرًّا - يأتى من أقصَى الأرض، يُفْرِح البَرِّيَّةَ وسُكّانها يُهلِّلُون الله على كلِّ شَرَف، ويكبِّرونه على كلِّ رابيةٍ».

«شعيا عليه السلام»

كتاب «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزى

إشارة إلى ذيوع رسالته فى جوانب الأرض وأطرافها.

البرِّيَّة: الأرض بتضعيف الراء مكسورة، وتضعيف الياء مفتوحة.

من أعزّ الأيّام وأزكاها

إنه يومُ الاثنين لاثنتى عشرةَ ليلةً خَلَت من ربيع الأول من عَام الفِيل وكان الكونُ كلُّه يَستقبلُ فيه أكرمَ مولودٍ، وأشرفَ إنسانٍ، وأفضلَ أبناءِ آدمَ جميعِهم. . . والناسُ كلُّهم فى أشدِّ الحاجة إلى المُخلِّص من الآلام والمُنقذ من التعاسة والشقاء:

يقول الصحابى الجليل حَسَّان بنُ ثابت:

تَاللهِ ما حَمَلَتْ أُنْثَى وَلا وَضعَتْ ... مِثْلَ الرسولِ نَبى الأمَّة الهَادِى
وَلا بَـرا اللهُ خَلْقًا مـن بَرِيَّتِـه ... أوْفَـى بِذمَّـة جَـارٍ أوْ بِمِيـعـادِ
مِنَ الَّذى كَانَ فينَا يُستضَاءُ بِه ... مُبَـارِكَ الأمْـرِ ذَا عَـدْلٍ وإرْشَـادِ

وكان لسانُ حالِ الدنيا كلِّها يترنَّم ويقول:

«الحمدُ للهِ فى الأعالى، وَعَلَى الأرضِ إسلامٌ، وفى النَّاسِ أحمدُ»

وعاش ﷺ حياتَه المباركةَ يحفظُه ربُّه، ويرعاه، ويصونُه من أقذار الجاهليةِ، ومن الأخلاق التى تُدَنِّسُ الرجالَ، فَشَبَّ وقُورًا، حليمًا صادقًا، عفًا، أمينًا، عالى الهِمَّةِ، طاهرَ الذَّيْلِ، رَحيمًا، بَرًا فكانت قلوبُ مَنْ حَوْلَه تَتَعَلَّقُ به، وَتُحِبُّه، وكان الكِبارُ ينظرون إليه نَظَرَ إكبارٍ وتقديرٍ واحترام:

وهذا مالكُ بنُ عوفٍ - رضى الله عنه - يقول فى الحبيب المصطفى ﷺ:

مَا إنْ رَأيتُ ولا سَمِعْتُ بِمِثْلِه ... فى النـاسِ كلِّهم بِمِثْل مُحمَّدِ

* * *

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ (التغابن)

الرسالة المباركة

وفى نحو الأربعين من عمره المُباركِ جاءه الوحْى لسبعَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من رمضانَ المباركِ وهو فى غار حِراء على ما اعتَادَ كلَّ عامٍ حيث يخلُو فى قِمّةِ هذا الجبلِ، يُفَكِّر فى ملكوت السموات والأرض ويتَّجه بقلبه إلى الخالق المُدبِّر الإلهِ الواحدِ، يسأله الهدايةَ والنورَ والرشادَ للقيام بحقِّ الشكرِ له سبحانه وتعالى على ما أنعم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ (الضحى).

وكانت رسالتُه ﷺ هى الرسالةَ العامة الخالدةَ، والنعمةَ التامةَ، بها عَرف الناسُ الطريقَ إلى كلِّ خيرٍ وهُدًى وأمن، وعرف الإنسانُ مكانتَه من الوجود، وَصَحَّت نظرتُه إلى الكون المُحِيط به، وعرف حقوقَ خَالقِه وما يجبُ له سبحانه وتعالى من إفراده بالإلهيةِ والتقديس والتعظيم وعاش الناسُ فى ظلال الإسلام إخوةً مُتعاونين مُتساندين مُتحابِّين يَسْعَوْنَ فى الأرض لإصلاحها، وعمارتِها، ونشْرِ العدلِ والعِلْمِ والأمنِ والمساواةِ بين الناس.

إلى الرفيق الأعلى:

وكما كانت ولادتُه ﷺ يومَ الاثنين، فكذلك كانت وفاتُه، وفى رِقَّة الوفاءِ والحبِّ والألم يُقدِّم لنا حَسَّانُ بنُ ثابتٍ الأنصارى - رضى الله عنه - قَلبَهُ الحَزين فيقول هذا الصحابى الكريم:

بِأبِى وَأُمّى مَنْ شَهِدتُ وَفَاتَهُ ... فى يوم الاثنينِ النبى المُهتَدِى
يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَاركِ بِكْرُها ... وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأسْعُدِ
نُورًا أضاءَ على البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... مَن يُهْدَ للنُّورِ المُبَاركِ يَهْتَدِى
يَا ربِّ فاجْمَعْنَا معًا ونَبِيَّنا ... فى جَنَّةٍ تَثْنِى عُيُونَ الحُسَّدِ
فى جَنَّةِ الفِرْدوسِ فاكْتُبْهَا لَنَا ... يَا ذَا الجَلالِ وذا العُلا والسُّودَد
صَلَّى الإلهُ وَمَن يَحُفُّ بِعرْشِهِ ... والطَّيِّبُون عَلَى المُبَارَكِ أحْمد

ويقول حسَّان - رضى الله عنه - فى قصيدةٍ أخرى:

وَمَا فَقَد الماضون مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلُه حتى القيامةِ يُفْقَد
أعفَّ وأوفَى ذِمَّةً بعد ذِمَّةٍ ... وأَقْربَ منه نائِلًا لا يُنكَّد

[(النائل): الجودُ والعطيَّةُ وما يُنال ويُدْرَك، و (لا يُنكَّد): لا يصيبه كدَرٌ، فهو ﷺ أعفّ الناس وأوفاهم بالعهد وليس فى الناس من هو أجود ولا أسخى نفسًا منه بالخير الذى لا يشوبه كدرٌ ولا سُوء] إلى أن يقول:

وليس هواى نازِعًا عن ثَنائِه ... لَعَلِّى به فى جَنَّة الخُلد أخلد
مع المصطفى أرجُو بذاك جِوارَهُ ... وفى نَيْلِ ذاك اليومِ أسعَى وأجهد

❋ **الكلام يحلو ويطيب:**

والكلامُ يحلو ويطيبُ عن الهادى الحبيب ﷺ ومَهْمَا طال فإنه يزدادُ حلاوةً وطيبًا وَيُشَوِّقُ النفوسَ المحبَّةَ المخلصةَ إلى معالى الأمور، ومكارمِ الأخلاق، ويشوِّقُها إلى كلّ نافعٍ وجميلٍ من الفضائل والآداب.

فيا ربِّ انفَعْنا بسيرته، وارزقنا حُسْنَ الاقتداءِ به، واجْزه عَنَّا خَيْرَ الجَزاء واجْعَلْه شَفِيعَنا يومَ الدِّين، واحشُرنا تحت لوائِه، وصلِّ وسلِّم وَبَارِكْ عليه صلاةً وسلامًا وبَركةً لا ينقطعُ أريجُها، وتدومُ ما بَقِيَت السمواتُ والأرض، وتفضَّل علينا بثوابها - يا ربّ - يومَ الدين،

إنك سميع مجيب دعوات الضارعين.

❋ ❋ ❋

«وهو ركْنُ المُتواضعين، وهو نورُ اللهِ الذى لا يُطفَأ حتى يُثبِّتَ فى الأرض حُجَّتِى، وينقطعَ به العُذر، وإلى تَورَاتِه ينقادُ الجنُّ» «شعْيا»

أى: يؤمن بالقرآن الكريم من أراد الله به خيرًا من الإنس والجنِّ فرسالتُه عامّة.

طَلَعَ الليلة نجمُ أحمدَ ﷺ
ومن البشارات بالهادى الحبيب

وفى الليلة المُباركةِ نادى رجلٌ من أهل الكتاب قائلًا: «طلَع الليلةَ نجمُ أحمدَ»: أمّا الليلةُ فهى ليلةُ الثانى عشرَ من شهر ربيعٍ الأول عامَ الفيل، وأمّا قائلُ هذه العبارةِ فهو حَبْرٌ يهودى، سَمِعَه حسانُ بنُ ثابت، يَصْرُخ بأعلى صوتِه على حِصْنٍ بيثربَ: يا معشَرَ يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له ويْلك، مالَكَ؟ قال طلَع الليلةَ نَجمُ أحمد الذى به وُلِد[1] وكان حسانُ - رضى الله عنه - وقتها غُلامًا ابنَ سبعِ سنين أو ثمانٍ ويعقلُ كلَّ ما سَمِعَ كما حَدَّث عن نفسه.

وكان أهلُ الكتابِ يعلمون أنّ نبيًّا من العرب قد قَرُبَ زمانُه ويترقبون مولدَه، وينتظرون بعثَتَهُ، ولهم فى ذلك علاماتٌ بكتبهم قد عرفوها، قال ابنُ إسحاقَ: وحدَّثنى عاصمُ بنُ عمرَ بنِ قتادةَ عن رجالٍ من قومه قالوا: «إن مِمّا دعانا إلى الإسلام مع رحمةِ الله تعالى وهُداه لنا، ما كُنَّا نسمعُ من رجالِ يهود، كنا أهلَ شركٍ أصحابَ أوثانٍ، وكانوا أهلَ كتاب عندهم عِلمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمانُ نبى يُبعثُ الآن نقتلُكم معه، قَتْلَ عادٍ وَإرَم، فكنَّا كثيرًا ما نسمعُ منهم ذلك فلما بُعث رسولُ الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنَّا به، وكفروا به، ففينا وفيهم

---

(١) لعل طلوع نجم أحمد الذى عرفه علماء اليهود وكانوا يترقبونه هو المقصود بما جاء فى علم الفلك من حساب «اقتران زُحل ومرِّيخ فى بُرج عقرب الذى حدث على قول علماء الفلك عام ولادة النبى محمد ﷺ وقبلها بقليل، واستدلوا به على قرب ظهور ملة الإسلام فى تلك الفترة»، وقد جاء ذلك فى بحث محمود باشا بن حمدى الفلكى المصرى لتعيين يوم ولادته ﷺ وانتهى البحث إلى أنه كان يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول الموافق ٢٠ من أبريل عام ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام - والله أعلم - (كتاب تاريخ القرآن) للزنجانى الدمشقى.

نزلت هؤلاء الآياتُ من سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة).

وَحَدّثَ سلمةُ بنُ سلامةَ الأنصارى - رضى الله عنه - قال: «كان لنا جارٌ يهودى، فخرج علينا يومًا من بيته حتى وقف فى جمعٍ من الناس، وأنا يومئذٍ مِنْ أحْدَثِ مَنْ فيهم سنًّا، فذكر اليهودى القيامةَ والبعثَ والحسابَ والميزانَ والجنةَ والنار؛ قال سلمة: فقال ذلك لقومٍ أهلِ شركٍ وأوثانٍ لا يرون أن بعثًا كائنٌ بعدَ الموت، فقالوا له: ويحك يا فلانُ أو تَرَى هذا كائنًا؟ قال: نعم، فقالوا: له وَيْحَك يا فلانُ، وما آيَةُ ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوثٌ من نحوِ هذه البلاد وأشار بيده إلى مكةَ واليمن، فقالوا: ومتى نراه؟ قال سلمةُ: فنظر إلى وأنا من أحدثِهم سنّا، فقال: إنْ يَستَنْفِدْ هذا الغلامُ عُمرَه[1] يدركْه، قال سلمة: فواللهِ ماذهب الليلُ والنهارُ حتى بعث اللهُ محمدًا رسولَ الله ﷺ، واليهودى حى بينَ أظهرِنا فآمنَّا به وكفر به بغيًا وحَسَدًا».

ولما حاصر الرسولُ ﷺ بنى قريظةَ - مُنْصرَفه من غزوة الخندق - قال جماعةٌ من شبابهم: يا بنى قريظةَ واللهِ إنه للنَّبى الذى كان عَهِد إليكم فيه ابنُ الهَيَّبَان، فقالوا ليس به، قالوا: بلى واللهِ، إنه لهو بصفته فنزلوا، (أى: فنزل الذين أراد الله بهم خيرًا) وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالَهم وأهليهم.

[ابن إسحاق من سيرة ابن هشام الجزء الأول].

وابنُ الهيّبان هذا عالمٌ صالحٌ من يهودِ الشام، قَدِم على المدينة المنورة قُبيل الإسلام بسنين، ثمّ لمّا حَضرتْهُ الوفاة قال لقومه:

---

(١) إن يستنفد هذا الغلام عمره يُدْرِكْهُ: المقصود، إن يعش هذا الغلام العمر الذى هو متوسط أعمار جيله وكان ما بين الستين والسبعين فإنه يرى النبى محمدًا ﷺ.

«يا معشر يهودَ، ما ترونه أخرجنى من أرضِ الخمر والخمير إلى أرضِ البؤسِ والجوعِ؟ قال الراوى وهو من يهود المدينة، قلنا: إنَّك أعلمُ، قال: فإنِّى قد قدمتُ هذه البلدةَ أنتظرُ خروجَ نبىٍّ قد قرُبَ زمانه، وهذه البلدةُ مُهاجَرُه، فكنتُ أرجو أن يُبعثَ فأتبعَهُ، وقد أظَلَّكُم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود»، ثُمَّ ذكر لهم شيئًا من علامات نبوته ﷺ.

❁ حال الناس عند مولده:

وُلد رسولُ الله ﷺ بين قومٍ هم أهلُ شركٍ وأصحابُ أوثانٍ شاع فيهم الجهلُ ووقعوا أسرى الأوهام والأباطيل، وكانوا قبائلَ متفرقةً لا تجمعُهم صِلةٌ دينيةٌ، ولا مصلحةٌ اقتصاديةٌ، ولا تضمُّهُم رابطةٌ سياسيةٌ، فكانوا يعيشون فى حيرةٍ وعَمًى، وكانت الحروبُ تَتَّقِدُ نيرانُها بين قبائل الجزيرة عشراتٍ من السنين من جَرَّاءِ سباقِ حصانٍ، أو خيانةٍ فى رِهانٍ، أو نحو ذلك من الأسباب التافهة.

ولم يكن حال الناس خارجَ الجزيرة العربية أحسنَ مِمَّا كانت عليه حالُ العرب فقد انتشرت المساوئُ والمفاسدُ فى كلِّ مكانٍ، وعمَّ الجَهلُ ونشبت العداواتُ، وتوارتِ الفضائلُ، وغرِقَ الناسُ فى بحارِ الضلالِ وصاروا أسرى الأهواءِ حتى ضجَّت الأرضُ مِمَّا تنوءُ به من شرٍّ وبغْيٍ وهمجيةٍ وَعُدوانٍ.

حينئذٍ لَطَفَ اللهُ بعبادِه، فكان مولدُ الهادى الحبيب ﷺ إيذانًا بميلادِ نورٍ جديد، الناسُ كانوا إليهِ فى لَهفٍ شديدٍ، وكان مولده بشيرًا ببعْثِ الخير الذى طال ترقُّبه، إذ قَرُب أوانُ إرسالِ خاتمِ النبيين والمرسلين لينقذَ الناسَ من الضلال الذى خَيَّم على العقول والنُّفوس.

ذلك أنَّ رسالته ﷺ هى الرسالة السماويةُ الخاتمة فلا رسولَ بعده ولا نبىَّ، ورسالتُه عامَّةٌ للإنس من كلِّ جنسٍ ولسانٍ، وللجنِّ، ورسالتُه ﷺ هى النعمة التامَّةُ إذ تضمَّنتْ خيرى الدُّنيا والآخرة.

فما بعث الله نبيًا من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق: لئِنْ بَعَث اللهُ محمدًا، وهو حَى ليؤمِنَنَّ به، ولينصُرنَّه، وأمره أن يأخذَ الميثاقَ على أمَّتِه لئن بُعث محمدٌ وهم أحياءٌ ليُؤمنُنَّ به ولينصُرُنَّه، ولنتدبَّر قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

وإصرى: أى: عهدى.

وجاء فى الحديث عن الهادى الحبيب ﷺ قال: «والذى نَفسِى بيدِه لو أصبحَ فيكُم موسى عليه السلامُ، ثم اتَّبعتُموه وتركتمونى لضَللتُمْ، إنَّكُم حَظِّى من الأمم، وأنا حَظُّكم من النَّبيين».

وجاء فى بعض الأحاديث: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن لَمَا وَسِعَهُما إلا اتِّباعِى»، فهو خاتم الأنبياء ومبعوثٌ للنَّاس أجمعين.

وقد أوجب الله عزَّ وجلَّ فى كتابه العزيز على عبادِه الإيمانَ به ﷺ واتِّباعَه وطاعتَه فهو رسولُ الله إلى النَّاس كافةً وبه ﷺ بشَّر الأنبياءُ الذين بُعِثوا قبلَه عليهم صلوات الله وسلامُه أجمعين، يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأعراف).

وقد جاء فى قصة إسلام زيدِ بنِ سَعْنةَ الصَّحابى العالم الجليل، وكان قبلَ إسلامه حَبْرًا من أحبارِ اليهودِ، أنَّه قال لعمرَ بنِ الخطَّاب - رضى الله عنه -: «لم يَكُنْ من علاماتِ النُّبوةِ شىءٌ إلا وقد عرفتُه فى وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ نظرتُ إليه، إلا اثنتين لم أَخْبُرْهُما منه - أى لم أعلمهما - يسبقُ حِلْمُه جَهْلَه،

ولا تَزِيدُه شِدَّةُ الجهلِ عليه إلا حِلْمًا، وقد خَبَرْتُهُمَا (اختبرتُهما) فأُشْهِدُك يا عمرُ أنِّى قد رَضيتُ باللهِ ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا».

[أخرجه الطبرانى وابن حبان وغيرهما عن «زيد بن سعنة»]

والمقصود بالجهل هنا: الغضب والشدّة.

ومِمّا جاء من البشارةِ بالحبيب المصطفى ﷺ وبيان منزلته عند ربه عز وجل ومكانة الذين آمنوا به ما رواه أبو نعيم فى الحلية: «أوحى اللهُ إلى موسى نبى بَنى إسرائيلَ، أنه من لَقِيَنِى وهو جاحدٌ بأحمدَ أدْخلتُه النَّار، قال: يا ربِّ ومن أحمدُ؟ قال: ما خلقتُ خَلقًا أكرمَ علىَّ منه، ثمَّ قال الربُّ عزَّ وجلَّ: إن الجنَّةَ مُحَرَّمةٌ على جَميع خَلْقى حتى يدخُلَها هو وأمَّتُه».

قال موسى عليه السلام ومَن أُمَّته؟ قال: «الحمَّادُون يَحْمَدُون صعودًا وهبوطًا، وعلى كلِّ حالٍ، يَشُدُّون أوساطَهم، وَيُطَهِّرونَ أطْرافَهُم صائمون بالنَّهارِ، رُهْبانٌ بالليل، أَقْبَلُ مِنهم اليسيرَ، وَأُدْخِلُهم الجنَّةَ بشهادة أن لا إلَهَ إلا اللَّهُ». وهذا من فضلِ اللَّهِ عز وجلَّ على أمَّة محمَّدٍ ﷺ فهو سبحانه وتعالى يقبلُ منهم اليسيرَ أى لا يكلِّفُهم بالتكاليف الشاقّة، ويدخلُهم الجَنَّةَ بشهادَتِهم أنْ لا إله إلا اللَّه، وأن محمَّدًا رسولُ اللَّه وبالعملِ بمقتضى هذه الشهادة.

وقد رُوى فى معنى ما سبق: «اسمُه أحمدُ، صفتُه المتوكِّلُ، مولدُه مكة، ومُهَاجَرُه طَيْبَةُ، ليس بِفَظٍّ ولا غليظٍ، يَجْزى بالحسنةِ الحسنةَ ولا يكافئُ السيئةَ بالسيئة، أمَّتُه الحمَّادون، يأتزرون على أنصافهم ويُوضِّئُون أطْرافَهُم، أناجيلُهم فى صدُورهم، يُصَفُّونَ للصلاةِ كما يُصَفُّونَ للقتالِ، قُربانُهم الذى يتقرَّبون به إلىَّ دماؤُهم، رُهبانٌ بالليل، لُيوثٌ بالنَّهار».

❁ الوحى الإلهى (وسيناء، وساعير، وفاران):

ومن البشارات بنبوته ﷺ وبيانِ أن دينه هو الدينُ العامُّ لسائر البشر من عربٍ وعجمٍ، وأبيضَ وأحمر، وأصفرَ وأسودَ ما جاء فى التوراة التى أنزلت على موسى بنِ عمران - عليه السلام - ومن ذلك: «جاء اللهُ من سيناء، وأشْرَق من ساعير، واستعلن من فاران» (وفى الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى تمَّ نقلُ كثيرٍ من هذه البشارات) أى جاء دينُ الله من «طور سيناء» بنزول الوحى بالرسالة على موسى - عليه السلام - حين عودته من مدين فى طريقه إلى مصر - حرسها اللهُ - ثم أشارت هذه البشارةُ إلى نزول الإنجيل بعد ذلك على عيسى ابن مريم فى «ساعير» وهى التى بها قريةُ «الناصرة» بفلسطين - حماها اللهُ وطهَّرها من كل شرٍّ وسوءٍ - ثم إلى ظهورِ خاتمةِ الرسالاتِ السماوية بنزول الوحى «بفاران» وهى جبالُ مكةَ المكرمةِ، وعبارةُ: «استعلن من فاران» تدل على عموم رسالةِ الإسلام كالشَّمس التى ارتفعت بعد الإشراق ثمَّ أرسلت أنوارها فى المشارق والمغارب، وفى سائر الآفاقِ فأشرقت الأرضُ كلُّها بنور هدايةِ الإسلام، ولقد انتشر بالفعل ضياءُ هذه الدعوة المباركة، بسرعةٍ لا مثيلَ لها فى تاريخ الأديانِ من بدء البعثة المباركةِ وانضوى تحت لوائها النَّاسُ من كلِّ لسانٍ، منهم كما نرى: العربيُّ والفارسيُّ والهنديُّ والروميُّ والأمريكيُّ والتركيُّ والإفريقيُّ والآسيويُّ والأوربيُّ وغيرهم من سائر الأجناس.

ومِمَّا أوحى اللهُ به إلى عيسى - عليه السلامُ - «. . . بَلِّغ مَن بَيْنَ يَدَيْك أنِّى أنا القائمُ الذى لا أزولُ، صَدِّقوا بالنَّبىِّ الأمِّىِّ العَرَبىِّ. . .».

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «مكتوبٌ فى الإنجيلِ: لا فظٌّ ولا غَليظٌ، ولا صخَّاب فى الأسواق، ولا يَجْزِى بالسيئة مثلَها بل يَعفُو ويصفح. . .». [أخرجه الترمذى]

وفى الزَّبُور أوحى اللهُ - تعالى - إلى داودَ - عليه السلام - كما ذكر وهبُ ابنُ مُنبِّه: «يا داودُ إنه سيأتى من بعدِك نبىٌّ اسمه أحمدُ ومحمَّدٌ صادقًا سيدًا لا أغضبُ عليه أبدًا، ولا يُغضِبُنى أبدًا»..

❋ والنَّجاشىُّ ملك الحبشة تحدّث:

عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال: «سمعتُ النَّجاشىَّ صاحبَ الحبشة يقول: «أشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّه، وأنَّه الذى بَشَّر به عيسى - عليه السلام - ولولا مَا أنا فيه من المُلكِ، وما تَحمَّلتُ من أمور النَّاس لأتيتُه حتى أحملَ نَعْلَيه».

رسالته عامة: إنَّ النَّجاشىَّ الذى تلقَّى المهاجرين من أصحاب النَّبىِّ ﷺ كان كتابيًّا على دينِ عيسى بن مريم - عليهما السلام - وعلى عِلْمٍ بما جاء فى الإنجيل من صفات النبىِّ العربىِّ الذى سيُبعثُ فى آخر الزمان، وأنَّ رسالتَه هى خاتمةُ الرسالات السماوية، وأنه لا نبى بعده، وأن دينَه هو الدينُ العامُّ إذْ بِعْثتُه للنَّاس جميعِهم على اختلاف ألسنتهم ومواطنهم، كما كان النَّجاشىُّ يعلم من الإنجيل أن أتباعَ الأنبياءِ الذين أُرسلوا قبل النَّبى محمَّدٍ ﷺ مأمورون باتِّباع النَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ إذا هم أدركوه، وأنَّ عليهم أن يكونوا جندًا مخلصين للَّه ينصرون دينه، ويجاهدون مع نبيه محمَّدٍ ﷺ لإعلاء كلمة اللَّه، وهذا مضمون الميثاق الذى أخذه اللَّهُ على جميع النبيين وجاء ذِكرُه فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

فقد حمَل الأنبياءُ تَبعاتِ عهدِهِم مع اللَّهِ بالتَّصديق بنبوة محمَّدٍ رسول اللهِ ﷺ والجهاد معه والنَّصر له مِمَّن خالفَه، وقد أدَّى الأنبياءُ هذا العهدَ إلى مَن

آمن بهم وصدَّقهم، وكان أهلُ كلِّ كتابٍ سماويٍّ يَعرفون أنَّ نبيًّا عربيًّا سيُبعث فى آخر الزمانِ وأنَّ على مَنْ يدركه أن يدخلَ فى دينه، وقد قال عيسى - عليه السلام - لقومه كما جاء فى كتاب اللَّه - عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف).

وفى التوراة: وجاءت الإشارة فى كتاب اللهِ - عزَّ وجلَّ - إلى عِلْم بنى إسرائيل بصفة النبىِّ محمَّدٍ ﷺ وما أخذه اللَّه على موسى - عليه السلام - من الميثاق، ومع هذا آمن منهم القليلُ وجحَد الكثير حسدًا وكبرًا، ولنسمع اللَّه - عزَّ وجلَّ - يقول فى بنى إسرائيل: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾

(البقرة، آية: ٨٩).

أى أنَّهم كانوا يستنصرون على مشركى العرب، إذ كان بنو إسرائيل يقولون للمشركين: إنَّه قد تقارب زمانُ نبىٍّ يُبعث الآن نقتلُكم معه قَتْلَ عادٍ وإرمَ. فاليهودُ قبل ظهورِ النبىِّ ﷺ كانت تقعُ بينهم وبين العربِ فى المدينة وما حولها حروبٌ ومشاحناتٌ، وكانوا أهلَ كتابٍ وهو التَّوراةُ، والعربُ لم يكن لهم كتابٌ سماوىٌّ، فكان اليهودُ يقولون للعرب ذلك، أى أنَّ النَّبىَّ العربىَّ قَرُبَ زمانُه وأنَّهم سَيتَّبعُونه فيصيرون باتِّباعه قوةً ويقضون على مَن يَبقَى على شِرْكه من المشركين، ولكنَّ اليهود حسدوا وبَدَّلوا، وخُذِلَ معظمُ أهلِ الكتاب وأهلِ العلم منهم خِذْلانًا عظيمًا لضلالهم بعد أن ظهر النَّبىُّ محمَّدٌ ﷺ وقد وبَّخهم القرآنُ العظيم على هذا الضلالِ المبينِ وعلى طرحهم التوراةَ وراءَ ظهورهم، أى على عدم مبالاتِهم بما جاء فيها من الأمر باتباع النَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ ولنسمع اللَّه - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾. (البقرة).

وفى الحديث الشريف: (عن عموم رسالته ﷺ).

قال رسول اللَّه ﷺ: «والذى نفسُ محمَّدٍ بيده، لا يسمعُ بى أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموتُ، ولم يؤمنْ بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أهل النَّار» [رواه أبو هريرة].

والمراد بالأمّة فى الحديث الشريف أمّةُ الدعوة من الإنس والجنِّ فكلُّ من علم بمبعثه ﷺ سواء كان موجودًا فى زمنه أم وُجِدَ بعده إلى يوم القيامة وجب عليهم الإيمانُ به وتركُ ما هم عليه من يهوديةٍ أو نصرانيةٍ أو غيرهما، لأنَّ شريعته ناسخةٌ لباقى الشرائع ولا نبىَّ بعده.

وإنما خصّ فى الحديث اليهودىَّ والنصرانىَّ وإن كان الحكمُ عامًّا يتناول غيرهما، لأنَّ اليهود والنصارى لهم كتابٌ سماوىٌّ، فإذا كان هذا شأنَهُمْ فغيرُهم ممَّن لا كتابَ لهم أولى.

صلى الله وسلم على رسول الرحمة دعوةِ أبيه إبراهيمَ وبُشرى أخيه عيسى، عليهما السلام.

❋ أدّبه ربه وحفظه:

لقد شبَّ رسولُ اللَّه ﷺ فى بيئةٍ جاهليةٍ ولكنَّ الله - عزَّ وجلَّ - كلأه بعنايتِه وحَفِظَهُ من أقذار الجاهليةِ وطهَّره من دَنَسِها، لِمَا يُرِيدُ به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أنْ كان رجلًا فكان ﷺ أفضلَ قومِه مُروءَةً وأحسَنَهُم خُلُقًا، وأكرَمَهُم حَسَبًا، وأحسنَهم جِوارًا، وأعظمَهُم حِلْمًا وأصدقَهُم حديثًا، وأعظمَهُم أمانةً، وأبعدَهُم عن الفُحْش والأخلاقِ التى تُدَنِّسُ الرِّجال، تنزُّهًا وتكرُّمًا، كما كان ﷺ أتمَّ الناس أدبًا حتى ما كان اسمُه بين قومِهِ إلا الصادقَ

الأمينَ، لِمَا جَمَعَ اللهُ فيه من الأمور الصالحةِ، والأخلاقِ العاليةِ الفاضلةِ.

إن الحبيبَ الهادى ﷺ بعثه اللّه على فترةٍ من الرُسل فترةٍ ضَلَّ فيها النَّاسُ، وفقدوا رشادَهم، وهاموا فى أودية الأباطيلِ، فاصطفاه ربُّه واختاره من بين عباده ليُبَلِّغَهُم آخرَ كتبِه ويَهديَهم بآخر شرائعِه فكان ﷺ النُّورَ للضَّالين الحيارى بصَّرَهُم سبيلَ النَّجاةِ وطريقَ الحقِّ والفلاح، وكان الرحمة المهداةَ للعالمين الذين قست عليهم الحياةُ، أنقذهم اللّهُ به فعرفوا ربَّهم وعبدوه، وعرفوا الخيرَ وأحبُّوه، وآمنوا بالحقِّ ونصروه، وقدَّروا العدلَ ورفعوا منارَه، أدركوا قيمةَ العلم، وبَنَوْا صروحَه، وعاشوا على الحبِّ والإخاء والسلام.

صلاةُ الله ورحمتُه وبركاته على رسول الحبِّ والحقِّ والخير والهدى.

أخرج البخاريُّ بسنده، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما-: إنَّ هذه الآية التى فى القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الأحزاب).

قال فى التوراة: «يأيُّها النَّبىُّ إنَّا أرسلناكَ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأُمِّيِّين، أنت عبدى ورسولى، سمَّيْتُكَ المتوَكِّلَ، ليس بفَظٍّ، ولا غليظٍ ولا صخَّابٍ بالأسواق، ولا يدفعُ السّيئةَ بالسيّئة، ولكن يعفو، ويصفح ولن يَقْبِضهَ اللّهُ حتى يُقيمَ به الملَّةَ العوجاءَ، بأن يقولوا: لا إلهَ إلا الله فيفتحَ به أعينًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا»..

وصَلَّى اللهُ على خاتم رسله وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

والحمد للّه على نعمة الإسلام.

روى ابن سعد عن عمر بن حبَّان الكلبىّ أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «أنا النَّبىُّ الأمِّىُّ، الطَّاهرُ الزَّكىُّ، الويلُ لمَن كذَّبنى وتولَّى عنِّى، وقاتلنى، والخيرُ لمن آوانى، ونصرنى، وآمَن بى، وصَدَّقَ قولى، وجاهد معى».

الثّناء على المخلصين من علماء أهل الكتاب

وكما جاء التوبيخُ فى القرآن لعلماء السوءِ لأنَّهم نبذوا التوراةَ، وكفروا بمحمَّدٍ الهادى ﷺ مع عِلْمهم بِصدْقِه فقد جاء أيضًا الثَّناءُ على مَن آمن منهم بالنَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ ومنهم أبو يوسف عبدُ اللّه بنُ سلام، وكان حَبْرًا يهوديًّا قبل إسلامِه، وزيدُ ابن سَعْنة وكان حبرًا عالمًا، وتميم الدَّارى - أو تميم الدَّيرى - نسبة إلى الدَّيْر وهو معبد النَّصارى[١] وكان على النَّصرانية عند ظهور الإسلام وغير هؤلاء، وفيهم يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾(القصص).

وهذا الثَّناءُ على الذين كانوا يؤمنون بالإنجيل ويؤمنون بالتَّوراة قبل نزولِ القرآنِ الكريم فلمَّا أنزل اللَّهُ القرآنَ آمنوا به وصَدَّقوا نبيه محمَّدًا ﷺ، وحين كانوا يسمعون القرآنَ يتلى عليهم قالوا: صَدَّقنا بما فيه إنَّا كنَّا من قبل نزوله ومن قبل بعثةِ النَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ مُوَحِّدِين ومؤمنين بأنَّه سَيُبْعَثُ محمَّدٌ النَّبىُّ العربىُّ الأُمِّىُّ، وينزِلُ عليه كتابٌ سماوىٌّ، وبشَّرهم رَبُّهم لذلك بالوعد بمضاعفة الثَّواب لتصديقهم بما أنزل اللّه من الكتب قبل القرآن ثمَّ لإيمانهم بالقرآن فقال سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (القصص، آية: ٥٤).

---

(١) تميم الدارى نسبة إلى دار وهى إحدى البطون العربية القوية التى استوطنت فلسطين بعد انهيار سدِّ مأرب باليمن، ويقال: الديرى أيضًا لأنه كان على النصرانية يتعبد فى الدير، وكان أحد ستة - على الراجح - وفدوا إلى مكة المكرمة فى التاسع للبعثة وبايعوا النبى محمدًا ﷺ قبل هجرته إلى المدينة ثم عادوا إلى موطنهم فى بيت لحم أو بجوار القدس فى قرية «عينون» ينشرون الإسلام فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة، هاجر تميم الدارى إليها وعاش فيها حتى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه، ثم رأى العودة إلى فلسطين حتى لقى ربه فيها فهو فلسطينى من السابقين إلى الإسلام. وبيت لحم، أصلها بيتُ لخم بالخاء المعجمة نسبة إلى لخم القبيلة العربية التى ينتمى إليها الداريون أجداد تميم رضى الله عنه وأرضاه. «راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق «المجلد الخامس والستين» ٦/عام ١٤١٠هـ /١٩٩٠م».

صلاةُ اللّه وسلامه على رسولِ اللّهِ، لقد كان مولده بشيرًا بالخيرِ والهُدَى والفَلاح، وبعد أن طال على الدنيا دُجَاها، وكان نبيُّ الهُدَى ﷺ الرحمةَ المُهداةَ، بعثه ربُّه بأكمل دينٍ، لينقذَ البشرَ من الحيرة والضَّلالِ والعَمَى ويهديهم إلى صراطِ النُّورِ والسَّعادة.

* * *

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

[المائدة]

الكتاب المبين: القرآن الكريم. والنور: هو محمَّدٌ ﷺ وهو السِّراج المنير. وإنَّ العطف بالواو يقتضى المُغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، لذا قال بعض أهل العلم بما سبق.

قال المؤرِّخ وهب بن مُنبِّه: «قرأت عددًا من كتب الأقدمين، فوجدتُ فى جميعها أنَّ الله تعالى لم يُعْطِ جميعَ الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جَنْبِ عقله ﷺ إلا كحبَّةِ رَمْلةٍ بينَ رمْلٍ من جميع رمالِ الدنيا، وأنَّ محمَّدًا ﷺ أرجح الناسِ عقلًا وأفضلهم رأيًا».

[رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عساكر].

فى أسماء النبىّ ﷺ

قد رُوى أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال: «اسْمى فى التوراة «أحيدُ» لأنى أُحيدُ أُمَّتى عن النَّار، واسمى فى الزَّبور «الماحِى» محَا اللهُ بى عبدةَ الأوثانِ، واسمى فى الإنجيل «أحمدُ»، واسمى فى القرآن «محمَّدٌ» لأنِّى محمودٌ فى أهل السماء والأرض».

ومعنى أحمد: أنه ﷺ أحمدُ الحامِدينَ لِربِّه والأنبياءُ - صلواتُ الله عليهم - كلُّهم حامدون اللَّه، ونبيُّنا أحمدُ أكثرُهم حمدًا، وسمَّاه اللَّه محمَّدًا قبل أن يسمِّى به الرَّسولُ نفسَه، وقبل أن يسمِّيَه أحدٌ من النَّاس لأنَّ كلام اللَّه قديمٌ وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران، آية: ١٤٤).

وقال عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح، آية: ٢٩).

وهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ وقد جاء اسمه صادقًا عليه بفضل اللَّهِ فهو محمودٌ فى الدنيا لِمَا هَدَى إليه ونَفَعَ بِه من العِلْم والحكمةِ ولِمَا كان عليه من الخُلق العظِيم، وهو محمودٌ فى الآخرة بالشَّفاعة بإذن ربِّه.

وقد جاء فى الصحيح: «لى خمسةُ أسماءٍ: أنا محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحِى الذى يمحو اللَّه بى الكفر، وأنا الحاشِرُ الذى يحشَرُ النَّاسُ على قَدَمى، وأنا العاقِبُ». [متفق عليه، رواه جبير بن مطعم].

فهو ﷺ أوَّل من تنشقُّ عنه الأرضُ يوم الحشر، والعاقبُ الذى عقب الأنبياء وجاء بعدهم فلا نبى بعده.

ومن أسمائه الشريفة: الخاتَمُ، ونبىُّ الرحمة، ونبىُّ المَلْحَمَة، ونبىُّ التوبة، والرحمةُ المُهداة، ويس، والمتوكِّل، وحِرزٌ للأمِّيِّين، والفاتِحُ، وقُثَم - أى الجَموعُ للخير - والأمينُ، والصادق، وسمَّاه ربُّه: الرءوفَ الرحيم.

وهو: المُقفِّى، والسِّراجُ المُنير، والشاهد، والمبشِّر، والنَّذير.

والمُقفِّى: هو الذى ليس بعده نبىٌّ.

كلمة ختامية مع:

اليتيم المبارك

أراد اللَّه - عزَّ وجلَّ - أن ينشأ صفيُّهُ محمَّدٌ ﷺ يتيمًا، فتوفِّىَ أبوه عبد اللَّه ابن عبد المطلب وأمُّه حاملٌ به، وقيل توفِّى وللنَّبىِّ ﷺ ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل: كان له سبعةُ أشهرٍ، والأوَّل أثبتُ، وكانت وفاةُ أبيه بالمدينة عند أخواله من بنى عدىٍّ بن النَّجار، وكان عمره عند وفاته خمسًا وعشرين سنةً أو ثمانيًا وعشرين سنة.

إن الدُّرَّةَ اليتيمةَ هى التى ليس لها مِثْلٌ، وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ لا مثلَ له فى بركته ويُمْنِه ومحبةِ القلوبِ له، وإحاطتها به، وحَدبِها عليه سرورًا ورحمةً ورفقًا.

أُحيط ﷺ بقلب أمِّه وقلوبِ حاضنتِه ومرضعته وجدِّه عبد المطلب وكلِّ مَنْ عاش فى يُتْمه بينهم، وهذا من فضل اللَّه ورحمته بعبده محمَّدٍ ﷺ ومن المِنَن التى حباه بها، ولنتدبَّر قوله تعالى لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ وسُئل جعفرٌ الصادق، لم أُوتِمَ النَّبىُّ ﷺ؟ قال: «لئلَّا يكونَ لمخلوقٍ عليه حقٌّ».

لمَّا وُلد النَّبىُّ ﷺ فرح به جدُّه عبد المطلب ودخل به الكعبةَ فقام يدعو اللَّه ويشكرُ له على ما أعطاه، ثمَّ عاد به إلى أمِّه، والتمس له المراضع على ما كان مألوفًا فى قريش وغيرهم من أشراف العرب، إذ كانوا يدفعون أولادهم إلى المراضع لينشأ الطِّفلُ فى الأعْرَابِ، فيكونَ أفْصحَ لسانًا، وأجْلَد لجسمه، وأجدرَ أن يشبَّ صلبَ العودِ سليمَ الحواسِّ.

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرُّضعاء إلى المرضعات الأعرابيات ولقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى قول النَّبىِّ ﷺ لأبى بكرٍ حين سأله:

«ما رأيتُ أفصحَ منك يا رسولَ اللَّه؟ فقال: «وما يمنعُنى؟ وأنا من قريش،

وأُرضعْتُ فى بنى سعدٍ». وكان بنو سعدٍ فى البوادى من أفصح النَّاس بعد قُريشٍ.

❋ الرَّضاع:

وأول من أرضعت النَّبىَّ ﷺ ثُويبةُ وكانت جاريةً لأبى لهبٍ، وكانت قد أرضعت عمّه حمزة، وعبدَ اللَّه بن جحشٍ، وأبا سلمة بن عبد الأسد.

وخرج نسوةٌ من بنى سعدٍ بن بكرٍ يلتمسْنَ الرُّضعاء فى مكة فى سنةٍ عمَّ فيها الجدبُ، وقُحِطَ النَّاس، وجفَّ الضَّرعُ، وهُزِلت البهائمُ وكان فى النِّسوة حليمةُ بنتُ أبى ذُؤيبٍ السعدية: تقول فى وصف ما أصابهم هذا العام: «وما ننام ليلَنا أجمعَ من صبيِّنا الذى معنا من بكائه من الجوع، ما فى ثَدْيىَّ ما يغنيه، وما فى شارِفنا ما يغذِّيه، ولكنَّا كنَّا نرجو الغيث والفرج».

والشارف: هى النَّاقة المسنّة.

❋ حليمة السَّعدية والرَّضيع المبارك:

وتصف حليمةُ ما حدث بعد قدومها مكةَ مع النِّسوة يلتمسْنَ الرُّضعاء تقول: فما منَّا امرأةٌ إلا وقد عُرض عليها رسولُ اللَّه ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنَّه يتيمٌ، وذلك أنَّا كنَّا نرجو المعروفَ من أبى الصبىِّ، فكانت النِّسوةُ يقُلن: يتيمٌ، وما عسى أن تصنع أمُّه وجدُّه! أى: إنَّهُما لا يجودان كما يجود الأب.

وقد حصَلت كلُّ امرأةٍ من بنى سعدٍ على صبىٍّ تُرضعه، وبقيتْ حليمةُ لم تأخذ رضيعًا من قريشٍ، وفى يوم العودة إلى ديار بنى سعد قالت حليمة لزوجها: واللهِ، إنِّى لأكرهُ أن أرجعَ من بين صَواحِبى ولم آخُذْ رضيعًا، واللهِ، لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّه... ثمَّ قالت: وما حملنى على أخذه إلا أنِّى لم أجد غيره.

وكان حظُّها أوفرَ حظٍّ وأعظمَ خيرًا وبركة، فما رأت وأهلُها أيامًا أسعدَ ولا أربحَ ولا أجودَ ولا أبهى من الأيام التى حظيت فيها بوجود محمَّدٍ اليتيم ﷺ فى

بيتها.

❋ من بركات الصَّبىّ:

ومن بركات ويمن الصَّبىِّ المبارك أنَّ ابنها الذى كان لا يجد فى ثَدْيَى أمِّه ما يُغنيه صار من أوَّل يومٍ يرضع مع النَّبىِّ ﷺ حتى يروى.

وتصف ذلك حليمةُ فتقول: «فلما أخذتُ الرَّضيعَ اليتيم رجعتُ به إلى رحْلى، فلمَّا وضعتُه فى حِجرى أقبل عليه ثَدياى بما شاء من لبنٍ فشرِبَ حتى رَوى، وشرب معه أخوه - أى من الرَّضاعة وهو ابنها - حتى روى ثم ناما، وما كنَّا ننام مع ابننا قبل ذلك لجوعه».

وكما سعد الصَّبىُّ الصَّغيرُ بالشِّبع والرِّى من لبن أمِّه سَعِدت حليمةُ وزوجُها بلبن النَّاقةِ المُسنَّةِ الجافَّةِ الضَّرع إذْ قام زوجُها إلى النَّاقة فإذا هى حافلٌ ممتلئةُ الضَّرع، فحلب منها ما شرب، وشربتْ معه حليمةُ حتى شَبِعا ورَويا، فباتا بخيرِ ليلةٍ بعد الجَهدِ والمشقة والصبرِ على الجوع قبل أن يحلَّ الصَّبىُّ المبارك بينهم ﷺ.

تقول حليمة وحين أصبحنا قال صاحبى: «اعلمى يا حليمةُ، لقد أخذتِ نَسَمةً مباركةً، قلت: واللَّهِ إنِّى لأرجو ذلك».

وكان حظُّ حليمةَ وأهلِها موفورًا إذ استضافت أعزَّ الصِّبيان، وأغَرَّ النَّاس طلعةً، وأعظمهم يُمنًا، إذ كانت بركته ﷺ عليهم عظيمةً، لقد تركت حليمة وزوجُها أرضَهم وما تعلمُ أرضًا من أرض اللَّه أجدبَ منها فلمَّا دخلت أرضَها برسول اللَّه ﷺ كانت غنمُها ترجعُ إليها آخرَ كل يومٍ شِبَاعًا لُبَّنًا، فيحلبون ويشربون، وما يحلب أحدٌ فى الناحية قطرةَ لبنٍ ولا يجدها فى ضرعٍ.. تقول حليمة: «فلم نزل نتعرَّفُ من اللَّه زيادةَ الخير حتى مضت سنتاه، وفصلتُه» - أى فطمتُه.

لقد ملأت محبتُه قلوبهم، وبعد الفطام عادوا به إلى أمّه فى مكةَ تقول حليمة: «فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شىءٍ على مُكثه فينا لِما كنّا نرى من بركته» ﷺ.

❋ موت أمه:

ثمّ لمّا رجع ﷺ إلى مكة، كان مع أمِّه وجدِّه فى كَلاءةِ اللّه وحفظه ينبته نباتًا حسنًا لما يريد به سبحانه من كرامته، فلمّا بلغ رسولُ اللّه ﷺ ستَّ سنين تُوفيت أمُّه آمنةُ بنتُ وهبٍ بالأبواء، بين مكة والمدينة ماتت وهى راجعةٌ من المدينة إلى مكة بعد زيارة أخواله من بنى عدىِّ بن النَّجّار.

وعاش الحبيب المصطفى ﷺ فى رعاية اللّه وحفظه فى دار جدِّه عبد المطلب، ثمّ عاش بعد موت جدِّه فى دار عمِّه أبى طالبٍ، ويلْقى فى كلِّ ذلك قلوبًا تُحبُّه، وتُجِلُّه فى أكرم موضع، وشَبَّ سليمَ البدن، تامَّ الحواسِّ، وافرَ العقل، جمَّ الأدب والتّواضع، سديدَ الرأى، صادقَ القول، أمينًا، وقُورًا، ساكنَ النَّفس، عظيمَ الحِلم، يحظَى بتقدير الكبار، واحترام الصِّغار، ومحبةِ النَّاس جميعًا فى مكَّة المكرَّمة، حتى ما كان اسمُه فيهم إلا الصادقَ الأمين!

ونحن نتوسَّل دائمًا إلى اللّه - عزَّ وجلَّ - بمحبَّتنا له سبحانه وبمحبة نبيِّه الكريم وبمحبة كلامه سبحانه ومحبَّةِ جميع الرُّسلِ والأنبياء ومحبة أصحاب رسول اللّه ﷺ وآل بيته أن يغفرَ لنا ذنوبنا وأن يرزقَنا حُسْنَ الاقتداءِ بنبيِّه الكريم، وأن يحشرنا فى أحبابه ورُفقته يوم الدِّين، وأن يسقيَنا من حوضه، وأن يستُرَ عوراتنا ولا يفضحنا يوم العَرض عليه سبحانه، وأن يجعلنا من أهل شفاعته ﷺ (آمين).

عليه الصَّلاة وأبْهَى السَّلام، عليه الصَّلاة وأبْهَى السَّلام، عليه الصَّلاة وأبْهَى السَّلام.

❋ ❋ ❋

الرِّسَالة العَامَّة الخالِدة

وفى الأربعين من عمره المبارك نزل عليه جبريل - عليه السلام - بكلامِ ربِّ العالمين، فيه نورٌ، وموعظةٌ، وشفاءٌ لما فى الصدور.

إنَّه نبىُّ الهُدَى والرحمة بعثه ربُّه بالنِّعمة التَّامَّة، والرِّسالةِ العامَّة الخالدة لينقذَ من الضَّلال، وينيرَ للقلوب والعقولِ بعد ظلامٍ طال، ويبصِّرَ من العَمَى وليجمَع القلوبَ على محبة الحقِّ والخير، وليرطِّب أنفاسَ المحرومين بالعدل، والرِّفق، وليعلِّم النَّاسَ ما آتاه اللَّهُ من العِلم والحكمةِ، والرَّشادِ والسَّدادِ، والشَّرائع ليعملوا بما أمر اللَّه، ويجتنبوا ما نهى اللَّه عنه، فيفوزوا بالحسنيين وينالوا السَّعادتين.

ومن الأحاديث الصحيحة التى جاءت باختصاصه ﷺ بالرِّسالة العامَّة قوله ﷺ: «أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلى: «نُصِرتُ بالرُّعب مَسيرةَ شهرٍ، وجُعِلت لى الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، فأيُّما رجلٍ من أمَّتى أدركته الصَّلاةُ فليصَلِّ، وأُحِلَّت لى الغنائمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبلى، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ وكان النَّبىُّ يبْعَثُ إلى قومه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاس عامَّةً» «رواه جابر بن عبد الله».

وهو ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبىَّ ولا رسولَ بعده يقول عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب).

«اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ عليه وعلى من اهتدى بهديه»..

* * *

روجعت الطبعة الأولى لهذه الرسالة فى أوائل عام ١٤١٥ من الهجرة

أوائل النصف الثانى من عام ١٩٩٤ من الميلاد

أما إعدادها فكان قبل نحو عشر سنوات

«أحمد بن محمد طاحون»

القِسمُ الثّاني :

قُطوفٌ دانِيةٌ
مِنَ السِّيرَةِ الشَّرِيفَةِ الهادِيَةِ

* * *

«الصلاة الإبراهيمية»

«اللهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ على إبرَاهِيمَ وَعَلى آلِ إبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلى مُحمَّدٍ وَعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلى إبْرَاهِيمَ وَعَلى آلِ إبْرَاهِيمَ فِى العَالَمِينَ إنَّك حَمِيدٌ مَّجِيدٌ»

* * *

كلمة بين يَدَىْ هذه الرسالة:

إطلالةٌ على النفس الشريفة

إنَّ علماء الإفرنج الذين درسوا السيرةَ النبويةَ دراسةً واعيةً شاملةً، كان إجماعهم بعد الدراسة على القول: «بأنَّ محمَّدًا ﷺ كان سليمَ الفطرة، كاملَ العقل، كريمَ الأخلاق، صادق الحديث، عفيفَ النَّفس، قنوعًا بالقليل من الرِّزق، غيرَ طموعٍ بالمال، ولا جنُوحٍ إلى المُلك، ولم يُعْنَ بما كان يُعنى به قومُه من الفخر والمباراة فى تحبير الخُطب، ولا قرضِ الشِّعر، وكان ﷺ يمقتُ ما كانوا عليه من الشِّرك وأباطيلِ الوثنية، ويحتقر ما كانوا يتنافسون فيه من الشَّهوات البهيمية كالخمر والميسر وأكلِ أموال النَّاس بالباطل: وبهذا كلِّه، وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النُّبوة جزموا بأنَّه ﷺ كان صادقًا فيما ادّعاه بعد استكمال الأربعين من سِنّه من رؤية مَلَكِ الوحى وإقرائه القرآن الكريم، وإنبائِه بأنَّه رسولٌ من اللَّه لهداية قومه فسائرِ الناس من كلِّ جنسٍ ولسانٍ..».

لقد أجمع الذين عرفوا النَّبىَّ محمَّدًا ﷺ سواء مِمَّن خالطوه منذ صِباه أم الذين درسوا حياته قبل البعثة وبعد البعثة أجمعوا على أنَّه ﷺ كان صافى النَّفس، طاهر القلب متواضعًا قنوعًا أمينًا صادقًا، واستوى فى الثِّقة بالحبيب الهادى ﷺ وفى صِدْقه العدوُّ والصَّديق والقريبُ والبعيد والمؤمنُ والكافر.

❊ التَّكذيبُ سببُه الحسدُ والهوى الشَّخصىّ:

يقول اللَّه - عزَّ وجلَّ - مسلِّيًا لنبيِّه ﷺ فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إيَّاه:
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام).

فهؤلاء من أمثال الوليد بن المُغيرة، وأبى جهلٍ كانوا يعاندون الحقَّ حسدًا

وحقدًا وهم فى الوقت نفسه مؤمنون بصدقه ﷺ، ولم يشكّ أحدٌ منهم فى خبرٍ من أخباره ﷺ، وقد روى أبو اليزيد المدنىُّ: أنَّ النَّبىَّ ﷺ لقى أبا جهلٍ فصافحه، فقال له رجلٌ: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال أبو جهل: «واللَّهِ إنِّى لأعلمُ إنّه لنبىٌّ، ولكن متى كنّا لبنى عبد منافٍ تَبَعًا؟» وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

فأبو جهلٍ كان من بنى مخزوم وهم بطنٌ من قريش فعاند الحقَّ ودفع الخيرَ بصدره؛ لأنَّ النَّبىَّ ﷺ من بنى عبد منافٍ، وهى بطنٌ أخرى من قريشٍ، فانظروا كيف يفعل الحسد بالمرء!

وقد سأل الأخنسُ بنُ شُريقٍ أبا جهلٍ عن رسول اللَّه ﷺ: أصادقٌ هو أم كاذبٌ! فكان جوابه أن قال: «تَنازَعْنا نحن وبنو عبد منافٍ الشرف: أطعَمُوا فأطعمنا، وحَمَلوا فحملْنا - أى ساهموا بالمال فى مساعدة المحتاج إلى ديةٍ يدفعها - وأعطوْا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الرُّكَب، وكنَّا كفرسَىْ رِهَانٍ - أى تساوينا معهم فى المكارم والمروءات - قال بنو عبد منافٍ: منَّا نبىٌّ يأتيه الوحىُ من السَّماء، فمتى نُدْرِك نحن هذه؟ - أى هذه المنزلة العظيمة - ثمَّ قال أبو جهلٍ: واللهِ لا نؤمن به ولا نُصدّقه».

فهذا أبو جهل - شأنُه كشأنِ الذين عاندوا الحقَّ من زعماء قريش - يرى أنَّ قومه من بنى مخزومٍ كانوا يبادرون إلى إطعام الضَّيف وحمْل الدِّياتِ عن الغارمين وغير ذلك ممَّا كان يتنافس فيه العرب فى الجاهلية لكى يصلوا إلى المرتبة التى بلغها بنو عبد منافٍ وإلى الشَّرف الذى حازوه بمكارمهم، فإذا ظهر من بنى عبد منافٍ نبىٌّ فهذا شرفٌ عظيمٌ ليس فوقه شرفٌ، ولا يَقْوى أحدٌ على الوصول إليه، لذا حسد أبو جهلٍ رسولَ اللَّه ﷺ على نعمة النُّبوة؛ لأنَّها لم تكن فى قومه من بنى مخزومٍ، فهو ينظر إلى الدنيا ولا يلتفتُ إلى ما هو

أعظمُ وأبقَى.

وفى هؤلاء وأمثالهم كالأحبار الذين عاندوا يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء: ٥٤).

فقد حسد كثيرٌ من أحبار اليهود النَّبىَّ محمَّدًا ﷺ مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بصفته من التَّوراة وترقبهم ظهورَه، وهذا «حُيىّ بنُ أخطب» عالمٌ من علماء يهود، وقد رأى النبىَّ ﷺ غداةَ وصوله المدينةَ المُنوَّرةَ ثم عاد إلى داره مَغيظًا لفرحة النَّاس وسرورهم بطلوع البدر عليهم، وشكرهم له عَزَّ وجلَّ على هجرة خاتم الأنبياء إليهم، فسأله أخوه أبو ياسرٍ كما روت «صفيةُ بنتُ حيىّ» نفسِه والتى صارت فيما بعد من أمَّهات المؤمنين عظيمةً صالحةً - رضى الله عنها - تقول: «سمعتُ عمِّى أبا ياسرٍ يقول لأبى: أهو النَّبىُّ المُنتظَر! قال: نعم، قال أبو ياسر: أهو هو.. أتعرفُه وتُثْبتُه؟ قال: نعم، قال أبو ياسرٍ: فماذا تجد فى نفسك منه! قال حُيى: عداوتُه ما حَييتُ». فتأمَّل: كيف يُهلِكُ الحسدُ الحسودَ إذا تمكّن من قلبه؟

فهؤلاء وأمثالهم عادَوا رسولَ اللَّه ﷺ بغيًا وعدْوًا وحسدًا وضِغنًا، وقد دعاهم ﷺ إلى الهدى والنُّور والحقِّ، ولكنَّ الحقد أعمى بصائرهم، وهذا شأن أهلِ الجحود فى كل زمانٍ.

واللَّه - عزَّ وجلَّ - يبيِّن لنا هذا الموقف المخزى لأحبار اليهود فيقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة).

❋ بَسَط ﷺ للجميع يده ولسانه بالخير والمحبَّة:

إنَّ اللَّه - عزَّ وجلَّ - أرسل نبيَّه محمَّدًا ﷺ لينقذ النَّاسَ من الضَّلالة وكانوا

حيارَى فى زلزالٍ من الأمر، منغمسين فى شهواتهم، سادرين فى غيِّهم، مُذعنين لأهوائهم، متخبِّطين فى ظلام الجهلِ وفساد العقائد، فواجه النَّبىُّ ﷺ النَّاسَ بسلامة فطرته، وطهارةِ قلبه يدعو بالحجَّة والإقناع إلى ما فيه صلاحُ أمورهم، واستقامةُ نفوسهم، وصبر ﷺ على الأذى كان دائمًا يفكِّر فى الأسباب والوسائل التى تنقذ النَّاس مما تَردَّوا فيه ليقيم مجتمعًا إنسانيًا نظيفًا طاهرًا بمعتقداته الصحيحة وفضائله العالية، وكان اللَّه معه يحفظه ويرعاه.

صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى أحبابه.

أحمد بن محمد طاحون

القاهرة فى ١٤٢٢ من الهجرة الموافق ٢٠٠٢ من الميلاد

* * *

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]

* * *

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران]

آمين... آمين... آمين

* * *

النّسب الزّكيُّ والشجرة الطاهرة المباركة

هو «رسولُ الله رحمة» وهو «ابنُ عبد الله من ولد إسماعيل نسبًا»:

روى الإمامَ أحمدُ أنَّ العبّاس - رضى الله عنه - قال: «بَلَغُه ﷺ بعضُ ما يقول النَّاسُ، فصعَد المنبر، فقال: مَنْ أنا؟ قالوا: أنت رسولُ اللّه، قال: «أنا محمَّدُ بن عبدِ اللّه بن عبد المطَّلب، إنَّ اللّه خلق الخلْقَ فجعلَنى فى خير خَلقه، وجعلهم فِرقتين فجعلنى فى خير فِرقةٍ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلةٍ، وجعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا، وخيركم نفسًا».. صلى اللّه عليه وسلَّم.

إنَّ رسول اللّه ﷺ أشرفُ ولد آدم حسبًا، وأفضلُهم نسبًا، وأطهرُهم بيتًا ومنشأً، وقد روى عنه ﷺ أنَّه قال: «ما ولدتنى بَغيٌّ قطّ منذ كنتُ فى صُلب آدمَ، فلم تَزَل تَنازَعُنى الأممُ كابرًا عن كابرٍ حتى خرجتُ فى أفضل حَيَّين فى العرب: هاشم وزُهرة» [حاشية سيرة ابن هشام، الجزء الأول صفحة ١١٠] تَنازَعُنى: أى تتنازعنى، أى أنَّ كلَّ أمَّةٍ كانت تتمنَّى أن يولد خاتمُ الأنبياء منها فإنَّه ﷺ كريمُ الأصل، طاهرُ النَّسب، نقيُّ الأرومة من قِبَل أبيه وأمّه ﷺ.

وكان قادةُ قريشٍ يعترفون بفضله ونسبه الشَّريفِ الزَّكيِّ وبطهارة مَرْباه ومَنشئِه، وقد سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيانَ بنَ حربٍ قبل إسلامه: «كيف نسبُ محمَّدٍ فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال هرقل: هل كنتم تَتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: قال: لا».

❋ شهادة جبريل - عليه السّلام - للأصلاب الطّاهرة:

وجاء فى حديث أخرجه الحاكمُ والبيهقيُّ أنَّ عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «قال لى جبريلُ: قلّبتُ الأرضَ مَشَارِقها ومَغارِبها فلم أجد رجلًا أفضلَ من محمَّدٍ - ﷺ - وقلَّبتُ الأرضَ مشارقها ومَغاربها فلم

أجِد بنى أبٍ أفضل من بنى هاشم». إنَّه محمَّدٌ رسولُ اللَّه أبو القاسم، سيدُ المرسلين، وخاتم النَّبيِّين ﷺ وعليهم أجمعين، وَهو ابنُ عبدِ اللَّه بنِ شيبة (عبد المطلب) بن هاشمٍ «عمرو» بن عبد منافٍ (المغيرة) بن قُصيّ (زيد) ابن كِلاب بن مُرَّة بن كعْب بن لُؤىٍّ بن غالب بن فِهْرِ بنِ مالك بن النَّضر ابن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة (عامر أو عمرو) بن إلياس بن مُضَر بن نِزارِ ابنِ مَعَدِّ بن عَدْنان. [سيرة ابن هشام الجزء الأول].

ماذا يقول التاريخ عن أسماء وعدد الأجداد من عدنان فما فوقه إلى إسماعيل؟ وعدنانُ من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل - صلى اللَّه عليهما وعلى نبيِّنا وسلَّم - بإجماع النَّاس، أمّا ما بَعْدَ عدنان من آبائه ﷺ إلى إسماعيلَ فقد اختلفوا فيهم من حيث العددُ والأسماءُ فقيل: «إنَّ بين عدنان وإسماعيل سبعةَ آباءٍ وقيل تسعةٌ، وقيل بينهما خمسةَ عشرَ أبًا، ورُوى عن ابن عبَّاسٍ قوله: «بين مَعَدِّ بن عَدْنان وبين إسماعيل ثلاثون أبًا» وينتهى نسبُ القرشيين إلى «نابت بن إسماعيل، عليه السلام».

فقد كان لإسماعيل اثنا عشرَ ولدًا ذكرًا وأمُّهم «رَعْلة بنت مُضاض الجُرْهمىِّ» العربىِّ الحجازىِّ من قبيلة «جُرهم» وجَدَّتُهم لأبيهم (هاجر أو آجر) المصريَّةُ القبطيَّةُ من جهة بلبيس بشرق مصر المحروسة.

[ابن هشام عن ابن إسحاق].

ونسبوا إلى ابن مسعودٍ أنَّه كان إذا انتهى إلى عدنان من النَّسب الزَّكىِّ أمسك وقال: «كذب النسَّابون» أى فى ضبط أسماءِ أجدادِه ﷺ فيما بين الجد العشرين - وهو عدنان - وإسماعيل - عليه السلام - وجاء فى هامش الصفحة الثانية من سيرة ابن هشام: «وقد حُكى عن النَّبىِّ ﷺ أنَّه كان إذا انتسب لم يتجاوز فى نسبه عدنان بن أُدَدٍ، ثم يُمْسك».

وقد اتَّفق جميعُ أهل النَّسب على أنَّ «مُضرَ وربيعةَ» هم صريحُ ولدِ إسماعيل، وما سِوى ذلك يقع الاختلاف فى أسماء الذين هم فوق ذلك.

روى الإمام أحمد وفى صحيح مسلمٍ عن واثلة بن الأسقع - رضى الله عنه - أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه اصطفى من ولدِ إبراهيمَ إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كِنانة، واصطفى من بنى كِنانة قريشًا، واصطفى من قريشٍ بنى هاشمٍ، واصطفانى من بنى هاشمٍ» ﷺ.

❋ مَنْ الجدُّ الذى لقبه «قريشٌ»؟:

أمَّا قريشٌ فهو لقبُ «لِفِهْرِ بنِ مالك» الجدِّ العاشر للنَّبىِّ ﷺ، فمن كان من ولده فهو قرشىٌّ ومن لم يكن من ولده فليس بقرشىٍّ - أى أنَّ كلَّ من كان من صُلْبِ «فهر بن مالك» فهو منسوبٌ إلى «قريشٍ» (وهذا هو الرأى الراجح عند بعضهم).

وقالوا - أيضًا - إنَّ قريشًا هو لقبُ «النَّضْر «واسمُه قيس» بن كنانة» الجدِّ الثانى عشر للنَّبىِّ ﷺ، فكلُّ من كان من ولد النَّضر فهو قُرشىٌّ دون بنى كِنانةَ ومَن فوقه، وقد روى عن النَّبىِّ ﷺ قوله: «أنا ولدُ النَّضْرِ بنِ كِنانةَ لا نقفو أمَّنا، ولا ننتفى من أبينا» أى: لا نترك النَّسبَ إلى الآباء وننتسب إلى الأمَّهات، وفى هذا تأكيدٌ لشرف الانتساب إلى الأصلاب، وهو الأصل فى تكوين القبائل والعشائر والفصائل والأسر، فالولدُ (الذكَر والأُنثى) ينسب إلى أبيه.

وفى الحديث الصَّحيح الذى خرّجه البخارىُّ ومسلمٌ وغيرهما قال ﷺ: «إنَّ الله اصطفى كِنانةَ من ولد إسماعيلَ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريشٍ بنى هاشمٍ، واصطفانى من بنى هاشمٍ» فقوله ﷺ «واصطفى من بنى كنانة قريشًا» فيه إشارة إلى النَّضر بن كنانة وهو الذى يُلقّب بقريشٍ على الظَّاهر من هذه الروايات.

وإنَّما سُمِّيت قريشٌ قريشًا لاشتغالهم بالتِّجارة والاكتساب من التَّقرُّش وهو التِّجارة والاكتساب، ويقال: إنما سمِّيت قريش قريشًا لتجمُّعها من بعد تفرّقها، ويقال للتَّجمُّع: التقرُّش، وقد كانوا متفرّقين فى غير الحرم فجمعهم قُصَىُّ بنُ كلابٍ الجدُّ الرابع للنَّبىِّ ﷺ فى الحرم حتى اتَّخذوه مسكنًا، قال الشَّاعر مشيرًا إلى ذلك:

أبونا قُصىٌ كان يُدعى مُجمِّعًا به جَمَع اللهُ القبائلَ من فِهر

❋ وأتراب طاهرة:

وكما انحدر ﷺ من أصلابٍ نقيّةٍ طاهرةٍ فقد جاء أيضًا من أتْرابٍ زكيّةٍ صافيةٍ، وقد كانت أمُّه أفضلَ امرأةٍ فى قريشٍ نسبًا ومكانةً، وتجتمع مع أبيه عبد اللّه فى الجدِّ الخامس للنَّبىِّ ﷺ وهو كِلابٌ، فهى «آمنةُ بنتُ وهبِ ابنِ عبد مناف بنِ زُهرة بنِ كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤىِّ بن فهرٍ».

❋ ❋ ❋

قصىٌ [الجدُّ الرّابع فى النّسب الزّكىّ]
عاش غريبا ثم عاد قائدًا حبيبا

اسمه: زيد بنُ كِلابِ بنِ مُرَّة القرشىُّ، مات أبوه وهو فَطيم، وكان له أخٌ كبيرٌ اسمه «زُهرةُ بنُ كِلاب» وأمُّهما فاطمة بنت سعدٍ من قبيلة الأزْد اليمنيّة، فتزوَّجت فاطمةُ ربيعةَ بنَ حَرام من قُضاعَة بعد موتِ زوجِها، ورحلت معه من مكَّة وأخذت معها ولدَها «زيدًا» لصغره، فسمّوه لذلك «قُصَيًّا» لبُعده وإقصائه عن دار قومه.

وتزوَّج قُصىٌّ حُبَّى - بضم أوَّله وتشديد ثانيه - بنت حُليلٍ - بضم أوَّله - من خُزاعة، وكان قائمًا على أمر مكَّةَ والبيتِ بعد أن عزلتْ خزاعةُ قريشًا، وتغلَّبَتْ على مكَّةَ، وأنجب قُصىٌّ منها ولده المُغيرةَ المعروف باسم «عبد منافٍ»

وله ثلاثةُ إخوةٍ وأختان، وأنجب عبدُ منافٍ أربعة ذكورٍ منهم هاشم أبو عبد المطَّلِب جدِّ النَّبيِّ ﷺ، وكان لهاشمٍ غيره ثلاثة ذكورٍ وأربع بناتٍ، أمَّا عبد المُطَّلِبِ فأنجب عشرةَ ذكورٍ وستَّ بناتٍ، وأنجب ولدُه عبدُ اللَّه خيرَ البريَّةِ كلِّها وسيِّدَ ولد آدم محمَّدَ بنَ عبد اللَّه بنِ عبد المطَّلب ﷺ.

❋ عودته إلى مكة:

عاش قُصيٌّ فى ديار زوج أمِّه ربيعةَ بن حَرَامٍ من قُضاعة حتى كبر وأدرك وكانوا يدعونه «زيدَ بن ربيعة أو قُصيَّ بنَ ربيعة» حتى عَيَّره شابٌّ من قُضاعة بأنَّ ربيعةَ ليس أباه، فسأل أمَّه عن نسبه فقالت له: «يا بُنيَّ لقد صدقك، إنَّك لستَ ابنه ولا من عشيرته، ولكنَّ رَهْطك خيرٌ من رهطه، وآباءك أشرفُ من آبائه، وإنَّما أنت قُرشيٌّ، وأخوك وبنو عمِّك فى مكَّة، وهم جيرانُ بيتِ اللَّه الحرام»، وكان لقولها وقعٌ عظيمٌ على نفسه، فانتهز فرصةَ مرور جماعةٍ متجهةٍ إلى مكَّة وصحبها حتى وصل إلى أهله، وتزوَّج قُصيٌّ بها وأنجب، وكان حُليل الخُزاعيُّ صهر قصيٍّ يتولَّى أمورَ البيت الحرام، ومعه مفتاح الكعبة لضعف القرشيِّين لتفرُّقهم وعدم التئام شملهم.

❋ قصيٌّ وشَرفُ خِدمة البيت:

ظلَّت كلماتُ أمِّه فى قلبه، وطمح أن تكونَ للقرشيِّين خدمةُ البيت بعد أن تغلبت خزاعةُ وتوارثت الوِلايةَ على البيت دهرًا، وكان حُلَيلٌ صِهرُه آخِرَهم.

رأى قُصَيٌّ أنَّه أوْلَى بخدمة الكعبة المُشرَّفةِ وبأمر مكَّةَ من أبناء عمومتهم «خزاعة وبنى بكرٍ»، وكان يرى أنَّ «قريشًا» هى نُخبةُ أبناءِ إسماعيلَ بن إبراهيم وصَفْوتُهم وأنهم صريحُ ولد إسماعيل، وبدأ يدعو لفكرته فى رجالٍ من قريشٍ، وبنى كِنانة لِيَخْرُجُوا ويطردوا «خُزاعةَ وبنى بكر» من مكة، فأجابوه وقَبِلوا رأيه.

❋ خطوات عمليّة:

اكتسب قُصىٌّ تأييدَ قومه للذى دعاهم إليه، فعمد إلى تعزيز موقفه فكتب إلى أخيه من أُمّه «رِزاح بنِ ربيعةَ القُضاعى» وشرح له دعوته وطلب نُصرته والقيامَ معه، فخرج أخوه من أمّه فى حاجٍّ العرب ومعه إخوانُه من أبيه ورهطٌ آخرُ من قُضاعة، وهم متّفقون على نُصرة قُصىٍّ، وكان حُليل الخزاعى نفسُه يرى أن يتولّى قُصَىٌّ أمرَ البيت بعده فحُليل جَدُّ أولادِ قُصىٍّ لأمِّهم، ورأى فيه الكفايةَ والقدرةَ وقال له: «يا قصىُّ، أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها، وبأمرِ مكةَ من خُزاعة» وأوصى بولايةِ البيتِ لقُصىٍّ بعد موته، وكان هذا بمثابة عودةِ الأمورِ إلى طبيعتها.

❋ الحرب:

أبت خزاعةُ أن تُنفِّذَ وصيةَ حُليلٍ بعد موته، وهو زعيمُها وبمثابة الحاكم فى مكَّة، ورفضت أن يتولَّى قصىٌّ الأمرَ على مكَّةَ وعلى خدمة البيت، وكان قُصىٌّ بخطواته فى تعبئة مؤيِّديه من القرشيين والقُضاعيين وبنى كِنانة كان مستعدًّا لمواجهة خُزاعةَ وبنى بكرٍ وهاجت الحربُ بين الفريقين، واقتتلوا اقتتالًا شديدًا بالأبطح، فلما كثر القتلى فى الفريقين تغلّب نداءُ العقل والصلح، واختاروا حكمًا من «كِنانة» اسمه «يعمر بن عوفٍ» فقضى بينهم بأنَّ قصيًّا أوْلى بالكعبة وبأمر مكَّة من خزاعة، كما حكم بأحقية «قُصىٍّ» فى الدِّيات عن قتلاه تُؤدِّيها خزاعةُ وبنو بكرٍ حليفتها، وبأنهما لا حقَّ لهما فى دِيَاتِ قتلاهم، وبذلك اعتبر يَعْمرُ بنُ عوف قبيلةَ خُزاعةَ وحليفتها بنى بكر فى موقف المُعتدِى، واعتبر قُصَيًا ورهطَهُ مُعتدًى عليهم واعتبرهم أصحابَ حقٍّ، وبناءً عليه حكم بأن يتولى قُصَىٌّ أمورَ مكَّة والبيت.

❋ أول ملك من لُؤَىّ:

وبذلك صار «قُصَىٌّ» أولَ بنى كعب بن لؤىّ قد أصاب مُلكًا أطاع له به قومُه

وصارت إليه كلُّ المفاخر والمناصب وأسباب الشَّرف فى خدمة البيت والحرم؛ إذ صار مسؤولًا عن: الحِجابة (مفاتيح البيت) والسِّقاية (إرواء الحجَّاج) والرِّفادة (إطعام الحجيج) والنَّدوة (البرلمان موضع الشُّورى) واللّواء (القيادة العسكرية) وقد توزَّعت هذه المناصب فيما بعدُ على بطون قريشٍ، وسعى قُصَىٌّ فى إصلاح أحوالِ قريش فجمعهم بعد شَتاتٍ وأنزلهم فى مكَّةَ حول البيت، وصار الجميعُ يحبُّه ويثق فيه ويطلب منه المشورةَ والقضاءَ فى أمورهم العامَّة والشَّخصيَّة حتى الزَّواج كان يتمُّ فى بيته، وهو أوَّلُ من فَرض على قريشٍ إطعامَ الحجيج يُقدِّمون الطَّعام لهم أيَّام مِنى حتى ينقضىَ الحجُّ، وجعل خليفته من بعده ولده الأكبرَ عبدَ الدَّار.

❋ وصيته لبِكْره عبد الدار:

أوصى قُصَىٌّ لولده بما كان له من أمور مكَّة وأمور أهلها وخدمةِ البيت والمناصبُ هى: (دار النَّدوة، والحِجابة، واللّواء، والسِّقاية، والرِّفادة) والتأم شملُ قريشٍ وقوى جانبُها، ثم ازداد شرفُها علوًّا ورفعةً بأشرف خلق اللَّه أجمعين خاتم النَّبيِّين والمرسلين صلواتُ اللَّه وسلامه عليه.

❋ ❋ ❋

من الإرهاصات والأمارات:

(١) السَّيَّاحُ المُجَاب الدَّعوة

دعا إلى التوحيد وأكل من كسب يده

وقبل ظهور الإسلام فى جزيرة العرب كان هناك داعٍ يدعو إلى توحيد اللَّه وإفراده سبحانه بالألوهية وتنزيههِ عن الشَّريك والنِّدِّ والولدِ والصَّاحبة بعد أن انتقل هذا الدَّاعى إلى جزيرة العرب من موطنه فى الشَّام، وقد كان على دين رسولِ اللَّه عيسى بنِ مريم ﷺ وكان على علمٍ بالإنجيل ويعبد اللَّه - عزَّ

وجلَّ - على هدايةٍ ونورٍ ويؤمن بأنَّ نبيًّا قرب زمانه.

هذا السَّيَّاح المباركُ اسمه «فَيْمِيون» أو «نَيْمُن» وأطلقوا عليه اسم «يحيى» كان صالحًا زاهدًا مجتهدًا فى الطَّاعة مُجابَ الدَّعوة، وكان إذا عرف النَّاسُ أحوالَه وكراماتِه فى قريةٍ خرج منها سرًّا إلى قريةٍ أخرى خوفًا على نفسه من الاغترار وعلى النَّاس من الغُلوِّ، ومن أحواله:

أنَّه كان يأكل من كسب يديه، ويَسيحُ فى القرى يدعو إلى التَّوحيد والطَّاعة، ولا يقبل من النَّاس شيئًا، واشتغل عاملَ بناءٍ ولا يطلب أجرًا من ذات نفسه، ويقبل ما يقدِّمه إليه صاحبُ العمل.

وكان يحترمُ يومَ الأحد فيقعد عن العمل للدنيا ويخرج إلى صحراء يتعبَّدُ فيها بعيدًا عن عيون النَّاس.

ومن كراماته أنه كان إذا وجد فى طريقه إنسانًا مريضًا دعا له فَيَشفيه اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - بفضله وكرمه، وكان لا يُلبّى دعوةَ أحد إلى بيتٍ ليدعوَ للمريض إمعانًا فى التَّخفِّى وعدم إظهار الكرامات، وفرارًا من الرِّياء خوفًا من اللَّه، عزَّ وجلَّ.

❋ الهجرة إلى أرض العرب:

خرج «فيْمِيون» من الشَّام ومعه تلميذهُ «صالح» ودخلا أرضَ العرب فاختطفتهما قافلةٌ عربيةٌ، وأخذوهما حتى باعوهما فى نجْران، وأهلُها كانوا على الشِّرك وعبادةِ النَّخل والأوثان، اشترى «فيميونَ» رجلٌ من أشراف العرب، واشترى «صالحًا رفيقَه» رجلٌ آخر.

وكان فيميون يتهجّد فى الَّليل والنَّاسُ نيام ويظنّ أن أحدًا من النَّاس لا يراه مخلصًا قلبه للَّه الواحد الدّيان فى حين كان صاحبُ الدَّار يَرْقُب ويرى نورًا فى غرفة هذا الرَّجل العجيب دون مصباحٍ، فسأله عن دينه؟ فأجابه وشرح له

التَّوحيدَ والتَّنزيه والعبادةَ على دين المسيح - عليه السَّلام - وبيّن لهم ضلالَهم فى عبادة نَخْلةٍ لا تضرُّ ولا تنفع، وقال: «لو دعوتُ عليها إلهى الذى أعبده لأهلكها»، فقال له: افعلْ ونحن ندخل فى دينك.

توضَّأ فيميون وصلَّى ركعتين، ثمَّ دعا على هذه النَّخلة الَّتى يتقرّب إليها أهلُ الجهل بالدُّعاء والتَّضرُّع وذَبْح القرابين، فجاءتها عاصفةٌ فقلعتها من أصلها وألقتها على الأرض.

وأذِن اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - بكسْر شوكةِ الشِّركِ واقتلاعها من نجران واتِّباع النَّاسِ هناك شريعةَ عيسى - عليه السلام - كما علَّمهم هذا الولىُّ الصَّالح الَّذى كان يحفظ الإنجيل ويتعبَّد مقتديًا برسول اللَّه عيسى - عليه السلام - وظلَّ التَّوحيدُ يُنير قلوبَ النَّاس وحياتَهم حتى دخل عليهم مثل ما دخل على أهل دينهم مع مرور السنين من الأحداث فابتدعوا وبدّلوا وافترقوا واختلفوا، وصاروا مثلَ غيرهم فى أشدِّ الحاجة إلى نور الرسالةِ السَّماوية الخاتمة وهدايتها وإلى ظهور النَّبىِّ العربىِّ الَّذى يجىءُ بهذا النُّورِ كما بشَّرت التَّوراة والإنجيل.

* * *

أبرهة الحبشئ مشقوق الحاجب والشَّفة

دهاء ومصيرٌ: إنَّ العلاقةَ بين الحبشة واليمن قديمةٌ فرضتها الظُّروفُ الاقتصاديةُ مع سهولةِ الاتِّصال والنُّزوح والنَّقل عبر البحر الأحمر وجُزره، وكانت اليمن بمثابة سوقٍ رئيسٍ لا مُنافسَ له يُذكر سوقٍ للموارد البشرية العاملة التى تتدفَّق من الحبشة إلى اليمن، وللموارد الطبيعية التى تزخر بها أرضُ الحبشة كالخشب والتَّوابل والحيوان وغير ذلك، وظلَّ هذا الحالُ قائمًا حتى عرف الأوربيون طريقهم إلى الحبشة ووضعوا أيديهم على مواردها فقلَّت الحاجةُ إلى السُّوق اليمنئ، ولم تنقطع، وسبحان اللهِ لولا اليمنُ عبر التَّاريخ الطَّويل لكسدت الحياةُ فى الحبشة.

❃ احتلال اليمن:

ولذا لما جاءت الفرصةُ للحبشة وملكهم بدعوة من سَبَئئٍ عربى «رجل من أهل سبأ» لإرسال جيشٍ إلى اليمن لكفِّ طغيان «ذى نواس» وقهره النَّاس على قبول اليهودية بادر النَّجاشئ بإرسال سبعين ألفَ جندىّ يقودهم «أرياط» ومن مساعديه «أبرهةُ الأشرم». وتحقق لهم ما أرادوا فى اليمن، فبسطوا نفوذَهم فيها.

❃ أبرهة يسعى للقيادة:

وسعى «أبرهة الأشرم» للمكر «بأرياط» قائده فى اليمن حتى تمكَّن أبرهةُ من قتله واجتمعت الحبشةُ على «أبرهة» الذى قدَّم الديةَ فى «أرياط» لتهدئة الخواطر ولتسكين غضب الحبش الذين غضبوا لمقتل أرياط.

ولمَّا سمع «النَّجاشئ» ملك الحبشة بالخبر أقسم إنَّه: «لا يترك «أبرهةَ» **حتى يطأ بلادَه ويجزَّ ناصيته**، فلما عرف أبرهةُ بادر بحيلة يستعطف بها الملك وهى أنَّه: **حلق رأسَ نفسه وملأ جرابًا من تراب اليمن**، ثم بعث به إلى النَّجاشئ، ومعه رسالةٌ يقول فيها: «أيُّها الملك، إنَّما كان أرياطُ عبدَك، وأنا

عبدُك، فاختلفنا فى أمرك، وكلٌّ واحدٍ منَّا طاعتُه لك، إلا أنِّى كنت أقوى على أمر الحبشة، وأضبَطَ لها وأسْوَسَ منه (أحسنَ منه فى سياسة الأمور)، وقد حلقتُ رأسى كلَّه حين بلغنى قَسَمُ الملك، وبعثتُ إليه بجراب ترابٍ من أرضى ليضعه تحت قدميه، فَيَبَرَّ قَسَمه - يمينه - فىَّ».

ولمَّا وصل الخطابُ إلى النَّجاشىِّ وأعجبه دهاؤه وتصرّفهُ كتب إليه: «أن اثبت بأرض اليمن يأتِك أمرى» فأقام أبرهةُ باليمن يحكمها.

❋ **طموحه الكاذب أهلكه:**

ثم قاد أبرهة جيشًا ومعه ثلاثةَ عشرَ فيلًا إلى مكةَ المكرمةِ ليهدمَ الكعبة المُشَرَّفةَ كما توهَّم وزيَّن له شيطانُه وذلك لكى يحوِّلَ الحجيجَ إلى «كنيسة» بناها فى «صنعاء» باليمن لأغراضٍ اقتصاديةٍ، وأهلك اللهُ جيشَه على مشارفِ مكة، وأُصيب أبرهةُ فى جسده بالجُدرىِّ وكان لحمُه يسقط قطعةً قطعةً، وظلّ هكذا حتى وصل «صنعاء» وهو مثلُ فرخ الطَّائر من الضَّعف والهُزال، وهناك توقّف قلبُه بعد عذابٍ طويل؛ جزاءَ قَصْده السَّيِّئ وفسادِ نواياه.

فكيف هلك هو وجنوده؟

❋ ❋ ❋

ومن الإرهاص بقرب مولد الهُدى والنُّور
هلاك أصحاب الفيل معجزة لخاتم الأنبياء

كان أبرهةُ الحبشىُّ عاملَ النَّجاشىِّ ملكِ الحبشة على اليمن - وهى صفةُ الوالى أو المندوب السامى - وكان أبرهة داهيةً طموحًا ويسعى لتوطيد مكانتهِ عند ملكه النَّجاشىِّ.. فماذا فعل أبرهةُ لتحقيق ذلك؟

❋ **بناء كنيسةٍ كبيرةٍ فى صنعاء:**

رأى أبرهةُ أنَّ موسمَ الحجِّ له مزايا اقتصاديةٌ لأهل مكةَ والحرم، كما أنَّ له مزايا سياسيةً واجتماعيةً جعلت القرشيين موضعَ احترامٍ وتقديرٍ لدى جميع

العرب؛ لأنهم سَدَنَةُ البيتِ وخُدَّامه، هذا إلى جانب طموحه للسَّيطرة ولتوسيع النُّفوذ للأحباش فى «شبه جزيرة العرب»، لهذا أنفق أبرهة أموالًا طائلةً على بناء كنيسة «القُلَّيْس» على نحو لم يكن له مثيلٌ فى فنّ العمارة، وعزم على دعوة جميع العرب إلى أن يحجُّوا إليها بدلًا من قصدهم مكةَ المكرمةَ للحجِّ والعمرة، فلمَّا علم العربُ بذلك فار الدمُ فى عروق أهل اليمن وغيرهم، وانطلق رجلٌ من بنى كِنانة إلى «القُلَّيْس» - أى الكنيسة المرتفعة البناء - فأحدث فيها - بالَ وتغوّط - فغضب أبرهةُ الحبشىُ وقرّر تجهيزَ جيشٍ يتوجّه تحت قيادته لهدم الكعبة المشرّفة للانتقام أولًا ثمَّ لوضع العرب أمامَ الأمر الواقع الذى تفرضُه القوةُ الغاشمةُ الطَّامعةُ كما زَيَّن له هواه وشيطانُه، وكان فى جيشه فُرسانٌ على ثلاثةَ عشرَ فيلًا، ولم يكن للعرب عهدٌ بالفيل أو استخدامه فى الحرب إلى جانب أن الجيشَ الحبشىَّ بلغ سبعين ألف مقاتلٍ لهم خبرةٌ بفنون القتال فى تلك العهود.

❋ هَبَّةُ العربِ لصدّه:

هبّ العرب بقوة ليس فى اليمن نفسها وحسب ليمنعوه من الخروج منها ولصدِّه عن الحجاز، بل وفى أرض «خَثْعَم» أى بطون أنمار، ثمَّ فى الطَّائف هبُّوا فى كلِّ مكان لقتاله وصدّه، وأراد اللَّه أن يمضِىَ أبرهةُ المتعوس إلى منطقة اسمها «المُغَمِّس» بضمِّ أوّله وفتح الغين وتشديد الميم مكسورةً - قريبًا من مكة وعسكر فيها بعد أن هزم كلَّ من تصدَّى له من العرب، ولتنفذَ فيه وفى جيشه مشيئةُ اللَّه - عزَّ وجلَّ - فالاغترارُ بالقوة والظُّلم عواقبُه وخيمةٌ: فماذا حدث للأحباش؟ وكم لنا فى قصتهم من العِبر والعظات!

❋ سَلْب المواشى:

ومن المُغمِّس بعث أبرهةُ فرقةً على رأسها «الأسودُ بنُ مقصودٍ» إلى مكة

المكرمة فاستاق الإبلَ والمواشىَ ومنها مائتا بعيرٍ لجدِّ النَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ وهو عبد المطَّلِب بنُ هاشمٍ سيّدُ مكةَ وكبيرُها، ورأى أهلُ الرأى أنَّهم لا طاقة لهم بحرب الفِيَلَةِ والخيولِ، وبعث أبرهةُ لإحضار كبيرِ مكة وهو عبد المطَّلِب ابن هاشم فأجاب الدعوة، ولما دخل عليه عبدُ المطلب أجلسه أبرهةُ إلى جنبه على البساط، وسأله بواسطة المترجم: ما حاجتُك يا عبدَ المطَّلِب؟ فأجاب: حاجتى أن يردَّ الملكُ علىَّ - لى - مئتى بعيرٍ أصابها فهى لى، فقال أبرهة: أتكلِّمنى فى مائتى بعيرٍ أصبناها منك، وتترك بيتًا هو دينُك ودينُ آبائك وقد جئتُ - أنا - لهدمه.

فقال عبد المطَّلِب: إنِّى ربُّ الإبل - أى صاحبها - وإنَّ للبيت الحرام ربًّا سيمنَعُه - سيحميه - قال أبرهة مغرورًا بالقوة: ما كان ليمتنع منِّى - أى لا شىءَ يمنعنى من هدم البيت - قال عبد المطَّلِب: «أنت وذاك» - ومعناها: افعل ما بدا لك - فردّ أبرهةُ الإبلَ، ورفض الرُّجوعَ عن البيت مقابلَ ثلثِ أموال أهل مكة وما حولها، وكان غرورُه بالقوة سببَ تعاسته ودمارِه وهلاك جيشه وإضعاف شأن الحبش فى اليمن.

❋ التَّضرُّع إلى اللَّه وإخلاء مكة:

وأمام بابِ الكعبة تضرَّع عبدُ المطَّلِب وشيوخُ البطون القُرشية إلى اللَّه أن يحمىَ بيته، وينصرَه ويهزمَ العدوَّ المتغطرسَ، وبأوامر من عبد المطَّلِب خرج النَّاسُ إلى الجبال ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها، وكان يريد «هدم الكعبة» ثم الرُّجوع إلى صنعاء.

❋ أوامر بالاقتحام:

وهبَّ الجيش الحبشىُ بأفيالهم لدخول بلد اللَّه الحرام، ولكنَّ الفيلَ القائدَ لوى خُرطومه واستعصى على المشى فضربوه، فزاد استعصاءً كأنَّه جملٌ قد برك

فوجّهوه إلى جهة اليمن فأسرع، ثمَّ إلى جهة الشَّام فأسرع السَّير كذلك، ثمَّ إلى الشَّرق فأسرع، ثمَّ إلى مكة فلوى خرطومه واستعصى عليهم؛ وبدأت الرهبةُ تملأ صدور المُغِيرين لا يدرون ما يفعلون، وهم فى دهشةٍ من أمر الفيل القائد.

❋ الحرب الذّرّية:

وجاءت القنابلُ الذَّرِّيةُ تحملُها طيورُ «عصفور الجنَّة» والزرازير، واحدةٌ من تلك الحجارة الدقيقةِ الحجم فى منقار الطَّائر وفى كل رِجْلٍ واحدةٌ، وكان كلُّ حجرٍ منها مُوجَّهًا إلى موضعه من جسم الجنديّ الحبشيّ على نحوٍ أعظم من التوجيه بالليزر، فلكلِّ جنديٍّ منهم واحدةٌ تنزل فى «النَّافوخ» وتخرج من «الدُّبُرِ» وتُصفِّى دِماءَه فيصير الجنديُّ كورقة الشَّجر التى داستْها أقدام الحيوان بعد الشِّبع، ولم تصب الحجارةُ كلَّ أفراد المهاجمين، وذلك لحكمةٍ بالغةٍ، منها أن يرى النَّاسُ والأحباشُ فى طريق عودتهم إلى اليمن: كيف هلاكهم؟ إنَّه إنذارٌ بعد إنذارٍ بعد إنذارٍ، وقد قال لهم «نُفَيل» وهم يفرّون حيارى مذعورين:

أيـن الـمـفـرُ والإلـهُ الـطَّـالـبُ والأَشْرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ؟

وكانوا يتساقطون قتلى عطشى مذعورين على مدى الطَّريق وأمام العيون وأصيبَ «أبرهةُ» بالجُدريِّ، فكان جسمُه يتساقط قطعةً قطعةً حتى رآه أهلُ صنعاء وقلبُه تخرج منه آخرُ دقَّةٍ، وظلَّ قائدُ الفيل الكبير وسائسُه بمكة عِبرةً حتى رأتهما عائشةُ بنت أبى بكرٍ - رضى الله عنهما - أعميين مُقعدين يستطعمان النَّاس.

وكانت تلك معجزةً ترمز إلى ظهور خيرٍ عظيمٍ وبركةٍ كبيرةٍ فى مكة المكرَّمة، وقد كان.

❋ ❋ ❋

قصة الفرس بعد الحبش فى اليمن ومبادرتهم إلى الإسلام عند ظهوره

هلك «أبرهةُ الأشرمُ» وتولّى بعده ابنُه «يكسومُ»، وبعد يكسوم تولَّى أخوه «مسروق بنُ أبرهة»، وبهلاك «مسروق» على يد الغازى الفارسى باتفاقٍ مع قادةٍ من عرب اليمن يكون حُكمُ الحبش دام اثنتين وسبعين سنة، حكمها فى هذه الفترة أربعةٌ من الأحباش هم «أرياط، ثمَّ أبرهة، ثم يكسوم بن أبرهة، ثمَّ مسروق بن أبرهة».

❋ **قصة الفرس:**

استطاع وفدٌ يمنيٌّ بإمارة «أبى مُرَّة سيف بن ذى يزن الحِميريِّ» أن يُقنع «كِسرى» ملكَ الفرس بإمدادهم بقوةٍ تساعدهم على طرد الأحباش من اليمن، وأجاب كسرى الدَّعوة بعد تَرَدُّدٍ وتَخَوُّفٍ من أرض العرب مع قلّة خيرها فبعث مع سيف بن ذى يزن ثمانمائة رجلٍ من المحكوم عليهم بالقتل فى السُّجون الفارسية فإن يهلكوا فلا بأس، وإن نجحوا فالنَّجاحُ لفارسَ وملكها كسرى والفخارُ منسوبٌ إليهم، وتلك كانت مشورةٌ من جليس كسرى وصاحب مشورته.

خرج الفرس فى ثمانى سُفنٍ هلك منها اثنتان فى الطَّريق، ووصلت ستُّ سفنٍ إلى شواطئ مدينة عدن، وفى عدن أمدَّ سيفُ بنُ ذى يزن القائدَ الفارسيَّ بمقاتلين من العرب، ومشوا «رِجْلاً - أى قدمًا - مع رِجْل إما الظفرُ وإما الموت» أى مشى الفرس مع من انضمَّ إليهم من العرب لمقاتلة الحبش وتلاقَى الفريقان وبدأت الحرب بالمبارزة.

ثمَّ انتهت هذه المبارزةُ بين «وهْرِز» قائد الفرس و«مسروقٍ» الحبشيِّ، بقتل «مسروقٍ» آخر قائدٍ للحبش فى اليمن، واستدارت الحبشةُ حول جثَّة قائدهم

تريد القتال فحمل عليهم الفرسُ والعربُ فقتلوا خلقًا كثيرًا منهم وهرب الباقون، وبذلك طويت صفحةُ الحكم الحبشيّ من اليمن.

❋ حكم فارس لليمن:

بقى حكمُ الفُرس لليمن حتى بعث اللَّه خاتمَ رسله محمَّدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا ورسولًا إلى النَّاس كافَّةً، وكان ذلك فى عهد الحاكم الفارسيّ الخامس «باذان»، وجاء الخبر «لباذان» عن الإسلام وظهور النَّبىِّ العربىِّ من كسرى ملك الفرس، فكيف كان ذلك؟.

❋ رسالة كسرى وإسلام باذان:

كتب كسرى إلى باذان: «إنَّه قد بلغنى أنَّ رجلًا من قريشٍ خرج بمكة يزعم أنَّه نبىٌّ» ثمَّ طلب من باذان أن يسير بجيشٍ إليه فى «مكة» ويطلب منه الرُّجوع عن قوله فإن تاب ورجع وإلا فالقتلُ، وكان «باذان» فيما يبدو ذكيًّا بعيدَ النَّظر، ورأى أن يسأل عن الأمر ولا يبدأ بالعنف والعدوان فأرسل «باذان» كتابَ «كسرى» إلى رسول اللَّه ﷺ ليتفهّم ويعرف الحقيقة، فكتب إليه رسول اللَّه ﷺ: «إنَّ الله قد وعدنى أن يُقتل كسرى فى يوم كذا من شهر كذا» فقال «باذان» فى نفسه: «إن كان محمَّدٌ نبيًّا فسيكون ما قال» وقد كان فقد هلك كسرى على يد ولده شِيروَيْه، ولما وصل هذا الخبرُ إلى «باذان» فى اليمن أرسل إلى مكة بإسلامه وإسلام الفرس فى اليمن معه، ورحَّب رسول اللَّه بوفد الفرس، وقال: «أنتم منَّا وإلينا - أهلَ البيت -» أى: أخصُّ أهل البيت، ثم انتشر الإسلامُ فى اليمن وربطت العقيدةُ بين الجميع واندمج الفرس، وصاروا من أهل اليمن لأن العقيدةَ فوق النَّسب، وما زال اليمنُ يضمُّ بين جناحيه جميعَ أهله من عرب ومن أصول فارسية وقوقازية ثمَّ هندية إلى جانب الذين هم من أصولٍ حبشيةٍ أو صوماليةٍ صار الجميعُ أمةً واحدةً؛ اللَّهُ ربُّها ومحمَّدٌ نبيُّها،

والإسلامُ دينها، والقرآنُ إمامُها.

* * *

مع
المولود المبارك والنُّور العامّ
«ألم يجدك يتيمًا فآوى»

الليلة المباركة:

كان مولده ﷺ يوم الاثنين لاثنتى عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأوّل بالدَّار التى كانت عند «الصَّفا» أو بِشِعْب - بكسر الشِّين - بنى هاشمٍ بعد حادث أصحاب الفيل بأكثر من خمسين يومًا.

وكان مولده ﷺ رحمةً؛ إذ كان النَّاس فى لهفةٍ شديدةٍ إلى نور الهداية يُخرجهم اللَّهُ به من ظلماتِ حَيْرتِهم وضَلالِهم وسوءِ أحوالهم السياسية والأخلاقية.

*** من أمارات الرحمة وبشائرها:**

جاء فى الخبر أن أمَّه آمنةَ بنت وهبٍ سمعت حين حملت به قائلًا يقول: «إنَّكِ قد حملتِ بسيِّد هذه الأمَّة، فإذا وقع على الأرض فقولى: «أعيذه بالواحد من شرِّ كل حاسدٍ ثم سمّيه محمَّدًا».

ورأت حين حملت به أنَّه خرج منها نورٌ رأت به قصور بُصرى من أرض الشَّام.. وتلك إشارةٌ لعموم رسالته وأنَّها للعرب وللنَّاس كافَّةً.

مات أبوه عبد اللَّه بن عبد المطَّلِب وأمُّه حاملٌ به، أو وهو فى المهد ابن أكثر من شهرين، أو وهو ابنُ ثمانيةٍ وعشرين شهرًا، على الخلاف فى الرِّواية.

*** فرحة جَدِّه:**

فرح جَدُّه عبدُ المطَّلِب بمولده فرحًا شديدًا، وأخذه فدخل به الكعبةَ

يدعو اللَّه - عزَّ وجلَّ - ويشكر له ما أعطاه، ثم أعاده إلى أمِّه والتمس له الرُّضعاء على عادة أشراف مكة يُحبُّون لأولادهم النَّشأةَ فى البادية، ففى ذلك صحةٌ للبدن، وقوةٌ للنَّظر، وصفاءٌ أكثر للذِّهن، وفصاحةٌ أعظمُ لِلِّسان، وكان حظّ «حليمةَ بنت أبى ذُؤيبٍ» من بنى سعدٍ بن بكرٍ أعظمَ الحظوظ ونالتها بركاتُ الوليد المبارك فى معاشهم وبيوتهم وأموالهم، وكان ﷺ يقول لأصحابه: «أنا أعربُكم (أفصحكم) أنا قرشيٌّ واستُرْضعتُ فى بنى سعدٍ».

❃ جماعةٌ من أهل الكتاب:

رأى نفرٌ من نصارى الحبشة حليمة السَّعديةَ ومعها رسولُ اللَّه بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه، وقلَّبوه - بتشديد اللَّام - ثمَّ قالوا لها: «لنأخذنَّ هذا الغلام، فلنذهبنَّ به إلى ملك الحبشة، فإنَّ هذا غلامٌ كائنٌ له شأنٌ نحن نعرف أمره»، فانفلتتْ منهم بأعجوبةٍ ناجيةً بالغلام المبارك، وذهبت به إلى أمِّه، فأنبته اللَّه نباتًا حسنًا، وتوفِّيت أمُّه وهو فى السَّادسة من عمره المبارك وهى راجعةٌ به من زيارة أخوال أبيه فى المدينة المنوَّرة وهم بنو عديِّ بن النَّجَّار.

❃ فى رعاية جدِّه:

وكان جدُّه عبدُ المطَّلِب شيخُ مكةَ وكبيرُها يحبُّه حبًّا جمًّا ويحنو عليه، وكان يجلس فى ظلِّ الكعبة وأولاده يسبقونه يجلسون حول فراشه، ويأتى الغلامُ المبارك يجلس بجوار جدِّه على فراشه، وإذا أرادوا أن يُنحّوه عن الفراش ويؤخِّروه عن جدِّه يقول لهم: «دعُوا ابنى - هذا - فواللَّهِ، إنَّ له لشأنًا» ويبتسم له، ويمسح بيده على ظهره حنانًا ورقَّةً وحبًّا.

ومات عبد المطَّلِب والرَّسول الحبيبُ ﷺ ابن ثمانى سنواتٍ، تلازمهُ عناية الله عزَّ وجلَّ، تحفظه وترعاه، وتجمع القلوب عل محبته ﷺ.

❋ ألم يجدك يتيمًا فآوى:

نعم.. كانت القلوبُ له منشرحةً والنُّفوسُ محبَّةً وراضيةً، مات جدُّه، فكفله عمُّه الشفيقُ المحبُّ «أبو طالبٍ»، وهو شقيقُ أبيه (من الأب والأمِّ).

فكان فى رعاية عمِّه أبى طالبٍ يحنو عليه ويتيح له الفرصَ لاكتساب الخبرة بهدايةٍ من اللَّه - عزَّ وجلَّ - وتوفيقٍ، فكان ﷺ يرعى الغنم، كما رعاها جميع الرُّسُل من قبله لحكمةٍ وغايةٍ تَتَّصِل بالتَّربية على: الصَّبر والأناة وحُسنِ السِّياسة والرِّفق والرَّحمة واختيارِ أحسن الظُّروف للرَّعيَّة.

كما صحبه عمُّه ليُمنه وبركته فى سفره إلى الشَّام للتِّجارة حتى رآه عالمٌ عظيمٌ من أهل الكتاب وعرف أنَّه النَّبىُّ المنتظر، فقال لعمِّه: «ارجعْ بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود، فواللَّهِ لو رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليَبْغُنَّه شرًا، فإنَّه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ» ليبغنَّه: أى يريدون به شرًّا، فرجع بابن أخيه يحوطه بكلِّ رعايةٍ وعنايةٍ حتى دخل مكة المكرَّمة.

❋ ربَّاه ربُّه ورعاه:

شبَّ رسولُ الله ﷺ محوطًا بالعناية، محفوظًا من شرك الجاهلية وقذارتها، وربُّه يكلؤه ويحفظه ويحوطه ويُحبِّب فيه القلوبَ ويعصمُه؛ لأنَّه سيحمل الرِّسالةَ العظمى والدَّعوةَ العامَّة للنَّاس كافَّةً، فعاش أفضلَ قومه مروءةً وأحسنهم خُلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والأخلاق الرَّديئة، عاش مُكمَّل الأخلاق مكرَّمًا، واسمه بين النَّاس «الصَّادقُ الأمين».

فقد جمع اللَّه له فى نفسه العظيمة كلَّ الأمور الصَّالحة والآدابِ العالية ﷺ.

❋ ❋ ❋

رحلة الشّام فى تجارة خديجة

اشتغل بالتِّجارة أشرفُ الخلق أجمعين فهو يملك أعظم وأثمنَ رأس مالٍ يملك الأمانةَ والصِّدقَ، وهما رأسُ مالِ مَن لا مالَ له، كما اكتسب الخبرةَ والبصَرَ بالسّلع فى رِحْلته إلى الشَّام حين خرج مع عمّه أبى طالبٍ إليها.

وكان أبو طالبٍ يكره أن يعود ابنُ أخيه إلى الشَّام خوفًا عليه من يهود، ولكنَّه أمام أزمةٍ شديدةٍ نزلت به لم ير بُدًّا من أن يَعْرِض على ابن أخيه الخروجَ فى تجارةٍ لخديجة بنت خُويلد القرشية الطَّاهرة الشَّريفة جالبةِ الخيرات لصالح أهل مكةَ وأقواتِهم وأكسيتهم.

وعلمت خديجةُ بوجهة نظر أبى طالبٍ فبادرت تَعرض على محمَّدٍ ﷺ أن يخرجَ فى مالٍ لها إلى الشَّام لِمَا تعلمُ عنه من صدق حديثِهِ وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، وكان ذلك على سبيل المُضاربة، وهو أن يكونَ له نصيبٌ من الرِّبح اتفقا عليه، وكان ﷺ فى نحو الخامسة والعشرين من عمره المبارك.

❋ قبوله العرض:

وقَبِلَ عَرضَها للعمل فى تجارتها، وخرج ومعه غلامٌ لها اسمُه «ميسرةُ» حتى وصلا الشَّام، وهناك باع رسولُ اللَّه ﷺ ما حمل معه من السّلع التى خرج بها من مكة، واشترى من الشَّام من السلع ما أراد وبما يناسب مطالب الحياة فى مكة المكرَّمة، ففى التِّجارة - دومًا - نوعُ تكاملٍ بين جهةٍ وأخرى فى الوطن الواحد، وبين دولةٍ ودولةٍ أخرى، وتلك من آيات القدرة الإلهية تجعل النَّاس فى احتياج للتَّكامل والتَّعاون وتبادل الخيرات والسّلع والخبرات:

فالنَّاسُ للنَّاس من بَدْوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونجحت الرِّحلة المباركة بفضل اللَّه - عزَّ وجلَّ - ثمَّ كان لسماحته ﷺ ولنور وجهه وحَزْمه وأمانته، وصدق حديثه أثرٌ عظيمٌ فيما حقَّقه بمعونة اللَّه

من نجاحٍ فى هذه الرحلة.

❋ حديث ميسرة زادها شغفًا:

وقد حدّثها ميسرةُ بعد عودته من الشَّام عن خبرته فى هذه الرِّحلة وما رآه من أمارات البركة والخير فى أثناء صحبته لمحمَّدٍ الهادى ﷺ، من ذلك ما سمعه من راهبٍ اسمُه «نسطورا» حين شاهد محمَّدًا يجلس تحت شجرةٍ فقال: من هذا الرَّجل؟ فقال ميسرةُ: هو من قريش من أهل الحرم، فقال الرَّاهب: ما نزل تحت هذه الشَّجرة قط إلا نبيٌّ. !!

وحدّثها ميسرة عن اثنين من الملائكة كانا يظلّلانه ﷺ من الشَّمس وهو على بعيره فى مسيره فى أثناء النَّهار، وقد اشتدّ الحرُّ، كما حدَّثها عن أمانته وعفّته وصدقه وصبره وحُسْن معاملته للنَّاس، ممَّا كان له أعظم الأثر فى نفس خديجة الشّريفة الطّاهرة.

وكانت خديجة امرأةً حازمةً وشريفةً، وقد مات زوجُها الثَّانى؛ فبادرت لخطبته ﷺ لنفسها وأحسنت، وكانت أولى زوجاته، وعاشا على الوفاء حتى بعثه ربُّه للنَّاس كافَّةً فكانت أول من آمن به من النِّساء، ولم يتزوّج ﷺ غيرها فى حياتها وماتت بارَّةً كريمةً قبل الهجرة الشَّريفة، رضى الله عنها.

❋ ❋ ❋

الزّواج المبارك

❋ خديجة وحَظُّها الوافر:

أراد اللَّه - عزَّ وجلَّ - لخديجةَ بنتِ خُويلد القرشية أن تكون موضعَ كرامة، وأن تزداد شرفًا ونبلًا، وأن تبنىَ مع أشرف الخلق أشرفَ بيتٍ وأعزَّهُ، فقادها قلبها إلى أن تعرض على محمَّد بن عبدِ اللَّه ﷺ الزَّواجَ، فقد وجدت فيه بفطرتها النَّقيَّة كلَّ سِمات الخير والمروءة والنُّبل والرُّجولة.

كان ﷺ فى نحو الخامسة والعشرين، وكانت خديجة فى نحو الخامسة والأربعين، وقد تزوّجت مرّتين قبله، وكان اسمها فى الجاهلية «الطَّاهرة» لشدّة عفافها وصيانتها، وكان لها ولدان من أبى هالة بن زُرارةَ التميميِّ، أحدهما اسمه «هند»، وقد مات أبو هالة فى الجاهلية، ولها بنتٌ «اسمها هندٌ» من عتيق بنِ عابدٍ المخزوميِّ، وبعد موته سعى أشرافُ الرِّجالِ للزَّواج منها فأعرضت، ومع شرفها وحسبها ونسبها فى قريشٍ كان لخديجة إسهامٌ طيّبٌ فى مجال التِّجارة وجلب الخيرات والسِّلع لخدمة بلدها، وكانت تجارتها تسير على أساس «المُضاربة» هى صاحبةُ رأس المال، أمّا الشَّريكُ العامل فى هذا المال فله نصيبٌ من الرِّبح يُحدِّدانه معًا، كما كان الحالُ فى اتفاقها فى رحلة رسول اللّه ﷺ.

❋ وتمَّ الزَّواج:

شرح رسول اللّه ﷺ لأعمامه عَرْض خديجة بنت خويلد، ولم يتردّد عمُّه أبو طالبٍ، ولا عمُّه حمزة فى السَّعى لإتمام هذا الزَّواج المبارك بإذن اللّهِ وفضله، وذهبا معه وخطباها من رأس أسرتها فى هذا الوقت - وهو أبوها أو عمُّها أو أخوها على الخلاف - أى الذى كان حيًّا وقتها - وسطعت أنوار البركة فى بيت خويلد، وتمّ العقد، وخطب أبو طالبٍ خُطبة النِّكاح، وسعدت مكةُ كلُّها بهذه الأسرة العظيمة الشَّريفة، وجرى على الألسنة قولُ راجزٍ من أهل مكة ساعة العقد:

لا تَزهَدى خديجُ فى محمَّد ... نجمٌ يُضىء كإضاء الفَرْقَد

❋ الصَّداق:

وكان الصَّداق عشرين بكْرة - ناقة - وكان ذلك أولَ زواجٍ له ﷺ وكان هبةً وتوفيقًا من اللّه وتمهيدًا للأسباب العظيمة؛ إذ كان لشوكتها فى قومها ومكانتها أثرٌ عظيم فى كفِّ قرون الشَّرِّ والأذى كما كان لعقلها وحُسْنِ أدبِها أثرٌ كريمٌ فى

إدخال السّكينة على قلبه ﷺ فى أوّل البعثة - رضى الله عنها - إنها إحدى سيدات نساء أهل الجنّة.

❋ **أولاده منها:**

لم يتزوج ﷺ حتى ماتت - رضى الله عنها - قبل الهجرة، وكان له منها ولدان ذكران هما: القاسم، وعبد الله المُلَقَّب بالطَّاهر وبالطَّيِّب، وأربع طاهرات هنّ: زينب، ورقيّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة، ومات أولاده فى حياته ﷺ سوى فاطمة، فكانت أول أهله لحوقًا به بعد موته ﷺ، أمّا إبراهيم فأمُّه مصريّة وهى «مارية» الصَّعيدية التى أهداها المقوقس عظيم القبط لرسول اللّه ﷺ.

❋ ❋ ❋

حكم الأمين فسكنت الفتنة

حدث هذا قبل نزولِ الوحى على محمَّد بن عبد اللّه ﷺ بخمس سنين، فقد رأت قريشٌ أن الكعبة التى شرَّفها اللّه فى حاجةٍ إلى هدمٍ وإعادَةِ بناءٍ، وأن يجعلوا لها سقفًا مُحكمًا من الخشب، وقد علموا أن سفينةً لتجّارٍ من الرُّوم قد تحطَّمت على ساحل مدينة جدة، فأسرعوا إلى سيف البحر فى جدَّة ونقلوا خشبها إلى مكة المكرّمة، وكان فى مكة نجارٌ مصريٌّ قبطىٌّ يألفه النّاسُ اسمه «باقول»، وقد اعتبروا ذلك من أمارات التَّيسير والتَّصميم على الهدم وإعادة البناء.

❋ **زالت المخاوف:**

إنَّ الإقدام على هدم البيت المُعظَّم يثير فى النُّفوس الرَّهبة، وقد تردَّدُوا وخافوا من الإقدام على هذا العمل مع جسارتهم، ولكنَّ الوليد بن المغيرة من بنى مخزوم كان هو الأعظمَ جسارةً منهم فتقدَّم بِمعْوَله وهو يناجى ربَّه: قائلًا «اللَّهمَّ لم نَزِغْ - أى لم نبتعد عن تعظيم دينك وبيتك - اللَّهمَّ إنَّا لا نريد إلا

الخير» ثم بدأ فى الهدم من الواجهة الجنوبية - جهة اليمن - واكتفَوْا بذلك يومهم ليروا ماذا يمكن أن يحدثَ تلك اللَّيلة، فإن لم يُصبه شىء اشتركوا معه فى الهدم.

❋ وفى اليوم التالى:

وأصبح الوليد بنُ المغيرة على نشاطه ورغبته فى إتمام عملِه، وبدأ فى الهدم واشترك القومُ من بقية البطون القرشية معه فى الهدم حتى وصلوا إلى أساس إبراهيمَ الخليل - عليه السلام - أى الذى بدأ منه إبراهيمُ رفعَ القواعد، فهذا لم يمسُّوه إلا محاولةً جَرَتْ من بعضهم لتعميق الأساس شيئًا مّا تراجعوا عنها سراعًا لأوَّل ضربةٍ.. فلماذا؟

❋ مكة تهتزُّ بأسرها - كزلزالٍ بصوتٍ -: كان أعلى الأساس القديم حجارةً متداخلًا بعضُها فى بعضٍ، كما تدخلُ عِظامُ سَنم الجمل بعضُها فى بعضٍ وَتُكَوِّن قوةً وكتلةً متماسكةً، وكما نقل ابن إسحاق عن الرَّاوى: «حجارة خُضرٌ كالأسنمة آخذٌ بعضُها بعضًا».

فجاء رجل من قريش ممن اشتركوا فى الهدم وأدخَل عَتَلةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، أى أراد أن يرفع الطبقةَ الأولى من الأساس ظنًّا منه أنَّ ذلك ربَّما يكون أصلحَ للبناء، فلمَّا تحرّك الحجَرُ بسبب إدخال العتلةِ تحته تنقَّضَت مكةُ بأسرها - أى سمعوا لها نقيضًا أى صوتًا مع الهِزَّة - فتراجعوا وانتهوْا وابتعدوا عن هذا الأساس، ثم جرى البناء فوقه.

❋ اشتراك بطون قريش فى هذه المآثر: كان لقريش اثنتا عشرةَ بطنًا، وكانوا جميعًا بعد موت «قُصَىٍّ» حريصين على الإسهام والمشاركة فى شرف الخِدمات التى تُقدَّم لبيت اللّه ولحجَّاجه، وإلَّا تقع الفتنةُ ولا تهدأ الحرب إذا عملوا على حِرمان «بطنٍ من هذه البطون أو أكثر» من الاشتراك فى الأعمال

والمسؤوليات والخدمات التى يقومون بها فى مكة لخدمة البيت وزوّاره.

ولذا: ❊ فإنَّ كل بطنٍ منها اشتركت فى جمع الحجارة لبناء الكعبة، وكانت كلُّ بطنٍ تجمع على حدة.

❊ قاموا بتوزيع الجهات أو الواجهات الأربع للكعبة المشرَّفة على البطون كلُّ بطنٍ تبنى وتشارك فى العمل:

وللفائدة ومعرفة أحوال تنافسهم فى هذا الشرف كان التوزيع على النحو الآتى:

(١) ناحية الباب «الجهة الشَّرقية» لبنى عبد منافٍ وزُهرة.

(٢) ما بين الرُّكن الأسود والرُّكن اليمانىّ – الجهة الجنوبية المقابلة لليمن – لبنى مخزومٍ وبطونٍ قرشيةٍ أخرى معهم.

(٣) وكان ظهر الكعبة «سقفها» لبنى جُمحٍ وبنى سَهْمٍ وهما فرعان عن كعب ابن لؤىٍّ.

(٤) وكانت ناحية الحطيم وهو «حِجْر إسماعيل» – الواجهة الشمالية جهة الشَّام – لبنى عبد الدار بن قُصىٍّ ومعهم: بنو أسد بن العُزَّى بن قُصىٍّ، وبنو عدىٍّ بن كعب بن لؤىٍّ، وهكذا [سَمَّوْه «الحطيم» – بفتح الحاء – لأنَّ النَّاس يزدحمون فيه حتى يَحطِمَ بعضهم بعضًا، أى يدفع كأنَّه يحطم].

❊ وكادت الفتنة لولا الحكمة: إنَّ كل قبيلةٍ أو بطنٍ من القرشيين فى مكة اشتركت فى رفع البناء، كانوا فرحين سعداء بهذا الشَّرف العظيم لم يحدُث بينهم خلافٌ ولكن: حين بلغ البنيانُ موضع «الحَجر الأسود» بدأ الخلاف واشتدَّ الجدال؛ لأنَّ كلَّ بطنٍ منها تريد أن ترفعه هى إلى موضعه دون الأخرى، ثم صاروا فِرقًا بانحياز بعض البطون إلى بعضٍ وتحالفت كل

مجموعةٍ وانسدّت أمامهم مواقعُ الشُّورى وطرقُ التَّفكير فى حلِّ هذه المشكلة ولم يجدوا أمامهم سوى صوتِ الحرب، والمجموعةُ المتحالفة التى تفوز فى النِّهاية هى التى تضع الحجر الأسعدَ فى موضعه، ومعلومٌ أنَّ الحرب يعرف النَّاسُ أولَها ومبدأَها، ولكن لا يستطيعون تقديرَ عواقبها ولا كيف تنتهى؟ وقد استمرّت الحربُ أحيانًا أربعين عامًا، كحرب داحس والغبراء بين عبسٍ وذُبيان مع تولُّد الثأر باستمرار وفوران النَّار فى القلوب، مِمَّا كان له أوخمُ العواقب.

❋ وبعد خمس ليالٍ من الرُّعب والتَّوجُّس: جمعهم أكبرهم سنًّا وهو أبو أميَّة - أو أبو مهشم - بن المغيرة من بنى مخزومٍ وقال لهم: «يا معشرَ قريشٍ: اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضى - يحكم - بينكم فيه» ففعلوا، وانتظروا، وأراد اللَّه بهم خيرًا ليظلَّ البيتُ والحرمُ على أمنه واستقراره[١]، فكان أوَّلَ داخلٍ عليهم الصَّادقُ الحكيمُ الأمينُ أكملُ النَّاس عقلاً ﷺ، فلمَّا رأوه قالوا فرحين: «هذا الأمينُ، رضينا» فلما وصل مجلسهم قصُّوا عليه وبيَّنوا له أمرهم.

وبحكمةٍ عظيمةٍ وبنور عقل أهلِ البصَرِ طلب منهم ثوبًا - عباءة - ففرشه وقام بنفسه فحمل بيديه الشَّريفتين الحجرَ ووضعه وَسط الثَّوب، وهم ينظرون فى صمتٍ شديدٍ، ثمَّ قال الشَّابُّ الأمين ﷺ لهم: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب ثمَّ ارفعوه جميعًا ففعلوا» - وهم عاجزون عن تقديم عبارات الثَّناء والشُّكر على حقن دماءٍ كانت ستضيع هدرًا - حتى إذا بلغوا بالحجَرِ موضعَه رفعه هو بيديه الشَّريفتين ووضعه فى مكانه، وأتمُّوا البناءَ وسكنت عاصفةُ الحرب، وتعاونت بطونُ قريشٍ فى خدمة الحرم وزوَّاره.

---

(١) فقد أمر الله عز وجل أن يكون حرما آمنًا؛ لأن منه خاتم رسله وفيه ينزل الوحى بآخر كتبه سبحانه وتعالى فأمن الحرم من إرهاصات نبوته ومعجزاته ﷺ.

وبعد خمس سنوات من هذا الحادث نزل جبريلُ الأمين، وبعد ثمانىَ عشرةَ سنةً كانت الهجرةُ النَّبويةُ الشَّريفة إلى المدينة المنوَّرة: إذ كان عمره المباركُ عند التَّحكيم خمسًا وثلاثين سنة ﷺ.

* * *

مع الرَّسول ﷺ فى أعظم الليالى بركةً ونزولُ الوحى

بهدايةٍ من اللَّه - عزَّ وجلَّ - وتوفيقٍ منه حبّب اللَّه إلى قلب الشَّابِّ الفتى القرشىِّ محمَّد بنِ عبد اللهِ ﷺ الخلْوة يتأمّل ويتفكّر فى عجائب صُنع اللَّه فى الكون، فكان يجاور فى غار حِراء وحده شهرًا من كل عامٍ تُهيِّئ له زوجُه خديجةُ ما يحتاج إليه من الزَّاد له ولمن يمرّون بالمكان، وفى نهاية شهره ينزل إلى مكة المكرَّمةِ فيطوف بالبيت أولًا ثمَّ يذهب إلى داره، ولا شكَّ أنَّ فى تلك الخلوة الشريفة زيادةً فى صفاء القلب الشَّريف واستعداده لتلقِّى كلمةِ اللَّه - عزَّ وجلَّ - ولذا لم يكن شىءٌ أحبَّ إلى قلبه ﷺ من أن يخلوَ وحده تلك اللَّيالى من كلِّ عامٍ.

❋ تهيئةٌ وإعدادٌ [الرُّؤيا الصَّادقة وتسليم الحَجَر]:

قالت عائشة - رضى اللَّه عنها - كما نقل ابن إسحاق عن الزُّهرىِّ -: «إنَّ أوَّل ما بُدئ به رسولُ اللَّه ﷺ من النُّبوَّة حين أراد اللَّه كرامته ورحمةَ العبادِ به الرُّؤيا الصادقة، لا يرى رسول اللَّه ﷺ رُؤيا (فى نومه) إلا جاءت كفلقِ الصُّبح - أى واضحةً كلَّ الوضوح كأنَّها حقيقةٌ فى اليقَظة - وحُبِّب إليه الخلوةُ».

وكان ذلك قبل نزول جبريل ليتهيَّأ صدْرُه الشَّريفُ لتلقِّى الأمر العظيم، وكان هذا يزيده صفاءً وتفكُّرًا فى الاتجاه الصَّحيح الذى هو عليه، وبه ينمو الإيمان بالوحدانية وبكمال القدرة والحكمة.

وتحدّث عبد الملك بن عبيد اللَّه الثَّقفىُّ إلى ابن إسحاق أنَّه سمع من أهل

العلم: «أنَّ رسول اللَّه ﷺ حين أراده اللَّه بكرامته، وابتدأه بالنُّبوة كان إذا مشى فى الشِّعاب وبطونِ أوديةِ مكة، فلا يمرّ بشجرٍ ولا بحجرٍ إلا قال: السَّلام عليك يا رسولَ اللَّه، فيلتفت الرَّسولُ حوله وعن يمينه وشماله وخَلْفه فلا يرى إنسانًا ولا يرى إلا الشَّجر والحجارة» وقد تكرّر ذلك كثيرًا حتى جاءه جبريلُ - عليه السَّلام - بما جاءه من كرامة الله، وهو بغار حِراء فى شهر رمضان فى اللَّيلة المباركة التى بدأ فيها نزولُ القرآن الكريم.

أمّا نُطق الحجر أو الشَّجر فأمرٌ لا غرابةَ فيه، وقد حدث ذلك لسليمان الحكيم - عليه السلام - فكانت الشَّجرة تقول له: «أنا أنفعُ - بإذن اللَّه - لمرض كذا وكذا - على ما حدَّثوا» وقد علّمه اللَّهُ منطقَ الطَّير وآتاه وأباه داود - عليهما السلام - من كل شىءٍ من خير الدنيا والآخرة، وإنَّ بعضهم يرى أنَّه ربَّما كان النَّاطق بالسَّلام مَلَكًا من السَّماء عند الحجر أو الشجر، فالأمرُ على هذا وقع وحَدَث سواءٌ بإنطاق الجماد نفسه ولا غرابةَ فيه، أم بنُطق الملَك، وهو سبحانه أعلم على أى نحو كان.

* **وفى اللّيلة الأعظم بركةً وخيرًا**: وفى الأربعين من عمره المبارك ﷺ، وفى اللّيلة التى أكرمه اللَّه فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريلُ - عليه السلام - بأمر اللَّه تعالى، وهو نائم فأقرأه الآيات الخمس الأولى من سورة «العَلق»، ولما هبَّ من نومه وجدها ﷺ كأنّها كُتبت فى قلبه الشَّريف كتابًا، وإنَّ مجىء جبريل إليه ﷺ فى المنام قبل أن يأتيه فى اليقظة إنَّما كان تمهيدًا وتنبيهًا وتوطئةً وتيسيرًا عليه ورِفقًا به وتدرُّجا؛ لأنَّ الإنسانَ فيه ضعفٌ وإنَّ أمر النبوةِ لعظيمٌ.

ولذا فالميل إلى مجىء الوحى فى المنام قبل مجيئه فى اليقظة أولى بالقبول والرُّجحان.

❁ **وفى اليقظة**: وكان ﷺ يمشى فى الجبل فسمع ﷺ صوتًا من السَّماء يقول: يا محمَّد، أنت رسولُ الله، وأنا جبريل، قال ﷺ: «فرفعتُ رأسى إلى السَّماء أنظر، فإذا جبريلُ فى صورة رجلٍ صافٍّ قَدَميْه فى أُفُق السماء، يقول: يا محمَّدُ أنت رسولُ اللَّه، وأنا جبريل، قال: «فوقفتُ أنظر إليه فما أتقدَّم وما أتأخّر، أصْرِف وجهى عنه فى آفاق السَّماء» قال: «فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيتُه كذلك».

فى هذا الموقف العظيم أخذته ﷺ الدَّهشة، فوقف فى مكانه طويلًا يُقلّب النظر، حتى طال انتظارُ خديجةَ عودتَه إلى داره فى هذا اليوم، وبعثت فى طلبه، وقد ظل ﷺ فى مكانه حتى انصرف جبريل - عليه السلام - وانصرف هو ﷺ إلى أهله، وهناك تحدَّث إلى خديجة بما رأى وبما سمع، فقالت - رضى الله عنها - مستبشرة: «أبْشِر يابنَ عمٍّ واثبُتْ، فوالذى نفسُ خديجةَ بيده إنِّى لأرجو أن تكونَ نبيَّ هذه الأمَّة».

❁ **ورقة بن نوفلٍ**: وكان ورقةُ بن نوفل قد عرف الإنجيلَ واعتنق النَّصرانيةَ وقرأ التَّوراةَ وسمع من أهلها بأمر النَّبيِّ العربيِّ الأمِّيِّ الذى قَرُب زمانه، وكان «ورقةُ» ابنَ عمِّ خديجةَ فسعت إليه وأخبرته بالمشهد العظيم الذى رآه محمَّد ﷺ، فسبّح ورقةُ بنُ نوفل اللَّه، وأخبرها أنَّه نبيُّ هذه الأمَّة ما دام سمع ذلك ورأى ما رأى، وطلب منه أن يثبت.

ولما رآه «ورقةُ» عند الكعبة قبّل رأسَه الشَّريف وبشَّره بأنَّه نبيُّ هذه الأمَّة، وكانت خديجة تقول له: «يابنَ عمِّ، أبْشِر واثبُتْ، فإنَّه واللَّهِ لمَلَكٌ وما هو بشيطانٍ».

❁ **سورة المدَّثِّر**: وجاء عند البخارى من رواية جابر بن عبد اللَّه أنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثهم عن فترة الوحى - أى انقطاعه فترةً بعد نزول الآيات

الخمس الأولى من سورة «اقرأ» - وكانت فترةً صعبةً على نفسه ﷺ قال: «فبينما أنا أمشى إذ سمعتُ صوتًا من السّماء فرفعتُ رأسى فإذا الملَكُ الذى جاءنى بحِراء جالسٌ على كرسىٍّ بين السّماءِ والأرض، ففزعتُ منه رعبًا - فرجعتُ فقلت: زمّلونى، زمّلونى - أى لُفّونى فى ثيابٍ - وكان ﷺ ينتفضُ - فدثّرونى أو فزمّلونى» أى: قد تحقّق ما طلبه بتغطية بدنه الشّريف لشعوره بالبرد يسرى فيه، فنزل جبريل بالآيات من سورة المدّثّر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ وعلى أثرها نزلت: يا أيها المزّمّل أى: يا أيها المُتلفّف فى ثيابك قُم وانهضْ بأعباء الرّسالة المباركة فإنّ اللّه معك فاعْبُدْه واصبر وتوكل عليه وبآيات الوحى تحدّث إلى النّاس واجتهد فى عبادتك ربّك.

❋ **ليلة القدر أعظم اللّيالى خيرًا وبركةً**: إنَّ ليلة القدر التى بدأ فيها نزول آيات الوحى الإلهى قد لفتنا اللّه - عزَّ وجلَّ - إلى شرفها وعِظم ثواب العمل الصّالح مع النّية الصّادقة فيها نبّهنا على ذلك فى كتابه العزيز وخصّها وخصّ مزاياها وفضلها بسورةٍ من «القرآن الكريم» وجعل أعظمَ أسبابِ شرفها ومنزلتها العالية بين اللّيالى يرجع إلى ابتداءِ نزولِ أعظم كتبه فيها، على أشرف خلقه ﷺ، وفى أشرف بقعةٍ من الأرض وهى أرضُ الحرم مكة المكرمة، وفى أكثر الشهور بركةً وبرًّا وهو شهر الصّوم، وكما جاء اسمها صريحًا فى سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ جاء فى سورة الدُّخان بوصْفٍ يخصّها وهو البركةُ وما أعظمَها من بركة وأجلَّها، إنما هى البركة العامّة التى جمعت خيرى الدنيا والآخرة ببركة نزول القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وجاء اسمها ضِمنًا فى طوايا التنبيه على فضل الشّهر المبارك الذى أنزل الله فيه خيرَ كتبه وأشملها وأعمّها نفعًا وأبقاها إلى يوم الدّين علمًا وعملًا، وذلك فى الآية

(١٨٥) من سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وكان ابتداء نزوله فى ليلة القدرِ المباركة.

❋ **فهى أفضل ليلةٍ فى أفضل شهرٍ**: وكان ﷺ أخشى النَّاس للَّه وأعلمَهم به وأعظمَهم اجتهادًا فى طلب مرضاته بطاعته وبذلِ الجهد فى الصَّلاة والذِّكر والاستغفار والدُّعاء والإنابةِ والجهاد فى سبيله فإذا كان العشرُ الأواخرُ من رمضان التى نلتمس فيها موافقة ليلة القدر كان ﷺ أعظمَ اجتهادًا وتشميرًا فى الطَّاعات وفى تقديم أقصى ما يمكن من القُربات؛ وقد أخبرنا ﷺ عن فضل قيام هذه اللَّيلة العظيمة البركة والخير لنحرص على إحياء العشر الأواخر من رمضان التى بدأ فى ليلة منها نزولُ القرآن العظيم على قلب خاتم النبيِّين، والراجحُ أنها ليلةُ السَّابع والعشرين، مع الحرص على الاجتهاد فى سائر أيام وليالى رمضان، وعدم التفريط فى الطَّاعة والعبادة طوال العام، ولنحرص على حضور الجماعات وأداء الفرائض لأول وقتها، ومن بركات إحياء اللَّيالى المباركات أن نصلِّى العشاء فى جماعةٍ والفجر فى جماعةٍ، وأن نذكُرَ اللَّه كثيرًا ونستغفرَه ونتوبَ إليه ونتلوَ القرآن ونتدبره ونكثرَ من التَّطوُّعات بالصَّلاة والصَّدقات وسائر الحسنات، ولنجعل بيوتنا منيرةً بطاعة اللَّه، بعيدةً عن أسباب شَغْلِ الصِّغار وقلوبِ الكبار باللهو والعبث ودواعى الغفلة عن اللَّه.

إنها ليلةُ التَّحوُّل العظيم فى حياة بنى الإنسان، وإنّ السَّعيدَ حقًّا هو من عمل بأوامر ربِّه واجتنبت ما نهى عنه وتمسَّك بالكتاب وبالسُّنَّة الشَّريفة الصَّحيحة مقتديًا بخير الأنام ﷺ مع الإخلاص والمحبَّة وصدق النِّيَّة.

❋ ❋ ❋

الدّعوة إلى اللّه سِرًا وطلائع النُّور فى المسيرة المباركة

❋ مرحلة السِّرّ ثلاث سنوات:

بدأ نزول الوحى على رسول الله ﷺ فى شهر رمضان، ومضى رسولُ الله ﷺ على أمر الله يدعو إلى التَّوحيد ونبذ الشِّرك والأصنام، وكان أوَّلُ مَن آمن به وشدّ من أزره زوجَه الطَّاهرةَ خديجةَ بنت خُويلد، رضى الله عنها.

❋ وبدأت المسيرة المباركة سرًا: مضى رسولُ اللّه ﷺ على أمر ربّه يبشّر ويُنذر ويَقتلع جذورَ الشِّرك من القلوب بالحكمة والبرهان، وكان أعظمُ آياتهِ وبراهينه هو آياتِ القرآن الكريم، يخاطب بها عقولًا ونفوسًا بلغت درجةً عليا من الفصاحة والبيان فتهُزّ آياتُ القرآن قلوبَهم هزًّا؛ لِمَا فيها من الإعجاز الذى لا يقوى على الإتيان بمثله البلغاءُ والفصحاءُ من الشعراء والخطباء والحكماء؛ ولما فيها من المعانى الجليلة، والقيم النَّبيلة، والبراهينِ النَّاطقة بوحدانية الخالق وكمال قدرته وحكمته وإرادته.

جعل رسولُ اللّه ﷺ يتَّصلُ سرًا بمن يأنسُ منهم الوفاءَ والمروءةَ والتعقُّل، ويتصلُ بمن كان قلبُه الشَّريف يطمئن إليه من أهله يُحدِّثهم أفرادًا - فردًا فردًا - بما أنعم اللّه به عليه، وبما أمره اللهُ بتبليغه، ليرتفعَ الإنسانُ من حضيض الشِّرك وفسادِ النُّظم الاجتماعية والانحرافات الأخلاقية إلى سماء الإيمانِ بالوحدانية والعبودية لله وحده وإلى تحقيق كرامةِ الإنسانِ وأمنهِ وسلامته.

❋ طلائع النُّور وروَّاد المسيرة:

عليٌّ: وكان عليُّ بنُ أبى طالبٍ - رضى الله عنه - أوَّلَ فتًى سطع نورُ الإسلام فى قلبه وعقله بعد خديجةَ - رضى الله عنها - وكان ابنَ عشر سنين، وقد قضى معظم سِنيه فى دار الرَّسول ﷺ قبل الإسلام وكفاه ما كان يألفه ويراه من ابن عمِّه محمَّدٍ من المعجزات والبراهين الأخلاقية والنَّفسية فى مجتمعٍ جاهليٍّ.

زيد: ثمَّ أسلم عتيقُه ﷺ: زيدُ بنُ حارثة مولاه ﷺ، وقد أعتقه بعد أن ملك أمره بالهبَة من خديجةَ وتبنَّاه ﷺ حتى حرَّم الإسلام التَّبَنِّى - وستأتى قصته إذا أراد الله - وقد اختار هذا الفتى العربىُّ صحبةَ النَّبىِّ ﷺ على العودة مع أبيه وعمِّه إلى ديار قبيلته.

أبو بكرٍ: وهذا الرَّجل كان أمّةً وحده فى الجاهلية وفى الإسلام، ففى الجاهلية كان ذا عقلٍ راجحٍ وحكمةٍ وطيب نفسٍ وسماحةٍ يألفه النَّاس، ويستريحون إليه، ويطلبون منه المشورة والنَّصيحة؛ لأنَّه كان واسعَ الخبرة بالتِّجارة وأحوال النَّاس، دعاه رسول الله ﷺ إلى الخير فلم يجد منه كَبوةً ولا تردُّدًا وكأنَّ قلبه كان مفتوحًا إلى السَّماء ينتظر الفرجَ من اللَّه والخروجَ من مضايق الجاهلية وعبثها، إنَّه أبو بكر بنُ أبى قُحافة من بنى تيمٍ القرشيين ومن أسمائه: عبد اللَّه، وعَتيقٌ فهو عتيقٌ من النَّار بإذن اللَّه، فكانَ أوَّل من أسلم من رجالات قريشٍ المرموقين الحكماء الحلماء الذين انشرحت صدورهم لدين اللَّه عزَّ وجلَّ.

❋ **وتوالت الطليعة المباركة**: وبلغ السَّابقون إلى الإسلام ثمانية أشخاص، جذب قلوبهم الطَّاهرةَ نورُ الحقِّ مع طهارة قلب الرَّسول ﷺ وصدقه وأمانته وتربّعه على قلوب النَّاس فى مكة المكرَّمة بالتَّقدير والاحترام لشخصه ولكمالِ أدبِه وعقله.. فكيف لا يسرع العقلاء إلى الإيمان بما يدعوهم إليه من الخير والهدى؟

وكان أبو بكر الصِّدِّيق أولَ داعيةٍ إلى الإسلام من الصَّحابة فقد نذر نفسه وحياته ووقته لأوَّل وهلةٍ بعد إيمانه للدَّعوة إلى الخير والهدى والحق لصالح النَّاس، وأخذ - رضى الله عنه - يتصل بمن يثق فيهم من أهل العقل والرَّوية يدعوهم بدعوة رسول الله ﷺ فآمن بدعوة أبى بكرٍ:

(١) عثمانُ بن عفَّان من بنى أميَّة وكان فى نحو الرابعة والثلاثين.

(٢) وأبو عبد الله الزُّبيرُ بنُ العوَّام ابن عمَّة النَّبىِّ ﷺ، وكان فى نحو الخامسةَ عشرةَ من عمره وهو من بنى أسَدٍ القرشيين.

(٣) وعبد الرَّحمن بنُ عوفٍ من بنى زُهرة بن كلابٍ، واسمه حين أسلم «عبد الكعبة أو عبد عمروٍ» وكنيته: أبو محمَّدٍ، وكان فى نحو الثلاثين؛ لأنَّه وُلد بعد الفيل بنحو عشر سنين وكان إسلامه قبل دخول رسول اللَّه دار الأرقم ابن أبى الأرقم.

(٤) وسعدُ بن أبى وقَّاصٍ من بنى زُهرة بن مُرّة بن كلابٍ، وكنيته أبو إسحاق، وكان فى الإسلام مُجابَ الدَّعوة ببركة دعاء رسول اللَّه ﷺ: «أن يسدِّد اللَّهُ سهمه، وأن يُجيب دعوته» فكانوا يتحاشَوْن دعوتَه على أحد.

(٥) وطلحة بن عُبيد اللَّه من بنى تيم بن مرَّة، وهى البطن التى منها أبو بكرٍ الصِّدِّيق، وكُنيةُ طلحةَ: أبو محمَّدٍ الفيّاض، وكان فى نحو الثلاثين أو دونها.

هؤلاء الثمانية مع خديجة - رضى الله عنها - هم الطَّليعة فى النُّور المبارك، وقد بارك اللَّه فى حياتهم وأنجح مقاصدهم وسدّد خُطاهم، وكانوا للحبيب المصطفى ﷺ نعم الصَّحْبُ المبارك، والمجاهدون الأبرار، والأتقياءُ الأحرار رضى الله عنهم وعن جميع أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسانٍ: «خديجة، علىّ، زيد، أبو بكرٍ، عثمان، الزبير بن العوّام، عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقّاصٍ، وطلحة بن عبيد اللَّه».

فائدة: فى سرد الأسماء السَّابقة لم تأت واو العطف إلا قبل المعطوف الثَّامن وهو «وسعد» فى السِّياق السَّابق، ويُسمِّيها بعضُ العلماء ومنهم القرطبىُّ «واو الثَّمانية» أى فى سرد عددٍ من الأشياء التى تحتاج إلى الفصل فيما بينها بواو العطف، فيمكن الاستغناء عن الواو حتى الاسم أو الأمر السَّابع

فى السّياق، ولا بدَّ من ذكرها قبل كل «ثامن»، راجع آية الكهف: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (٢٢، وآية التوبة ١١٢) من قوله سبحانه: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ . . إلى قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ وتأمّل الفصاحة، فليلتفت إلى ذلك أصحاب البيانات والمؤرخون وسائر الكاتبين. واللَّه الموفِّق.

* * *

مع أوّل صبيّ دخل فى الإسلام

كان من نعمة الله على الصَّحابيّ الجليل عليّ بن أبى طالب ابن عبد المطَّلِب أنّه كان يعيش قبل الإسلام فى رعاية ابن عمِّه رسولِ اللَّه ﷺ وتربّى فى داره يَحظى بصحبة أعظم الرِّجالِ بركةً وخيرًا وبكرم وسماحة إحدى سيدات نساء الجنَّة خديجةَ زوجِ النَّبىِّ ﷺ ورضى اللَّهُ عنها، فعاش عليٌّ بن أبى طالبٍ معهما مُكرَّمًا معزَّزًا.

❋ **قصة انتقاله إلى بيت النَّبىّ**: أصاب القرشيين قحطٌ شديدٌ فى مكة المكرَّمة وما حولها، وكان أبو طالب عمُّ النَّبىِّ صاحبَ عيالٍ قليلَ المال، فأخذ رسولُ الله عمَّه العبَّاسَ وذهبا إلى دار أبى طالبٍ، وطلبا منه مشاركته فى تحمُّل أعبائه والتخفيفِ عنه من عياله حتى يزول القحط، ويأتى الخيرُ بإذن الله وإحسانه، فوافق أبو طالبٍ، فاصطحب رسولُ الله ﷺ «عليًّا»، واصطحب العبَّاسُ «جعفرًا» وكان أكبرَ من عليٍّ أخيه بنحو عشر سنين.

وكان ذلك من فضل الله على الفتى الصَّغير المبارك، وما قدَّره سبحانه له من الخير، فلم يزل عليٌّ – رضى الله عنه – مع رسول الله حتى بعثه الله – تبارك وتعالى – نبيًّا، وقد اطَّلَع عليٌّ عن قُربٍ وعن صُحبةٍ ومُلازمةٍ على أحوال الصَّادق الأمين فكان عليٌّ بعد خديجةَ – رضى الله عنها – من أعلم النَّاس بتمام عقله

وكمال خلقه وشرف نفسه الزَّكية، وعظم بركته فى جميع أموره ﷺ.

❋ **سَبْقُه إلى الإسلام**: ومن تلك البركات التى أرادها اللَّه لعبده علىِّ ابنِ أبى طالب أن شرح الله صدره لدينه، فكان أوَّل ذكرٍ من النَّاس آمن برسول اللَّه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى، وكان أولَ من صلَّى مع رسول الله، كما كانت خديجةُ سابقةَ الإناثِ إلى الإيمان والوضوءِ والصَّلاة مع رسول الله ﷺ.

❋ **كيف عرف أبوه قصَّة إسلامه؟** أخفى الفتى المباركُ إسلامَه وصلاتَه عن أبيه وأعمامه وسائر قومه، فكان يخرج مع حبيبه ﷺ إلى شِعاب مكة مستخفيًا للصَّلاة بعيدًا عن العيون، ثم يعودان لا يراهما أحدٌ من النَّاس حتى أراد الله أن يراهما أبو طالب وهما يُصلِّيان، فسأل: يابنَ أخى: ما هذا الدينُ الذى أراك تَدين - بفتح أوله - به؟ قال: «أى عمِّ هذا دينُ اللَّه، ودينُ ملائكته، ودينُ رسله، ودينُ أبينا إبراهيم، بعثنى به اللهُ رسولًا إلى العباد، وأنت - يا عمِّ - أحقُّ من بذلتُ له النَّصيحةَ ودعوتُه الى الهُدى، وأحقُّ من أجابنى إليه وأعاننى عليه»، وكان الرَّسول ﷺ حريصًا على هداية عمِّه أبى طالبٍ، ولكنَّ الرجل كان فيه جمودٌ شديد على ميراث آبائهِ وأجداده، ومع ذلك كان شديدَ الثِّقة بصدق محمَّدٍ ابنِ أخيه وبأنَّ دينه هو الحقُّ، وقد وعد بمناصرته وبكفِّ شرِّ قريش وأذاهم عنه ما دام حيًّا، وظل يحنو على رسولِ الله ويحبُّه ويحوطه بالرِّعاية وظلَّ رسولُ الله ﷺ يُشفق على عمِّه أبى طالبٍ ويدعوه للدُّخول فى دين الله، ولله سبحانه الحكمةُ البالغةُ، ومات الرَّجلُ على ما كان عليه آباؤه.

❋ **ونصيحته لابنه**: وكان علىٌّ - رضى الله عنه - حين أراد الدُّخولَ فى الإسلام يرغب فى مشاورة أبيه، ولكنه عدل بعد تفكُّر لم يطل، وقال: «لقد خلقنى الله من غير أن يُشاورَ أبا طالبٍ، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لكى أعبدَ الله وحده».

ثمَّ فُوجئ الفتى المباركُ بأنَّ أباه قد آمَنَ عقلُه، وقد كفر قلبُه تكبُّرًا وجمودًا؛ لأن أباه حين سأله: «أى بُنى، ما هذا الدِّينُ الذى أنت عليه؟ فقال الفتى علىٌّ: يا أبتِ، آمنتُ باللَّه، وبرسول اللَّه، وصدّقتُه بما جاء به، وصلَّيتُ معه لله، واتَّبعتُه» فكان جوابُ أبى طالب لابنه: «أمَا إنَّه لم يَدْعُك إلا إلى خيرٍ فالزَمْه»، فقد نصح ابنه بلزوم دينِ الله والصَّبر مع الرَّسول ﷺ واتِّباعه، ولم ينصح نفسه، فسبحان من بيده الأمر وحده، وفى سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (الآية: ٥٦).

❋ عاش ومات وفيًا نقيًا:

وصبر علىُّ بن أبى طالبٍ مع حبيبه ﷺ، وجاهد تحت لوائه، وقام بمهامَّ عظيمةٍ فكان وزيرَ أبى بكرٍ الصِّدِّيق سنةَ إمارته الحجَّ فى العام التَّاسع، وتلا علىٌّ - رضى الله عنه - سورةَ براءة على النَّاس فى مِنى تمهيدًا لتطهير البيتِ والأماكن المقدَّسة من كل مظاهر الشِّركِ التى كان يقوم بها المشركون فى أدائهم المناسك، ثم أوفده الحبيبُ ﷺ إلى اليمن فأخمد فتنةً اندلعت هناك، وظلَّ - رضى الله عنه - طاهرَ النَّفس، نظيف اليد واللِّسان حريصًا على سلامة الأمَّة، خيرَ عونٍ للحقِّ حتى لقى ربَّه، رضى اللَّه عنه وكرَّم وجهه، ونفعنا بسيرته.

❋ ❋ ❋

زيد بن حارثة ثالث الطَّليعة المباركة

هو الثَّالثُ من طلائع النُّور، وأوَّلُ من أسلم من الذُّكور وصلَّى للَّه الواحدِ الوهَّابِ بعد علىِّ بن أبى طالبٍ - رضى الله عنه - فكان الإسلامُ فى أوَّل الأمر محصورًا فى هذا البيت الطَّاهر المبارك، إنَّه البيتُ الذى زارته ملائكةُ الرَّحمن وتعطَّرت أجواؤه بتلاوة كلام الله، وعاش أهله فى حِفظ الله ورعايته، وسطع فيه نورُ النُّبوَّة، ومنه بدأ نظمُ أمَّةِ الخيرِ والحُبِّ والبركة، إنَّه بيتُ الحبيب

المصطفى ﷺ.

فكان زيد بنُ حارثةَ مولى رسولِ الله ﷺ الرابع فى أمّةِ الإسلام بعد حبيبه الهادى ﷺ والثالثَ بعد خديجة - رضى الله عنها - وعليِّ بن أبى طالبٍ، ألا ترى هذا البيت المبارك من قلبك يتلألأ نورًا، ويفيض خيرًا وبركة؟ ويقتضينا المزيدَ من الشكر لله على أعظم النِّعم بأن جعلنا من هذا النَّظْم المبارك الذى بدأ بأهل هذا البيت، فَسَلكَنا بفضله وإحسانه فى سِلكهم وهدانا، وجعلنا مسلمين موحّدين نُقِرُّ لله بالوحدانية ولمحمَّدٍ ﷺ بالرِّسالة ونحترم جميع أصحابه ونوقِّرهم وندعو لهم كما ندعو لأنفسنا ولجميع المسلمين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ (الحشر).

❋ **مَنْ زيد بن حارثة؟**: وصل زيد بنُ حارثة بن شَراحيل من بنى كلْب ابن وَبْرة إلى مكَّة المكرَّمة وهو ابن ثمانية أعوامٍ، وكانت أمُّه قد خرجت به من ديار أبيه لتزورَ أهلها من «بنى معْن» من قبيلة طيئ فخطفه رجالٌ من «بنى القَيْن ابن جسر»، وباعوه بأحد أسواق العرب، والذى اشتراه هو التَّاجرُ المكِّىُّ: حكيمُ بن حِزام بن خُويلد وكان فى طريقه من الشَّام إلى مكَّة بلدِه ومعه عددٌ من الرقيق، وإنَّ هذا الأمرَ كان مألوفًا فى الجاهلية ومن مساوئ أعمالهم التى أبطلها الإسلام، وإنَّ قصة زيدٍ وبيعه تذكِّرنا بقصة بيع «يوسف بن يعقوب» - عليهما السَّلام - لعزيز مصر بدراهم معدوداتٍ؛ وكما كان الخيرُ والكرامةُ فى انتظار يوسف - عليه السلام - فى مصر كان لزيد بن حارثة خيرٌ عظيمٌ تدَّخره له الأقدارُ بفضل الله ورحمته فى أعظم البيوت خيرًا وبركةً بمكَّة المكرَّمة، فكيف كان ذلك؟.

❋ **فى بيت رسول اللّه وخديجة**: زارت خديجة - رضى الله عنها -

ابنَ أخيها «حكيم بنَ حزامٍ» لتهنئته بسلامة الوصول من الشَّام، وأراد حكيمٌ أن يقدِّم لها هديَّةً فقال لها: «اختارى يا عمَّةُ، أى هؤلاء الغلمان شِئتِ فهو لكِ» فاختارت زيدًا فأخذته، فلمّا رآه رسول الله فى البيت، طلب منها أن تهبه له، فوهبته له، فأعتقه رسولُ الله ﷺ، وتبنّاه، فصار اسمُه: «زيدَ بنَ محمَّدٍ» وكان التَّبنِّى مألوفًا قبل الإسلام حتى بعث الله نبيَّه، ونزلت الآياتُ بتحريم التَّبنِّى تحريمًا قاطعًا وبوجوب دعاء الشَّخص باسمه واسم أبيه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٥ من سورة الأحزاب].

❋ **قلقُ القبيلة وحزنُ حارثة**: اشتدَّ حزنُ حارثة بن شراحيل على فراق ولده، كما اشتدَّ حزنُ يعقوبَ على فراق يوسف من قبل، وقلقت القبيلةُ على الصَّبىِّ الصَّغير وكم كان لأبيه من أبياتٍ تفيض حنانًا وتقطر دموعًا وأسًى حتى تناقلتها الألسنة وشاعت وذاعت فالشِّعر كان بريدَ هذا العصر ومذياعه وإعلامه، حتى وصلت الأبياتُ مكَّةَ المكَرَّمةَ وذاعت ومنها:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فَعَل ... أحَىٌّ فيُرْجَى أم أتى دُونه الأجَل

فكان من جواب زيدٍ على شعر أبيه:

أحِنُّ إلى أهلى وإن كنتُ نائيًا ... بأنِّى قَعيدُ البيتِ عند المشاعر

وطلب إليهم أن يكفُّوا عن البحث عنهُ مُطمئِنًا لهم بقوله:

فإنِّى بحمدِ اللَّه فى خيرِ أُسرةٍ ... كِرام مَعَدٍّ كابرًا بعد كابر

وذاعت الأبياتُ وحدَّدت المكان وهو «البيتُ عند المشاعر» فى مكَّةَ المكرَّمةِ، وانطلق أبوه وعمُّه إلى مكّة المكرَّمة فى لهفٍ شديدٍ، وكلُّ ذلك كان قبل الإسلام، وذهب الرَّجل الى بيت رسول الله ﷺ وكان لقاءً عاطفيًّا شديدَ التأثير بين الولد وأبيه، فقال الحبيب المصطفى ﷺ لهما: «إن اختاركما فذاك - أى خذوه -» وقال له: «إن شئتَ - يا زيدُ - ذهبتَ معهما، وإن شئتَ

أقمتَ معى» فأجاب زيد: «بل أقيم معك» وقال زيدٌ لأبيه: «إنِّى قد رأيت من هذا الرَّجل شيئًا - أى أمورًا عظيمةً وأخلاقًا عاليةً - وما أنا بالذى أفارقه أبدًا».

فلم يزل عند رسولِ اللّه ﷺ فى خيرٍ وكرامةٍ حتى بعثه اللّه، فأسلم زيد ابنُ حارثة وبايع وصدّق وكان الثّالثَ من الصَّحابة، ونالته بركةُ ورود اسمه فى سورة الأحزابِ فى سياق تأكيد تحريم التّبنِّى، وصبر زيدٌ وهاجر وجاهد وأخلص لدين اللّه رضى اللّه عنه وأرضاه.

* * *

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب]

من معجزات: مسيرة نور الدعوة المباركة

«وأظهر الله دينه وعَلت كلمة الحق والهدى»

❋ فى مكَّة المكرَّمة نما الخير وبدأت مسيرة النُّور:

إنَّ أمَّ القُرى مكَّة المكرَّمة شرّفها اللَّه وجعلها حرمًا آمنًا وفيها أوَّلُ بيتٍ وُضع فى الأرض لعبادة اللَّه وحده، وبارك اللَّه فيه، وجعله مَزارًا ومَطافًا للملائكة والنَّبيين والمرسلين وصالحى المؤمنين، وفى جواره تربَّى نبىُّ الله إسماعيلُ بنُ إبراهيم خليلِ الرَّحمن وترعرع ونمت ذريَّتُه وكثرت وأنجبت بفضل الله وحكمته خيرَ البريَّة، وفى مكَّة كانت خطواتُه المباركة فى رعاية الله وكَلاءته وحفظه من دنَس الجاهليَّة وأوشابِ الأخلاقِ البشريَّة، فنما عودُه وهو على أفضل الأخلاق وأعظم الآدابِ وأرفع مراتب الكمالِ الإنسانىِّ، مع كمال العقل، وتمام الحِلم، ونقاءِ الفِطرة، فما أن بلغ محمدُ بنُ عبد الله الأربعين من عمره المبارك حتى نزل ملكُ الوحى عليه فى غار حِراء بكلام اللَّه - عزَّ وجلَّ - يُبلِّغه بالاصطفاء، وبتحمُّل أعباءِ الدَّعوة إلى نور الله وهدايته، وهو فردٌ لا يملك مالًا ولا سلطانًا ولا قوَّة.

وبذلك بدأت مسيرةُ الإنسان مرحلةً جديدةً ومجيدةً، فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى جميع الرُّسل والأنبياء من قبله، فقد جعل اللَّه فى عقله الفِطنة وفى قلبه الحكمة.

❋ ومن داره بدأ العمل:

وفى داره المباركة ﷺ تحدَّث إلى أقرب النُّفوس إليه «زوجِه خديجةَ بنت خويلد» فآمنت وآزرتْ، كما آمن علىُّ بنُ أبى طالبٍ وزيدُ بنُ حارثةَ وهما فتيان عاشا فى هذا البيت المبارك، وامتلأ قلباهما محبَّةً وتوقيرًا للصَّادق الأمين، فكان هؤلاء الثَّلاثةُ نواةَ أعظم أمَّةٍ أقامت أبهى وأفخم حضارةٍ فى

تاريخ بنى الإنسان. . فلنتأمّل معجزةَ الإسلام! وكيف بدأت مسيرته؟ وكيف صارت هذه الأمّة عظيمةَ الشان عاليةَ البُنيان؟

❋ **الأرقم وداره**: ثمَّ بدأت الدَّعوةُ تصل سرًّا إلى من يطمئنُّ الرَّسولُ ﷺ إلى رجاحة عقله ومروءته، وهَدى اللهُ إلى دينه رجالًا وشبَّانًا حملوا الأمانة وصدقوا وأوْفَوْا، وكان لا بدَّ لهم من مكانٍ آمِنٍ يلتقون فيه وتسهل مراقبةُ الطَّريق إليه وقد بلغوا عشرًا، وانشرح قلبُ شابٍّ مكِّيٍّ فى نحو العشرين من عمره لنور الدَّعوة وبايع وعاهد، وهو الأرقم بنُ أبى الأرقم المخزوميُّ وصار الحادىَ عشرَ فى المسيرة المباركة.

واختار رسولُ اللَّه ﷺ دار «الأرقم بن أبى الأرقم» فى مرحلة الاستخفاء وسرّية الدَّعوة ليلتقى فيها الموَحِّدون لموقعها المناسب على جبل الصَّفا ولسهولة مراقبةِ الطَّريق ووصول أصحابهِ إليها دون أن يلتفت المشركون إلى ما هم فيه.

وفيها كان رسول اللَّه ﷺ يبلّغهم آياتِ الوحى، ويعلِّمهم ويربِّيهم، ويؤمُّهم فى الصَّلاة بعيدًا عن أعين الرُّقباء حتى لا يلحقهم أذًى، وفى خلال السَّنوات الثَّلاثِ الأولى فشا أمرُ الإسلام، وذاع خبرُه، وقد قويت شوكةُ المسلمين بإسلام «حمزة» عمِّ النَّبىِّ وإسلام «عمر بن الخطَّاب»، وكان إسلامهما فتحًا، وبإسلام عمر فى دار الأرقم صار عدد المسلمين أربعين ما بين ذكرٍ وأنثى، وصار هؤلاء قوامَ أمّةِ الإسلام المجيدة بعد أن كانوا ثلاثة من ضعفاء بنى الإنسان هم: امرأة وفتيان اثنان فى بيت رسول الله ﷺ، وقبل دخول هؤلاء فى دين اللَّه كان رسول اللَّه ﷺ رجلًا فردًا تلقَّى الوحى وعصمه اللَّه وحفظه، وجعل فى قلبه نورَ الحكمة وأمره بالصَّبر والرِّفق فصبر وثابر، ولم يلتفت قلبُه إلا إلى اللَّه وحده، ولازمته عنايةُ اللَّه وتوفيقُه بفضله وإحسانه.

❁ **الجهر بالدَّعوة**: وجهر عمر بنُ الخطَّاب بإسلامه، وقرأ ابنُ مسعود سورةَ الرَّحمن بجوار الكعبة المُشرَّفة، وأقبل أصحابُ القلوب الليّنة على نور الحق والهُدى وأمر رسولُ الله أصحابه بالاستخفاء بصلاتهم فى شِعاب مكّة - فى الجبل - بعيدًا عن تربّص المتربّصين بهم، واتِّقاء الأذى والشَّرّ.

وأوذى الضعفاءُ والموالى، وأمر رسولُ الله أصحابَه بالهجرة إلى الحبشة فإنَّ فيها ملكًا عادلًا وشعبًا مسالمًا، وبلغ عددُ المهاجرين من الرِّجال والنِّساء إلى الحبشة ثلاثةً وثمانين ما عدا صِغار السِّنّ والذين وُلدوا فى الحبشة.

❁ **مقارنة وإعجاز**: وبعد عشر سنوات من بدء جهر رسولِ الله ﷺ بالدَّعوة أمره اللّه بالهجرة إلى المدينة المنوَّرة وقد سبقه أصحابُه ﷺ إليها، وقد صار له أنصارٌ موحّدون من أهلِ المدينة وما حولها، وفى عدد من القبائل الأخرى كقبيلة «دَوْس» بالقرب من الطَّائف، وصار «تميم الدَّارى» وبعضُ قومه فى فلسطين دعاةً إلى دين الله - عزَّ وجلَّ - بين قومهم هناك، لقد خرج المسلمون من مكَّة وهم قليلٌ مُستضعفون فى الأرض، ثم عادوا إلى فتحها وتحت راية القيادة المباركة نحو عشرة آلاف مجاهد فى العام الثَّامن، ثم عاد إليها رسول الله ﷺ فى العام العاشر لأداء الحجّ ومعه مائةُ ألف مسلمٍ ومسلمةٍ أو يزيدون.

وتأمَّل فى وقتنا الحاضر بركة الإسلام فى أرجاء الأرض وهم أكثر من ألف مليون نفسٍ وهم فى أشد الحاجة إلى الفقه والفهم لدين الله وإلى التّآزر والتَّساند والتَّساعد والتَّناصر.

❁ **مع «الأرقم ودار الأرقم» والمسيرة المباركة**:

الأرقم بنُ أبى الأرقم من بنى مخزومٍ المكِّيين القُرشيين: تنعطف نفوسنا نحو هذا الاسم المبارك بإكبارٍ ومحبةٍ وإعجابٍ شديدٍ وإذا ذكرنا «دار الأرقم» شعرنا بهالةٍ من نور: الإخلاص، والوفاء، والرُّجولة، كما نرى فيها القاعدة

المتينة فى بناء الدّولة النّاشئة العظيمة، والتى كان قوامُها فى هذه الدّار فى أوّل الأمر: «أحدَ عشرَ» قلبًا عظيمًا، وتناهى العددُ فى هذه الدّار إلى «أربعين» كان آخرهم «عمر بن الخطاب» ثمّ بدأت المسيرة المباركة مرحلةً جديدةً وهى الجهرُ بالدّعوة بعد ثلاث سنواتٍ من بدء نزول الوحى، والخروج من مرحلة «السرّيّة» التى اقتضتها ظروف الدّعوة المباركة على مدى ثلاثة أعوام.

❋ **المركز الثّالث**: لقد كانت «دار الأرقم» المركزَ الثّالثَ للدّعوة المباركة، فإنّه بعد بيت اللّه الحرام يعيش فى نفوسنا: «غارُ حِراء» حيث تلقّى رسولُ اللّه ﷺ أولى آيات الوحى الإلهى، ثمّ دار رسول اللّه ﷺ وزوجه خديجة - رضى الله عنها - وجزاها عنّا خير الجزاء.

❋ **وفى دار الأرقم**: وفى هذه الدّار بقى رسولُ الله ﷺ نحو ثلاث سنواتٍ يدعو إلى اللّه سرًّا، ويُربّى أصحابه، ويتلو عليهم آياتِ الوحى، ويؤكد فى نفوسهم العلاقاتِ الإنسانية السليمة؛ لأنَّ النّاس سواسية يجمعهم التّعاطفُ والتّراحم وتبادُل الاحترام والشّفقة على الضّعيف وتوقير الكبير والرّحمة للصّغير.

قال عبد اللّه بن مسعودٍ - رضى الله عنه-: «ما كُنّا نقدر على أن نصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمرُ بنُ الخطّاب، فلمّا أسلم قاتَل قريشًا حتى صلّى عند الكعبة، وصلّينا معه» [سيرة ابن هشام الجزء الأول].

وآتت التّربيةُ السّليمةُ ثمارها فكان الصّحابةُ - رضوان الله عليهم - على أعظم ما يكون: من قوة الإيمان، وسلامة اليقين، وصحة التّوكل على رب العالمين.

ولمّا أمر الله - عزَّ وجلّ - نبيَّه بالجهر بالدّعوة وجدوا من القرشيين أذًى عظيمًا، فصبروا، واحتسبوا، وكانوا يزيدون ولا ينقصون بفضل الله - عزّ وجلّ - وكان العرب فى مكّة المكرّمة لا يعرفون النِّفاقَ الذى هو من مقتضى

التّعقيدات الاجتماعية فى المعتاد، وكان العربُ أهلَ صراحةٍ ووضوحٍ لم يختلطوا فى مكّة بعناصرَ ذاتِ ميولٍ وتوجّهاتٍ كوّنتها عُقدٌ تاريخيةٌ أو مطامحُ عنصريةٌ كما كان حال العرب الذين قوى اتّصالهم باليهود فى المدينة المنوَّرة وغيرها.

❊ **عبرةٌ**: وكان عُتاة المشركين فى مكّة وما حولها كلَّما اشتطّوا فى محاربة الدَّعوة والدَّاعى الكريم وأنصاره ازداد عددُ أهل الإيمان، فكان عدد الَّذين هاجروا إلى الحبشة من مكّة المكرّمة ثلاثةً وثمانين رجلًا، فإذا أضيف الصّغارُ من أولادهم والّذين ولدوا فى الحبشة أربى العددُ على مائتين.

ثمّ تلت تلك الهجرةَ إلى الحبشة هجرةٌ أخرى إلى المدينة المنوَّرة، وظلَّ الرَّسول ﷺ فى مكّة صابرًا محتسبًا يدعو إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى هاجر بأمر ربِّه إلى المدينة المنوَّرة فى نهاية السَّنة الثالثةَ عشرةَ من بدء الدَّعوة.

❊ **وفى المدينة المنوَّرة**: أقبل النّاس على رسول اللّه ﷺ فمنهم من آمن ومنهم من طلب الأمان والمُوادعة له ولقومه، وتمهَّدت الأرضُ فى المدينة وما حولها للأمن والسَّلام ولانطلاقة الدَّعوة بفضل اللّه وإحسانه، وأخذ رسول اللّه ﷺ فى إرساء قواعد دولة الحقِّ والإيمان وكرامة الإنسان.

❊ **مقارنةٌ وإحصاءٌ**: بدأت البعثة فى «غار حراء» والرَّسولُ ﷺ وحيدًا يتفكَّر فى ملكوت السَّموات والأرض ويوحِّد ربَّه، وفى داره المباركة صار معه ثلاثةٌ من ضعفاء بنى الإنسان هم: «امرأةٌ، وغلامان»، وفى دار الأرقم على مدى ثلاث سنين صاروا أربعين رجلًا وصاروا قبل الهجرة النَّبويَّة الشريفة بضع مئات.

❊ وفى السَّنة الثَّامنة من الهجرة خرج ﷺ لفتح مكّة المكرّمة، ومعه عشرةُ

آلافٍ من أهل مكّة (القرشيين) ومن الأنصار (الأوس والخزرج) ومن بنى تميمٍ وقيسٍ وأسدٍ، ولا يدخل فى هذا العدد من بقى بالمدينة من الأسر المسلمة وفيهم الأطفالُ والنّساء وأصحابُ الأعذار والأعمال.

❋ وفى حُنينٍ بالقرب من الطّائف فى هذه السَّنة نفسها «وهى السَّنة الثَّامنة» شهد معه الموقعة اثنا عشر ألفًا من الموحِّدين.

❋ ثمّ توالت وفودُ العرب تبايع رسولَ الله ﷺ قال ابن إسحاق: «لمّا افتتح رسولُ الله مكَّةَ، وفرغ من تبوك أى - فى العام التَّاسع - وأسلمت ثقيف (أهل الطّائف) وبايعتْ ضربتْ إليه وفودُ العرب من كلِّ وجه». قال أبو عبيدة: «إنّ ذلك كان فى سنة تسعٍ، وإنّها كانت تُسمّى سنة الوفود».

❋ **ولذا**: حضر الحجَّ مع رسول الله ﷺ مائةُ ألفٍ فى العام العاشر، هذا عدا من بقى فى موطنه لم يخرج للحجِّ فى تلك السَّنة وهم ألوفٌ.

❋ **جمع اللّهُ به القلوب**: وأترك الحديثَ للدُّكتور محمَّد حسين هيكل يقول فى كتابه: «حياة محمَّدٍ» عن القدوة الحسنة وما كان لها من ثمراتٍ عظيمةٍ فى بناء النُّفوس وإقبالها على دين اللّه وحرصها على نصرة الحقِّ، يقول: «وكان المسلمون الأوَّلون يستخفون لعلمهم بما تُضمره قريشٌ من عداوةٍ لكل خارجٍ على أوثانها، فكانوا إذا أرادوا الصَّلاة انطلقوا إلى شِعاب مكَّة - داخلَ الجبال - وصَلَّوا فيها، وظلّوا على ذلك ثلاثَ سنواتٍ ازداد الإسلامُ فيها انتشارًا بين أهل مكّة، ونزل على محمَّدٍ - ﷺ - فيها من الوحى ما زاد المسلمين إيمانًا وتثبيتًا».

وكان رسولُ اللّه ﷺ المثَل والقدوةَ الحسنةَ: بالخُلق الكريم، وبسعة الصّدر، والصّبر، وبالبرِّ والرّحمة، وبالتّواضع، مع قوة العَزْم، وعُذوبة الحديث، وضَرَبَ لهم أروعَ الأمثال فى كل مجالٍ إنسانىٍّ كمحبَّته للعدل

وتحقيقه من نَّفسه، فقد أعطى كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، وبالأبوّة الحانية المُشْفقة فقد لاطَفَ اليتيم، ونظر برحمةٍ وبِرٍّ إلى البائس والمسكين، وكان الجميع يَلْقَى منه صادق المودَّة، والعطف والحنان والمواساة.

كان ترتيلُه ﷺ للقرآن الكريم يجعل القلوب تلين، والنّفوسَ تخشع، كانوا يُشفقون عليه من سهره اللّيالى قائمًا بين يدى أرحم الرَّاحمين، يبكى ويتبتَّل، ويُصلّى، ويستغفر، ويسأل الله من فضله، كان ﷺ يلتمس العبرةَ من آيات اللّه فى الكون، فتعلَّم منه أصحابُه صِحةَ النّظر والتَّفكّر فى آلاء اللّه وفى براهين قدرته ورحمته وكمال سلطانه، فكان يقينهم ثابتًا، وإسلامُهم نقيًّا، فاحتملوا الأذى وصبروا على مُفارقة الدّار والأهل والموطن والمالِ من أجل الغاية الأسمى، والهدفِ الأعظم ألا وهو اقتداؤهم به ﷺ فى الدّعوة إلى الحقّ والخير والهداية لأفضل سبل العيش، وإخراج النَّاس إلى النُّور.

لقد رأينا حَوْلَ الرّسولِ الكريم: الشَّيخَ والشَّابَّ، منهم الأشرافُ والضُّعفاءُ، والقرشىُّ والغريبُ، والعربىُّ والحبشىُّ ومن ينتسب إلى الرُّوم، وفيهم التَّاجر وراعى الغنم والإبل، والغنىُّ والفقير، والقوىُّ والضَّعيف، وعاشوا جميعًا أسرةً واحدة مُتكافئةً فى الاحترام والرَّحمة والتَّوقير، يضمّهم المجلسُ الواحد على أساس المساواة والتَّراحُم والتَّعاطف والتَّواضع، غايتُهم إعلاءُ كلمة الحقِّ والعدل، وكانت أنوارُ تلك المسيرة الهادية تجعل القلوبَ تهفو إليها منقادةً لأمر الله مقتديةً برسول اللّه، فدخل النّاس فى دين اللّه أرسالًا، وقد توالت الوفود منذ العام التّاسع تبايع، وتؤمن بالتَّوحيد، وتنبذ الشِّركَ والأوثان، وتجتنب مساوئ الجاهليّة وكبرياء القبليّة، ولذا صار العام التَّاسع من الهجرة يُسَمَّى «عام الوفود».

❋ **وفى العام العاشر «حجّ مائة ألف»**: وبعد نحو عشرين عامًا منذ الجهر

بالدَّعوة خرج مع رسول الله ﷺ للحجِّ مائةُ ألفِ نفس مؤمنةٍ غير من بقى فى المدينة وما حولها من المسلمين، فتفكّر فى سموِّ المقاصد، ونُبل المبادئ، وكيف صار الإنسانُ بالإسلام عزيزًا كريمًا له احترامه وتوقيره، صار آمنًا على ماله وعِرضه وعبادته وداره، يتنافس النّاس فى شرفٍ وأمانة من أجل إنعاش الحياة وإقامة حياةٍ أفضل لبنى الإنسان.

❋ **الوداع**: ودّع الرسولُ الكريم ﷺ فى خُطبته فى العام العاشر وهو بمشاعر الحجِّ، ونزلت عليه سورة «النَّصر» تبشّره بتمام النِّعمة، وبتوفيق الله له فى إتمام المهمَّة وأداء الرِّسالة وبأن راية الإسلام رفرفت عاليةً خفاقةً ونوره سطع على العالمين، فأدرك الصَّحابة أن حبيبهم يوشك أن يلحق بالرَّفيق الأعلى؛ وودّعت القلوبُ والنُّفوس الطَّاهرة الحبيبَ المصطفى ﷺ فى العام العاشر، وقد بلغ العمر الشَّريف «ثلاثًا وستين سنة»، وقد بقى لنا رسولُ الله ﷺ بسنَّته وسيرته وأخلاقه كأنّه ماثلٌ أمامنا فى صلاته وصيامه وحجّه وفى قوّة يقينه وعظمة قيادته، وفطنته ومساواته النَّاسَ بنفسه الشَّريفة، إنه يعيش فى قلوبنا نورًا نستضىء به فى المسيرة الصحيحة.

إنَّ المتأمِّل بحقٍّ وصدقٍ يجد معجزةَ القرآن، ومعجزة الدَّعوة إلى خالص الإيمان ناطقةً بصدق الدّاعى ﷺ وبأنّ دين الإسلام هو الدّين الوارث لسائر الأديان السَّماوية.

فالحمد لله الذى هدانا وجعلنا مسلمين

❋ ❋ ❋

إسلام قبيلة دَوْس وبركة دعائه ﷺ لها

نصبت قريشٌ العداوةَ لرسول الله ﷺ بشدّةٍ ومكرٍ ودهاءٍ وأخذت فى تنفير القبائل والقادمين إلى مكّةَ لحجٍّ أو عمرةٍ أو تجارةٍ حتى لا يستمعوا إليه بقولهم:

مجنونٌ أو أساطيرُ الأوَّلين أو ساحرٌ أو كاهنٌ وغير ذلك من الأمثال يضربونها له؛ خشيةَ أن يكثُرَ المؤمنون وتنقضى معالمُ الجاهلية وضلالاتها وكبرياؤها.

وأظهر اللهُ المعجزاتِ على يديه ﷺ دلالةً على صِدقه وتكذيبًا لأعدائه فيما يتحدَّثون به ويرمونه من الجنون ونحوه.

❋ **تحذيراتهم شيخ قبيلة دوسٍ**: وحضر الطُّفيل بنُ عمرو الدَّوسىُّ، وهو شيخٌ فى قومه مطاعٌ وأديبٌ شاعرٌ وأريبٌ، فأسرع إليه كبار المتعنِّتين يرحّبون به ويخوِّفونه من رسول الله ﷺ، ويؤكدون عليه عدم الذَّهاب إليه أو القرب منه وهو يتلو القرآنَ أو يصلّى، وإن دعاه لسماع كلامٍ لا يسمع منه.

ظنَّ الرَّجلُ أنَّ الأمر مُخيفٌ حقًا وقرّر عدم مقابلةِ محمدٍ ﷺ وهؤلاء المحذِّرون هم أهله وأقربُ الناس إليه، أمَّا هو فمن جُذورٍ يمنيَّةٍ هاجرت وأقامت فى جبل السَّراة قُرب الطَّائف من جهة الجنوب، ومن شدَّة حذره حشا أذنيه قُطنًا حتى لا يسمعَ منه شيئًا وهو فى الحرم يطوف ويسعى.

❋ **رسول اللّه يصلّى فى الحرم:**

ودخل الطُّفيلُ الدَّوْسِىُّ الحرمَ ورأى صلاةً لم يألفها من قبلُ فيها خشوعٌ وروعةٌ وجلالٌ والمصلّى قائمٌ عند الكعبة ومَشهدُ صلاته يأخذ بالألباب:

قال الطُّفيل: فقمت قريبًا منه ﷺ - وأذناه مسدودتان - فأبى اللّه إلَّا أن يُسمعنى بعضَ قراءته، فكان لسانُ حالِ الرَّجل يقول:

يا طفيلُ: أين عقلُك واستقلالُك بفكرك؟ إنّك سمعتَ السَّاعةَ كلامًا حسنًا، يا طفيل: أنت شاعرٌ أريبٌ لبيبٌ تتذوَّق الكلام وتعرف قَدْرَه من البلاغة، وقد سمعت اليوم ما يدعوك إلى المزيد والسُّؤال:

يا طفيل: سِر وراء هذا الرَّجل خِلْسةً حتى داره.

❋ **وفى بيته ﷺ**: يا محمَّد: سمعتُ من قومك ما خوّفنى، وسمعتُ منك بعض قولك فلان قلبى، فاعرِضْ على أمرك يا محمَّد؟ ثمَّ يُحدِّث الطُّفيل نفسه وكأنّه يقول بلسان الحال:

يا طفيلُ: لقد شرح لك محمَّدٌ الإسلام، وقرأ عليك القرآن، وإنَّك - يا طفيل - ما سمعتَ فى حياتك أحسنَ من هذا الكلام ولا أمرًا أعْدلَ وأنفعَ من أمر هذا الرَّجل.

هيا يا طفيل تكلَّم بكلمة الحقِّ، هيّا يا طُفيل تكلّم بكلمة الحقّ:

❋ **إسلام الطُّفيل**: فأسلم الرجل، وشهد شهادةَ الحقّ، يا رسولَ اللّهِ: اسألْ ربَّك لى أن يستمع قومى إلى كلامى بقلوبٍ واعيةٍ وآذانٍ صاغيةٍ وأنا أدعوهم إلى الإسلام «وأن يجعل لى آيةً فيما أدعوهم إليه تكون عونًا لى عليهم» فقال ﷺ: «اللّهمَّ اجعلْ له آيةً»، وكان دعاءُ الرّسول ﷺ أعظمَ غنيمةٍ له من رحلته إلى مكّة بعد خلوص قلبه للحقِّ ودخوله فى دين اللّهِ - عزَّ وجلَّ - ومن آيات ذلك وبراهينه.

❋ **عودته إلى قومه**: وحين اقترب من قومه رأى نورًا بين عينيه كأنه نور مصباح فسأل الله أن يكون فى غير وجهه حتى لا يظنّوا أنّه تأديبٌ من الأصنام لفراقه دينهم، فانتقل النُّور إلى عصاه كأنَّه قنديلٌ مُعلَّق بطرفها، فكانت الدَّهشة عظيمةً.

ودعا الطُّفيل فى أدبٍ ورقّةٍ أباه وزوجته فأسلما، ثمَّ دعا القبيلةَ وهم غارقون فى مآثم الجاهلية فلم يجد آذانًا صاغيةً، فرجع إلى مكّة حزينًا على قومه على ما هم فيه من الخطايا والشِّرك وطلب دعاء الرّسول ﷺ للقبيلة، وكان الدُّعاء المبارك: «اللّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وائْتِ بهم» وأوصاه بدعوتهم والرِّفق بهم، وسبقته معجزةُ دعاءِ الحبيب المصطفى ﷺ، وببركة هذا الدُّعاء كان الخيرُ الأعمُّ.

❊ **وأسلمت دوسٌ ومنهم أبو هريرة**: ورجع الطُّفيل إلى قومه وهو عظيم الأمل والرَّجاء فوجد صدورًا منشرحةً لما يقول وأقبلوا على دين اللّه، حين دعاهم الطُّفيل وبيّن لهم على الرَّغم من أنَّهم لم يروا رسول الله ﷺ، وظلَّ يعلِّمهم الطُّفيلُ كما تعلَّم حتى هاجر الرَّسول ﷺ إلى المدينة المنوَّرة، وتأخَّرت هجرةُ «دَوْسٍ» إلى ما بعد غزوة: بدرٍ وأُحدٍ والخندق، ثمَّ قدم نحو ثمانين أسرةً مع الطُّفيل إلى المدينة، والرَّسولُ ﷺ بخيبرٍ، فأسرعوا للانضمام إلى المجاهدين وتلك أوَّل غزوةٍ حضروها.

وظلّ الطُّفيل مجاهدًا وفيًّا لدينه حتى حارب المرتدِّين بعد رسول الله ﷺ فى عهد أبى بكرٍ الصديق - رضى الله عنه - ونال الطُّفيل الشَّهادة فى «اليمامة» فى قتال مُسيلمة الكذّاب مُدّعى النُّبوَّة وأتباعه، وهلك الكذَّاب مُسيلمة الحنفىُّ واستتبَّ الأمر لدولة الإسلام.

❊ ❊ ❊

وفى أوّل الإسلام أمر اللّه نبيّه بالصّلاة وعلّمه ﷺ جبريلُ عليه السّلام

قالت أمُّ المؤمنين عائشة: «فُرضت الصَّلاة أوَّل ما فُرضت ركعتين، فأُقِرَّت صلاةُ السَّفر (أى تُصلَّى ركعتين فى الرُّباعية) وزِيدَ فى صلاة الحضر».

[أخرجه البخارى عن عروة بن الزبير].

وفى لفظ ابن إسحاق: «افتُرضت الصَّلاةُ على رسول اللّهِ ﷺ أوَّلَ ما افتُرضت عليه ركعتين ركعتين، كل صلاة، ثم إنّ اللّه تعالى أتمَّها فى الحضر أربعًا (أى فى الظُّهر والعصر والعشاء) وأقرّها فى السَّفر على فرضها الأوَّل ركعتين».

❊ **جبريل يتوضَّأ ويصلّى**: فكانت الصّلاةُ أوَّلَ العبادات العمليّة أدَّاها النَّبىُّ

ﷺ أوّلَ الإسلام مع جبريل - عليه السّلام - فقد أتاه جبريلُ وهو بأعلى مكّة فَهَمَزَ بمؤخَّر قدمهِ «أى قَدَم جبريل» فى ناحية الوادى فانفجرت منه عينٌ فتوضّأ جبريلُ ورسولُ اللّه ﷺ ينظر إليه، ثمَّ توضَّأ ﷺ كما رأى جبريل يتوضَّأ، ثمَّ قام جبريل فصلَّى به، وصلَّى رسولُ الله بصلاته، ثمَّ انصرف جبريل.

وعاد رسول الله ﷺ إلى بيته وعلّم خديجة الوضوء وصلّى بها، ثمّ صلّى معهما علىٌّ بن أبى طالبٍ، ثمّ زيدُ بنُ حارثة وهما غلامان ناشئان كلٌّ منهما فى نحو العاشرة.

لفتة: إنَّ آية الوضوء نزلت فى المدينة المنوَّرة، وعلى هذا تكون فرضيَّةُ الوضوء مكّيَّةً بتعليم جبريل، ويكون الوضوء مدنيًا بالتّلاوة.

❋ **ما معنى ركعتين ركعتين**: معنى أنّ الصّلاة فُرضت «ركعتين ركعتين»، أى أنّ ذلك قبل «الإسراء» من أوّل الإسلام، والإسراء كان بعد ذلك بنحو عشرة أعوامٍ، وهذا على مقتضى حكمة التّدريج فى شرائع الإسلام وقت نزول الوحى.

قال السُّهيلىُّ: «ذكر المُزنىُّ أنّ الصَّلاة قبل «الإسراء» كانت صلاةً قبل الغروب، وصلاةً قبل طلوع الشَّمس، ويشهد لذلك قوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ (غافر: ٥٥) والعشىُّ: هو من بعد الزَّوال إلى اللّيل، والإبكار: هو من طلوع الفجر الثّانى إلى طلوع الشّمس، أى: صلّ لربّك فى هذين الوقتين، وإن كان يصحُّ الشُّمول وهو الأمر بالصَّلوات الخمس.

❋ **فرض الصلوات الخمس**: فرض اللّهُ على عباده الصَّلواتِ الخمسَ ليلةَ الإسراء قبل الهجرة النَّبويَّة بعامٍ، أى بعد البعثة بنحو اثنى عشر عامًا.

ولذا فإنّ قول عائشة: «فزيدَ فى صلاة الحضَر»، أى الصلاة للمُقيم غير المسافر يحتمل: الزيادةَ فى عدد الصَّلوات أى من صلاتين فى اليوم واللَّيلة

إلى خمس صلواتٍ والزيادةَ فى عدد الرَّكعات فصارت أربعًا فى الظُّهر وكذلك العصر والعشاء وثلاثًا فى المغرب: وقولها: «فُرضت الصلاةُ ركعتين» أى قبل فرضها ليلةَ الإسراء أربعًا كما بيَّنَّاه، وإن كان قد قيل: إنّ الصَّلاة ظلَّت ركعتين ركعتين منذ فرضها أيضًا ليلةَ الإسراء حتى العام الأوَّل من الهجرة فظلّ المقيمُ والمسافر يؤدِّى كلٌّ منهما الصَّلواتِ الخمسَ ركعتين حتى زِيدَ فى صلاة المُقيم، فصارت أربعًا فى الظهر والعصر والعشاء، وظلّت هذه الرُّباعيةُ تُصلَّى ركعتين بالنِّسبة للمسافر، ويؤيده حديثُ البخاريِّ عن عروة عن عائشة وفيه: «فُرِضت الصّلاةُ ركعتين ركعتين ثمَّ هاجر رسولُ اللّه إلى المدينة فَفُرِضت أربعًا» أى أربع ركعاتٍ للظّهر والعصر والعشاء للمقيم، وبقى للمسافر أن يؤديها ركعتين ركعتين تخفيفًا عنه.

قال ابنُ جريرٍ كما روى ابن كثيرٍ: «وفى السَّنة الأولى من الهجرة زِيدَ فى صلاة الحضر، فيما قيل ركعتان، وكانت صلاةُ الحضر والسّفر ركعتين، وكان ذلك بعد نحو شهرٍ أو يزيد من دخول النَّبيِّ ﷺ المدينة المنوَّرة».

❋ **جبريل فى صبيحة ليلة الإسراء:** بيَّن جبريل لرسول اللّه ﷺ ليلةَ الإسراء كيفيةَ الصَّلوات الخمس وأوقاتها، وأمر رسولُ الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا وصلّى به جبريلُ فى ذلك اليوم إلى الغد، والمسلمون يأتمُّون بالنَّبيِّ ﷺ وهو يقتدى بجبريل عليه السَّلام.

وقد بيَّن له جبريلُ أوّلَ الوقت وآخرَه بالنِّسبة لكلّ فريضةٍ، ولم يذكر له توسعةً فى وقت المغرب، كما علَّمه الجهرَ فى الأُولَيين من المغرب والعشاء وفى صلاة الصُّبح.

إنّ الصّلاة أعظمُ الفرائض العمليّة فى الإسلام مَن أقامها وأخلص فيها فقد أقام دينه وعليه أن يجتهد فى باقى الطَّاعات ويؤدّى سائر الفرائض ليكون من

الفائزين بفضل الله ورحمته وإحسانه.

❋ **ومن التّدريج فيها وفى الأوامر والنّواهى لحكمة**: إنّ تحريم الخمرِ تأخَّر عن الأمر بالصَّلاة فصلّى بعضُ الصَّحابة وهم سُكارى وحدث ما لا يليق وتَمنَّوا تحريمها عليهم وأبغضوها من قلوبهم فنزل قوله تعالى من سورة النِّساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ ثم حرَّمها اللّه عليهم تحريمًا باتًّا إلى يوم القيامة فهى رِجسٌ من عمل الشَّيطان، وقد أمر اللَّه باجتنابه اجتنابًا تامًّا.

والحمد للّه على نعمة الإسلام وبيان الأحكام التى تُقرِّبنا إلى ساحة رحمةِ العزيز العلَّام وتهيِّئ نفوسَنا للنَّجاة يوم الدِّين برحمته وإحسانه.

❋ ❋ ❋

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

[النساء]

❋ ❋ ❋

الإسراء.. وثوابته الرّوحية والمكانيّة فى مسيرة الدّعوة إلى دين الله

❋ الصَّبر والمثابرة:

وجاء الإسراءُ بعد نحو عشر سنواتٍ من المسيرة المباركة فى مكّة المكرّمة، وقد بسط فيها غُلاةُ قريشٍ وحلفاؤهم أيديهم وألسنَتَهُم بالسوء والأذى للرّسول الكريم ﷺ الذى صبر واحتسب وبسط لسانَه ويدَه بالحبِّ والسّلام والرَّحمةِ والأمان، فقد أراد لهم الحياةَ الفاضلة الخاليةَ من الشَّرِّ والفساد والخالية من ظلام المعتقداتِ الباطلة ومساوئ القيم المبنيّة على أساسٍ غير إنسانىّ لا يطمئنُّ فى إطارها الضَّعيفُ على حقوقه، ويتطاول الأقوياءُ بالغلظة والجفاء فتنعدم المؤاخاة والمواساة كما كان حال النّاس عند ظهور النّبىّ محمّد ﷺ.

كان ﷺ يرجو لهم الخير ويثابر على دعوتهم بالحجة والبرهان والكلمة الطَّيبة، ويخاف الله فيهم، وهم كانوا حريصين على مواريثَ باليةٍ فى العقيدة والنِّظام الاجتماعىّ الذى يسود فيه قانونُ القوة والبطش والزهوِ الفارغ بالحسب والنسبِ والعُدّة والعدد.

وأيّد الله رسوله، وعصمه، وأمره بالصَّبر وسعةِ الصَّدر، وكانت تلك مرحلةَ ابتلاءٍ عظيمٍ، وعاين النَّاسُ فيها مُعجزاتٍ، ورأوا آياتٍ بيّناتٍ على سلامة منهج الدَّاعى العظيم وصِدْقه فيما يُبلّغه عن ربِّ العزّة والجلال، وانشرحت له صدورٌ، ونالت نصيبها من الأذى راضيةً محتسبةً اقتداءً بالهادى الحبيب ﷺ.

وبالغ المتعنِّتون بالأذى والتَّطاول بعد موت أبى طالب عمّ النَّبىِّ ﷺ، وموت خديجةَ الحبيبةِ النَّسيبة البارّة - رضى الله عنها - وكان الرسول ﷺ يحزنه شدَّةُ جهلهم، وهو الرّحيم البارُّ بهم، ويناديهم من قلبٍ شريفٍ طاهرٍ: «أنقذوا أنفسَكم من النّار» وهم يكابرون ويتعنَّتُون مع يقينهم بأنّه على حقٍّ،

وبأنه يُوحَى إليه، ومؤيَّد من السَّماء.

❋ رفع اللهُ قَدْرَه وزاده شرفًا:

كان صلواتُ الله عليه على يقينٍ بالله راسخٍ ثابتٍ يضىء له طريقَ حياته، وزاده الله يقينًا بزيادة الآيات، كما زاده طمأنينة وإيناسًا بتلك المعجزة العظيمة الشأن التى اختير لها ﷺ ولم تكن لأحدٍ قبله من المُرسلين، فزاده الله بها شرفًا، وأراه منزلته عند ربه، فهو إمامُ المرسلين، وقد جمعهم الله له فى تلك اللّيلة المباركة وفيهم جدُّه إبراهيمُ الخليل وأخواه موسى وعيسى عليهم أفضلُ الصلاة والسلام فصلّى بهم إمامًا، فهو آخر المرسلين ورسالته هى الرِّسالةُ العامة الوارثةُ والمُهيمنة على ما سبقها من الرسالات الإلهية يدعو إلى ما دعا إليه الرُّسلُ والأنبياء من قبله، ويُضىء قلوبَ العباد بنور الوحدانية وإخلاص العبادةِ والطاعة لله - عزَّ وجلَّ - على مقتضى أمره ونهيه سبحانه، وعلى جميع العباد أن يؤمنوا بدينه وأن ينصروه ويَتَّبعوا سُنَّته وإلا قامت عليهم الحجةُ إذا لم يسيروا فى طريقه وكانوا من الخاسرين.

❋ الإسراء وبيت المقدس: ومن المسجد الحرام الذى ببكّة كانت بداية الرِّحلة المُبَارَكَة، وكان المسجد الذى ببيت المقدس أقْصَى طرفٍ فى هذه المسيرة التى أحاطت بها أنوارُ القدرة الإلهيّة والرِّعايةِ الربّانية لتأكيد أنّ الدين هو دينُ الله، وأن المساجد إنّما بُنيت لتوحيد الله وعبادته وحده، وقد خصّ الله المسجدين العظيمين بمزيدٍ من التنبيه على فضلهما، فهما أقدم مسجدين وقد كان لآدمَ - عليه السلام - وبنيه شرفُ بناء الكعبة فى مكّة المكرَّمة وبعد بنائها بأربعين عامًا أُوحِى إلى آدم ببناء المسجد الأقصى فى بيت المقدس «يبوس» أو «أور سالم» أى مدينة سالم وهو الملك العربىُّ اليبوسىُّ اليمنىُّ الجذور مؤسس المدينة المباركة.

وعمل الطُّوفانُ فى عهد نوحٍ عملَه كما عملت عواملُ التَّعرية عملَها وطُمِسَت المعالمُ للمسجدين، وقيّض الله لخليله إبراهيم - عليه السلام - الرِّحلةَ من بلده فى شمال العراق إلى الشّام ثمّ إلى مصر ثمّ إلى الحجاز، وفى الحجاز وفى أرض الحَرمِ كبُر ولده إسماعيلُ فى المكان الذى اختاره الله له، وأُوحى إلى إبراهيم بمكان البيت وأمره ربُّه برفع قواعده ليكون دومًا رمزًا لتوحيد الله - عزَّ وجلَّ - فى الأرض.

كما ألهَم الله - عزَّ وجلَّ - عبده الصالحَ «ملكى صادق» الفلسطينىَّ الكنعانىَّ اليبوسىَّ العربىَّ اليمنىَّ الجذور بمكان المسجد الأقصى فطهّره وهَيَّأه بيتًا لعبادة الله وحده فى جبل «المريّا» بالأرض الطَّيِّبة «بيت المقدس» وفى هذا المسجد عبد «ملكى صادق» الله وكان عبدًا ربَّانيًا وكاهنًا زاهدًا وقدّم القرابين لله، وقد زاره إبراهيمُ الخليل ورحّب به ملكى صادق وأكرمه وكان إبراهيم فى طريقه لزيارة ابن أخيه لوطٍ - عليهما السلام - وقد أثنى الله - عزَّ وجلَّ - على عبده الولى الصّالح «ملكى صادق» فى «الإنجيل» الذى نزل على عيسى ابن مريم - عليهما السلام - فهو الراهب المقدسىُّ العربىُّ الذى تنسك فى الأقصى قبل أنبياء بنى إسرائيل، بل قبل وجودهم ووجود إسرائيل - عليه السلام - فإسرائيل هو (يعقوب) حفيد إبراهيم الخليل، وقد مات يعقوب بمصر، حيث كان يعيش هو وأولاده وأحفاده مع ولده يوسف النَّبىِّ الطَّاهر - عليه وعلى أبيه وجده أفضل الصّلاة وأتمُّ السَّلام - علمًا بأنّ موسى وهارون - عليهما السلام - وهما من ذرية إسرائيل لم يدخلا فلسطين وماتا فى التِّيه.

وفى مسيرة الدَّعوة إلى دين الله وتوحيده منذ آدم حتى خاتم الرُّسل محمَّدٍ ﷺ جاءت الإسراءُ بأمر الله لتأكيد أنّ دينَ اللّه هو الإسلامُ الذى بعث اللّه به جميعَ رسله وكلّف به عباده ولا فوزَ يوم القيامة برحمة الله إلا به، وإنه بعد

ظهور خاتم النَّبيِّين والمُرسَلين محمَّدٍ ﷺ وجب على جميع العباد اتِّباعه فدينُه هو دين جميع الرُّسل قبله، وجميعهم آمنوا به وأمروا أتباعهم بالإيمان به عند ظهوره، وهو الدِّين العامُّ الباقى إلى يوم القيامة.

* **الكعبة والأقصى**: والمسجد الحرام بمكَّة المكرَّمة والمسجد الأقصى رمزان للتَّوحيد وعبادة الله وحده تعبّد فيهما الرُّسلُ والأنبياء والصَّالحون والموحِّدون أتباعُ رسل الله فى جميع العصور، وقيَّض الله لهما من يجدِّد بناءهما أو القيام بتوسعتهما حسبما تقتضى الأحوال وظروف الزمان، ومن ذلك تحديث البناء والتّوسعة للمسجد الأقصى بعد ظهور الإسلام وكان للخلفاء والسَّلاطين والملوك عنايةٌ عظيمةٌ بالمسجدين الشَّريفين، وظلَّ «المسجدُ الأقصى» قُرَّةَ أعْيُنِ الموحِّدين، وما زال أمانةً فى أعناقهم إلى يوم الدِّين، ولقد كان الإشراف عليه والهيمَنة على مدينة القدس «يبوس» للعرب الفلسطينيين من قبل وصول إبراهيم الخليل جَدِّ داودَ وجدِّ سليمان - عليهم صلوات الله وسلامه - بآلاف من السِّنين، ولما نزل إبراهيمُ - عليه السلام - على اليبوسيِّين فى «مدينة حبرون أو حبرى» وهى الخليل الحاضرة أكرموه وفرحوا بالنُّور والصَّلاح، كما فرح به «ملكى صادق» - رضى الله عنه - واستضافه فى معبده بجبل «المريا» وأكرمه الإكرام الواجب، هذا هو الحقُّ والتَّاريخ والحقيقة، فالقدس وفلسطين عربيَّةٌ إسلاميَّةٌ.

وبعد قرون من موت يعقوب، ثمَّ موت موسى وهارون - عليهم جميعًا أفضل الصَّلاة والسَّلام - استطاع داود النّبىُّ - عليه السَّلام - أن يدخل القدس ويحكمها هو وابنه سليمان - عليه السلام - من بعده نحو سبعين عامًا، فهى من قبلهما ومن بعدهما مدينةٌ عربيَّةٌ بناها العربُ وأقاموا فيها حضارتهم وملكهم، وظلَّ بيت المقدس وفلسطين والأقصى المبارك موئلًا لعباد الله

الصّالحين وللأنبياء والمرسلين يتعبَّدون حتى تبدَّد الإسرائيليون وتفرَّقوا، وتشتَّتوا تحت كلِّ كوكبٍ بفعل الرومان وغيرهم من قبلهم، وجاء «الإسراء» والمدينة خاليةٌ منهم، ثمّ جاء الفتح فى عهد عمر بن الخطّاب - رضى الله عنه - وتسلّم مفتاحَ المدينة من كبير الأساقفة الذى رحّب بإخوانه المسلمين، وطلب منهم العهدَ ألا يُساكنهم فى بلادهم أحدٌ من اليهود، وتمَّ العهد بذلك وبالأمان على العبادة والمال والعرض والكنائس، مع حريَّة العمل والعبادة.

نذكر فى الإسراء: إمامةَ الرّسولِ الكريم فى الصَّلاة وخلفه رسلُ اللّه، ونذكر فرضيَّة الصَّلوات الخمس، ونذكر بيت المقدس والمسجد الأقصى الذى بارك اللّه حوله ونذكر أنَّه أولى القبلتين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

جندرة بن خيشنة

جَندرةُ بنُ خَيْشَنَة من بنى كِنانة، وكنيته أبو قِرْصَافة، نشأ نشأةً بدويَّةً خَشِنةً يرعَى غنماتٍ، وكان يسكن أرضَ تِهامة، وعاش بعد الفتح الإسلاميِّ فى فلسطين فى قريةٍ من أعمال «الرَّملة»، كما فى معجم البلدان.

❋ **من سيرته فى الأدب المفرد:** فى الحديث رقم (١٢٥٩) تحدّث يحيى ابنُ حسَّانَ البَكْرىُّ الفلسطينىُّ إلى ضيوفٍ له بقريته فقال: «أمَّنا فى هذا المسجد رجلٌ من بنى كِنانة يصوم يومًا ويُفطر يومًا» أى كصيام نبى الله داود، عليه السلام.

وأشار يحيى بنُ حسَّانَ إلى أنّ «أبا قرصافة» حضر عقيقةَ أخيه بدعوة من أبيه، وكان ذلك فى يوم صيامه، فلمَّا حضر الطَّعامُ أفطر، أى: أن أبا قُرصافة اختار إيناسَ القوم وإظهارَ السُّرور بوليمتهم ومشاركتهم فرحتَهم، وكان صيامه تطوّعًا، والمتطوّع كما يقول بعضُ أهل العلم أميرُ نفسه إن شاء أتمَّ صيام يومه وإن شاء

أفطر خصوصًا لسببٍ كأن يرى فى ذلك مصلحةً لزائريه أو لمن استضافه.

فهل يقضى يومًا مكانه؟ اختلف أهل العلم فى ذلك؛ لأنّ دخوله بالنّيّة فى التّطوّع بالصّيام أو بصلاةٍ نافلةٍ أوجب عليه هذه النّافلة من صيامٍ أو صلاةٍ عند بعضهم فإن أفسدها قضاها، وعند غيرهم خلافُه فى التّطوُّع، وإنّ المؤمن يستزيد من القُربات ويسعى دومًا لنيل ما عند الله من الرّحمة والثّواب.

❋ **فى إسلامه عِبرةٌ ومُعجزةٌ**: تحدَّث أبو قرصافة - رضى الله عنه - إلى أهله وأحفاده عن مبدأ دخوله فى الإسلام فروت حفيدتُه عزّةُ بنتُ عِياضٍ ابنهِ على لسانه، قال لهم الجدُّ:

❋ كان بدءُ إسلامى أنّى كنت يتيمًا بين أمِّى وخالتى، وكان أكثر ميلى إلى خالتى، وكنت أرعى شُويهاتٍ لى، أى عددًا قليلًا.

❋ فكانت خالتى كثيرًا ما تقول: لا تمرّ بهذا الرَّجل - تعنى النّبىّ محمّدًا ﷺ - فيُغويك ويُضلّك.

❋ فكنتُ أخرج حتى آتى المَرْعى، وأترك شُويهاتى - غنمى أو غُنَيْمَاتِى وهو تصغيرٌ للتّقليل - أى يتركها فى المرعى، ويذهب، فإلى أين كان يذهب؟ يقول:

❋ ثمّ آتى النّبىّ ﷺ فلا أزال عنده: أسمع منه ثمّ أروح - أعودُ آخر النّهار - بغنمى ضُمَّرا - بضمٍّ أوله وتشديد الميم مفتوحةً - يابساتِ الضَّرع - وذلك يعنى اختيار مرعى قليل الخير لقحطٍ أو لقُرب مكانٍ.

❋ **تأنيب**: ❋ فقالت خالتى: ما لغنمك يابساتِ الضُّروع؟ قلت: ما أدرى.

❋ **وعْيُه لعظةٍ نبويّةٍ وبدء إسلامه**: ❋ فسمعته ﷺ يقول يومًا: «أيُّها النّاسُ، هاجروا وتمسَّكوا بالإسلام، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد» ثمّ قال

أبو قِرصافة:

❋ فلم أزلْ أجيء عند رسولِ اللّه ﷺ أسمعُ منه حتى أسلمتُ وبايعتُه، وصافحته، وشكوتُ إليه أمرَ خالتى وأمرَ غنمى.

❋ **معجزة وبركات الحبيب ﷺ**: ❋ فقال لى رسولُ الله ﷺ: «جِئنى بالشياه» - أى بالغنم - فجئتُه بهنَّ، فمسح ظُهورهنَّ وضُروعهنّ، ودعا فيهنّ بالبركة، فامتلأنَ شحمًا ولبنًا.

❋ **إسلام خالته وأمّه**: ❋ فلمّا دخلتُ على خالتى بهنّ قالت: يا بُنى هكذا يكون الرَّعْى!

قلت: يا خالتى، ما رعيتُ إلا حيث كنتُ أرعَى كلَّ يومٍ، ولكن أُخبِرُك، أنّى أتيتُ النّبىَّ ﷺ، وأسلمت، وأخبرتها بسيرته ﷺ، وبكلامه وبدعائه.

فقالت أمى وخالتى: اذهب بِنا إليه، فذهبتُ أنا وأمِّى وخالتى فأسلمْنَ، وبايعْنَ رسولَ الله ﷺ [الأصبهانى فى دلائل النبوة].

وانتقلت الأسرة المباركة من الظُّلمات إلى النُّور، وأحيا اللّهُ قلوبًا كانت ميّتةً ببركة معجزة دعائه المبارك ﷺ وما شاهداه على ولديهما من أمارات الصّلاح.

❋ **أراد الخير لولده فأعانه اللّه**: قالت حفيدتُه عزَّةُ بنتُ عياضٍ: أسرت الرومُ ابنًا لأبى قرصافة فكان أبو قرصافة إذا حضر وقتُ كلِّ صلاةٍ صعد سور عسقلان، ونادى: يا فلانُ، الصَّلاةَ، فيسمعه الولدُ وهو فى بلد الرُّوم. [رواه الطبرانى ورجاله ثقات].

فتأمَّل الحرصَ على الخير والتَّوجّه إليه وبركات أولياءِ الله الصَّالحين وكراماتهم، واعلم أنَّ كرامة الولىّ الصَّالح هى من معجزات رسوله؛ لأنّ

الكرامة ثمرةُ الإيمان والاتّباعِ والمحبّةِ للّه ولرسوله ﷺ.

* * *

حوارٌ من كتاب اللّه:

فى الهجرة الشّريفة

وكم فى الهجرة النّبويّة الشّريفة من العبر والعظات والآيات ومن حواشيها وملابسات الظُّروف التى سبقتها أو أحاطت بها نَسْتلهم دروسًا فيها تنويرٌ وتبصيرٌ وغذاءٌ للنّفس وللعقل معًا.

لقد دعا رسولُ الله ﷺ النّاسَ إلى ما يُحيى قلوبَهم حياةً حقيقيةً تؤهِّلهم لأن يكونوا ربّانيّين محفوظين برعاية الله - عزَّ وجلَّ - يعيشون بأجسادهم الماديّة على الأرض ونفوسُهم ترفرف فى سماء الرُّوحيّة الصّافية بفضل سلامة الإيمانِ وصحةِ اليقين وإخلاصِ الطّاعة لله - عزَّ وجلَّ - فهؤلاء هم خيرُ مَن يمشى على الأرض، انتفعوا بثمرات العقل الجوّال فصَحّت نظرتُهم إلى الكون فى نور هداية السّماء، لقد علم اللّهُ فيهم خيرًا فأسمعهم آياته إسماعَ تدبّرٍ وإنعامٍ فهُدُوا إلى الطّريق الأقوم، والصِّراطِ الأعدل، فهم بين النّاس كالدّواء للعليل، وكالشّمس للدُّنيا، والصِّحة للأبدان، والطُّمأنينة للقلوب.

هذا شأنُ الذين استجابوا للّه وللرّسول حين دعاهم لِمَا يُحْييهم أمّا شرُّ الدّوابِّ فهم أولئك الصُّمُّ عن سماع كلمة الحقِّ والخير العُمْى عن الانتفاع بالنّظر والتّدبُّر فى آيات اللّه الكونيّة، وقد خبا نورُ عقولهم بسبب سوء اختيارهم وانحيازهم للأهواء، وانقيادهم للشّيطان، فهم لم ينتفعوا بعقولهم انتفاعًا صحيحًا يجعلهم أهلًا للسّعادة الأخرويّة.

* **فى دار النّدوة:** ومن هؤلاء الفريقُ الذى شارك فى اجتماع دار النّدوة بمكّة المكرّمة وأصرّ على عدم سماع كلمة الحقِّ وعاند وكابر ومكر.

وفى دار النَّدوة دار حوارٌ بين دُهاةٍ من العرب لاتخاذ أفضل خِطة تُريحهم من النَّبىِّ محمَّدٍ ﷺ، وقد صبر على أذاهم عشر سنين، ولم يصبروا على حُسْن خُلقه معهم، وشدَّةِ رغبته فى الخير لهم، وضاقوا ذرعًا بقوَّة حُجَّته، وبسلامة منطقه، ولم يُطيقوا حِرْصَه على إنقاذهم من أسباب الهلَكةِ ودواعى الفساد والشَّر، وكان سلاحُه الدَّعوةَ إلى اللَّه بالحكمة والحجَّة والموعظة الحسنة، بل كان منطقهم غريبًا معكوسًا عن عمد منهم إذ قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال).

طلبوا العذاب والهلاك بدلًا من أن يطلبوا الهداية والخير عنادًا منهم واستكبارًا، طلبوا ذلك بدلًا من أن يقولوا: اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاشْرَحْ صدورنا له واهْدِ قلوبَنا ودُلَّنا علَى الخير وثبِّتنا عليه.

❋ **من حوار أهل الغطرسة والشَّر**: وإنَّ ما دار فى دار النَّدوة من حوارٍ ومؤامراتٍ فى ساعاتٍ نجدُه فى سورة الأنفال فى كلماتٍ قليلةٍ فيها إيجازٌ وإعجازٌ مع غاية الوضوح ومع بيان نواياهم الخفيَّة وهى المكر السَّيئُ، ومع بيان الجزاءِ المناسب لهذه النَّوايا، ولنسمع اللَّه - عزّ وجلّ - يقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

فقد أخذ الكفَّار فى التَّدبير والتَّشاور مع إضمار هذه النَّوايا السَّيئة لكى يحققوا مآربهم: فمنهم من رأى حَبْسَه ﷺ مع قيدٍ يمنعُه من الحركة «ليُثبتوك» أى ليمنعوك من الحركة.

ومنهم من رأى قتْلَه فى مكَّةَ غيلةً وغَدْرًا.

ومنهم من رأى حَمْلَه على بعيرٍ مع شَدِّه بالحبالِ وربطِه فى البعير بإحكامٍ ثم

يُطلقونه يذهب حيث يُقدِّر له بعيدًا عنهم.

وبعد الحوار وتمحيص الآراء اختاروا «القتلَ» لأسبابٍ فنِّيَّةٍ واستراتيجيَّةٍ؛ لأنَّ الحبس لن يمنع عشيرتَه من العمل على إطلاقه، مع فَوَرَان نارِ الفتنة بين العشائر القرشية وبطونها فى مكَّة المكرَّمة وسائر الحرم، وهم لذلك كارهون لحرصهم على أمْن الحرم وخوفهم من عواقب الحرب إذا اندلعت.

كما أنّهم خافوا من فكرة إبعادِه ونَفْيه ﷺ بعيدًا عن الأرض الحرام؛ لأنّه إذا خرج بعيدًا وسط القبائل فإنه سيتَمَكّن ﷺ من جمع القلوبِ حوله وتجييش الجيوش ثمَّ العودة إلى مكّة المكرَّمة فاتحًا، فما يخشونه على أنفسهم من نصاعة بيانه، وقوّة برهانه، وسطوع دليله، وسُموِّ أخلاقه، وكمالِ عقله، وجمالِ أدبه هذا الذى يخشونه على أنفسهم سيكون سلاحه بعيدًا عن مكّة، فتجتمع القلوبُ حوله وتُخلص له الطّاعة ويصير ميزان القوّة بيده ﷺ.

فلم يبق أمامهم إلا فكرة «القتل»، وبقتله ﷺ تثور الفتنُ فى قريشٍ ويطالب أهله وعشيرته بثأره، وكانت الفتنُ الثّأريَّةُ هناك تدمِّر وتأكل الأخضر واليابس.

ولذا تفتَّق ذهنُ داهيتهم وشيطانهم عن حيلةٍ تجعل جميعَ العشائر (البطون القرشيَّة) تشترك فى عملية الاغتيال ما عدا بنى هاشمٍ، وتهلّلت وجوههم للرأى، وفرحوا بتلك الخطَّة؛ لأنَّ بنى هاشمٍ فى تلك الحالة لن تكون لهم القوّةُ التى يواجهون بها أحدَ عشرَ بطنًا قرشيةً، اتفقوا على هذا الرأى وهم يُقدِّرون وكان أمر الله مفعولًا، فقد اختاروا من كل بطنٍ شابًّا جلْدًا قويًّا ومعه سلاحُه يقفون أمام داره ﷺ عند خروجه للصَّلاة، ويضربونه بسيوفهم ضربة رجلٍ واحدٍ، فيتفرَّق دَمُه فى القبائل ولا يقوى بنو هاشمٍ على الأخذ بالثَّأر.

❋ **خروجه من داره**: لقد مكروا ودبَّروا الشَّر، فحفظ اللَّه رسولَه من مكرهم وكان خروجه ﷺ من داره فى رعاية الله وحفظه، وشبابُ قريشٍ بأسلحتهم

وقيادتهم أمام الدّار، وهو يمشى بينهم فى وقاره وحلمه وسكينة نفسه ورضاه عن ربّه - عزَّ وجلّ - ولنسمع قوله سبحانه من سورة ياسين فى تصوير هذا الموقف الرائع بما فيه من إعجازٍ وآياتٍ باهراتٍ بكمال القدرة الإلهيّة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (الآية).

إنَّ حالهم كحال من أحاطت به السُّدودُ من كلّ جانبٍ، فهو لا يرى ولا يُبصر وضرب اللّه على عيونهم فلم يروا شيئًا.

هذا حالهم ومَثَلُهم فى حَصْر أنفسهم فى جهالاتهم وإعراضهم عن سماع دعوةِ الدّاعى إلى الله - عزَّ وجلّ - وبراهينه.

وهذا مَثَلُهم وحالهم ساعةَ أن خرج رسولُ الله ﷺ يضع التُّرابَ على رؤوسهم، وهم فى حال غيابِ الوعى؛ لا يبصرون ولا يدرون، والرَّسول ﷺ يتلو: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ومشى وسطهم ترعاه عنايةُ اللّه حتى وصل إلى دار أبى بكرٍ الصِّدِّيق، رضى الله عنه.

❋ **وحوار المتواضعين الأكابر**: ويمضى النّورُ ﷺ فى طريق النُّور يَهديه هاديه سبحانه وتعالى إلى غارٍ بجبلِ ثَوْرٍ يستريح فيه هو وصاحبه الصِّدِّيق أبو بكرٍ - رضى الله عنه - وفمُ الغار متسعٌ، وتُبادر العناكبُ إلى نسج خُيوطها طولًا وعرضًا حتى استوعبت فم الغار، وتبادر الحمامةُ إلى بناء عُشٍّ لها أمام الباب وتبيض فيه.

وهاجت هائجةُ قريشٍ، وخرجوا يتعقَّبون حتى أسلمتهم آثارُ الأقدام المباركة إلى فم الغار، فتحيَّروا وبُهتوا!!.

ويبكى القلبُ المحبُّ لرسول اللّهِ خشيةً عليه ﷺ من عدوِّه المتربِّص أمام باب الغار، ويقول:

«يا رسول اللَّه، لو نظر أحدُهم تحت قدميه لرآنا».

فيزيده الحبيبُ المصطفى ﷺ أمنًا وطمأنينة: «يا أبا بكرٍ.. ما ظنُّك باثنين اللّهُ ثالثهما».

وقد كان، وسلمتْ الرُّوحان الطَّاهرتان وواصلتا الرِّحلةَ المباركة، وتحقَّقت معجزةٌ بعد معجزةٍ.

وفى سورة «التَّوبة» نجد الحوارَ الذى يشوّق النُّفوسَ المُحبَّةَ إلى المزيد من الاعتصام بحبل اللَّه وقوةِ التَّوكُّل عليه فى كلِّ الأمور، والتَّفويض التَّامّ مع الأخذ بالأسبابِ التى يرضى عنها ربُّ الأرباب سبحانه وتعالى، ولنسمعه سبحانه يقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا . . .﴾ (الآية: ٤٠).

ومَن كان اللهُ معه كان الخيرُ فى ركابه والملائكةُ تحوطه، وعنايةُ الله وحده فوق كل شيء وأعظمُ من كلِّ شيءٍ.

وسلمتْ النَّفسُ العظيمةُ لتسلم لنا عقيدتُنا وتُصَحَّحَ لنا عباداتُنا، وتستقيم معاملاتُنا وأخلاقُنا على ما يُحبُّ ربُّنا ويَرْضى، ويقوى رجاؤنا دومًا فى رحمة اللَّه، ونصره، وحفظه، وكرمه وبره.

وكانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة فى العام الثالث عشر من البعثة فتحًا ونصرًا مبينًا وبدايةَ بناء أعظم صرح حضاريٍّ فى تاريخ الإنسان إنه صرحُ العلم والحِلم والعدل والرحمة والمواساة واحترام الإنسان صرح القوَّة العاقلةِ التى لا يهتزُّ بيمينها ميزانُ العدالة.

فالحمد للّه الذى هدانا وجعلنا مسلمين.

* * *

وبعد الهجرة النّبويّة إلى المدينة فرض اللّه الصّيام

❋ فما المراحل التى مرّ بها الصّيام؟

اقتضت حكمةُ اللّه - عزَّ وجلّ - أن ينزل التَّشريعُ الإسلاميُّ بالتَّدريج؛ لأنّه تشريعٌ كاملٌ متضمنٌ شئونَ الدُّنيا والآخرة؛ ولأنَّ الشَّريعة الإسلاميةَ هى خاتمةُ الشَّرائع الإلهيَّة وناسخةٌ لما قبلها، ويجب العمل بها حتى تقومَ السَّاعة، ولذا كان التَّدريج مُعينًا للصَّدْر الأوَّل من المسلمين على العمل وبما لا يَشُقُّ على النَّفس بخلاف ما إذا نزلت الأوامر والنَّواهى والفرائضُ والواجباتُ والفضائل جُملةً واحدةً:

وكان أوَّل ما فرض من العبادات العمليَّة «الصَّلاة»، أمّا «الصّيام» فكانت فرضيَّته فى السَّنة الثَّانية من الهجرة قبل غزوة بدرٍ الكبرى، وكانت فرضيَّته فى شهر شعبان وغزوة بدرٍ فى شهر رمضان.

❋ وقبل فرض صيام شهر رمضان: مرّ الصّيام فى الإسلام بثلاثة أحوالٍ أو مراحل:

(١) فقد حكَوا أنَّ رسول الله ﷺ حين قدم المدينةَ المنوَّرةَ وجد اليهودَ يصومون يوم عاشوراء العاشر من شهر المحرَّم فسألهم: فقالوا: هذا يومٌ نجَّى الله فيه موسى - عليه السّلام - أى وأهلك فرعونَ وجنده، فقال ﷺ: «نحن أحقُّ بموسى منكم، فصامه وأمر النَّاس بصيامه»

[وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن ابن عباس].

ثمّ أشار ﷺ بعد ذلك إلى أنَّه إن بقى إلى العام القابل ليصومنّ يومًا قبله (التَّاسع) لمخالفة اليهود، ويُسنّ أيضًا صيام يومٍ بعده، وبقى صيام عاشوراء سُنَّةً ماضيةً، وكان ﷺ يصوم - متطوِّعًا - من كل شهرٍ قمريٍّ ثلاثة أيامٍ.

(٢) ثمّ شرع اللّه الصّيام بقوله سبحانه من سورة البقرة الآية (١٨٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ثمّ بيّن سبحانه أنّ ذلك على التّخيير أى بين الصّيام والفدية فى الآية (١٨٤): ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ .

فكان صيامُ الأيام المعدودات - وهى أيام شهر رمضان - خيرًا للصّائم من إفطارها ما دام المسلمُ قادرًا غير معذورٍ، ولم يَعزِم عليهم سبحانه بالصّوم: «فكان من شاء أفطر، ومن شاء أطعم مسكينًا فأجزأ عنه». كما قال الصّحابىُّ الجليل معاذُ بنُ جبلٍ كما فى مسند الإمام أحمد.

وقال سلمة بنُ الأكوع كما فى الصّحيحين: «لمَّا نزلت هذه الآيةُ كان من شاء منَّا صام ومن شاء أفطر ويفتدى حتى نزلت الآيةُ التى بعدها فنسختها» [**وهى المسألة رقم (٣)**]:

(٣) ثم نزلت الآية (١٨٥) بفرضيّة الصّيام على المسلم البالغ العاقل المقيم غير المريض (الصّحيح): ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ أمر سبحانه بصيامه بقوله: «فليصُمْه» بالفعل المضارع المقترن بلام الأمر، ورخّص فيه للمريض والمسافر بالفطر مع القضاء بعد زوال السبب، وأثبت الإطعام عن كلّ يوم للكبير السّنّ الذى لا يستطيع أو يكون الصّيام فوق طاقته، أى يتحمّلونه بمشقّة تُرهقهم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ .. وهذا من يُسْر تعاليم الإسلام، ومن فضْل الله على عباده الموحّدين كلّفهم بما هو فى قدرتهم، فجعل فرضيّة الصّيام أيّامًا معدودات شهرًا واحدًا من شهور العام، ويكون الصّوم نهارًا، وأباح لغير القادر الفطر على النّحو الموضّح فى كتابه وفى سُنّة

رسوله ﷺ.

❋ **حديث عائشة فى الصحيحين**: «كان عاشوراء يُصام، فلمَّا نزل رمضانُ كان من شاء صام ومن شاء أفطر» أى قبل فرضيَّته فى رمضان، وذلك تحقيقًا للتَّدريج المناسب لفطرة الإنسان فى أوَّل أمر التَّشريع.

(٤) ومن التَّدريج فى بعض أحكامه:

أنَّهم كانوا يأكلون ويشربون ويأتون زوجاتهم فى اللَّيل ما لم يناموا، فإذا ناموا من اللَّيل فى شهر الصِّيام امتنعوا حتى غروب شمس اليوم التَّالى، ولا يجوز له أن يتسحَّر ونحوه إذا قام من النَّوم قبل الفجر، فوقع بعض الصَّحابة فى مشقَّةٍ عظيمةٍ لنومهم عند الإفطار وقبل إعداده فواصل صيامه حتى أجهده ذلك.

ثمَّ إنَّ عمر - رضى اللَّه عنه - وقع على زوجته بعد قيامه من النَّوم فى اللَّيل وتحرَّج واضطرب فخفّف اللَّه عن المسلمين وأباح لهم فى اللَّيل وبعد قيامهم من النَّوم فيه ما كان محظورًا: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ (الآية ١٨٧ البقرة) فأكلوا وشربوا وواقعوا زوجاتهم إذا ناموا ليلًا ثمَّ استيقظوا قبل الفجر.

وخفَّف اللَّه عنَّا بفضله وإحسانه كما خفَّف عنهم فى ذلك.

(٥) لفتةٌ: وفى السَّنة الثَّانية من الهجرة فرض اللَّه زكاة الأموال وشُرِعتْ زكاةُ الفِطر، وصلّى رسولُ اللَّهِ ﷺ بالنَّاس صلاةَ عيد الفطر لأوَّل مرَّةٍ.

❋ ❋ ❋

فى شهر رمضان كانت السّريّة الأولى

فى السّنة الأولى من الهجرة النّبويّة الشّريفة وفى شهر رمضان المبارك عقد رسولُ اللّه ﷺ لحمزةَ بنِ عبد المطّلِب - رضى اللّه عنه - أوّلَ لواءٍ لأوّل سريّةٍ وكان معه ثلاثون رجلًا من المهاجرين ليس معه أنصاريٌّ واحدٌ لحكمةٍ رآها القائد الهادى ﷺ.

وخرجت هذه السّريّةُ لتعترضَ لتجارة قريشٍ أهلِ مكّةَ فى الطّريق بين مكّة والشّام وهى من رحلات الصّيف التى هى إحدى مصادرِ الحياة الاقتصاديّة لأهل مكّة وما حولها ولم يكن لهم غِنًى عن هذه الرّحلات وكذلك كانت لهم رحلاتُ الشّتاء إلى اليمن لجلب الخيرات من تلك البلاد الغنيّة بالموارد الزّراعيّة وبعض المصنوعات من الأكسية والسّيوف والرّماح وغير ذلك، وقد جاء بيانُ فضلِ اللّهِ عليهم بالتّوفيق لرحلة الشّتاء ولرحلة الصّيف مع شعورهم بالأمن بفضله سبحانه، وذلك فى سورة «قريشٍ».

وكان على رأس قافلةِ أهل مكّةَ أبو جهلٍ وهو الحكم بنُ هشامٍ من بنى مخزومٍ ومعه ثلاثمائة رجلٍ لحراسة القافلة والأموال.

وخرج حمزة - رضى الله عنه - حتى صار قريبًا من سيف البحر الأحمر عند «مدينة ينبع»، وفى هذه المنطقة كانت تعيش قبيلةٌ عظيمة العدد والشّأن هى «جُهينة» ولها صولتها وقوّتُها وهيبتُها بين مكّة والمدينة المنوّرة.

* **إسلام جهينة**: علمت جهينةُ أنّ الرّسول محمّدًا ﷺ قد وادَع اليهودَ فى المدينة المنوّرة وحالفهم على الأمن والأمان، وأنّه ﷺ يسعى لمُوادعة القبائل حول المدينة وبين المدينة ومكّة ليقوم سلامٌ وأمانٌ يضمنُ للمسلمين حريّةَ الحركة وحريّةَ الدّعوة إلى اللّه - عزّ وجلّ - بعد أن ضَيّقَ عليهم القُرشيّون ثلاثَ عشرةَ سنةً ووقفوا لهم بالمرصاد يصدّون عن سبيل اللّه ويؤذون المسلمين ولا يسمحون لهم بحريّة العبادة ولا بحريّة دعوة النّاس والوافدين

إلى مكَّة لتجارةٍ أو عُمرةٍ أو حجٍّ أو زيارةٍ دعوتهم إلى دين اللَّه، عزَّ وجلَّ.

لذا أخذ زعيمُ جُهينة وهو «مجدى بنُ عمرو الجهنى» وفدًا وزار الرَّسول ﷺ وطلب إليه العهدَ والميثاقَ لجهينة فأجابه ﷺ وحالفه، فأقبل هذا الزَّعيم على الرَّسول يبايع على الإسلام، ودخلت القبيلة فى دين اللَّه - عزَّ وجلَّ - وكان بينه وبين قريشٍ حلفٌ وموادعةٌ لعدم الاعتداء وللأمن والأمان ولضمان سلامة تجارتهم والقائمين عليها وهم فى الطَّريق من مكَّة إلى الشَّام وحين عودتهم إلى مكّة، فلمّا وصل حمزةُ - رضى الله عنه - بسريَّته وتقارب أبو جهلٍ وتجارته حجز بينهما مجدى بنُ عمروٍ زعيم جُهينة وفاءً بعهده، ولم يقع قتال فى هذه السَّريَّة ومضى القرشيُّون إلى مكّةَ بتجارتهم.

فما الحكمة فى هذه السرايا وما أهدافها؟

وقعت غزوةُ بدرٍ الكبرى فى شهر رمضان من السَّنة الثَّانية، وقبلها كانت هناك ثلاثُ سرايا فى السَّنة الأولى، وثلاثُ غزوات فى السَّنة الثَّانيَة، وخرجت سريَّةُ عبد اللَّه بنِ جَحشٍ فى آخر رجب من السَّنة الثَّانيَة وهى السّريّةُ الوحيدةُ التى وقع فيها قتلُ شخصٍ واحدٍ من المشركين وأسرُ اثنين منهم وفرارُ الرَّابع، وغنم المسلمون وكانوا ثمانيةً من المهاجرين وعبد الله بنُ جحشٍ قائدهم غنموا تجارةَ قريش التى كانت مع هذه السَّريَّة وعادوا بها مع الأسيرين إلى المدينة المنوَّرة، وكانت هذه السَّريَّةُ بمثابة إنذارٍ قويٍّ لمشركى قريشٍ لعلَّهم يبادرون إلى ترك التَّعنُّت والتَّرصُّد للمسلمين وإلى طلب المُوادعة والمُسالمة ليعيشَ الجميعُ فى أمنٍ وسلامٍ.

والفرقُ بين السَّريَّة والغزوة: أنَّ السَّريَّةَ يقودها صحابىٌّ، أمّا الغزوةُ فيخرج فيها رسولُ اللَّه ﷺ بنفسه.

ومن أهداف هذه السَّرايا والغزوات:

(١) العملُ على تحقيق أكبر قَدْرٍ من المُوادعة والمُسالمة والمُهادَنة مع

القبائل حول المدينةِ المنوَّرة وبين مكَّةَ والمدينةِ المنوَّرة فقد بسط الرَّسولُ ﷺ للجميع يَدَهُ بالسَّلام والأمن سواءٌ من أسلم منهم ومَن بقى على دينه من أهل الكتاب أو بقى على شِركه من العرب.

وقد وادع وحالف ﷺ قبيلةَ جُهينة ودخلوا فى الإسلام، كما وادع ﷺ فى غزوة الأبواء «وهى أولى غزواته» بنى ضَمْرَةَ «بضادٍ مفتوحةٍ» بن بكرٍ من بنى كِنانة وكان زعيمُهم «مَخْشِيّ بن عمروٍ الضَّمرىّ» وتمَّ ذلك دون قتالٍ، كما بايع بنى مُدْلج بن مُرّة بن تميمٍ من بنى كِنانة ومُدلج - بميمٍ مضمومةٍ - وكان ذلك حين نزل ﷺ «العُشَيرة» من بطن «ينبع» وتمَّت المُوادعة والمسالمة دون قتالٍ، وصار المسلمون يجوبون المناطق حتى «رابغ وينبع» وغيرهما فى أمنٍ وأمانٍ.

(٢) ومن الأهداف: تعويض المهاجرين عن جُزءٍ من أموالهم ودورهم التى تركوها فى البلد الحرام واستحوذ عليها المشركون، وذلك عن طريق الحصول على التِّجارة القرشيَّة لأنّهم المعتدون، وقد حصل المسلمون بالفعل على غنائم فى سريّة عبد اللّه بن جحشٍ فى السَّنة الثَّانية قبل غزوة بدرٍ، كما حصلوا على غنائم عظيمةٍ فى غزوة بدرٍ الكبرى وفى سرايا أخرى بعد هاتين.

(٣) ومن الأهداف: تهديدُ طرقِ القوافل التِّجاريَّة القرشيَّة بين مكَّةَ والشَّام وبين مكّة واليمن وإشعارُ القُرشيِّين وحلفائهم بأنَّ طرق تجارتهم صارت غيرَ آمنةٍ لعلهم يُبادرون إلى طلب المُوادعة والمُسالمة مع المسلمين فيعيش الجميعُ فى أمنٍ وسلامٍ، ويكفُّ القرشيُّون عن التَّرصُّد للمسلمين والتَّضييق عليهم فى المجال الأعظم وهو الدَّعوةُ إلى دين اللَّه - عزَّ وجلَّ - والاتِّصالُ بالقبائل هنا وهناك بحريَّةٍ لإقامة الدَّليل والبرهان وإخراج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور.

* * *

المؤمن الذى صلّى العصر ماشيًا يومئ برأسه وذُفِنتْ معهُ عصًا من رسول الله ﷺ

❋ **الفتى المبارك وكفُّ الشَّرِّ والفتن:**

هذا الفتى المباركُ كان موضعَ ثقة رسولِ الله ﷺ، وكان ذكيًا سريعَ البديهة، شجاعًا غير هيَّابٍ، شديدَ الغيرة على الحقِّ، عظيم الحبِّ لرسول الله ﷺ، حسنَ السِّياسة، مع يقظةٍ وبطولةٍ.

إنَّه عبدُ الله بن أُنيس - بضمٍّ أوّله وفتح ثانيه - من أهل المدينة المنوَّرة، وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين الأرقم بن أبى الأرقم المخزوميِّ وعبدِ الله ابن أنيسٍ فى دار الهجرة.

واختاره - ﷺ - فى سريَّةٍ بقيادة عبد اللّه بن رواحة لكفِّ شر رجلٍ يهوديٍّ اسمه: اليُسَير بنُ رِزَام؛ لأنَّه كان يجمع مقاتلين من قبيلة غطفان لغزو رسولِ الله ﷺ بالمدينة، ولتعكير صَفْوِ الأمن فيها، ويحرِّض على الفتنة بعد أن استتبَّ الأمنُ والأمر فى المدينة المنوّرة، فماذا فعلوا معه؟:

حين وصل ابنُ رواحة فى نفرٍ من الصَّحابة إلى اليُسير - بضمٍّ أوّله - أخذوه باللُّطف والحسنى وأجروا معه حوارًا يهدف إلى حقْن الدِّماء وتسكين نارِ الشَّرِّ، واستمع إليهم هذا اليهوديُّ حتى أبدى رغبته فيما عرضوه من عودته معهم إلى المدينة ولقاءِ الرَّسول ﷺ وأكَّدوا له أنّه سيجد منه الحلم والكرم وربَّما اختاره لعملٍ ذى شأنٍ.

❋ **خيانة العهد:** وخرج معهم اليسير بن رزام فى نفرٍ من اليهود، وحمله عبد الله بن أنيسٍ على بعيره تكريمًا له، حتى صاروا على ستة أميالٍ من المدينة فى مكانٍ بخيبر اسمه «القَرقَرة» فأبدى اليُسَيْرُ ندمَه على مسيره معهم إلى رسول اللّه ﷺ وأراد أن يباغتهم بالسَّيف، ففطِنَ عبدُ اللّه بن أنيسٍ فبادره

بضربة سيفٍ لشلِّ حركتِه فقطعت رجله، وانقضّ عليه اليُسير بعصًا معقوفةٍ من خشب النّبع فشجَّ رأسه، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على مُرافقه من اليهود فقتله ولم ينجُ سوى واحدٍ منهم فرَّ هاربًا، وعاد عبد اللّه بنُ أنيسٍ إلى المدينة بُجرحه فى رأسه.

ونالته بركة رسول الله: فقد استقبلهم رسول الله ﷺ واطمأنَّ على سلامتهم، ونجاحهم فى كفِّ الشَّرِّ وإطفاءِ نار الفتنة، وبصق رسولُ الله ﷺ بصاقًا خفيفًا (تَفَل) على جُرح عبد الله بن أنيسٍ، فلم يحدث فيه قيحٌ، ولم يشعر منه بأذًى.

❊ **وِفادتُه وحده لجمع أخبار ثائرٍ لقمع فتنته**: جاء الخبرُ إلى المدينة أنَّ رجلًا من قبيلة هُذَيلٍ - بضمِّ أوَّله - اسمه خالدُ بنُ سُفيان بن نُبَيْح يجمع المقاتلين من القبائل ليغزوَ رسولَ الله ﷺ ويثيرَ الفتنةَ بين الناس، ويعكِّر صفو المدينة وأمنها، فاختار رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أنيس لكفِّ شرِّ هذا الرَّجل عن النَّاس وإطفاءِ فتنته بمنطقةٍ اسمها «نَخْلة أو عُرَنَة».

يقول: فقلت يا رسول الله، انعتْه لى - حتى أعرفه - قال ﷺ: «إنَّك إذا رأيته أَذْكَرَكَ الشَّيطان - أى كأنَّك ترى الشَّيطان - وعلامةُ ما بينك وبينه أنَّك إذا رأيته وجدتَ له قُشَعْرِيرَة» - قشعريرة يعنى رِعدةً وهِزَّةً فى جسمه - أى كشأن المشعوذين وأربابِ التَّوتُّر العصبىِّ.

خرج عبد الله بن أنيسٍ ومعه سيفه حتى وصل إلى المكان، ورأى العلامات وكان الرَّجل مشغولًا بترتيب إقامةٍ لنساءٍ كنَّ معه فى هذا المكان.

❊ **ولماذا صلَّى ماشيًا**: اتَّجه عبد الله بنُ أنيسٍ نحو هذا الرَّجل ليؤدِّى مهمته وهو يعرف جسارته ولؤمه، ودخل وقتُ صلاة العصر، فخشى عبدُ اللَّه أن تطولَ الجولةُ والمُصاولةُ بينه وبين هذا الغادر الماكر فتشغلهُ المبارزة

والمصاولة عن صلاة العصر فى وقتها.

يقول ابنُ أنيسٍ: «فصلَّيتُ وأنا أمشى نحوه أومئُ برأسى» فلمَّا انتهيتُ إليه، سألنى؟ مَن الرَّجل؟

قلت له: أنا رجلٌ من العرب سمع بك وبجَمْعك - أى بجمعك المقاتلين - لهذا الرَّجل فجاءك لذلك؛ أى أوهمه ابنُ أنيسٍ أنَّه جاءه لمعونته على حرب رسول اللَّه ﷺ - فظنَّ الهذلىُّ أنّ عبدَ اللَّه بنَ أنيسٍ جاءه ليحاربَ معه الرَّسولَ ﷺ، ففرح به، قال له الهُذلىُّ: أجَل، إنَّنى لفى ذلك - أى إنِّى أسعى لجمع مقاتلين من العرب لغزو المدينة -.

قال ابنُ أنيسٍ - رضى الله عنه - فمشيتُ معه شيئًا حتى أمكننى - أى اطمأنَّ لى - حملتُ عليه بالسَّيف، فقتلتُه، ثمَّ خرجتُ، وتركت نساءه يَبكين عليه، وقد صوَّر عبدُ الله هذا الموقف تصويرًا بديعًا فى قصيدةٍ له.

❋ **كتيبةٌ وحده**: لقد اختاره الرَّسولُ ﷺ لهذه المُهمةِ ذاتِ الخَطرِ والشَّأنِ، ورأى فيه أنّه يُغنى لوحده عن كتيبةٍ لذكائه ورَزَانتِه وحُسْن حِيلته فى المواقف التى تحتاج إلى حُسن سياسة، كما كان ابنُ أُنيسٍ شجاعًا مُحبًّا لله ولرسوله ومخلصًا لدينه، وقد تحققت فيه رؤيةُ رسول اللّه ﷺ وقد كان دومًا يختار الشَّخص المناسب للعمل والموقف المناسب، ودون قتالٍ مَرير نجح ابنُ أُنيس، وسكنتْ الفتنةُ فى وقتٍ قَصيرٍ وبأقلّ جهد، وانطفأت نارُها فى مهدها دون أن تشتعل.

❋ **مع الرَّسول ﷺ**: وعاد عبد الله بن أنيسٍ إلى رسول الله ﷺ، وعلى وجهه أماراتُ النَّجاح وعلى لسانه الشُّكرُ للّه، يقول: فلمّا رآنى رسولُ الله ﷺ، قال: «أفلح الوجْهُ» قلتُ: قد قَتلتُه يا رسول الله، قال: «صدقتَ».

❋ **هدية رسول الله وفرحته بالبشرى**: قال ابن أنيسٍ: ثمَّ قام بى رسولُ الله

ﷺ، فأدخلنى بيتَه فأعطانى عصًا، فقال: «أمسِكْ هذه العصا عندك يا عبدَ اللَّه ابن أنيسٍ» قال: فخرجتُ بها على النَّاس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلتُ: أعطانيها رسولُ الله ﷺ، وأمرنى أن أُمسِكها عندى. قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله فتسأله لم ذلك؟

❋ **بشرى بلقاء النَّبىّ ﷺ يوم القيامة**: رجع ابنُ أُنيسٍ وسأل الحبيب ﷺ: لِمَ أعطيتنى هذه العصا يا رسولَ اللَّه؟ قال ﷺ: «آيةٌ - أى علامةٌ - بينى وبينك يومَ القيامة» ثمَّ أخبره أنَّ أقلَّ النَّاس يوم القيامة هم المتَّكئون على العِصِىِّ فقال: «إنَّ أقلَّ النَّاس المُتَخصِّرون يومئذٍ» فضمَّ ابنُ أنيسٍ هذه العصا إلى سيفه، فلم تزل معه حتى مات رضى اللَّه عنه.

❋ **وصيةٌ**: وكان ابن أنيسٍ قد أوصى بأن تُضَمَّ هذه العصا فى كفنه ثمَّ دُفنا جميعًا، فهى معه حتى يُبعث وتزيد فرحتُه برضوان اللَّه - عزَّ وجلَّ - وبلقائه أحبَّ النَّاس إليه مرشده وهاديه ﷺ.

وجاء شعر ابن أنيسٍ مرآة هذا الحادث ومن أبياته فى قمع هذه الفتنة: وفى قضائه على «خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلىّ» وفتنته، قال عبد اللَّه بن أنيس:

تركتُ ابنَ ثورٍ كالحُوَار وحولَهُ ... نَوائِحُ تَفْرِى كلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ
تناولتُه والظُّعْنُ خَلْفى وخَلْفَه ... بأبيضَ مِن ماءِ الحديدِ مُهَنَّدِ
عَجُومٌ لهَامِ الدَّارِ عِينَ كأنَّه ... شهابُ غَضَى من مُلْهَبٍ مُتَوَقِّدِ

وفى هذه الأبيات الثلاثة تصويرٌ حىٌّ لوقائع الحدث نراها كأنَّنا من المشاهدين لِمَا وقع فقد ترك عبدُ الله خصمه ابنَ ثورٍ الهذلىَّ كأنَّه ولدُ ناقةٍ صغيرٌ جُذَّتْ رأسُه عن جسمه «كالحُوار» وحوله النِّساءُ الباكيات «وحوله نوائح» تَفرى وتقطع وتُمزِّق جيوبَ الثِّياب من فوق الصُّدورِ كما تلطمُ الخدودَ على عادة الجاهلية، فالبيتُ الأوَّل صورةٌ كاملةٌ للمشهد بعد مقتل «الهُذلىِّ»

وانصرافِ ابن أنيس، وتأمَّل الألفاظ: «تركتُ» أى انصرافه من الموقع ووراءه «ابن ثورٍ» متخبِّطٌ فى دمه كولد النَّاقةِ المذبوح، ثمَّ تأمَّل قوله «حوله نوائح» وهو انكبابُ نسائه عليه يصرخْنَ ويُمزِّقن أعلى ملابسهنَّ «تفرى..» وتأمَّل التَّشبيه فى «كالحوار» مستمدٌّ من البيئة العربيَّة.

❋ وقد ضربه بسيفه اللامع «بأبيض» المنسوب إلى الهند وكانت النِّساء خلفهما ساعة أن جَذَّ رقبةَ ابن نُبيحٍ الهذلىِّ.

❋ ووصف سيفَه بأنه عضوضٌ لرءوس لابسى الدُّروع أى الفرسان وفى لمعانه وبريقه كأنَّه شُعلةُ نارٍ صاعدةٌ من خشب الغَضَى المتوقِّد باللَّهب.

ثم يفخر ابن أنيسٍ بكرم نفسِه وكرم آبائه فيقول:

أقـولُ والـسَّـيـفُ يَـعـجـمُ رأسَـه ... أنا ابنُ أُنيسٍ فارسًا غيرَ قُعْدُدِ
أنا ابنُ الذى لم يُنزِل الدَّهرَ قِدْرَه ... رَحِيبُ فنـاءِ الـدَّارِ غـيـرُ مُزَنَّـدِ

فهو عنصرٌ طيِّبٌ وفارسٌ مِغوارٌ غيرُ لئيم الطَّبع «غير قعدد» وإنَّ قدورَ آبائِه وآنيتهم لم تنزل عن النار لتلقِّى واستقبال الرّكبانِ والضِّيفان، وكما اتسعت صدورُهم للناس وللغريب اتسعت أيضًا دورُهم للغريب والضيف، فأبوه رحيبُ الصدرِ واسعُ فناءِ الدار، وهو أيضًا غيرُ بخيل «غير مُزنَّد» وهذه كناياتٌ تصويرية للكرم وسخاء النفس، إن الفخر والمدحَ بالكرم من أوفر شعر العرب وهو وصف لا غُلوَّ فيه إلا بمثل الكناية الدالة على ولعهم بإكرام الضيف فى: «لم يُنزِل الدهرَ قِدره» والمقصود أنهم على استعداد دومًا لاستقبال الغريب والطارئ ليل نهار وإطعامِه وإكرامه.

❋ **وشاع الفخر بالانتماء لدين الله**: ثم جاء فخرُ ابنُ أُنيسٍ فى هذه القصيدة واعتزازه بشرفه وأنه مَال وعَدَل عن الشِّرك وتركه إلى التَّوحيد الخالص، وأنه قد صار على دين خير البريَّة محمدٍ الهادى ﷺ ويعتزُّ بأنه جنديٌّ مجاهدٌ يسمع

ويُطيعُ ويردُّ كيدَ الماكرين، ويقمعُ الأشرار بشعره ولسانه وسيفه ويده، فهو فارسٌ أديبٌ إعلاميٌ يقف لأعداء الحقِّ بالمرصاد وهو رهنُ إشارةِ القائدِ العظيم ﷺ. ومن شعره:

وقلتُ له: خُذها بضربةِ ماجدٍ حنيفٍ على دينِ النَّبىِّ مُحمَّدِ
وكنتُ إذا هَمَّ النَّبىُّ بكافرٍ سَبقتُ إليه باللِّسانِ وباليدِ

فهو مجاهدٌ بلسانه وتلك نعمةٌ عظيمةٌ فى إظهار الحقِّ وإبطال الباطل، وبثِّ الخوف فى نفوس الحاقدين والمتعنِّتين وهى الحربُ النَّفسيَّة، كما أنَّه مجاهدٌ بيده وسلاحه.

* **التفاتةٌ أدبيةٌ**: وقد ظهر أثر القرآن الكريم والحديثِ النَّبوىِّ الشَّريف فى أدب العرب وشعرِها بعد الإسلامِ، كما شرعت المعانى الجديدةُ التى تُصور الجهاد فى سبيل الله والرغبة فيما عند الله من الخير والرَّحمة، شرعت تصوِّر السَّعادة بالانتماء إلى كتائب الحقِّ والإيمانِ الذين مالوا وعدلوا عن الجاهليَّة وشِركها وباطلها إلى الإيمان الصَّحيح والعمل الصَّالح والطَّاعة لله ولرسوله، وقد وضعوا كلَّ إمكاناتهم النفسيَّةِ والماديَّةِ فى خدمة دين الله والدَّعوة إليه.

ونجد فى أبيات عبد الله بن أُنيسٍ السَّابقة وقد كان حليف بنى سَلِمَةَ وهو المجاهدُ المغوارُ عظيمُ الحيلة سريعُ البديهة نجد فى أبياته شيئًا من هذه المعانى والتوجُّهات والقيم الجديدة التى جاء بها الإسلام وظهرت فى الشِّعر العربىِّ، وراجعْ شعرَ حسَّان بن ثابتٍ بعد إسلامه، وعبد اللَّه بن رواحة وغيرهما من الشُّعراء الأكابر - رضى الله عنهم - وحشرنا فى زمرتهم مع حبيبنا المصطفى ﷺ، فإنَّك تجد التَّأثُّر فى الألفاظ والمعانى والخيال والغرض.

إنَّ عبد اللَّه بنَ أُنيس الأديبَ الشَّاعر المجاهد بلسانه ويده كان أيضًا عالمًا

متفقِّهًا من رُواة الحديث النَّبوىِّ وممَّن روى له الإمامُ أحمدُ بن حنبلٍ، رضى الله عنهم أجمعين.

وهكذا أخذ النُّورُ يسرى فى الآفاق وسيفُ الحقِّ يَبتُر الفِتنَ، والبرهانُ السَّاطع يؤسِّس دولة الأمن والمحبَّة والسَّلام والعدل للجميع فلا شدَّة إلا على الظَّالمين.

* * *

يوم التقى الجمعان ومعجزة الإيمان

وقد التقى الجمعان يوم بدرٍ فى شهر رمضانَ بعد فرض صيامه على المسلمين بنحو شهرٍ فى السَّنة الثَّانيَةِ من الهجرة، وفى شعبان - أيضًا - تمَّ تحويلُ القبلة إلى الكعبة المشرَّفة بدلًا من الصَّلاة إلى بيت المقدس، وإنَّ التقاءَ الجمعين كان فى اليوم السابعَ عشرَ، إذ نزلت قريشٌ خلفَ بئرِ بدرٍ من ناحية مكّة المكرَّمة فى نحو ألفِ مقاتلٍ معهم العُدَّة والعتاد ومائتا فرسٍ وسبعون بعيرًا ومعهم النِّساءُ يضربْنَ بالدُّفوف ويُغنِّين لتحميس المقاتلين وإيقاد نار الغضب والحقد فى قلوبهم.

ونزل المسلمون وهم ثلاثُمِائةٍ وأربعةَ عشرَ بسلاحٍ يُشبه سلاحَ حُرَّاسِ القوافل فى قِلَّته، وليس هو سلاحَ الخارج لملاقاة عدوٍّ شرسِ العداوة ومعهم فرسان اثنان وسبعون بعيرًا نزلوا خلف بئر بدرٍ من ناحية المدينة المنوَّرة، وكان خروجهم لتلقِّى عِيرِ قريشٍ وهى تجارتُها عند عودتها من الشَّام بقيادة أبى سفيان بنِ حربٍ: لهذا لم يَعزم رسولُ الله ﷺ على أحدٍ من الصَّحابة بالخروج معه فخرج معه بعضُ المهاجرين وعددٌ من الأنصار.

وكان اللِّقاءُ بين فريقين غير مُتكافئين: لا من حيث العددُ ولا من حيثُ العتادُ والزَّادُ، ولا من حيث الدَّافعُ للخروج: فقد خرجت قريشٌ فى نفيرٍ عظيمٍ تريد القتالَ والإرهابَ وأن يسمعَ العربُ - على الأقل - بمسيرهم

فيرهبوهم، وكان خروج المسلمين لملاقاة عِيرِ أبى سفيان ومعه عددٌ قليلٌ من الحرَّاس، فلمَّا علم أبو سفيان عن طريق عُيونه بخروج المسلمين انحاز إلى طريق السَّاحل وفرّ هاربًا ناجيًا، وقد أرسل إلى مكَّةَ رجلًا أعرابيًّا متمرِّسًا فى إثارة الحميَّة يدعوهم إلى الخروج لحماية أموالهم والدِّفاع عنها، وكان القرشيُّون مُتوتِّرين منذ سريَّة عبد الله بن جحشٍ التى غنمت تجارةً لقريشٍ وقتلت واحدًا من المشركين وأسرت اثنين منهم وفرّ رابعهم إلى مكّة يُخبرهم الخبر.

❋ **وتفوّق المسلمون بفضل الله**: وتلك هى المعجزةُ الإلهيَّةُ التى تدعو الإنسانَ إلى التَّأمُّل والتَّبصُّر فى حقيقة الإيمان وصفائه ونقائه الذى يجعل صلةَ العبد بربّه أقوى من كلِّ شىءٍ، وفوقَ كلِّ شىءٍ، وأحبَّ إلى قلب المؤمن من كلِّ شىءٍ، فيكون توكُّلُه على الله وإخلاصُه العملَ لله أقوى وأرسخَ من الجبال الرَّواسى، فلا يرى قلبُه فى الوجود سِوى الله، وإنَّ هذا العبدَ المؤمنَ القويَّ لا يخذله اللَّه أبدًا بفضله وإحسانه.

فما مصادر هذا التَّفوُّق؟ وما مظاهره التى نستلهمها من غزوة بدرٍ الكبرى؟ إنَّنا نرى آيات ذلك وبراهينه فى أمورٍ منها:

ما كان من القيادة الحكيمة الهادية من إعداد الجنود وتهيئة نفوسِهم لملاقاة العدوِّ وتنظيم الصُّفوف، وتوزيع الأعمال والمهام، والأخذ بالمشورة من أصحاب الرَّأى والخبرة، مما كان له أعظمُ الأثر فى رفع الرُّوح المعنويَّة وقوَّةِ الرَّغبة فى الشَّهادة.

ولقد فوّض الحبيبُ المصطفى ﷺ الأمورَ كلَّها إلى الله وحده، وقام فى عَريشه [حُجرة القيادة] طوال اللَّيل، يدعو ويتضرّع إليه سبحانه وتعالى، يطلب منه وحده النَّصر لعباده المؤمنين حتى أشفق عليه أبو بكرٍ الصِّدِّيق – رضى الله عنه – لكثرة ما بذل من الجهد فى البكاء والدُّعاء، وقال له: إنّ اللَّه

لن يَخْذُلَك يا رسول الله أبدًا، كفاك مناشدتك ربَّك.

وكانت الأرض التى نزل عليها المسلمون بالعُدوة الدُّنيا من بئر بدرٍ، أى الجانب الذى هو من ناحيَة المدينة، كانت هذه الأرضُ رخوةً، وكان الماءُ الذى لديهم قليلًا لا يفى بحاجاتهم فأنزل الله المطر على قدر الحاجة فلبَّد الأرضَ، وصار لديهم فى الأوانى ما يكفيهم للشَّراب والوضوء والاغتسال فاطمأنَّت القلوب، وزالت وساوسُ الشَّيطان.

ثم ألقى اللَّهُ النّعاسَ على عيون المسلمين وأمامهم العدوُّ يتربّص بهم فما أفاقوا حتى شعروا براحة النُّفوس وعظُم الرجاءُ فى نصر الله - عزَّ وجلَّ - وزالت المخاوف من القلوب، فاللهُ وحده هو حافظهم والأمرُ بيده سبحانه.

وفى المعركة أمدّهم الله بالملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين وتكثير عددهم ولإلقاء الرُّعب فى قلوب أعدائهم، ثمَّ أمر اللَّه - عزَّ وجلَّ - رسوله أن يأخذ حفنةً من التُّراب يُلقى بها فى وجوه المشركين، فأصابت عُيونَهم بفضل اللَّه وأحدثت اضطرابًا فى نفوسهم وفى صفوفهم فتَبِعَهم المؤمنون يقتلون منهم ويأسرون، وكان فضل الله عليهم عظيمًا.

وعند اللِّقاء فى أرض المعركة كان المشركون يرون المسلمين عددًا قليلًا لتكون الجرأةُ عليهم أعظم، وكان المسلمون - وهم قليلٌ - يرون عدوَّهم عددًا قليلًا لتقوى قلوبُهم ويعظُمَ رجاؤهم فى الله، وذلك ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال: ٤٤).

أى ليدرك العقلاءُ أنّ الأمر بيد الله وحده، وأنَّه ناصرٌ أولياءَه وجاعلٌ العاقبةَ للمتَّقين.

وإنَّك إذا رجعت - أيُّها القارئ - لتدبُّر سورةِ الأنفال فإنَّك ترى أثر هذه العوامل والأسباب التى قد تفوَّق بها المسلمون؛ وذلك على غير قُدرةٍ خاصة

منهم فهم بشرٌ مثلُ سائر البشر، ولكنَّ الاختلاف كان في موازين القلوب وفي مقاييس صلتها بخالق الأسباب وخالق المسبَّباتِ - بفتح الباء الأولى مشدَّدةً -.

إنَّك إذا تدبَّرت ذلك لقلتَ وأنت مطمئنٌّ إنَّما النَّصرُ من عند اللَّه وحده، وإنَّ المسلمين بظروفهم التي كانوا عليها من حيث العددُ والعتاد بل والزَّاد لم يكونوا يقدرون على تحقيق شيء في بدرٍ الكبرى لولا تأييدُ الله ونصرُه للمسلمين على أعدائهم، ليعود المتأمِّلُ في ذلك كلِّه إلى نور الإيمان وبرد اليقين إذا كان من أهل الشِّرك والإلحاد، وليزداد المؤمن إيمانًا ويقينًا، ويتلو قوله تعالى بتدبُّرٍ وإنعامٍ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣) أي قليلو العدد بالنِّسبة للمشركين وصنوفِ الملحدين في بلاد العرب وما وراءهم في جوانب الأرض.

وتتلو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧) والخطاب لرسول الله ﷺ وقد رمى بحفنةٍ من الحصباء في وجوه المشركين فأصابت عُيونَهم جميعًا وشغلتهم عَمّا هم فيه فزحف المسلمون عليهم يقتلون ويأسرون ويغنمون وانطلق النَّاجون من الموت هاربين إلى مكّة المكرَّمة يسابقون الرِّيح.

آمنَّا باللّه، فإنّ المسلمين لم يقتلوا سبعين مشركًا من أبطال قريشٍ، ولم يأسروا سبعين آخرين، ويغنموا ما حمله المشركون معهم بقوَّتهم البشريَّة، وإنَّما ذلك تأييدُ اللّه ونصره وتيسيرُ الأسباب الظَّاهرة لعباده الموحِّدين ليثبتوا ويزدادوا إيمانًا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: ١٧) فلنتدبَّر ولنعتبر لنفوز برحمة اللّه ورضوانه.

* * *

مع النَّذير البشير من بدرٍ إلى المدينة

❁ فى يوم الجمعة كانت المعركة:

فى السَّابع عشر من شهر رمضان المبارك من العام الثَّانى جاء النَّصر من عند اللّه فانهزم الجمعُ المشرك وولَّى الدُّبر تاركًا خلفه سبعين هالكًا من الصناديد وفى قبضة المسلمين سبعين أسيرًا، وعلى أرض المعركة غنائم من الأموال والزَّاد والدَّوابِ، كانت فرحةُ المسلمين بها عظيمةً وكأن بعضهم ظنَّ أنَّ مَن غنِمَ أكثر كان ثوابه أعظم؛ لأنَّ تلك كانت أولى الغنائم من حربٍ خرج لها العدوّ المعاند بخُيلائه وكبريائه، فوقعت اجتهاداتٌ وتسرُّعاتٌ من عددٍ من الصحابة فى شأن الغنائم دون الرُّجوع للقيادة الهادية، وكان أن وقعوا فى أخطاءٍ صحَّحها لهم الوحى وعُوتبوا بشأنها، وعرفوا القاعدة التى تُصحِّح لهم خطواتهم دومًا، وهى الرُّجوعُ إلى حُكم الله فى الغنائم كما فى غيرها مع طاعة الرَّسول ﷺ فى التَّوجيه وتنفيذ حُكم الله؛ لأنَّ فى هذا التنفيذ دومًا المصلحةَ للعباد فى المعاش وفى المعاد؛ ورضى المؤمنون بحكم الله، وندموا على ما وقع منهم، وعرفوا حكمَ الله فى الغنائم، وقد ضرب الرَّسولُ بسهمٍ منها لكلٍّ من حبسه عُذْرٌ أو كان له عملٌ بالمدينة بتوجيهٍ وأوامر من رسول الله وبإذنٍ منه.

❁ وفى ليلة الاثنين كانت العودة: أقام رسولُ الله ﷺ فى بدر بعد النَّصر ثلاثة أيامٍ وكان رحيلُه منها ليلةَ الاثنين العشرين من شهر رمضان، وكان الموكبُ تحيط به أنوارُ الوقار والتَّواضع والرِّفق، ومعه ﷺ الأُسَارى والغنائم الكثيرة، وكان شكرُ الله فى قلوبهم والحمدُ لله على ألسنتهم.

❁ المبشِّران بالنَّصر: وبعث أمامه بشيرين اثنين بالنَّصر والظَّفَر على الشِّرك وأهله وهما: عبد الله بن رواحة إلى أعالى المدينة المنوَّرة، وزيد بن حارثة

إلى السافلة فوصلا وعمّت الفرحةُ بالبشرى، وقد وافق ذلك السّاعةَ التى فرغ فيها عثمانُ بنُ عفّانَ - رضى الله عنه - ومن كان بالمدينة من دَفْن الطّاهرة الشّريفة رُقيّة بنت رسول الله ﷺ وهى زوج عثمان - رضى الله عنه - وكان قد بقى فى المدينة بأمر الرّسول لتمريضها، وقد أعطاه لهذا العذر سهمَه من الغنائم، وبشّره وبشّر من تولّى أمورَ النّاس ومن تولّى الصّلاةَ بهم بأجر المجاهدين بإذن الله لتخلّفهم لأعذارٍ مع رغبتهم فى الخروج معه.

❋ **نداء ابن رواحة**: وكان ابنُ رواحةَ - رضى الله عنه - ينادى: «يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وبقتْل المشركين وبأسْرِهم» فقال له صحابىٌّ: أحقًا يابنَ رواحة؟ فقال: إى والله، وغدًا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مُقَرَّنين - مربوطين -.

وقال أسامة بنُ زيدٍ لأبيه: يا أبت، أحقٌّ ما تقول؟ قال: إى واللهِ يا بُنىَّ، قال: «فواللهِ ما صدَّقتُ حتى رأيتُ الأسرى»، أى بعد وصول موكب رسول الله ﷺ بيومٍ، وكان يقود الأسرى «شَقْرانُ» وهو من موالى رسول الله ﷺ.

❋ **البلبلة**: وحاول اليهود والمنافقون إثارةَ الشُّكوك والمخاوف فى المدينة بأن قالوا: «ما جاء زيدٌ ولا جاء ابنُ رواحة إلا منهزمين فارّين وقد قتل المشركون صاحِبَكم - ﷺ - ومن معه، وقد تفرّق أصحابُكم أيُّها المسلمون تفرّقًا لا يجتمعون فيه أبدًا» حتى أخذ بعضُ الصَّحابة يستوثق من زيدٍ وابن رواحة إلى أن دخل موكبُ النُّور الهادى تحرسه عنايةُ الله - عزَّ وجلَّ - وأخزى الله المنافقين واليهودَ وكذّب سبحانه قولهم، ثمَّ وصل الأسرى بعد ذلك بيومٍ واحدٍ.

❋ **وفى الرَّوحاء**: وفى الرّوحاء بالقرب من المدينة المنورة خرج إليه ﷺ المسلمون يهنّئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه من المسلمين.

❋ **وهديّةٌ من الحَجَّام - الحلّاق - وقبولها**: وبالصَّفراء وهو موضعٌ بعد «الرَّوحاء» كان أبو هندٍ، وهو أحدُ موالى بنى بَياضَة من أهل المدينة وهو حجّام - حلّاق - الحبيب المصطفى، كان فى استقبال الهادى ﷺ ومعه طعامٌ من التَّمر والسَّويق بالسَّمْن فى إناءٍ قدّمه هديّةً فقبلها رسولُ الله ﷺ وأوصى به الأنصار خيرًا، وبأن يزوّجوه من بناتهم، ويتزوّجوا من بناته - أى تحقيقًا للمساواة والمؤاخاة -.

❋ **الوصيّة بالأسرى**: وفرّق ﷺ الأسرى بين أصحابه للإيواء والإكرام وأوصى بهم خيرًا فقال: «استوصوا بهم خيرًا» فكانوا يخصّونهم بأفضل طعامهم ويُكرمونهم فى بيوتهم غاية الإكرام حتى بعث القرشيُّون فى فداءِ أسراهم على النَّحو الذى ارتضاه المسلمون.

❋ ❋ ❋

❋ **وبعد بدرٍ كانت الأفراح فى المدينة والبُشريات فى الحبشة**:

تمازجت الفرحةُ فى المدينة بنصر الله تمازجت بالتَّواضع والشُّكر وبالحمدِ والرِّفق بالأسير الذى لم يكن له سابقةٌ خاصَّةٌ تجعله كما تراه عينُ العدالةِ: مجرمَ حربٍ شرسًا مصرًّا على العداوة واللؤم والخِسَّة، مطلوبًا قبل هذه المعركة لإراحة النَّاس من شرِّه وشدَّة تعنّته وجبروته، فهؤلاء عوملوا معاملةَ مجرمى الحرب بإقامة العدلِ واجتثاثِ الجرثومة الخبيثة حمايةً للنَّاس من مثل: النَّضْر بن الحارث لشدَّة عداوته لله ولرسوله ووقوفه معارضًا للرِّسالة ذاتها، وفيه نزلت آياتٌ بيّناتٌ من سورة الحجّ (٣و٤) ومن سورة لقمان (٦و٧) ولم يكن عُقبةُ بنُ أبى مُعَيْط بأقلّ شراسةً وحقدًا وعداوةً لله ولرسوله من النَّضْر ابن الحارث، فتمَّ إعدامُهما على يد علىٍّ بن أبى طالبٍ، وعاصم بن ثابتٍ، رضى اللّٰه عنهما.

أمّا بقيّةُ الأسرى فعاشوا أيامًا من الإكرام والتّرحيب والرّعاية تمنّوا لو طالت، كما تمنّى من تخلّف عن رسول الله ﷺ بالمدينة أن لو كان له نصيبٌ فى المشاركة فى الحرب التى كانت فريدةً من نوعها، وقد عبّر عن ذلك أحدُ زعماء الأنصار فقال - وهو أُسيد بن الحضير -: «يا رسولَ الله، الحمدُ لله الذى أظفرك، وأقرّ عينَك، واللهِ يا رسولَ الله ما كان تخلُّفى عن بدرٍ، وأنا أظنُّ أنّك تلقى عدوًّا، ولكن ظننتُ أنّها عِيرٌ (تجارةٌ فقط لقريشٍ) ولو ظننتُ أنّه عدوٌّ ما تخلّفتُ» فقال له رسول الله: «صدَقتَ»، وكان هذا لسانَ حالِ جميع المسلمين الذين تخلّفوا عن الخروج؛ لأنَّ الرّسول ﷺ لم يَعزِم على أحدٍ بالخروج وكانوا جميعًا يظنُّون أنّها لتلقّى التّجارة، وما أراده الله كان.

❋ **وفى الحبشة بَشَّرَ الملكُ الصّالح الصحابة**: وأعلن ملكُ الحبشة الصّالحُ يومَ فرحةٍ وسُرورٍ وبُشرى وتواضُعٍ لله - عزَّ وجلَّ - على نَصْرِه التَّوحيدَ وأهلَه على الشِّرك وأهلِه فى يوم بدرٍ الكبرى اليوم العظيم الشَّأنِ الرَّفيع المقام فوق جميع المعاركِ الفاصلةِ فى تاريخ بنى الإنسان..

❋ **فما قصةُ هذا الملك الصّالح مع الصّحابة؟** إنَّ النّجاشيَّ ملكَ الحبشةِ وكُنيتُه «أبو نيزر» كانت له عيونٌ فى الحجاز ينقلون إليه أخبارَ رسول الله ﷺ وانتشارِ الإسلام، وهو كانت له معرفةٌ جيّدةٌ بمنطقة «بدرٍ» وما حولها؛ لأنّه عاش زمنًا يعمل لدى قبيلة بنى ضَمْرة - بفتح الضّاد - وكان تبادلُ المنافع بين الحبشة وأرضِ العرب واستقدامُ العمالة الحبشيّة المعروفة دومًا بالأمانة كان ذلك معروفًا منذ تاريخٍ قديمٍ، وكانت أرضُ العربِ أشبه برئةٍ يتنفّس من خلالها الأحباشُ من أجل إنعاش حياتهم الاقتصاديّة لوفرة السّلع والموادّ الأوّليّة والعمالة لدى الحبشة فليس غريبًا أن يعيش «أبو نيزر» فترةً من شبابه يعمل ويكتسب الخبرات ثم يعود إلى بلده ليخلف أباه فى المُلك.

❋ **البُشرى يَرويها رجلٌ من صنعاء**: تحدَّث عبد الرَّحمن الصَّنعانيُّ كما روى الحافظ البيهقيُّ - بسند فيه ضعفٌ - ونقل عنه أصحابُ السِّير كابن كثيرٍ ومَن بعده قال: «أرسل النَّجاشيُّ ذات يومٍ إلى جعفر بنِ أبى طالب وأصحابِه، فدخلوا عليه، فوجدوه جالسًا على التُّراب دون فِراشٍ، وعليه «خُلقان» ثيابٌ قديمةٌ مهلهلةٌ.

قال جعفر بنُ أبى طالبٍ: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، أى تردّدوا فى الدُّخول، فلمّا رأى النَّجاشيُّ علاماتِ التَّردُّد والخجل فى وجوههم قال لهم: «إنى أبشِّركم بما يسرُّكم، إنه جاءنى من جهة أرضكم عينٌ لى - جاسوس - فأخبرنى أن الله قد نصر نبيَّه، وأهلك عدوَّه، وقد أسر المسلمون فلانًا وفلانًا، وهلك من المشركين فلانٌ وفلانٌ».

وقال: لقد التقَوا بوادٍ كثير شجر الأراك كأنِّى الآن أنظر إليه، لأنِّى كنت أرعى فيه لرجلٍ من بنى ضَمْرة إبله».

❋ **سؤالٌ وجوابٌ فيه عبرٌ لنا كثيرةٌ**: إنَّ نعم الله تزداد بالشُّكر والتَّواضع، وكلَّما تعاظم الإنسانُ وأسرف مع ازدياد الدَّخْل والرِّبح فإنَّه يكون عرضةً للضَّياع والفشل والكساد وأمامنا أمثلةٌ كثيرةٌ لأصحاب الملايين والبلايين تمتدُّ إليهم يدُ القانون ويولّون الأدبار هاربين وقد سُدّت الدُّنيا فى وجوههم، فهل نعتبر!

والسُّؤال لجعفر بن أبى طالب قال: ما بالك أيُّها الملكُ العظيم جالسًا على التراب وعليك هذه الخلقان الأخلاط؟

والجواب للنَّجاشيِّ العظيم: «إنَّنا نجد فيما أنزل اللهُ على عيسى - عليه السَّلام- : «إنَّ حقّا على عباد اللّه أن يُحْدثوا ويُجدّدوا للّه تواضعًا عندما يُجدّد ويُحْدِثُ لهم منه نعمةً، فلمّا أحدث اللّه لى نَصْرَ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أحدثتُ له

هذا التَّواضعَ» [البيهقىُّ والخبر فى سنده مجهول الحال ولكن فيه عبرةٌ عظيمةٌ] واللَّه أعلم.

٭ مع أهل مكّة بعد هزيمة رجالها ببدرٍ الكبرى:

٭ سلوه عنّى: كان صفوانُ بنُ أميَّةَ أحدَ صناديد قريشٍ، وقد خاف على نفسه من الخروج مع نُظرائه لحماية تجارتهم وإرهابِ المسلمين ولتأكيدِ هيبتهم فى نفوس العرب أجمعين، تلك كانت دوافِعَهُم حين خرجوا وساقتهم الأقدارُ على غير موعد إلى بدرٍ وإلى الحربِ التى جرت هناك وهزَّت أركانهم وحطَّمت كبرياءهم وغيّرت مجرى التَّاريخ وقلبت الموازينَ الماديَّةَ للعسكريِّين رأسًا على عقبٍ.

كان صفوان الزَّعيمُ المكّىُّ يجلس فى حِجْر إسماعيلَ بالمسجد الحرام حين وصل أولُ نذير من القرشيِّين ناجيًا بجِلده من أرض المعركة وهو «الحيْسُمان الخُزاعىُّ» والذُّعرُ بادٍ عليه، فسألوه: ماذا وراءك؟ فقال: لقد هلك عتبةُ بنُ ربيعةَ وأخوه شيبةُ، وفلانٌ وفلانٌ من أشراف قريشٍ، وكان صفوانُ يسمع، فأخذتْه الشُّكوكُ فى أخباره! فقال للقريب منه فى المجلس: سلوه عنِّى؟ فقالوا للحيسُمان: وما مصيرُ صفوان بن أميّة؟ فأجاب: لا تُكذِّبونى، إنِّى أراه، هو ذاك جالسٌ فى حِجر إسماعيل، وواللَّهِ لقد رأيتُ أباه وأخاه قتيلين فى أرض بدر.

٭ الجوّ العامُّ: تطاير الخبر، ففزعت النِّساءُ وهُنَّ مَنْ هُنَّ فى الحميّة والعصبيّة والتعزُّز بالنَّسب والحسب، فأخذْنَ فى النِّياحة وتقطيع الشّعور، وأخذ الرِّجالُ فى عقْر الخيول والإبل هَوَسًا وتنفيسًا عن غيظٍ شديدٍ وحقدٍ أشدّ.

وارتفعت أصواتُ النِّياحة فى الطُّرق والدُّور على القتلى، فعادت إليهم عُنجهيَّةُ الجاهلية مع خوف الشَّماتة؛ فتعاهدوا جميعًا على كِتمان ما فى

صدورهم حتى لا يصلَ خبرُ فزعِهم وأحزانِهم محمَّدًا وأصحابه فيشمتوا فيهم، ثمَّ قالوا: ولْنصبِر زمنًا لا نُرسِل فى فداء الأسرى، وكأنَّ الأمر لم يهزّهم هزًّا، حتى لا يشتدَّ المسلمون فى الفداء، فهم بسبب حقدهم وخُبث نفوسِهم يخشَوْن أن يشمَتَ فيهم المسلمون إذا علموا بفزع الأحياء منهم وبأحزانهم الشديدة بسبب ما وقع لرجالهم فى بدرٍ من الهزيمة والأسرِ والقتل، كما أرادوا أن يتظاهروا بعدم المبالاة، ويصبروا عن التَّفاوُض فى مقدار ما يقدِّمونه لفداء أسراهم فى المدينة؛ خوفًا من أن يشتدَّ المفاوضُ المسلمُ فى المقدار الذى يطلبه عن كلِّ أسيرٍ إذا رآهم حريصين متلهِّفين على إطلاق سراحهم.

فكتموا أحزانهم زمنًا يَعصِرُ قلوبَهُم حُزنٌ وهمٌّ شديدٌ، ويفتِّتُ أكبادَهم الأسَى والكَمدُ والغيظُ، وقد عبّر عن هذا الكَمد والعذابِ النَّفسىِّ الأسود بنُ عبد المطَّلِب ولم يكن قد أسلم بعدُ، وقد هلك له ثلاثةُ شُبَّانٍ فى بدرٍ فعبَّر عن حزنه المكتوم بقوله: «إنَّ جوفى قد احترق».

❊ **ونذيرٌ آخرُ وهلاك أبى لهب**: منع الرُّعبُ الذى مَلأَ قلب أبى لهبٍ عمِّ النَّبىِّ ﷺ من الخروج مع قومه، وبعث مكانه واحدًا هو العاصى بن هشام ابن المغيرة بالأجر؛ وذلك لثقته التامّة فى صِدقِ ابن أخيه وأنَّه مُحاطٌ بنصر الله فخاف على نفسه ومكث فى مكة، فلمَّا سمع أخبارَ النَّذيرِ الأوَّل أصابه غَيظٌ وحزنٌ وكمدٌ شديدٌ، وكان أبو لهبٍ يمشى يجرّ رجليه جرّا حتى وصل إلى حُجرة زمزم، وكان فيها امرأةٌ فاضلةٌ هى: «أمُّ الفضل» وهو ابنُها من العبَّاس ابن عبدالمطَّلِب وقد آمنتْ وأخفَتْ إسلامها، وكان معها خادمٌ (مولى) عظيمُ النَّفس والفكرِ وهو «أبو رافع» مؤمنٌ يُخفى إيمانَه كما أخفاه سيِّده العبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلِب، وكان الثلاثة «أمُّ الفضل، والعبَّاس، وأبو رافعٍ» فى غاية السُّرور والبهجة بنجاة الرَّسول ﷺ ونصره وإعلاء كلمة الله.

جلس أبو لهبٍ وظهره إلى ظهر أبى رافعٍ وصدرُه يعلو وينخفض حتى رأى ابنَ أخيه وهو المغيرةُ بن الحارث بن عبد المطَّلب قادمًا يلهث من شدَّة الهول الذى رآه فى بدرٍ فسأله لعلَّه يجد ما يُخفِّف عنه: أَخْبِرنى يا ابنَ أخى، كيف كان أمرُ أهلينا فى بدرٍ؟

فأجابه المغيرة: واللهِ ما هو إلَّا أن قابلنا المسلمين فى بدرٍ حتى أعطيناهم منذ اللحظات الأولى أكتافنا يقتلون منَّا كيف شاءوا، ويأسِرون منَّا كيف شاءوا، وأنا يا عمِّ لم أجد ما ألوم به رجالنا، لأننا لقينا رجالًا بيضًا على خيلٍ بُلْقٍ - أى خيل لها أكثر من لونٍ كالأحمرِ والأبيض - ينتشرون فى الفضاء بين السَّماء والأرض، وإنَّنا واللهِ لا طاقةَ لنا بهم، ولا يقوى النَّاس على الوقوف لهذه الخيل ومواجهتها: «واللهِ ما تُليق شيئًا ولا يقوم لها شىءٌ» وما تُليق - بضمِّ أوَّله - أى: ما تُبقى شيئًا، والمقصود: الملائكة.

هذه فحوى جوابِ المُغيرة المذعور وكُنيتُه: أبو سفيان بن الحارث، فرفع أبو رافعٍ صوته قائلًا: «تلك والله الملائكة».

فهاج أبو لهبٍ وطار صوابه ولطَمه فأراد أبو رافع: أن يضربه فحمله أبو لهبٍ وألقى به على الأرض، ولم يكن العباسُ حاضرًا، فقامت أمُّ الفضل فأخذت عمودَ خيمةٍ وضربت رأسَ أبى لهب وهو باركٌ فوق الغلام يضربه لتردّه عنه وهى تقول: استضعفتَه لغياب سيِّده!

❋ **هلاك أبى لهب**: وتركت الضَّربة أثرًا شديدًا فى رأس أبى لهبٍ، وقام مولِّيًا ذليلًا إذْ ضربته امرأةُ أخيه، وهذا من الذُّلِّ والعار، وأصِيب أبو لهبٍ بالعدَسة - مرضٌ أشبه بالجذام - فابتعد عنه أهله وأولاده قرفًا منه وخوفًا من انتقال هذا المرض الخبيث الذى أصاب من قبل «أبرهةَ الحبشىَّ» فكان جسمه يتناثر قطعةً قطعةً، وتركوا أبا لهبٍ بعيدًا عنهم، حتى هلك بعد سبعة أيامٍ، ثمَّ

تركوه بعد موته حتى أنتن لا يقربون منه خوفًا حتى عَيّرهم النّاس، فرموه بالماء من بعيدٍ، واستأجروا بعضَ الغرباء والضُّعفاء فحملوه، وألقَوْا به جنب جدارٍ ورموا فوقه بالحجارة حتى غَطَّوْا جسده. . ولو تدبروا معنى «بدرٍ» وما حدث فيها من آياتٍ بيّناتٍ وبراهين قاطعاتٍ بصدق النّبيّ محمدٍ ﷺ وأنَّه مبعوث العناية الإلهيّة إلى النّاس كافَّةً لإنقاذهم من الشَّرّ والمفاسد والضَّلال، لو تدبَّروا لصلح حالهم، ولفازوا فى مآلهم بفضل الله ورحمته.

* * *

الأسيرُ الذى كان سببًا فى إسلام أبيه

* **عُميرُ بنُ وهب الجُمَحِى**: هو قرشىٌّ كان شديدَ العداوةِ والشَّراسة والتَّعنُّت لم يجد منه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه إلا الأذى والعناء، واستمرّ حاله على الضَّلال حتى معركة بدرٍ الكبرى التى خرج إليها عُمير ومعه ولدُه «وهبُ ابن عميرٍ» وكان مُتحمِّسًا لقتال المسلمين، وقد هرب أبوه عمير من ساحة المعركة، فلم يَثْبُتْ وفَرَّ منها خوفًا وذعرًا، ووقع ولده وهبٌ فى يد المسلمين أسيرًا.

* **مؤامرة**: وبجوار الكعبة جلس عميرُ بنُ وهبٍ وصفوانُ بنُ أميَّةَ يتحسَّران على مصابهم الشَّديد فى بدرٍ وتَخرجُ الأنفاسُ مكبوتةً حارَّةً من صدريهما المَغيظين.

فقال صفوانُ ليُشعِلَ نارَ الحقد: واللهِ ما فى عيشنا بعد قتلانا خيرٌ؟.

فقال عُمير: صدقتَ يا صفوانُ، وواللّهِ يا صفوانُ: لولا أن فى ذمّتى ديونًا للنّاس، وليس عندى مالٌ أقضى به، وأخشَى على عيالى الضَّيعة إن أنا خرجتُ إلى المدينة لأقتلَ محمدًا، وأنتقم لابنى الأسير فى أيديهم، وأشْفى غليلى، لولا هذا لحملتُ سيفى وانطلقتُ إلى المدينة لأقتله.

وكان صفوانُ صاحبَ مالٍ وثراءٍ فاغتنمها فرصةً، وقال له: أنا أقضِى عنك ديونَك وأُنفق على أولادك حتى تعود، واجعلْ هذا الأمرَ سِرًّا بينى وبينك لا يعلم به أحدٌ من النَّاس.

❋ **وخرج عميرٌ**: شحذ عميرٌ سيفَه وغمَسه فى السُّمِّ، وانطلق إلى المدينة المنوَّرة وعند باب مسجدِ الهادى الحبيب ﷺ أناخ جَملَه متوشِّحًا السَّيف، فقال عمر بن الخطَّاب - رضى الله عنه-: «ما جاء هذا الكلبُ عدوُّ اللّه إلا لشرٍّ؟ وهو الذى حَرَّش بيننا وكان يُقدِّر عددنا لقومه يوم بدرٍ».

واحتاط عمرُ للأمر فبعث حرَاسًا معه يكونون بجواره فى مجلس رسول الله بعد أن طلب ﷺ حضور عُميرٍ، ولم يتركه عمر وكان مُمسكًا بخناقه وبحِمَالة سيفه لم يتركه إلّا بعد أن أمره الرَّسولُ بتركه.

❋ **المعجزة أضاءت قلبه**: ما جاء بك يا عمير؟ فأجاب عميرٌ: جئتُ لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسِنوا إليه، فقال ﷺ: فما بالُ السَّيفِ فى عنقك يا عمير! فأجاب عن سؤال الهادى الحبيب قائلًا: «قبَّحها اللَّهُ من سُيوفٍ وهل أغنت عنَّا شيئًا»، اصدُقنى يا عُمير ما الذى جئتَ له؟

قال: ما جئتُ إلّا لطلب ابنى والإحسانِ إليه.

فقال الهادى الحبيب ﷺ: «بل قعدتَ يا عُميرُ أنت وصفوانُ بن أميَّة فى حِجْر إسماعيل، فذكرتما قتلاكم فى بدرٍ ثمَّ قلتَ له: لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندى لخرجتُ حتى أقتل محمَّدًا؛ فتحمَّل صفوانُ بنُ أميَّة لك بدينك وعيالك على أن تقتلنى، وإنَّ اللَّه حائلٌ بينك وبين ذلك».

❋ **وأدركته رحمة الله**: فخرج عُميرٌ لتوِّه من الظُّلمات إلى النُّور، ورفع صوته بكلماتٍ من نورٍ: «أشهد يا محمَّدُ أنّك رسولُ الله، لقد كنَّا نُكذِّبك فى الخبر يأتيك من السَّماء وتُحدِّثنا به، وإنَّ هذا الأمر لم يحضره ثالثٌ بينى وبين

صفوان بن أميَّة، ولم يعلم به أحدٌ من النّاس، فواللهِ إنِّى على اليقين أنّ هذا الاتِّفاق مع صفوانَ بنِ أميَّةَ ما أتاك به إلا اللّه - عزَّ وجلَّ - فالحمدُ للّه الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المَسَاق، ثمَّ شَهِدَ شهادةَ الحقِّ: «أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنّك رسول الله».

❁ **مرحلة التَّربيَة**: قال ﷺ لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم فى دينه، وعلّموه القرآن، وأطلقوا له أسيره» ففعلوا.

❁ **السَّفير الدَّاعية إلى مكَّة**: طلب عميرٌ من رسوله الحبيب ﷺ أن يأذنَ له فى العودة إلى مكّة يدعو إلى الله وإلى نُصرة رسوله وإلى الإسلام لعلّ الله أن يهديهم.

فإن أبوا وآذوه، فإنه يؤذيهم فى دينهم: «وإلّا آذيتُهم فى دينهم كما كُنتُ يا رسولَ الله أوذى أصحابك فى دينهم وكنتُ شديدَ الأذى لهم»، فأذِن له رسولُ الله ﷺ فلحق بمكة.

❁ **ونجحت سفارته نجاحًا طيبًا**: وبعودته مسلمًا موحّدًا بطل كيدُ صفوان الذى كان قلقًا أشدّ القلق على وصول الخبر الذى يَشفى صدورَ أهل مكّة، وكان يقول لهم: «أبشروا بِوَقْعَةٍ تأتيكم الآن فى أيامٍ تُنسيكم وَقْعَةَ بدرٍ»، وقد كبته اللّه، ودعا عُمَيْرٌ إلى الإسلام وهابه النَّاسُ لشدّته، وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ، وقد أسلم صفوانُ بنُ أميّة بعد فتح مكّة فى العام الثَّامن؛ فطوبى لمن يتدبَّر ويعتبر.

❁ ❁ ❁

هذا بلاغٌ للنَّاس:

من رسائل الرّسول ﷺ إلى الملوك والأمراء
من العرب وغير العرب

وفى فترة هُدنة «الحديبيَة» سنة ستٍّ من الهجرة وصلت رسائله ﷺ إلى الملوك والأمراء من العجم والعرب يدعوهم إلى الإسلام بالحجَّة والبرهان.

رسالته عامّة: قال اللّه تعالى لنبيّه محمّدٍ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنبياء)، أى للثَّقلين.. جميعِ الإنس.. وجميع الجنِّ.

وفى الحديث: وخَرَّج البخاريُّ ومسلمٌ والنَّسائىُّ أنَّ جابر بنَ عبد الله - رضى الله عنه - قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلى: كان كلُّ نبىٍّ يُبعث إلى قومه خاصّةً، وَبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّت لى الغنائمُ ولم تَحِلّ لأحدٍ قَبلى، وَجُعلَت لى الأرضُ طيِّبةً وطهُورًا ومَسْجدًا، فأيُّما رجلٍ أدركتْه الصَّلاةُ صلَّى حيث كان، ونُصِرت بالرُّعب على العدوِّ بين يَدى مَسيرةِ شهرٍ، وأُعطِيتُ الشَّفاعة» ففى هذا الحديث الشَّريف بعضُ ما اختُصَّ به النّبىُّ محمَّدٌ ﷺ، ومنها اختصاصُه بالرِّسالة العامَّةِ فهو مبعوثٌ إلى كل أحمرَ وأسودَ، أى إلى جميع النَّاس فى أفريقيا وفى بلاد العرب وفى غيرها من البلدان، وإنَّ العربَ تُسَمِّى الأبيضَ أحمرَ، وقد جاء هذا الحديث بلفظٍ آخَرَ هو: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قَبلى، نُصرتُ بالرُّعب مَسِيرةَ شهر، وجُعِلَت لى الأرضُ مسجدًا وطهُورًا، فأيُّما رجلٍ من أمَّتى أدركتْه الصَّلاةُ فلْيصلِّ، وأُحِلَّتْ لى الغنائمُ ولم تحِلَّ لأحدٍ قبلى، وأُعطِيتُ الشَّفاعة، وكان النَّبىُّ يُبعث إلى قوْمه خاصَّةً وبُعثت إلى النَّاس

عامَّةً».

وكان من حكمة الله - عزَّ وجلَّ - أنّ المجتمع الإسلاميَّ فى أوَّلِ تكوينه بمكّةَ ثمَّ فى المدينة جَمع الفارسيَّ والأفريقيَّ والرُّوميَّ والعربيَّ فى ظلال الأُخوَّة والمساواةِ، والمحبَّةِ، وعقيدةِ التَّوحيد.

❋ أمره ربُّه بدعوة النّاس على اختلاف اللّسان والجنس:

وقد أمر اللّه - عزَّ وجلَّ - نبيَّه محمّدًا ﷺ بأن يخاطبَ جميعَ البشر ولنسمع: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأعراف).

ففى هذه الآية الكريمة خطابٌ عامٌّ لجميع البشر يدعوهم فيه ربُّ العزَّةِ والجلال إلى الإيمان بالنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنّه مبعوثُ العناية الإلهيَّة إليهم جميعًا.

ولنتدبَّر من الأدلَّة القطعيةِ على عموم رسالتهِ ﷺ: قال اللهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان). أى الذى خُصّ بالرّسالة إلى كلِّ من يستظلُّ بالسَّماء، ويمشى على الغبراء، والمراد بالعالمين: الإنسُ والجنُّ، ويقول سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ) وهو عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء ولا نبى ولا رسولَ بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وقد بيّن النَّبيُّ ﷺ هذا الأمر منذ فجر الدَّعوة إلى الإسلام وفى أوَّل خطبةٍ له وجّه الخطابَ لعشيرته ولجميع النّاس من كلِّ جنسٍ ودينٍ فقال: «الحمدُ للّهِ أحمَده وأَستعينُه، وأومن به، وأتوكَّل عليه، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا

شريك له . . ثم قال : إنّ الرّائدَ لا يكذبُ أهله ، واللّهِ الذى لا إله إلّا هو إنّى رسولُ الله إليكم خاصّةً وإلى النّاس عامّةً ، واللهِ لتموتُنَّ كما تنامون ولتبعثُنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبُنَّ بما تعملون ، وإنّها لجنّةٌ أبدًا أو لنارٌ أبدًا» .

❋ **توجيه الدَّعوة إلى جميع الملوك والأمراء** : وفى رسائله إلى ملوك وأمراءِ العالم فى عصره ﷺ دعاهم إلى الدُّخول فى الإسلام كما أمره ربُّه ، وطلب إليهم إتاحةَ الفُرصة أمام النَّاسِ الذين هم تحت أيديهم لسماع كلمةِ اللّه وللدُّخول فى دين اللّه ، وقد بدأت هذه الرَّسائلُ تصلُ إليهم وهم من سائر الأجناسِ والألسنةِ منذ أواخرِ السَّنة السَّادسة من الهجرة ، ومن ذلك :

❋ **إلى النَّجاشىّ ملك الحبشة** : وممّا كتب به ﷺ إلى النَّجاشىّ ملك الحبشة : « . . وأدعوك بدعَاية الإسلام ، فإنّى أنا رسولهُ ، أَسْلِم تَسْلَم ، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران) فإن أبيتَ فإنَّ عليك إثمَ النَّصارى من قومك» .

❋ **وإلى كسْرى ملك الفرس** : **وممّا كتبه ﷺ إلى كسرى ملكِ فارسَ** : «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، من محمَّدٍ رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارسَ ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى وآمن بالله وبرسوله ، وشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له وأن محمَّدًا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية اللّه ، فإنّى أنا رسول اللّه إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكافرين ، فأسْلِم تَسْلم ، فإنْ أبيتَ فإنَّ إثمَ المجُوس عليك» .

❋ **وإلى عظيم الرُّوم** : وممّا كتبه ﷺ إلى قيصر ملك الرُّوم : « . . أسْلِم تَسلم يُؤتِك اللّهُ أجرَك مَرَّتين ، فإن تولَّيتَ فإنّما عليك إثمُ الأريسيِّين : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ .

❋ **وإلى عظيم القبط وأمراء وملوك العرب**: كما كتب ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر رسالةً مثل تلك التى أُرسلت إلى هرقل عظيم الرُّوم، وكتب إلى سائر الأمراء فى البحرين واليمامة وعُمَان والشَّام، وجاهد ﷺ فى سبيل اللَّه حقَّ الجهاد، وأرسل البعوثَ نحو البلادِ التى كان يسيطر عليها الرُّوم، وأعدَّ جيشَ أسامةَ بنِ زيدٍ قبل انتقاله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى للتَّوجُّه إلى الشَّام وإبلاغ الرُّوم وأهل الشَّام وعَرْض الإسلام عليهم، ثمَّ أنفذ هذا الجيشَ أبو بكرٍ - رضى الله عنه - وذلك بعد انتقال الرَّسول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى، وحمل الخلفاء الرَّاشدون مسؤولية الدَّعوة إلى الإسلام فى آفاق الدُّنيا وأخلصوا الجهاد فى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ودخلوا بلاد فارس وبلاد الرُّوم وظلَّت رايةُ الفتح الإسلاميِّ والدَّعوة إليه بالحجَّة والبرهان مرفوعةً تجوب البلاد شرقًا وغربًا حتى عمَّ نورُه جميعَ القارَّات.

ولنتدبَّر قوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه مسلمٌ: «والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه لا يسمعُ بى أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموتُ ولم يُؤمنْ بالذى أُرسِلتُ به إلا كان من أصحابِ النَّار». (أخرجه مسلمٌ).

وإذا كان الأمرُ كذلك بالنِّسبة لليهود والنَّصارى وهم أهل كتاب، فإنَّ الحالَ بالنِّسبة لغيرهم مِمَّن لا كتابَ لهم أولى، والمرادُ بالأمَّة هنا أمَّةُ الدَّعوة من الإنس والجنِّ، فكلُّ من علِم بمبعثه ﷺ، سواءٌ كان موجودًا فى زمنِه أو وُجِد بعده إلى يوم القيامة وجَب عليهم الإيمانُ به والدُّخولُ فى طاعته.

❋ **والجنُّ آمنتْ**: وقد استمعت الجنُّ للقرآن، وولَّوا مُنذرين إلى قومهم، وقد أخبر اللَّه - عزَّ وجلَّ - بذلك نبيَّه فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأحقاف).

فقد بعثه اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - بشيرًا ونذيرًا لِيقيمَ به المِلَّة العوجاءَ حتى يقولَ النّاسُ جميعًا لا إله إلا اللَّه، ويَفتح به أعْيُنًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلفًا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

* * *

فتح مكّة المكرّمة
ودروس الحكمة والرّحمة لبنى الإنسان

وفى شهر رمضان من العام الثّامن فَتحَتْ مكّةُ المكرّمة أبوابَها أمام رسول الله ﷺ، ولم يجد المعاندون من بقايا المشركين الصّادّين عن سبيل اللّه مَناصًا من التّسليم بعد نحو عشرين عامًا من العنادِ والتّرصُّد وتأليبِ القبائل وتجييش الجيوش لحصار المسلمين فى المدينة، وغير ذلك من أساليب العنف والقسوة والابتعادِ عن كلِّ أسباب السلام، مع عدم استخدامهم التّعقُّل والحكمة.

❋ **أعظم دروس الحكمة والرّحمة**: وما أعظمَ العفْوَ عند المقدرة! وما أجملَ هذا القلبَ الكبيرَ الذى سما كلَّ السُّموِّ، وارتفع فوق الأحقاد والمصالح الذاتيّة! صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آله وأصحابه.

ما أعظمه ﷺ وهو يَنهى عن: قتْل الأطفالِ والنِّساء والشُّيوخ حين نما إلى علمه أن امرأةً قُتلت فى مكّة، فأحزنه ذلك، وما أعظمه ﷺ وهو يُبادر إلى حقْن الدِّماء

وسدِّ كلِّ سبيلٍ أمام إثارة المخاوفِ والاضطراب وزعزعة أمن أهل مكّة المكرَّمة، وهم أعداءُ الأمسِ والتَّوِّ، فصدرت الأوامرُ الحكيمةُ بمنع التَّجْوال حِرصًا على السَّلامة، ونادى بصوته الشَّفيق فى النَّاس بالتَّوجيهات الآتيَة:

- **من دخل المسجدَ الحرام - من المشركين - فهو آمنٌ.**
- **ومن أغلق منهم على نفسه وأهله بابَه فهو آمنٌ.**
- **ومن دخل دارَ أبى سفيان - لمكانته - فهو آمنٌ «وكان قد تأخّر إسلامه».**
- **ومن دخل دارَ حكيم بن حِزامٍ فهو آمنٌ «وكان قد تأخّر إسلامه».**

فتفرَّق النَّاسُ إلى دورهم وإلى المسجد واتَّجهت قلوبُهم نحو الرَّجاء فى الطمأنينة والتَّجاوزِ عما مضَى وما كان منهم من شدَّة عداوتهم وشراسة مواقفهم، وقد أطمعهم فى العفو العامِّ أنَّه ﷺ نهى عن القتل والقتال ووسّع عليهم فى الأماكن التى إذا قبعوا فيها باختيارهم أمنوا على أنفسهم.

❋ **العفو العامُّ**: ثمَّ جمعهم ﷺ وهم يظنُّون الثَّأر لاعترافهم بقُبح جرائمهم وتماديهم فى الشَّرِّ والإفساد وسمعوه ﷺ يسأل: «يا معشرَ قريشٍ، ما تَرَوْن أنِّى فاعلٌ بكم؟ قالوا: «خيرًا، - أنت - أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ» قال: «فاذهبوا فأنتم الطُّلقاء» وهذا أعظمُ عفوٍ عن محاربين مهزومين مستسلمين، فهو عفوٌ أعطى الحريَّةَ لكلِّ شخصٍ فى خاصَّة شئونه وعمله لا يُضَارّ ولا يُضام، ولا تخذله السُّلطة.. وبذلك انقضى عهدُ غطرسة الجاهليَّة وشركها وشراسة الجاهليين، وقد فُتحت أبوابُ الرَّحمة والأمن والأمان والعدل والاستقرار فى البلد الحرام بفضل اللّه وتأييده أولياءه.

❋ **تحطيم الرُّموز الشَّيطانيَّة وتطهير الأرض الحرام**: لقد ظلَّت الرُّموزُ الشَّيطانيَّةُ متمثِّلةً فى «ثلاثمائةٍ وستين صنمًا» منصوبةٍ على الأرض الطّاهرة حول أشرف بيتٍ وأقدمه وأعظمه أقيم لعبادة الله وحده ويرمز إلى توحيد اللّه - عزَّ

وجلّ - وإلى أنّه سبحانه ليس له شريكٌ ولا وزير له ولا ولدَ ولا مُشير.

ظلّت هذه الأصنام منصوبةً منذ أدخل الشّيطانُ فى أوهام العرب أنّها تشفع لهم عند خالقهم سبحانه وأنّها تقرّبهم إلى الله زُلفى، ظلّت حتى عاد النّبىُّ ﷺ إلى مكّة المكرّمة فاتحًا منتصرًا متواضعًا، وكان أوّلُ عملٍ عمله فى مكّة بعد أن سكنت الفتنُ واستقرّت الأمورُ هو تحطيمَ هذه الرُّموز الشّيطانيّة وإزالتها والإظهارَ للنّاس جميعًا أنّها لا تملك قوةً ولا حيلةً ولا قُدرة لها، عسى أن يتعقّلَ المشركون وأن يعودَ إليهم رشدُهم، فينبذوا الشركَ ومظاهره، وكان الفتحُ العظيمُ المبين لأطهر بقعةٍ فى الأرض بفضل الله وعونه كان يومَ نعمةٍ ورحمةٍ وهدايةٍ وعِبرةٍ لكلّ من كان له قلبٌ حيٌّ وعقلٌ سليمٌ، وارتفعت رايةُ التّوحيد، وستظلُّ مرفوعةً عاليةً إلى يوم الدِّين على الرّغم من شراسة أعوان الشّيطان ومطامعهم ومخالبهم وأنيابهم وتضافُر جهودهم فى عداوة الحقّ وأهله.

* **ابن عبّاسٍ يصف لنا**: «دخل رسولُ اللّه ﷺ مكّةَ يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها، وحول الكعبة أصنامٌ مشدودةٌ بالرّصاص، فجعل الرّسولُ ﷺ يُشير بقضيبٍ فى يده إلى الأصنام ويقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ إنَّ الباطل كان زهوقًا»، فما أشار إلى صنمٍ منها فى وجهه إلّا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقى منها صنمٌ إلا وقع - على الأرض -.

[سيرة ابن هشام عن الزهري]

لقد تهاوت الأصنامُ بفضل اللّه ونصره نبيّه ﷺ فى هذا اليوم العظيم، وذلك بإشارةٍ من عصا الرّسول ﷺ إلى كل صنمٍ من الثّلاثمائة والسّتين صنمًا، وكان هذا إيذانًا بزوال الوهم من قلوب المشركين، وبإزالة كلِّ مظاهر الشِّركِ من أرض الحرم، وإيذانًا بإزالة هذه المظاهر الشِّركيّة من أعمال الحجِّ والعمرة، وكان المسلمون يأخذون بمبدأ التّدريج حتى يُؤتى الإصلاحُ ثماره كاملةً، فما

أن انقضى العامُ التَّاسع من الهجرة إلّا وقد تطهَّرت أرضُ الحرم تمامًا وتطهَّرت أعمال الحجِّ من كلِّ مظهرٍ ينافى مقتضيات توحيد اللّه - عزَّ وجلَّ - ثمَّ جاء الرَّسول ﷺ للحجِّ فى العام العاشر وليس فى أرض الحرم مشركٌ ولا ظاهرةٌ للشرك، فقد أذاع أبو بكرٍ - رضى الله عنه - فى حجّته فى العام التَّاسع وأذاع معه علىُّ بنُ أبى طالبٍ - رضى الله عنه - توجيهاتِ رسولِ الله ﷺ التى تضمَّنت تطهير الحرم من الشِّرك ومن بقايا المشركين فلا يسكنون فيه، وقد تمَّ منعُ حجّ العريان بدءًا من حجِّ العام العاشر، وتلا على النَّاس جميعًا الإمامُ علىُّ بن أبى طالبٍ يوم الحجِّ الأكبر الآيات من صدر سورة «براءة».

❋ **ومن الباطل الذى أُزيل**: ورأى رسولُ الله ﷺ فى الكعبة صورًا زعموا أنّها لملائكة، وصورةً زعموا أنَّها لإبراهيمَ الخليل - عليه السلام - يستقسِم بالأزلام - العِصىّ - فقال ﷺ: «قاتلهم اللّه جعلوا شيخَنا يستقسم بالأزلام، ما شأنُ إبراهيم والأزلام؟ ثمَّ تلا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران) «وقد أمر ﷺ بتلك الصُّور فطمسوها» [ابن هشام].

فدخل رسول الله ﷺ الكعبةَ وليس فى الكعبة شىءٌ من الصُّور وقد أزالوها، كما جاء عند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما.

❋ **كرامة الإنسان وتأكيد تقريرها يوم الفتح**: ثمَّ قام النَّبىُّ ﷺ على باب الكعبة وأثنى على اللّه - عزَّ وجلَّ - وحمده وشكره على نعمة النَّصر المبين، وأثلج ﷺ الصُّدور بتأكيده على تقرير: الحريَّة، والكرامةِ، والمساواة لبنى الإنسان، وأكَّد ﷺ إبطالَ مساوئ الجاهليّين وتعاظمهم بالأحساب والأنساب، وتفاخرهم بالمآثر والمناصب وغير ذلك من الأمور التى تدعو إلى التَّخاصُم والتَّناحُر بسبب استعلاء قومٍ على آخرين.

كما أكّد ﷺ تحريم وإبطال الأخذ بالثّأر ظلمًا، ممّا كان أحدَ الأسباب الرَّئيسة فى تعميق العداوات وكثرة الحروب، وحدّد وبيّن لهم الديةَ فى حال القتل الخطأ الذى هو شِبهُ العمد فى قوله: «ألا وقتيلُ الخطأ شِبه العمدِ بالسَّوط والعصا ففيه الديةُ مُغلَّظةٌ: مائةٌ من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها» وإنّ شِبه العمد: هو الضَّربُ بيدٍ - كما فعل موسى عليه السَّلام مع القبطىِّ - أو بآلةٍ كالعصا التى ليست مَظِنَّة أن تقتُل المضروب كالسَّوط.

ومن روائع المبادئ ما جاء فى خطبته ﷺ: «يا معشرَ قريشٍ إنّ اللّه قد أذهَبَ عنكم نَخْوةَ الجاهلية وتَعظُّمَها بالآباء، النّاسُ لآدم وآدمُ من تراب».

ثمَّ أعلمهم جميعًا بإطلاق الحريّة وبالعفو العامِّ عمَّن ظلموا وآذَوْا رسولَ الله ﷺ فقال: «يا معشر قريشٍ، ما تَرَوْن أنّى فاعلٌ فيكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريم، قال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطُّلقاء».

لقد كان فتحُ مكَّةَ المكرَّمةِ من أعظم الفتوح فى تاريخ بنى الإنسان، نتعلَّم منه الدُّروسَ الهادية ونستقى القيمَ الثَّابتة والفضائل السَّاميةَ ولنا فيه العبرة والعظة، وبعد هذا الفتح المبين أقبل النَّاسُ على دين اللّه أفواجًا فرحين مسرورين بالنُّور الهادى وبالحياةِ الجديدةِ بما فيها من كرامةٍ وحريَّةٍ ومحبَّةٍ وعدلٍ وعلمٍ وسلامٍ.

* * *

وفى شهر رمضان سنة تسع
بايع وفدُ ثقيفَ وهم أهلُ الطَّائف طائعين

عاد رسولُ الله ﷺ من تبوك إلى المدينة فى شهر رمضان سنة تسعٍ، وفى ذلك الشهر حضر وفدُ ثقيفَ وهم أهلُ الطَّائف، وكانوا متشبِّثين بالوثنيَّة وضالعين مع قريشٍ فى مكَّةَ للوقوف فى وجه حريَّةِ الدعوة إلى الله.

وكان زعيمُهم عُروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفىُّ قد وصل من قبل إلى رسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى المدينة بعد فتح مكَّة وبعد أن فكَّ ﷺ حصار الطَّائف فى العام الثَّامن، وعاهد عروةُ بنُ مسعودٍ على الإسلام واستأذن رسولَ الله فى العودة إلى الطّائف، فخشى عليه الرَّسولُ أن يقتله قومُه، إذا هم عرفوا أنَّه قد أسلم، ولكنَّ عُروةَ كان على ثقةٍ من محبَّة أهل الطَّائف له، فلمَّا عاد إليهم ودعاهم إلى الإسلام رَمَوْه بالسِّهام وقتلوه، وأكرمه الله بالشَّهادة.

وبعد ذلك بأشهرٍ تشاور زعماءُ ثقيفَ فيما بينهم فى أمر الإسلام، وقد رأوا العرب قد دخلوا فى دين اللَّه أفواجًا، واستقرَّ الرَّأى على اختيار ستةٍ من خيارهم برياسة «عبد يَالِيلِ بن عمرو بن عُميرٍ»، وساروا حتى وصلوا المدينة المنوَّرة.

❋ **وفى المدينة**: وفى المدينة استوقفهم أبو بكرٍ الصِّدِّيق - رضى الله عنه - عند المغيرة بن شُعبة حتى يُخبرَ رسولَ الله بقدومهم فأمر ﷺ ببناء حجرةٍ فى ناحية المسجد ليقيموا فيها، وكان خالد بنُ سعيد بن العاص هو السَّفيرَ الذى يمشى بينهم وبين رسولِ الله ﷺ حتى بايعوا وأسلموا وعرفوا ما لهم وما عليهم: فقد طلبوا تأخير هَدْم «اللَّات» وهو صنمُهم الكبير ولو لشهرٍ واحدٍ فأبى عليهم ذلك، فقالوا: لا نهدم أصنامنا بأيدينا فأعفاهم ﷺ من ذلك، وأرسل معهم من يُكسِّرها؛ لأنَّهم كانوا قريبى عهدٍ بالجاهليَّة والشِّرك.

وسألوه أن يُعفيهم من الصَّلاة؛ لأنَّ فيها الرُّكوعَ والسُّجودَ بالجبهة على الأرض فقال لهم ﷺ: «وأمّا الصَّلاةُ فإنَّه لا خيرَ فى دينٍ لا صلاةَ فيه» فقبلوا ورضوا، واختار لهم أحدثَهم سنًّا يكون أميرًا عليهم؛ لأنَّه كان شديدَ الرَّغبة فى التَّفقُّه فى الدِّين وتعلُّم القرآن وهو «عثمان بن أبى العاص».

وكان بلالُ بنُ رَباحَ بعد إسلامهم يأتيهم بالفطور والسُّحورِ كلَّ ليلةٍ من عند

رسول الله ﷺ، ويأكل من الطَّعام قَبْلهم ثم يأكلون، ليطمئنُّوا.

ثمَّ بعث معهم أبا سفيان بنَ حربٍ لقرابته فيهم والمغيرةَ بنَ شُعبة؛ لأنَّه منهم فقاما بهدم «اللَّات والأصنام الأخرى» وعلَّماهم وحَسُن إسلامُهم.

❁ **التفاتةٌ**: الغزوات والبعوث: وبعد غزوة «بدرٍ الكبرى» خرج الرَّسول ﷺ بنفسه يقود أصحابه فى عددٍ من الغزوات بلغت ستّا وعشرين غزوةً [٢٦غزوة]، ولم يقع قتالٌ إلا فى بدرٍ وثمانى غزواتٍ أخرى هى: [غزوة أُحُدٍ [فى شوال سنة ثلاثٍ]، والخندق (الأحزاب) [سنة أربعٍ أو خمسٍ]، وبنى قُريظة [فى سنة خمسٍ] وبنى المُصطلق [سنة خمسٍ أو ستٍّ]، وخيبر [سنة ستٍّ]، وهذه فى المدينة المنوَّرة أو قريبًا منها؛ ثمَّ غزوة «فتح مكّة» فى [العام الثامن]، وحُنينٍ [سنة ثمانٍ]، والطَّائف [سنة ثمانٍ] أمّا آخر غزوةٍ فهى «غزوة تبوك» على مشارف الشَّام، حيث بلّغوا الدَّعوة إلى العرب والرُّوم ولم يقع قتالٌ وذلك فى العام التَّاسع، أمّا جُملة البعوث والسَّرايا وهى المجموعات التى خرجت بأمره ﷺ ويقود كلَّ سريَّةٍ منها صحابىٌّ فقد بلغت تسعًا وثلاثين [٣٩] سَرِيَّةً، [كما ذكره ابن هشامٍ] وذلك حتى العام العاشر، وهو العام الذى لحق فيه الحبيبُ الهادى ﷺ بالرَّفيق الأعلى.

❁ **مشورةٌ أنقذت وأخمدت نار الفتنة**: إنَّ قبيلة ثَقيفٍ مواطنُهم جنوب مكَّةَ المكرمة فى مدينة الطَّائف وما حولها، وقد جاء إسلامهم بعد إسلام كثيرٍ من القبائل العربية، ولمَّا لحق الرَّسولُ ﷺ بالرَّفيق الأعلى وارتدَّ من ارتدَّ من القبائل، وامتنع بعضُهم عن أداء الزَّكاة، فى أوَّل عهدِ الخليفة الصِّدِّيق أبى بكرٍ - رضى الله عنه - وقد همَّت ثقيفُ بالارتداد، ورأوا أن يستشيروا رجلًا عاقلًا كان مطاعًا فيهم ومعروفًا بسداد الرّأى وبُعْدِ النَّظر وهو عثمانُ ابن أبى العاص - رضى الله عنه - فلمَّا كشفوا له عمَّا يُساورهم ويدور فى

نفوسهم بشأن الارتداد، قال لهم: «لا تكونوا آخرَ العربِ إسلامًا، وأوّلهم ارتدادًا» فأطفأت هذه العبارةُ نار الفتنة التى كادت تشتعل فى الطَّائف، وأعادت إلى العقول صوابها وفعلت الحكمةُ فعلها، وأغنت عن زحف الجيوش وإقامة الحدود، إنَّ مشورةَ أهل العقل والخبرة المخلصين النَّاصحين نعمةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّها تُنير الطَّريق، وتؤتى ثمارها الطَّيِّبة إذا انتفع بها المستشيرُ على الوجه المَرضىِّ الصّحيح ولذا قيل [لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب]:

إذا كنتَ فى حاجةٍ مُرسلًا فأرسِلْ لبيبًا ولا تُوصه
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التوى فشاوِرْ حكيمًا ولا تَعْصِه

إنّ رسول الشَّخص هو سفيره المُعبِّرُ بلسان مُرسِله لجلب خيرٍ أو كفّ شرٍّ، أو توثيق صلةٍ، أو لوصْل وُدٍّ انقطع، أو توضيح قضيَّةٍ، أو دعوةٍ إلى حقٍّ وهدى، ونحو ذلك ولذا يُختار لهذه المهامِّ الإنسانُ الحاذقُ اللَّبيبُ ذو القدرة على البيان والإقناع والكلام على قدر الحاجة مع مراعاة ظروف المُرسَل إليه وتوجُّهاته وأحواله النَّفسيَّة، فإذا أحسن الإنسانُ اختيار سفيره أراح واستراح، ووصل إلى مقاصده من أيسر طريقٍ وأحْسنه.

وإنَّ المستشار ذا الحكمة وسدادِ الرَّأى، وذا المعرفة بالأمر الذى يُستشار فيه ينبغى أن يُطاع حين تقع المشورةُ موقعَها، سواءٌ كانت فى مجال الحياة العامَّة أو فى الطِّبِّ أو السِّياسة والاقتصاد والحرب والسَّلام، وسواءٌ كانت على المستوى الفرديِّ أو المستوى الجماعيِّ.

ولذا كانت المشورة التى وراءها غرضٌ شخصيٌّ، ويُقصَد منها غشُّ المستشير معدودةً من باب الخيانة، وإثمُها عظيمٌ؛ لأنَّ ضررها جسيمٌ حسب مقتضيات الحال، ولذا قرن الحديث النَّبوىُّ الذى رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - بين الغشِّ فى المشورة والفتوى بغير عِلمٍ وبغير ارتكازٍ على أدلّة

وبراهين وحُجّةٍ قويَّةٍ وفيه: «ومن استشاره أخوه المسلمُ فأشار عليه بغير رُشدٍ فقد خانه، ومن أفتى فُتيا بغير ثَبَتٍ فإثمه على من أفتاه» (البخاريُّ فى الأدب المفرد وبعض أصحاب السُّنن) وبغير رشد: يعنى بخلاف الصَّواب وهذا من الغشِّ والخيانة، وبغير ثَبتٍ: بفتح أوَّله وثانيه أى بغير حُجَّةٍ وبيِّنةٍ وبرهانٍ، أى على خلاف الحقِّ والعلم الصَّحيح.

وإنَّ بطانةَ الرَّجل هم مستشاروه وأصحابُ رأيه، فإن خانوا فى الرَّأى والنَّصيحة وتابعوا الأهواء والمصالحَ الخاصَّةَ أفسدوا إفسادًا عظيمًا؛ لأنّه إفسادٌ متعدٍّ وليس قاصرًا على المنصوح وحده، وهم بهذا يفسدون على المسؤول أو وَليِّ الأمر حاله ويتسبَّبون فى تدهور الحال، وفى الحديث الشَّريف الذى رواه أبو هريرة وأخرجه البخاريُّ فى الأدب المفرد وأصحاب السُّنن: «إنَّ اللّه لم يبعث نبيًّا ولا خليفةً إلَّا وله بطانتان: بطانةٌ تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانةٌ لا تألوه خبالًا، ومن يُوقَ بطانَة السُّوء فقد وُقى» أى وقى من شرٍّ عظيمٍ، وتألوه خبالًا: أى لا تُقَصِّر فى إفساده وتشتيت أمره.

❋ **المستشار مؤتمنٌ والمشورة أمانة**: إنَّ المستشار هو الشَّخص الذى يطلب منه الآخرون المشورةَ وإنارةَ الطَّريق أمامهم بخبرته وحكمته وعلمه ورأيه، وتلك مسؤوليّةٌ جسيمةٌ، فمن ناحيةٍ ينبغى له أن يتفهَّم جيِّدًا ما يريده المستشير، وأن يقدِّم له الرَّأى الذى يعتقد عن إخلاصٍ أنَّه المناسبُ وفيه مصلحته، ومن ناحيةٍ أخرى فهو مؤتَمَنٌ على سرِّ المستشير لا يجوز له أن يُذيعه أو يتحدَّثَ به فالمستشارُ موضعُ ثقةِ الناس وقلبه مُستودَعُ أسرارِهم فإن فعل غير ذلك فقد خان، وهذه العبارة من جوامع كَلِم الرسولِ محمَّدٍ ﷺ وهو القدوة الحسنة فى كل ما فيه سلامة الفرد ومصلحةُ الأمَّة.

وقد جاءت العبارةُ الحكيمةُ «المستشار مؤتمنٌ» فى ثنايا قصة أبى الهيثم

الأنصارىّ الأوسىّ فقد سأله الرَّسول ﷺ - كما قال أبو هريرة - هل لك خادمٌ؟ وهذا من شفقته بأصحابه وتَفقُّده أحوالَهم وقربِ مشاعره من احتياجاتهم فقال أبو الهيثم: لا، قال ﷺ: «فإذا أتانا سَبىٌ فأتِنا» يقول أبو هريرة: فجاءوا للنَّبىِّ ﷺ بشخصين ليس معهما ثالثٌ، فأتاه أبو الهيثم - يطلب خادمًا - فقال له النَّبىُّ ﷺ: «اختَرْ منهما» قال: يا رسول الله، اخْتَرْ لى، فقال ﷺ: «إنَّ المستشار مؤتَمنٌ» خُذ هذا؛ فإنِّى رأيتُه يصلِّى، واستوصِ به خيرًا».

إنّه كلامٌ أغلى من اللؤلؤ والمَرجان، وأنفعُ لبنى الإنسان، وإنّ المتأمِّلَ يجد فيه نورَ الحكمةِ والرَّحمة وإخلاص النَّصيحة على ضوء الظَّاهر الذى تبيَّن له، فقد طلب أبو الهيثم المشورةَ فى اختيار أحدهما، فكان ممَّا رجَّح به الشَّخصَ الذى وقع عليه الاختيارُ أنّه ﷺ رآه يصلِّى، وهذا مُرجِّحٌ ولا شكَّ فإنّ الذى يُصلِّى يُرجى منه الإخلاصُ والأمانةُ فى عمله، ثمَّ انظر قوله ﷺ: «واسْتوصِ به خيرًا». وما تحمله هذه العبارة من إيحاءٍ بفكِّ إسار هذا الشَّخص الحريص على العبادة وتحرير رقبته وإعتاقه، فالخيرُ فى مثل هذه الحالة فى قوله ﷺ: «واستوصِ به خيرًا» درجاتٌ من العناية بالموصى به كالعناية بكسوته وطعامه والرِّفق به فى عمله ومواساته وهذه كانت وصايا نبويّةً عامّةً بالأسرى، وإنّ أعظم الخير للأسير والرَّقيق أن يصير حرًّا ويمتلك إرادةَ نفسه، وهذا الأمر قد فطنت له زوجةُ أبى الهيثم حين حدّثها عن وصية الرَّسول بالأسير، فقالت له: «ما أنت ببالغٍ ما قال النَّبىُّ فيه إلا أن تُعتِقَه» أى إن صنعتَ معه ما صنعتَ من الخير ما عدا العتق لم تبلغ فيه المعروفَ الذى أمرك به النَّبىُّ ﷺ إلا بعتقه وإطلاقِه حرًّا، فقال أبو الهيثم: «هو عتيقٌ» فتأمَّل رحمةَ الإسلام بالأسرى والتّوصيَة بإكرامهم وإيجادِ الأسباب لإطلاق حريَّتهم، وتأمَّل كيف

كان ﷺ يعايش النَّاس ويوضِّح سبل الخير لهم، ويرحم الضَّعيف، ويُحبُّ أهل الصَّلاح وتَرجَح كفَّتهم لديه، ويأخذ بالظَّاهر من أحوالهم، واللَّه يتولى السَّرائر.

* * *

مع أكمل الناس ﷺ

إنّ الرّسولَ محمَّدًا ﷺ هو الرَّحمةُ المُهداة: جعل الله له ولأمَّته الأرض مسجدًا فحيثما كان المسلم أقام الصَّلاة، وجعل له تُرابها طهورًا فإذا لم يتيسّر الماء الطَّاهر أو إذا عجز المسلم عن استخدامه لمرضٍ ونحوه تيمّم بضربةٍ واحدةٍ بكفيه على طاهرٍ من الأرض كحجرٍ أو مَدَرٍ أو رملٍ أو ترابٍ، ويمسح وجهه بكفَّيه ويعُمُّ الوْجهَ بالمسح ثمَّ يمسح كفّيه إلى رُسْغَيْه كلُّ كفٍّ يمسحُ الآخرَ بإدارتهما ظاهرًا وباطنًا (أو يَمْسحُ بضربتين بالكفّين يمسحُ بواحدةٍ منهما الوجْه، وبالأخرى الذّراعين حتى نهاية المرفقين) - وكلاهما واردٌ عن السّلف.

وفى هذا ما يدلُّ على أمرين مُهمين: الأوَّل: على يُسر العبادة فى الإسلام، والآخر: على مكانة الصَّلاة وأنَّها لا يجوز التَّهاون بشأنها، ولا يحقُّ لمسلمٍ أن يؤخّرها عن أوَّل وقتها لغير ضرورةٍ؛ فتقام الصَّلاة فى المسجد وإذا لم يتيسَّر له لأمر ما ففى أىِّ مكانٍ يتواجد فيه الشَّخص توضَّأ وصلَّى وإن امتنع الماءُ تيمَّم، فالصَّلاةُ قرينةُ الإيمان لا تسقط عن المسلم بأىِّ حالٍ، وكذلك أهل البيت من النِّساء والبنات ينبغى لهنّ أن يبادرن إلى صلاة الفريضة فى أوَّل وقتها وإن تيسّر لهنّ إقامة الجماعة فى البيت كان خيرًا ونعمةً.

* إنَّه ﷺ رسول الله إلى جميع الإنس والجنِّ، وهو خاتم النَّبيِّين والمرسَلين، وجعل الله صدور أمَّته أناجيلَ يقرءون القرآن ظاهرًا، وينطبع

بفضل الله وتيسيره على قلوب المجتهدين فى حفظه وليس لأمّةٍ غير أمّة محمّدٍ هذه المكرمة، والله - عزّ وجلّ - يقول فى سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

❋ وقد خصّه ربُّه بأعلى الصِّفات اللّائقة بالبشر، وأكمل السِّمات والأخلاق، وكان ظاهره ﷺ يُنبئ عن طهارة باطنه ونقائه وصفائه، ويدلُّ ظاهرُه على حُسن سريرته، وقد جاء عند الشَّيخين من حديث البراء بن عازبٍ: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاس وجهًا، وأحسنَهم خُلقًا، ليس بالطَّويل الذَّاهب ولا بالقصير البائن» وفى حديث أنسٍ: «كان رَبْعَةً - بفتح الرَّاء - لكنَّه إلى الطُّول أقربُ» وقال أبو هريرة: «ما رأيت شيئًا أحسنَ من رسول الله ﷺ كأنَّ الشَّمس تجرى فى وجهه» [أخرجه الترمذى وغيره].

❋ وكان ﷺ أرجحَ النَّاس عقلًا، وأفضلهم رأيًا، وقد كان من كمال العقل فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشرٌ سواه، وكان عظيمَ الحلم يكظم غيظه ويعفو عمَّن ظَلَمه ويصفح عمَّن أساء إليه فى نفسه الشَّريفة، صبورًا جلْدًا، عفَّ اللِّسان.

اصطفاه ربُّه، وعصمه، وأدّبه، وهداه وشرح صدره بنور العلم وكمال الإيمان، ورفع ذِكره، وشرَّفه، وكرَّمه، وشرَّف أمَّته صلوات الله وسلامه عليه.

❋ هيا نتعلَّم.. من أغنى النَّاس وأعلاهم مقامًا:

جاء عند التِّرمذى من حديث أبى أمامةَ - رضى الله عنه-: أنّ رسول الله ﷺ قال: «عَرض علىّ ربِّى ليجعلَ لى بطحاءَ مكَّةَ - صحراءها - ذَهبًا، قلتُ: لا، يا ربِّ، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جُعتُ تضرّعت إليك، وذكرتُك، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك».

فهو ﷺ عند شدَّة الحاجة والجوع يصبر ويتلذَّذ بكثرة الدُّعاء وذكرِ الله وسؤاله - سبحانه - من فضله، فتلك كلُّها عباداتٌ، وهو فى الرَّخاء وفى المعدة

ما يقوم بحاجتها يتلذّذ بالحمد والشُّكر للمنعم الوهّاب فتأمّل - العبوديّة الحقّة - إنّه ﷺ راضٍ عن ربه دومًا فى الأمن والخوف، وفى الشِّدَّة والرَّخاء، والبأساء والنّعماء، فالقلبُ عامرٌ بالمحبّة والخضوع واللِّسان ذاكرٌ شاكرٌ.

* **نفسٌ زكيّةٌ كريمةٌ**: مرّت عليه وعلى أهله ﷺ شِدةٌ فعرض الحالَ على الله وكان جبريل - عليه السّلام - معه، يقول ابن عبّاسٍ: «فأتاه إسرافيل، فقال: «إنّ اللّه سمع ما ذكرتَ فبعثنى إليك بمفاتيح خزائنِ الأرض، وأمرنى أن أعرِضَ عليك أُسَيِّر - الياء مشدَّدةٌ مكسورةٌ - معك جبال تِهامةَ زُمُرُّدًا وياقوتًا وذهبًا وفضةً، فعلتُ - أى إن تَقْبلْ هذا فعلتُ بأمر الله - فإن شئت نبيًّا مَلِكًا، وإن شئتَ نبيًّا عبدًا، فأشار إليه جبريلُ: أن تواضَعْ، فقال: بل نبيًّا عبدًا - ثلاثًا -» [أخرجه الطبرانى بإسناد حسن].

وليكن معلومًا لنا أنّه ﷺ لو أخذ هذه الكنوزَ لأنفقها فى طاعة ربّه، ولكنّه اختار غِنى النَّفس مع العبوديّة الخالصة لله، لقد كان يرغب دومًا فى استكانة القلب وتوجيه الطَّاقة فى طاعة الرَّبِّ، وذلك هو الكنزُ الحقيقىُّ فى الدُّنيا والباقى فى الآخرة.

ولنسأل أنفسنا: ما قيمة الصِّراع من أجل المال ومتاع دُنيا هو زائلٌ لا محالة؟ لنسأل أنفسنا: لماذا يُجافى الأخُ أخاه ويخاصم الصَّديقُ صديقَه والشَّريكُ شريكه ولماذا يتنافر أبناءُ الأسرة الواحدة من أجل المال مع أنَّ طريق التَّفاهم والتَّسامح والتَّعاون والصُّلح بالإقناع والمحبّة هذا الطَّريق مفتوحٌ أمام الجميع ليكبتُوا الشَّيطانَ وأعوانه راضين بقسمة اللّه، عزَّ وجلَّ.

ألسنا سنترك القليلَ والكثير وستتلاشى من حياتنا الأبّهةُ والفخامةُ ونلقى الله بما فى السَّرائر والضَّمائر وما قدَّمناه للآخرة، ألا يُوجب ذلك على العقلاء ألا يغالوا فى الانهماك فى حبِّ الدُّنيا ومتاعها وأن يجعلوها مزرعةً للآخرة، وأن

يحرصوا على الباقى الدّائم ويتركوا الصّراع والخصومات وأن يتحرّوا الحلال الطّيّبَ من المكاسب والمطاعم ومن الشّراب والكساء، فأكْثِرُوا من الصّلاة والسّلام على أغنى النّاس وأطيبهم نفسًا، واسْلُكوا طريقَ الرّاضين عن اللّه الشّاكرين لأنعُمه أهلِ السّماحة والتّسامح ومحبّة الخير للجميع.

❋ **اختار العبوديّة فزاده الله شرفًا وعزًا**: لقد أعطى الله - عزّ وجلّ - رسولَه محمدًا ﷺ ما لم يُعط أحدًا من خلقه، وجعل قلبه الشّريفَ وعاءً للعلم اليقينىّ والحكمة، ومع ضياءِ نور المُشاهَدة فى هذا القلب الطّاهر النّقىّ كانت تذوب النّفسُ، وتتضاءل فى عينيه حظوظُ الدُّنيا مما يَفْنى ولا يَبْقى، وعند ذَوبان النّفس فى أنوار الحقّ يكون صفاؤُها من المكدِّرات وخلوُّها من المُعيقات والمُحبِطات: أى تخلو النّفسُ من غِشِّ الكِبْرِ والعُجب - بضمِّ أوّله - فتنقاد دومًا للحقّ ويلين القلبُ للنّاس فلا يصدر عنه إلا الرّحمةُ والرِّفقُ والإشفاق.

❋ **ومن تواضعه ﷺ**: أعطاه الله الحظَّ الأوفر من التّواضع، ثمَّ إنَّه من ينبوع تواضُعه ﷺ يَغْترف السّالكون الذين يرجون فى عُبورهم الدُّنيا رحمةَ اللّه وعفوَهُ ورضوانَه، فهم لذلك لا ينازعون الجبّار سبحانه كبرياءَهُ، فالكبرياءُ له وحده وقد نبّه عبادَه، فلا يلُومنَّ متكبّر من النّاس إلا نفسه.

ومن تواضُعه ﷺ أنَّ اللّه - عز وجل - خيَّره أن يجمع بين النُّبوَّة والمُلْكِ فيكون مَلِكًا لديه أُبَّهةُ المُلك مع قيامه بالرِّسالة والنُّبوَّة - وقد كان ذلك لداودَ وابنه سليمان - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - أو أن يبقى ﷺ على ما هو عليه عبدًا - فقيرًا - نبيًّا، فاختار ﷺ الثّانى، اختار شرفَ العبوديّة مع النُّبوّة، فأعطاه اللّه - عزَّ وجلَّ - بتواضُعه: أن جعله أوّلَ مَن تَنشقُّ عنه الأرض، وأوّلَ شافعٍ وأوّلَ مُشفَّعٍ - بتشديد ما قبل آخره مفتوحًا - وإنَّ الشَّفاعة الكبرى ثابتةٌ له يوم القيامة وهو أوّل من يأذن اللهُ له فى الشَّفاعة ﷺ، ولا يجوز المماراة فى ذلك.

ومع عظمة العطاءِ الإلهيّ وسموّ الفيوضات الرّبانيّة لعبده محمّدٍ كان يزداد تواضُعًا وخوفًا، ولذا لم يأكل مُتّكئًا حتى فارق الدُّنيا، وكان يقول: «إنَّما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبدُ، وأجلس كما يجلس العبد»، وذلك حين قالت له أمُّ المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - مُشفقةً عليه فى حالةٍ وجدته فيها مُتعبًا: «ألا تأكل مُتّكئًا؟».

وكان ينهى ﷺ أمّته عن المبالغة فى مدحه، ويلفتُهم إلى أنّه عبدٌ للّه فيقول لنا: «فقولوا عبدُ اللّه ورسوله» [عند الترمذى].

وكان ﷺ: أرحمَ النّاس بالعيال، وأشفقَهم على الخدم والضُّعفاء، وما ضرب أحدًا بيده إلّا فى حالات الجهاد فى سبيل اللّه، وما مدَّ رجليه بين أصحابه، وإذا ناداه أحدٌ قال: «لبّيك» وكان يركب الحمار، ويُرقِّع ثوبه بنفسه، ويرفع دلوه، ويكنس بيته، ويخدم نفسه، ويحمل متاعه بيده، وذلك حسب مقتضيات الأحوال، وكان يساوى بين نفسه وسائر النّاس.

فأكثروا من الصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنام.

* * *

مع الحبيب الهادى ﷺ
فى آخر أيامه فى الدُّنيا

إنَّ الموتَ حقٌّ والبعث حقٌّ، والحسابَ حقٌّ، والجزاء حقٌّ، وإنَّ الإنس والجنَّ إلى ربهم لصائرون، وحين كان المشركون يتمنَّوْنَ الموت لرسول الله ﷺ كان القرآنُ يبيّن لهم للتّذكير والتّرغيب والتّرهيب أنَّ الجميع إلى ربهم منقلبون بمثل قوله تعالى من سورة الزُّمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وإنَّ الموتَ لا شماتةَ فيه فهو مصير كلِّ حيٍّ، وفيه عبرةٌ وعظةٌ لكلِّ عاقلٍ، وفى الآخرة تقام على المعاندين الذين ماتوا وهم مصرُّون على الكفر والعناد الحجَّةُ بأنَّ الرَّسولَ بلَّغ الرِّسالة، ولا ينفع ندمُ النَّادم منهم صاحبَه حين يعاينُ أهوالَ الآخرة ويرى مصيره ومصيرَ أمثاله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ وتبطل معاذيرهم وتسوء عواقبهم، فالتَّابعُ فى طريق الضَّلال يُلقى باللَّوم على المتبوع، وهذا المتبوعُ يتبرَّأ من التَّابع، وقد فات الأوان، قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر] مرهونةٌ مأخوذةٌ بعملها فى النَّار على الدَّوام بالنِّسبة للكفَّار، وعلى وجه الانقطاع بالنِّسبة لعُصاة المؤمنين الصَّادقين أهل التَّوحيد، أمّا النَّاجون الفائزون ففى رحمة اللَّه يتقلّبون وينْعَمُون.

❋ **عودته ﷺ من حجَّة الوداع**: وكانت حجَّتُه ﷺ فى العام العاشر وفيها كانت خطبة الوداع التى أمر النَّاس فيها ونهى وبيّن لهم مناسك حجِّهم وقال: «خذوا عنِّى مناسِكَكم لعلِّى لا أحجُّ بعد عامى هذا» [رواية جابر بن عبد الله عند مسلم].

ورجع ﷺ إلى المدينة المنوَّرة فى شهر ذى الحجَّة، وفى أواخر شهر صفر خرج إلى المقابر فى بقيع الغرْقَدِ من جوف اللَّيل واستغفر لموتى المسلمين؛ ثمَّ قال لخادمه أبى مُوَيْهبة - رضى الله عنه-: «إنِّى قد أوتيتُ مفاتيحَ خزائن الأرض والخُلدَ فيها ثمَّ الجَنَّة، فخُيِّرتُ بين ذلك ولقاءِ ربِّى والجنَّة» ثمَّ قال: «يا أبا مُويهبةَ لقد اخترتُ لقاءَ ربِّى والجَنة» [رواية أحمد وعند محمّد ابن إسحاق صاحب

السّيرة] ومن شواهد هذا الحديث ما رواه عبد الرَّزاق عن مَعْمَرٍ عن ابن طاوسٍ عن أبيه أنَّه ﷺ قال: «نُصِرتُ بالرُّعب، وأعطيت الخزائن، وخُيِّرتُ بين أن أبقى حتى أرى ما يُفتح على أمَّتى و - بين - التَّعجيل، فاخترتُ التعجيل».

فى بيت عائشة - رضى الله عنها-: بعد زيارة البقيع زار ﷺ نساءه يُطيّب خواطرهن، واستأذن من كل واحدةٍ منهنّ أن يكون تمريضُه فى بيت عائشة وقد بدأ يشعر بالمرض، فأذِن له أزواجُه، وكان فى بيت عائشة حتى مات فيه.

فائدة: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفثَ على نفسه بالمُعوِّذات [الصَّمد، الفلق، النَّاس] ومسح على جسمه ومواطن الألم بيده الشَّريفة كما حكى عُروةُ عن عائشة عند البخاريِّ، ثمَّ قالت: «فلمّا اشتكى وجَعَه الذى تُوفِّى فيه طفِقْتُ أنفثُ عليه بالمُعوِّذات التى كان ينفث، وأمسح بيد النَّبيِّ ﷺ عنه» ففى المعوِّذات بركةٌ وخيرٌ يقوم بها الإنسانُ لنفسه ولصغيره، وإذا اشتدّ المرض على الكبير فعل ذلك الشَّخص الذى يستريح إليه المريضُ ويكون المُعوِّذُ على إخلاصٍ ومحبَّةٍ، وحضور قلبٍ مع الإكثار من الدُّعاء.

وأوصى ﷺ ابنته فاطمةَ - رضى الله عنها - وقد مات سائرُ أولاده - بنين وبناتٍ - فى حياته فقال لها: «اتقى الله واصبرى فنعْمَ السّلفُ أنا لك» فبكت فاطمة لشعورها بقُرب أجله ﷺ فهمس فى أذنها: «أمَا ترْضَيْنَ أن تكونى سيّدة نساء المؤمنين (أو سيّدة نساء هذه الأمَّة) فضحكتْ [فى الصحيحين عن عائشة] وكان عزاؤها أنّه ﷺ قال لها: «إنَّك أوَّلُ أهل بيتى لحوقًا بى» فكانت تقول: «ما رأيت كاليوم فرحًا أقربَ من حُزنٍ».

❋ **ومن وصاياه ﷺ فى آخر حياته الشَّريفة**: جاء عند أحمد عن عائشة أنّه ﷺ قال لعبد الرّحمن بن أبى بكرٍ الصِّدِّيق: «يأبى اللَّهُ والمؤمنون أن يُختلفَ عليكَ يا أبا بكر».

وقال فى آخر خطبةٍ له ﷺ من رواية أحمد عن أبى سعيدٍ: «ما من النّاس أمَنَّ علينا فى صحبته وذات يده (أى ماله) من ابن أبى قُحافة (أبى بكرٍ) ولو كنتُ متَّخذًا خليلًا لاتخذتُ ابنَ أبى قُحافة - خليلًا - ولكنْ خُلّةُ الإسلام».

وفيه عند البيهقىّ وغيره: «انظروا إلى هذه الأبواب الشّارعة فى المسجد فسُدُّوها إلّا ما كان من بيت أبى بكرٍ، فإنِّى لا أعلمُ أحدًا عندى أفضل فى الصُّحبة منه» ومن هذا نعرف مكانة أبى بكرٍ بين أولياء اللّه الصالحين - رضى الله عنه - ونفعنا بمحبّة الرّسول ومحبته ومحبّة جميع أصحاب رسول الله ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين.

❋ وأوصى ﷺ بالأنصار - أهل المدينة - خيرًا ففى رواية البيهقىّ والحاكم عن أيوب بن بشيرٍ - رضى الله عنه - أنَّ النَّبىَّ ﷺ أثنى على أصحاب «أحُدٍ» واستغفر لهم ودعا لهم، ثمَّ قال: «يا معشر المهاجرين، إنّكم أصبحتم تزيدون والأنصارُ على هيئتها لا تزيد، وإنهم عَيْبَتى [أى مَوضع سِرّى وثقتى فكانوا كالحصن ونحوه] التى أويتُ إليها، فأكرِموا كريمَهُم وتجاوزوا عن مُسيئهم».

❋ وأكّد ﷺ النَّهى عن اتِّخاذ القبور مساجد، فقد روى أحمد ومسلمٌ عن جُنْدب بن جنادة: «وإنَّ قومًا ممَّن كان قبلكم يتَّخذون قبورَ أنبيائهم وصُلحائهم مساجدَ، فلا تتَّخذوا القبورَ مساجد».

❋ **حقوق العباد والمظالم والمال العامُ**: وهو ﷺ قدوتنا ومعلّمنا فى طلب العفو ممن ظلمناه أو أسأنا إليه، أو كانت له عندنا مظلمةٌ نردّها إليه فالحساب عسير والدُّنيا لا تُغنينا عن الآخرة ولنسمع منه: «ومن كنتُ أخذتُ له مالًا فهذا مالى فليأخُذْ منه، ومَن كنتُ شتمتُ له عِرْضًا فهذا عِرْضى فلْيسْتَقدْ (أى فليأخذ حقَّه)، وإنَّ أحبَّكم إلىّ من أخَذَ حقًّا إن كان له علىّ - حقٌّ - أوْ حَلَّلنى فلقيتُ اللَّه - عزّ وجلّ - وليس لأحدٍ عندى مَظلمَةٌ».

ولنتأمَّل فنحن أولى بذلك: «فقام رجلٌ فقال: يا رسول اللّه لى عندك ثلاثةٌ

دراهم، قال: فِيمَ كانتْ لكَ عندى؟ قال الرَّجل: أما تذكر - يا رسول اللّه - أنَّه مَرَّ بك سائلٌ فأمرتنى أن أُعطيه، فأعطيتُه ثلاثةَ دراهم، قال ﷺ: أَعطِه يا فضلُ» ثمَّ طلب من الصَّحابة أن يردّ من كان عنده شىء من الغنائم ليس من حقِّه أن يردّه إلى (الدَّولة) فقام رجلٌ فقال: «يا رسول الله عندى ثلاثةُ دراهم غللتُها فى سبيل اللّه» - أى من حربٍ - فسأله للتَّنبيه على أهمية المال العامِّ. قال: «فلِمَ غَللْتها؟» أى: لماذا سمحتْ نفسُك لك بأخذها وهى ليست من حقِّك؟ فقال الرَّجلُ: «كنت محتاجًا إليها يا رسول الله: قال عليه السَّلام: خُذها منه يا فضل».

❋ **الشَّفقة على العاصى والدُّعاء له لا عليه**: قال ﷺ لرجل اعترف بالنِّفاق وبالكذب والنَّوم عن الصَّلاة قال له ﷺ: «فُضُوح الدُّنيا أهونُ من فُضُوح الآخرة، اللَّهُمَّ ارْزُقه صدقًا وإيمانًا وأذْهِبْ عنه النَّوم إذا شاء» ثم قال لعُمر - رضى الله عنه - وقد اشتدّ على هذا الرَّجل: «عمرُ معى وأنا مع عمر، والحقُّ بعدى مع عمر»

[وفى إسناده غرابة وهو عند البيهقى والسند يصل
إلى عطاء بن يسار عن ابن عباس عن الفضل بن العباس بن عبد المطلب].

أى: إن الإقرارَ بتقصير النفسِ وعَيْبِهَا فى الدنيا وطلبَ العفوِ من الله أفضلُ وأنفع للمؤمن التائب من الخزى يوم القيامة، فـ «فضُوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» فاللهم استرنا يوم العرض عليك ياحليم يارَحِيم.

❋ **مع النَّفس الشَّريفة والوصايا فى السَّاعات الأخيرة**:

الوصيَّة بالصَّبر والرِّضا: عند الإمام أحمد وفى الصَّحيحين عن ابن مسعودٍ: «والذى نفسى بيده ما على الأرض مسلمٌ يُصيبه أذًى من مرضٍ فما سِواه إلا حطَّ اللَّه عنه خطاياه كما تحطُّ الشَّجرةُ ورقَها» وعند البخاريِّ فى صحيحه عن عائشة: «أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياءُ ثمَّ الصَّالحون، ثمَّ الأمْثَلُ فالأمْثل، يُبْتلَى الرَّجلُ على حسبِ دينه؛ فإن كان فى دينه صلابةٌ شُدِّد عليه فى البلاء».

❋ **ومن وصيَّته ما رواه عمر بن عبد العزيز عند الإمام مالك فى الموطَّأ**: «كان من آخر ما تكلّم به ﷺ: «قاتَلَ اللّه اليهودَ والنّصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يَبْقينّ دينان بأرض العرب» يُحذِّر من مثل هذا الصَّنيع.

❋ **الخوف من اللّه وأداء العبادات والإخلاص فيها مع قوَة الرَّجاء فى رحمة الله**: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنَّ باللّه تعالى» [رواية مسلم عن جابرٍ] وفى الحديث القدسيّ: «أنا عند ظنّ عبدى بى فليظُنَّ بى خيرًا»، أى يتوب العبد، وهو طامعٌ فى قبول توبته غير يائسٍ من رحمة الله، ويؤدِّى الطَّاعات، وهو على رجاءٍ فى قبولها بفضل الله

❋ **الصَّلاة والوصيَّة بها والوصيَّة بالشَّغَّالين والأجراء**: جاء عند الإمام أحمد عن أنس بن مالكٍ قوله ﷺ عندما حضره الموت: «الصَّلاةَ، وما ملكت أيمانُكم»، وتحدّث بذلك وهو فى الغرغرة، وقوله: «الصَّلاة» منصوبٌ مفعولٌ به للفعل (الزم) محذوفٌ أى الزموها وحافظوا عليها، وما ملكت أيمانكم: أى الرَّقيق والخادم والضَّعيف فى البيت ارحموهم وأكرموهم.

وفى حديث على بن أبى طالبٍ عند أحمد: «أوصى ﷺ بالصَّلاة والزَّكاة وما ملكت أيمانكم».

❋ **ومن دعائه وأحواله**: كان يرفع بصره إلى السّماء ويقول: «فى الرّفيق الأعلى، فى الرّفيق الأعلى» [عائشة عند أحمد] وعنها: كان يُدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ثمَّ يقول ﷺ: «لا إله إلا اللّهُ إنّ للموت لسَكراتٍ»، وتقول سمعته ﷺ يقول: «مع الذين أنعم اللّهُ عليهم من النّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا» [وأخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة].

ودعت له بالشِّفاء فقال: «لا، بل أسألُ اللّه الرَّفيقَ الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل» [رواية النّسائىّ من حديث سفيان الثَّورىّ].

وعن ابن أختها عبد الله بن الزُّبير عنها عند البيهقىّ كان ﷺ يقول: «اللّهمَّ اغفرْ لى وارحَمْنى وألحِقْنى بالرّفيق الأعلى».

❋ **وفى ضحى يوم الاثنين من شهر ربيعِ الأوّل**: جاء أبو بكر الصِّدِّيق إلى حُجرة رسول الله ﷺ فرفع الحجابَ عن وجهه الشَّريف ونظر إليه فى رحمةٍ ورِقَّةٍ، وقال: «إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، مات رسولُ اللّه ﷺ» ثمَّ قبَّل جبهته الشَّريفةَ وقال: «وانَبِيّاه»، ومرةً أخرى وقال: «واصَفِيّاه» ثمَّ قبّل الجبهةَ وقال «واخليلاه» مات رسولُ الله ﷺ».

❋ **وفى آخر نظرته إلى أصحابه: قال** ﷺ: «قد دنا الفراقُ، مرحبًا بكم، حيّاكم اللّه، هداكم اللّه، قَبلكم اللّه، نصركم اللّه، نفعكم اللّه، وفَّقكم اللّه، سدَّدكم اللّه، وقاكم اللّه، أعانكم اللّه، أوصيكم بتقوى اللّه، وأوصِى اللّهَ بكم وأستخلفهُ عليكم، إنّى لكم منه نذيرٌ مبينٌ، ألّا تعلوا على اللّه فى عباده وبلاده، فإنَّ اللّه قال لى ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص).

وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠).

وبعد خروج الرُّوح الشَّريفة

❋ **كيفيَّة الصَّلاة**: إنَّ العين تدمع وإنّ القلب يشعر بالحزن ولكن لا صياحَ ولا نياحة: «إذا غَسَّلْتُمونى، وحنَّطتمونى، وكفَّنْتمونى فضعونى على شَفير قبرى - الحافّة - ثمَّ اخرجُوا عنّى ساعةً:

❋ **فإنَّ أولَ من يصلّى علىَّ**: خليلاى جبريلُ وميكائيل، ثمَّ إسرافيل، ثمَّ مَلَكُ الموت مع جنودٍ من الملائكة، عليهم السلام.

❋ وليبدأ بالصَّلاة علىَّ رجالُ أهل بيتى، ثمَّ نساؤهم، ثمَّ ادخلوا علىَّ أفواجًا وفُرادى.

❋ **ولا تُؤذونى بباكيةٍ، ولا برنَّةٍ، ولا بصيحةٍ.**

❋ ومن كان غائبًا من أصحابى فأبلغوه عنّى السَّلام، وأُشهِدُكم بأنّى قد

سلَّمتُ على مَن دخل فى الإسلام، ومن تابعنى فى دينى هذا منذ اليوم إلى يوم القيامة» فهل نتأمّل هذه المعجزة؟ وهل ننتفع بوصاياه؟ وهى أحلى من العسل وأنفع من كلِّ دواءٍ لمرض البدن [البيهقى عن ابن مسعود].

❋ **ضحى يوم الاثنين وليلة الأربعاء**: وخرجتْ أزكى رُوحٍ وأطهرُها ضُحى يوم الاثنين، وَوُرِى الجسدُ الطَّاهرُ التُّرابَ، بعد أن صلَّوْا عليه ثلاثة أيَّامٍ جماعةٌ بعد جماعةٍ بعد جماعةٍ فى حُجرة عائشةَ - رضى الله عنها - وذلك فى ليلة الأربعاء، وهو ابن ثلاثٍ وستين سنةً، وعند الغسل: سمعوا مناديًا ينادى: «ألا لا تُجرِّدوا عن رسول اللّه قميصَه» [عند ابن ماجه من حديث أبى بُردة] فغسّلوه من تحت ثيابه يصبُّون الماء فوق القميص فيُدلِّكُونه بالقميص نفسِه دون أيديهم.

وقام بذلك أو حضره دون أن يُشارك فى الغسل: عمُّه العبَّاس، وعلىُّ ابنُ أبى طالبٍ، والفضلُ بنُ العبَّاس، وقُثَمُ بن العبَّاس، وأسامةُ بن زيدٍ، وصالحٌ مولاه، ثمَّ أوس بن خَوْلى الأنصارىُّ.

وكان عملُ أسامة وصالحٍ صبَّ الماء، وعلىٌّ يُغسِّله ﷺ ويقول رضى الله عنه: «بأبى أنت وأمِّى يا رسول اللّه ما أطْيبَك حيًّا وميتًا».

ولَحد له لحْدَه تحت سريره فى حجرة عائشة - رضى الله عنها - الصَّحابىُّ أبو طلحة بن سهلٍ الأنصارىُّ، وقام بدفن الجسد الطَّاهر الشَّريفِ أربعةٌ هم: علىٌّ والعبَّاسُ والفضلُ بن العبَّاس وصالحٌ مولاه ﷺ، لحدوا له لحدًا ونصبوا عليه اللَّبِن - بكسر الباء الطُّوب غير المحروق - وكان كفنُه الطَّاهر ثلاثةَ أثوابٍ بيض، أحدها بُرْدٌ نجْرانىٌ» [والله أعلم].

والصّلاة والسَّلام على أشرف النَّبيِّين والمرسلين وعلى آل بيته وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدِّين، وارْزُقنا شفاعته يا أرحمَ الرَّاحمين، واسقنا من حوضه

بفضلك وإحسانك، واجعل الحياة زيادةً لنا من كلِّ خيرٍ والموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍّ.

وقد أكَّد ﷺ الوصيَّة بأفضلِ أصحابه، وكلُّهم أهلُ فضلٍ وإخلاصٍ ومحبَّةٍ فانفعنا اللَّهمَّ بمحبَّة رسولك ﷺ ومحبَّة أبى بكرٍ وعمر وسائر أصحابه وأتباعه وآل بيته.

آمين... آمين.. آمين

* * *

ومن وصيَّته ﷺ للمسلمين فى حجة الوداع:

«وقد تركتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم به فلن تضِلُّوا أبدًا، أمْرًا بيِّنًا: كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّه، أيها الناسُ اسْمَعُوا قولى واعْقِلُوه: تَعْلمُنَّ أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم، وأنَّ المسلمين إخْوةٌ، فلا يَحِلُّ لامْرِئٍ من أخيه إلَّا ما أعطاه عن طِيبِ نَفْسٍ منه، فلا تظلمُنَّ أنفُسَكم، اللهمَّ قد بلغتُ.

فلا ترجعوا بعدى كُفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض، إن ربَّكم واحدٌ، كلُّكم لآدمَ وآدمُ من تراب، أكرمُكم عند اللهِ أتقاكم، وليس لعربىٍّ فضلٌ على عَجمىٍّ إلَّا بالتقوى»

[ذكره ابن هشام وابن عبد ربه فى العقد الفريد ونقله محمود خطاب فى الدين الخالص]

الاستقامة على طريقة الحبيب ﷺ:

ورجالٌ حملوا الأمانة

أفضل النّاس بعد النّبيّين والمرسلين

إنَّه أوّل رجلٍ أسْلَم، وأوّلُ مَن كان مأذونًا فى الدَّعوة إلى دين اللّه؛ لأنَّه عظيم الأمانة عظيم الصِّدق والفضل فى الجاهليّة والإسلام.

إنّه أبو بكرٍ الصِّدّيق، واسمه عبد اللّه بن عثمان بن عامرٍ من بنى تيمٍ يلتقى مع رسول الله ﷺ فى «مُرّة».

وهو أوّل من خاصم عن رسول الله ﷺ، وكان كصاحب موسى - عليه السلام - يدفع أهلَ الغِلظة والجفوة عن رسول الله وهو يقول: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربِّى الله» فتركوا رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبى بكرٍ بوحْشيّةٍ وقسوةٍ فصبر واحتسب.

أخلص لله فأعانه اللّه، وضع نفسه وماله لخدمة دين اللّه.

وأنعم اللّه عليه بعد الإيمان بصحبة رسولِ اللّه فى الغار ليلةَ الهجرة المباركة، وأثنى عليه الكبيرُ المتعال فى مُحكم التَّنزيل من سورة براءة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وصورت لنا الآيةُ الكريمة بإيجازٍ بليغٍ مُعجزٍ مشاعره - رضى الله عنه - وحالته العقليّة والنّفسيّة؛ إذ كان عظيم القلق والخوف والحزن حين سمع وَقْعَ أقدام المشركين أمام باب الغار فخاف على الحبيب أن يمسّه سوءٌ، وهو النُّور الهادى والأمل العظيم: «يا رسول الله، لو نظر أحدُهم إلى قدميه لأبصرنا»، فهدّأ الحبيب ﷺ من روعه وقلقه: «يا أبا بكرٍ ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما»، وحفظهما الله بفضله وإحسانه.

جاهد أبو بكرٍ - رضى الله عنه - مع رسول اللّه ﷺ فى غزواته، وكان

شديد الشَّفقة على رسول الله لِمَا يرى منه من بذْلِ الجهد فى الدُّعاء لإخوانه وأصحابه والمشاركة فى القتال، وتنظيم المجاهدين، وتَفقُّد الصُّفوف، والحثِّ على الثبات والصَّبر والإقدام، واختيار قادة الألويَة وغير ذلك من الأعمال، وهو ﷺ القائد الحكيم الشَّفيق على المؤمنين الرَّحيم بهم.

وكان من فضل الله على الأمة أن كان أبو بكرٍ أوَّلَ من صلّى بالنَّاس بأمرٍ من رسولِ الله وهو فى مرضه الأخير فى العام العاشر للإشعار بأنَّه الخليفةُ وبأنَّ مسؤوليةَ الأمّةِ تئول إليه.

وقد وفَّقه اللّه - عزّ وجلّ - فى رفع قواعد صرح أمَّةِ الإسلام، وفى تأكيد اتِّباع رسول اللّه ﷺ وتوجيه قُوى الأمَّة كلِّها للبناء والعمارة، وعدم السَّماح للفتنة أو للخروج على أى نحوٍ من حدود ما بيّنه الله لعباده من الأصول والفرائض وقواعد الإسلام ونُظُمِه لحياة الناس، وكان ثابت القلب متَّبعًا لسنة الحبيب المصطفى ﷺ وهدْيه.

❋ **حروب الرِّدّة**: وحين أطلَّت قرونُ الفتنة والتَّأويل لبس أبو بكرٍ سلاحه ودعا الأمة إلى الجهاد مهما كلَّفه الأمرُ حتى تعودَ الأمور على ما كانت عليه فى عهد رسول الله، لا يقبل من أحدٍ إسلامًا جزئيًا فمانعُ الزكاة والذى يُبطل حدًّا من حدود الله لا تنفعه صلاته ولا صيامه حتى يكون إيمانه بأصول الإسلام وفرائضه إيمانًا كاملًا، ولذا فقد رتب ثلاثةَ عشرَ جيشًا فى عهده لمحاربة المرتدِّين المصرّين إذا لم يستجيبوا لأمر الله، ويعودوا إلى ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، وقد نجح بفضل الله نجاحًا عظيمًا فى تحقيق الأمن والاستقرار واجتثاث جذور الفتنة.

فكان الحاكمَ العادل، والقائد المظفَّر، والمؤمن الصَّالح، والرَّجل العظيم الذى ثبّت أركان الدولة العظيمة، وقمع الفتن، وأعاد الأمن والاستقرار

ووحدة الصَّف على بصيرةٍ وهدايةٍ.

❋ **سنتان ونصف**: كانت تلك مدةَ خلافته - رضى الله عنه - أصابته الحمَّى فى يوم باردٍ فصلَّى فى بيته لا يقدر على الخروج للصلاة، وفى ليلة الثُّلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثَ عشرةَ من الهجرة وعمرُه ثلاثٌ وستون سنة فاضت روحُه الطاهرة، وقد وافق عمرُه عُمْرَ رسول الله ﷺ، وتمَّ دفنه فى حجرة رسول الله ﷺ فى ثوبين بعد غسلهما.

وأمر فى آخر حياته بردِّ أدواتٍ منزليَّةٍ بسيطةٍ كانت لبيت المالِ ينتفع بها وهو يلى أمورَ الناس، فطلب من عائشةَ أن تردَّ ذلك إلى عمر - رضى الله عنهما - ولذا قال عمر: «رحمك اللهُ يا أبا بكرٍ لقد أتْعَبْتَ من جاء بعدك».

❋ **وصيَّته لعمر**: وبعد مشاورته أعيانَ الصحابةِ كتب وصيَّةً بخلافة عمر، رضى الله عنهم أجمعين.

❋ **من أسبقيات أبى بكرٍ ومبادراته إلى الخير والحقِّ**:

كان عظيم النفس، عالىَ القدر، جَمَّ التواضع، سباقًا إلى الخير فى الدُّنيا فسبق أولياء الله الصَّالحين من غير النَّبيِّين فى مدارج الوَلاية، وجاءت رتبته بفضل الله بعد مرتبة النَّبيِّين غير المُرسَلين، فقد لازمه التَّوفيقُ بتوفيقٍ من الله فى مَنطقِه وتفكيره وعمله وتوجُّهاته، فعاش مرضيًّا عنه، ومات مرضيًّا عنه.

عثرت فرسُ أعرابىٍّ فى سباقٍ فسقط فسبقه رجلٌ من ولد أبى بكرٍ - رضى الله عنه - وكان ذلك فى عهد عمر - رضى الله عنه - فقال الأعرابىُّ: يا أمير المؤمنين: قد رأيتَ ما جرى، لقد سبقنى، إنَّ ذاك رجلٌ كان أبوه سبَّاقًا إلى الخير.

كان - رضى اللَّه عنه - أوَّلَ من أجاب الدَّاعى ﷺ من الرِّجال وقبله كانت

خديجةُ من النِّساء، وعليُّ بن أبى طالبٍ من الغلمان، وزيد بن حارثة من الموالى، كما كان أبو بكرٍ أوَّل داعٍ مأذونٍ له من الرَّسول ﷺ فأسلم على يديه عددٌ من أكابر قريش وأفاضلهم؛ وهو أول من سُمِّى «الصِّدِّيق» - بتشديد الدَّال مكسورةً - وأوَّل من جهر بالتَّصديق حين علم بإسراء رسول الله ﷺ وعودته من بيت المقدس فى الليلة نفسها.

ومن أشرف ما أعطاه الله من الخير أن جعله أولَ مسؤولٍ عن أمَّة الإسلام بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأول من طلب الرسولُ أن يُصلى بالناس وهو فى مرض الموت، وأنكر ﷺ أن يخلفه أحدٌ فى الصلاة بالناس وهو حىٌّ سوى أبى بكر؛ لتأكيد ثقته وتعظيم رضاه عنه خليفةً على المسلمين بعده ﷺ، وكانت تلك الإشارةُ أعظمَ دلالة من كل عبارة، ولقد كان أبو بكر أول من أطلقوا عليه لقب «خليفةٍ» وإن خليفة الرَّجل هو من يقوم مقامه.

وأبو بكر هو أوَّل من جمع القرآن الكريم، لخوفه من موت أهل القرآن فى ميادين الجهاد، فقد أمر الناسَ أن يأتوا إليه بما عندهم مكتوبًا على جريد النخل أو قطع النَّسيج أو ألواح الحجارة، فأتوه بما عندهم فأمر به فكُتب فى الورق وظل محفوظًا حتى تمَّتْ كتابةُ عدة مصاحف فى عهد عثمان - رضى الله عنه - بواسطة بعض كُتَّاب الوحى وحُفَّاظ القرآن من الصحابة، وكان أبو بكرٍ أول من سماه مصحفًا، وكان عمر - رضى الله عنه - أول من أشار على أبى بكر بجمع القرآن، فشرح اللَّه صدره لذلك.

وهو أول خليفة ولى الحُكْمَ وأبوه حىٌّ، ولقد مات أبو قحافة بعد ولده أبى بكر بنحو ستة أشهرٍ، وهو أول خليفةٍ صار له عطاءٌ وراتبٌ برغبة الرَّعيَّة ومشورتها لمَا رأوه يخرج إلى السوق للتِّجارة، فطلبوا إليه التَّفرُّغ، وله كساءان ونفقة أهله، كما كان يُنفق قبل الخلافة، وله فرسٌ عند السَّفر، فلمَّا حضرته

الوفاة أمر بردّ ما أخذه من ذلك إلى موضعه من مال المسلمين.

ومات رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدًا باسمه للحكم، وكان أبو بكرٍ أول من سَمَّى الفاروقَ عمر - رضى الله عنه - ليكون خليفةً بعده راجيًا أن يوفقه الله للعدل، وكان عمر أوّل من سُمِّى أمير المؤمنين.

ولقد كان أبو بكرٍ أولَ من كبت الفتنةَ وقضى على الرِّدّة وجمع الله به الأمَّة على قلب رجلٍ واحدٍ، وقد أكَّد العزم على أنه لا يفرِّق بين مانع الزَّكاة وتارك الصلاة؛ إذ ينبغى إقامةُ فرائض الدين واستتباب الأمور على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ ومن شقّ عصا الطاعة وخرج على الجماعة وجب قمعُه أو ردُّه إلى الحقِّ والطَّريق المستقيم، رضى الله عنه.

* * *

إسلام عمر بن الخطّاب من بنى عدىٍّ

*** وألانَ اللَّه قلبه:**

عمر بن الخطّاب - رضى الله عنه - من بنى عدى، وهى بطنٌ قرشيَّةٌ كان لها القضاءُ والفصلُ فى الخصومات بين النَّاس، وكان عمرُ من أوسطهم ومن أعزِّهم وأقواهم شكيمةً، وأشدِّهم على من أسلم.

*** إلى دار الأرقم**: وصل نبأٌ إلى عمر أن أصحاب الرَّسول ﷺ اجتمعوا إليه فى دارٍ عند الصَّفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجالٍ ونساءٍ، فخرج حاملًا سيفًا يريد أن يباغتهم فى هذه الدَّار، فلقيه فى الطَّريق رجلٌ اسمه نُعيم ابنُ عبد الله ودار بينهما الحوار التَّالى:

أين تريد يا عمر؟ فقال عمر: أريد محمدًا هذا الصَّابئ، فأقتُله!

فخوّفه نعيمٌ من ثأر بنى عبد منافٍ منه إذا هو أصاب محمَّدًا بسوءٍ.

ثمَّ أخبره أنَّ زوج أختِه سعيدَ بنَ زيد وهو من بنى عدىٍّ وأختَه فاطمةَ زوجتَه قد أسلما وتابعا محمدًا على دينه، وقال له: فعليك بهما فهما من أهل بيتك.

❋ إلى دار أخته وزوجها سعيد:

رجع عمر قاصدًا دار أخته وزوجِها، فلما دنا من الباب سمع قراءةَ الصَّحابىِّ خبَّابِ بنِ الأرتِّ عليهما من سورة «طه» فلمَّا أحسّ به خبَّابٌ تغيَّب فى حجرةٍ، ولـمَّا دخل عمر عليهما سألهما عن الصَّوت الذى سمعه، ودار بينه وبينهما حوارٌ اشتدَّ عمرُ فيه عليهما، ولطم أختَه فجرح خَدَّها، فقالا له: «نعم، قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسوله، فاصنعْ ما بدا لَكَ»، ورقّ قلبُ عمر لمنظر الدم، فرجع عن شدّته وقسوته، وألحّ عليهما فى إعطائه الصحيفةَ التى سمع القارئَ يقرأ منها.

❋ بداية الرحمة بعمر: طلبت منه أختُه أن يتطهَّر قبل أن تُعطيه الصَّحيفة، وكان عمر من القلائل فى مكة يكتب ويقرأ - فقام واغتسل - فأعطته الصَّحيفة، فقرأ من سورة: «طه» إلى قوله سبحانه: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [الآية: ١٥]، وظهر عليه الخشوع، وقال: «ما أطيبَ هذا الكلامَ وأحسنَه» يتعجب من جمال المعانى وفصاحة النَّظم وإعجازه وقوَّة تأثيره، وهو من الفصحاء البلغاء.

❋ أجاب الله دعوة رسوله: قال خبّاب - رضى الله عنه - لعمر بعد أن خرج من مخبئه فى دار سعيد بن زيدٍ: «سمعتُ رسولَ الله أمس وهو يقول: «اللّهمَّ أيِّد الإسلامَ بأبى الحكم بن هشامٍ - أبى جهلٍ - أو بعُمر بن الخطّاب».

فاللهَ اللهَ يا عمر، وذاب القلبُ خوفًا من الله، ورغب عمر فى الحقِّ بعد أن عرف بُرهانه، ولم يكن به - رضى الله عنه - كِبرٌ ولا حسدٌ ولا رغبةٌ دنيويّةٌ تَمنعه من قبول الهدى والخير.

❋ **إلى دار الأرقم**: وتغيّرتْ النّيّةُ والمقصدُ من طلبه دار الأرقم ابن أبى الأرقم فخرج إليها على سُرعةٍ وعَجَلٍ وما زال سيفه معه، وطرق الباب، ورأوه بسيفه ولم يعلموا عنه إلا الشدّة، وتحيّر الصحابةُ ماذا يصنعون، فطلب إليهم الرسولُ ﷺ أن يأذنوا له بالدخول، ثم قام إليه بنفسه، وأمسكه من ملابسه وجذبه جذبةً شديدة، وقال ﷺ له: «ما جاء بك يابنَ الخطاب؟ فواللهِ ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل اللهُ بك قارعةً» - داهيةً - فقال عمر: «يا رسول الله جئتُك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله».

فكبّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرَف منها المجتمعون فى البيت من أصحابه ﷺ أن عمر بن الخطاب قد أسلم.

❋ **وكان إسلامه فتحًا**: وفرح المسلمون لإسلام عمر، وأبى عمرُ إلّا أن يُعْلِم أهلَ مكّة ويُذيع فيها بإسلامه، وكان يومًا عظيمًا فاصلًا بين مرحلتى السّرِّ والجهرِ والإعلان، جاء عن ابن مسعودٍ - رضى الله عنه - كما عند ابن هشامٍ: «إن إسلام عمرَ كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نُصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلّى عند الكعبة وصلّينا معه» ؛ لأنهم كانوا يهابونه ويعرفون صرامتَه - رضى الله عنه - وعن سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

وبإسلامه صار المسلمون أربعين ما بين رجل وامرأةٍ، وتوالت الأحداث وكان عمر الجنديَّ الشُّجاع المطيع عرف الحقَّ فآمن به، وأخلص له، وجاهد فى سبيله، وفى مدرسة النبوّة الهادية تهذّبتْ الطِّباع، ونمت نوازعُ الخير، واستقام الفكر، وكما جهر بإسلامه، جهر بهجرته إلى المدينة المنوَّرة، وكان مع الحقِّ حيث كان. عاش عظيمًا زاهدًا متواضعًا شديدًا فى الدِّين ومات شهيدًا، رضى الله عنه.

❋ ❋ ❋

الشّيخان العظيمان أبو بكرٍ وعمر
حبُّهما من أمارات الإيمان

إنَّهما «خير الأوَّلين وخيرُ الآخرين وأفضلُهم بعد النَّبيِّين والمُرسَلين»، فعن الشّعبيِّ عن أخيهما عليِّ بن أبى طالبٍ - رضى الله عنه - قال: «بيْنا رسولُ الله ﷺ وأنا فى المسجد ليس معنا ثالثٌ، إذْ أقبلَ أبو بكر وعمر كلُّ واحدٍ منهما آخِذٌ بيد صاحبه، فقال عليه السَّلام: يا عليُّ هذان سَيِّدا كُهولِ أهل الجنة ممن مَضى من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمُرسَلين، يا عليُّ، لا تُخبرهما بذلك» قال على: «فما أخبرتُهما حتى ماتا - رضى الله عنهما - ولو كانا حَيَّيْن ما حدَّثتُ به أحدًا»

[وجاء مثله عن أنس وعن الحسن بن على فى الصحيح وغيره، ونقله ابن الجوزى فى تاريخ عمر].

قال ثعلب: «إنّما قال: لا تخبرهما إشفاقًا عليهما من القيام بأعباء الشُّكر كما كان هو عليه السَّلام يقف شاكرًا حتى تورّمتْ قدماه».

❋ وهما قدوة فى الفضل والإخلاص والمحبّة:

ففى الحديث عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه-: كنّا جلوسًا عند النَّبيِّ ﷺ فقال: «إنِّى لستُ أدرى ما بقائى فيكم فاقتدوا بالذين من بعدى، وأشار إلى أبى بكر وعمر، واهتدوا بهدى عمَّار، وما حدّثكم ابن مسعودٍ فصدِّقوه»، وهما وزيراه من أهل الأرض أى: هما مقدَّمان على سائر الصحابة، وجميعُهم أهلُ فضلٍ وإخلاص نحبُّهم ونحترمهم ونوقّرهم ونصلِّى عليهم ونطلب من الله - عزّ وجلّ - أن يرضى عنهم أجمعين، فهم رضى الله عنهم الذين نصروه وعزّروه وبايعوه بإخلاصٍ ومحبةٍ، وهم الذين لهم فضلُ نقْل سُنَّة الحبيب المصطفى ﷺ، وعنهم أخذ التَّابعون القرآنَ الكريم والسُّنَّة

المطهَّرة، إنَّهم جميعًا أهلُ الصِّدق والأمانة، ولهم فضلُ الصُّحبة وهم أوَّلُ من اقتدى برسول الله، ونحن نحبُّ الله، ونحبُّ كلامه، ونحبُّ رسوله، ونحبُّ أصحاب رسوله، نرجو بذلك رحمة الله ومغفرته وثوابه، كما نحب سائر الأنبياء والمرسلين والصَّالحين.

وفى الحديث: «لى وزيران من أهل السَّماء: جبريل وميكائيل، ووزيران من أهل الأرض: أبو بكرٍ وعمر» [رواه أبو سعيد الخدرى ونقله ابن الجوزى]

قال أبو سعيد: «ثمَّ رفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السَّماء فقال: «إنَّ أهلَ عِلِّيِّين ليَرَاهم من هو أسفلُ منهم، كما يرون (تَرَوْن) النَّجمَ والكوكبَ فى السَّماء، وإن منهم أبا بكرٍ وعُمر وأنْعِمَا» ومعنى «وأنْعِمَا» أنهما أهلٌ لتلك المكانة العالية بفضل الله.

❋ **وفى فضلهما وتوجُّهاتهما (اللِّين والشدة)**: وهذا ابن عباسٍ - رضى الله عنهما - يحكى: أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبى بكرٍ وعمر: «ألا أُخْبِرُكما بمَثلِكُما فى الملائكة ومَثَلكُما فى الأنبياء؟ مَثلُك يا أبا بكرٍ فى الملائكة كمَثل «ميكائيل» ينزل بالرَّحمة، ومَثُلكَ فى الأنبياء مَثَلُ إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦).

ومَثُلك يا عمرُ فى الملائكة كمثل جبرائيل يَنزلُ بالشِّدَّة والبأس والنِّقمة على أعداءِ الله، ومَثُلُكَ فى الأنبياء كمثَل نُوحٍ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦).

❋ **لا يبغضهما إلا منافق**: إنَّهما وجميعَ أصحاب رسول الله ﷺ أحبَّاءُ قُلوبنا أحياءٌ فى نفوسنا، نتعبَّد بالدُّعاء لهم وطلب مرضاةِ الله عنهم أجمعين.

فعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه-: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«لا يُحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ منافقٌ ولا يُبغضهُما مُؤمنٌ».

وفى حديث زيد بن وهبٍ: أن سُويد بن غفلة دخل على عليٍّ بن أبى طالبٍ ثمَّ سمع منه قوله عن أبى بكرٍ وعمر: «لا يُحبُّهما إلا مؤمنٌ فاضلٌ، ولا يُبغضُهما ويُخالفهما إلا شقىٌّ مارِقٌ، فحبُّهما قربةٌ، وبُغضهما مُروقٌ» (خروجٌ من الدِّين الحقِّ) ثم قال علىٌّ - رضى الله عنه-: «فأنا برىءٌ مِمَّن يذكرهما بسُوءٍ وعليه أعاقب». [نقله ابن الجوزى عن كتب الحديث]

❋ **حُبُّهما فريضة**: قال الحسن البصرىُّ التَّابعىُّ: «حبُّهما فريضةٌ» فى جوابٍ عن سؤال: أحُبُّهما سُنَّةٌ؟

وقال الإمام مالكٌ: «كان السلفُ يعلِّمون أولادهم حُبَّ أبى بكرٍ وعمر ابن الخطّاب كما يعلِّمون السُّورة من القرآن».

وقال زيد بن علىٍّ - رضى الله عنهما-: «البراءةُ من أبى بكرٍ وعمر هى البراءةُ من علىٍّ بن أبى طالبٍ».

إنَّهم الخلفاءُ الرَّاشدون أبو بكرٍ وعمر وعلىٌّ وعثمان بن عفَّانٍ - رضى الله عنهم - كانوا أقربَ النَّاس إلى قلب رسول الله ﷺ، وعن ابن عمر عند البخارىِّ: «كنَّا نُخيِّر بين النَّاس فى زمان رسولِ الله ﷺ، فَنُخيِّرُ أبا بكرٍ ثمَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ثمَّ عثمان بن عفَّانٍ»، وفى لفظٍ ما معناه: «ولا نفاضل بين أصحابِ رسولِ الله ﷺ».

ويروى أبو جُحيفة عن على بن أبى طالبٍ - رضى الله عنه-: «خيرُ هذه الأمّة بعد نبيِّها أبو بكرٍ، وبعد أبى بكرٍ عمر بن الخطّاب، ولو شئتُ لأخبرتكم بالثالث» قال عبدُ خير بن يزيد، وقد سمع هو أيضًا عليًّا يقول ذلك فى الكوفةِ قال: «وكان يعنى نفسه أى أنه هو الثَّالث» [أخرجه البخارى].

❋ **يسبقان إلى الجنّة بعد رسول الله ﷺ**: فعن نافعٍ عن ابن عمر أنّه ﷺ قال: «أُحْشَرُ يومَ القيامة بين أبى بكرٍ وعمر حتى أقف بين الحرمين، فيأتينى أهلُ مكة وأهلُ المدينة»، وقال علىٌّ: «إنهما أولُ الناس دخولًا الجنَّة بعد رسول الله ﷺ» [رواه عبد خير بن يزيد وكان قريبًا من على].

رضى اللّه عن أصحاب رسولِ الله ﷺ.

❋ ❋ ❋

أوّل كفٍّ خطّت القرآنَ الكريم

إنّها الكفُّ التى تلقَّت أوّلَ ضربةٍ فقُطعت ساعةَ اغتياله - رضى الله عنه - فقال وهو ينزف: «إنها - واللهِ - أوّلُ كفٍّ خَطَّت القرآن!» وإنَّه - رضى الله عنه - أوّلُ من هاجر من أمّة محمَّدٍ إلى الحبشة بأهله، وهو أحد السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام بعد علىٍّ بن أبى طالبٍ وزيدِ بن حارثة وأبى بكرٍ الصِّدِّيق:

وهو أحد الصَّحابة الذين جمعوا القرآن وأمر بنسْخِه فى عِدَّة مصاحف ثمَّ قام بتوزيعها على الأمصار.

وهو أحد السِّتة الذين تُوفِّى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد العشرة الذين بُشِّروا بجنّةٍ عرضُها السَّمواتُ والأرض، إنه الصَّحابىُّ الجليلُ الشَّريفُ المتواضع حاكمُ أعظم دولة فى عصره وأفضلها عقيدةً ونظامًا وعدالةً وإحسانًا فى كل جوانب الحياة.

وقد تزوَّج بِنتى رسول الله ﷺ رُقيةَ الطَّاهرةَ قبل الإسلام وماتت مسلمة فى المدينة المنورة فى رمضان من السنة الثانية، ثم تزوّج الطاهرة أمَّ كلثوم بعد موت زوجها، ولم يجمع بنتين لنبىٍّ أحدٌ قبله، رضى الله عنه.

وهو أوّل من عذَّبه قومُه من أشراف قريشٍ لفتنته عن دينه، وقد ربطه عمُّه

الحكَمُ بنُ أبى العاص بن أميَّة ربطًا شديدًا مؤلمًا وقال: «ترغبُ عن ملّة آبائك إلى دينٍ مُحْدَثٍ، والله لا أفكّك أبدًا حتى تتركَ ما أنت عليه» فقال المؤمن الواثق: «واللهِ، لا أتركُه أبدًا ولا أفارقه» وظل ثابتًا حتى يئس عمُّه من هذه الصَّلابة فى الحقِّ، فتركه.

❋ **إنّه ثالث الخلفاء الرَّاشدين**: عثمان بنُ عفان من بنى أميَّة ويلتقى مع رسول الله ﷺ فى «عبد منافٍ» وكانت الملائكةُ تستحيى منه - كما جاء عند أحمد ومسلمٍ - وكان أحيا الأمَّة وأكرمها - أى كان شديد الحياء وأكرم الناس كما جاء عند أبى نعيمٍ - وكان رسول الله ﷺ راضيًا عنه ويدعو له - كما جاء فى رواية أبى سعيدٍ، رضى الله عنه.

وقد أخبر النبىُّ ﷺ بموته شهيدًا - كما فى حديث أبى سلمة ابن عبد الرحمن - وهو سفير رسول الله يوم بيعة الرضوان بالحديبيَّة فى العام السَّادس إلى أهل مكّة، وهو الذى جهَّز جيشَ العُسرة فى العام التاسع عند الإعداد لخروج المسلمين إلى تبوك فى مشارف الشَّام، وكان الحرُّ شديدًا والقحطُ قاسيًا، وكان أوَّلَ الناجحين فى الاختبار عثمانُ بنُ عفان، فالنَّاسُ كانوا فى شدَّةٍ وقحطٍ (أزمة مالية) فأخرج عثمان نصف ماله وقدّم مائة بعيرٍ مجهّزةً، وأثنى الله - عزّ وجلّ - عليه فى سورة البقرة (٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ الآية.

وهو أوَّل من استحدث «أذانًا» لصلاة الجمعة قبل صعود الخطيب على المنبر، حين كثُر النَّاس مع تباعُد المنازل، حتى إذا سمعوا هذا الأذانَ الأوَّل أقبلوا على المسجد، فإذا جلس الخطيب على المنبر أذَّن المؤذّن الأذان الثَّانى، أى على النَّحو الذى كان على عهد رسولِ الله ﷺ وأقرّ الصَّحابةُ عثمان على هذا الأذان الأوَّل فكان إجماعًا منهم.

وفى الشِّفاء: «يُقتل عثمانُ وهو يقرأ فى المصحف»، رضى الله عنه.

❋ **أفضل المؤمنين بعد الأنبياء**: أفضلُهم بعد الأنبياء الذين ليسوا بمرسَلين أربعة: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعلىٌّ، ثمَّ يليهم فى سُلَّم الوَلاية سائرُ أصحابِ رسول الله، فسائر الأولياء منذ عهد آدمَ إلى يوم القيامة حسب أحوالهم ومقاماتهم عند ربِّ العالمين، وإنَّ كلَّ مؤمنٍ صحيح الإيمان تقىٍّ يخشى اللهَ فى أوامره ونواهيه فهو ولىٌّ لله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

فهنيئًا لمن أحبَّ اللَّه من كلِّ قلبه، وأحبَّ كلامه، وأحبَّ رسله وأنبياءه وسائر الصَّالحين، وفى مقدِّمة الصَّالحين من أمَّة محمَّدٍ الخلفاءُ الأربعة وسائر الصَّحابة - رضوانُ الله عليهم - ونترك ما وقع منهم من الخلاف فى الرَّأى والاجتهاد نترك ذلك لربِّ العالمين، يحكم فيه بما شاء، فقد رضى اللَّه عنهم فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

وفى الحديث الذى رواه أنس عند الديلمىِّ: «إذا أراد اللَّه برجلٍ من أمَّتى خيرًا ألقى حبَّ أصحابى فى قلبه» وعند التِّرمذىِّ: «ومن آذاهم فقد آذانى» [رواه عبد الله بن مغفل].

استشهاده: تسلَّق عليه قاتلوه جدار داره الخلفىَّ وهو فى ثوبٍ بسيطٍ جالسٌ فى فناء داره فى وقار وتواضعٍ وحضور قلبٍ مع الله بفضل الله وإذنه، وقد أمر رضى اللَّه عنه بنفسه بعدم رفع السِّلاح حين سمع الضَّوضاء والتَّهديد أمام داره وخلفها، ووقف الحسنُ والحسين - رضى الله عنهما - على باب داره يمنعان الثائرين الحاقدين من الدُّخول عليه، وكان أوَّل من ضربه «كِنانة ابن بشيرٍ»، صبيحةَ عيد الأضحى سنة خمسٍ وثلاثين بعد حصارٍ لداره دام أيامًا، ودفنوه بالبقيع وهو ابن اثنين وثمانين عامًا، قضى أكثر من نصفها مؤمنًا

موحِّدًا بارًّا سخيًّا مجاهدًا بنفسه وماله، وإنَّ كلَّ من أشار بقتله مات مجنونًا، والعياذُ بالله، وكانت أوَّل فتنةٍ فى الإسلام هى مقتل عثمان - رضى الله عنه - أما آخرها فخروجُ الدّجّال، ومن شواهد خروج هذا اللعين ما نراه من قِلّةِ الأمانة وضعفِ الدِّيانة وإراقةِ الدِّماء بلا حسابٍ فى كل مكانٍ، وتجبُّر الأقوياءِ المارقين على الضُّعفاءِ المساكين، وإفسادِ اليهود وأمثالهم فى الأرض واستحلالهم دماءَ الأبرياء والمسلمين.

ورضى الله عن عثمانَ بنِ عفَّانَ الخليفةِ الصَّالح الذى قَبِل رسولُ الله شفاعتَه فى «عبد الله بن سعدٍ» أخى بنى عامر بن لؤىٍّ، وكان كاتبًا للوحى ثمَّ هرب إلى مكَّة مرتدًّا، وسلمتْ له روحُه يوم فتح مكة بسبب شفاعته - رضى الله عنه - فيه، ثمَّ تاب ابن سعدٍ هذا وعاد إلى الإسلام.

لقد فتحت مَقْتَلَةُ عثمان الفتنة على المسلمين، فهل يتدبَّر المسلمون أمورهم؟ وهل يرجعون إلى كتاب ربِّهم وسنَّة نبيِّهم ويتركون قال فلانٌ ورأى فلانٌ، حالةَ كونهم معتصمين بالكتاب العزيز وبُسنَّة النَّبىِّ الأمين ﷺ.

* * *

شرح الله صدر حمزة للإسلام فبايع وعاهد

حمزةُ بنُ عبد المطَّلب هو عمُّ النَّبيِّ محمدٍ ﷺ، وأخوه من الرَّضاعة، فقد وُلدا فى أيامٍ متقاربةٍ، وأرضعتهما جاريةٌ لعمِّه أبى لهب اسمها «ثُويِّبة» قبل أن ينتقل الرسولُ ﷺ مع حليمة السَّعديَّة لإرضاعه فى ديارها.

❋ **القنص والصَّيد**: كان القنصُ والصيدُ رياضةً مُحبَّبةً لدى حمزة ابن عبد المطَّلب يخرج من مكة بقوسه لذلك؛ فيشتغل بالصَّيد والقنص ما شاء الله له ثمَّ يعود كما يفعل الشُّبان من سائر البطون القرشيَّة.

ومن عادته - رضى الله عنه - حين يرجع من رحلة صيده أن يذهب إلى البيت الحرام فيطوفَ بالكعبة، ثمَّ يمرَّ على المواضع التى يجلس فيها القرشيُّون فيُحيِّيهم ويتحدَّثُ مع كل جَمْع منهم بعضَ الوقت.

وكان شجاعًا أبيًا قوى النَّفس مرمُوقًا بين فتيان قريشٍ.

❋ **إيذاء الرَّسول ﷺ**: وكان رسول الله ﷺ يصبر على أذى المشركين وتعنُّتهم، ولا يردُّ الأذى بمثله مفوِّضًا أمره إلى الله وحده.

وذات يومٍ مرَّ أبو جهل بن هشامٍ المخزوميُّ وكان الرسولُ ﷺ عند جبل الصَّفا فاشتدَّ أبو جهل فى بذاءته ولؤمه، وسمع منه الرسولُ ما يَكره، وهو صامتٌ منصرفٌ لما هو فيه من العبادة وتلاوة القرآن، ثمَّ انصرف أبو جهل إلى جماعةٍ من قريشٍ عند الكعبة، فجلس معهم فى شماتةٍ وسوءِ أدبٍ، وهو عمل السُّفهاءِ الذين لا يستخدمون العقلَ استخدامًا صحيحًا ولا ينظرون فى الأدلَّة والبراهين بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ ليعرفوا الحقَّ ويؤمنوا به.

❋ **امرأةٌ غضبت وكانت سببًا**:

وكانت امرأةٌ من الرَّقيق فى مسكنٍ لها تسمع أبا جهلٍ ودمُها يفور وقلبُها يتلهَّب من سوء أدب أبى جهلٍ، وترقَّبت عودةَ حمزةَ من رحلة صيده ومروره

كالمعتاد من هذا الطَّريق، فأقبل حمزةُ متقلِّدًا قوسَه راجعًا من رحلة صيده، فاستوقفته المرأةُ وقالت له فى مرارةٍ وعتابٍ وإثارةٍ لنخْوةِ الحقّ فى نفسه: «يا أبا عُمارة، لو رأيتَ ما لقى ابنُ أخيك محمَّدٌ آنفًا من أبى الحكم ابن هشام» - أبى جهلٍ - فتغيَّر وجهُ حمزة، وبدا عليه القلق، وظهر عليه الغضب وطلب من المرأة المزيد من البيان، ، فقالت له: «وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يَكْره، ثمَّ انصرف عنه، ولم يكلّمه محمَّد ﷺ».

غضب حمزةُ غضبًا شديدًا، وساءه ما يَلْقَى ابنُ أخيه من السُّفهاء والمتكبِّرين، وأسرع يبحث عن أبى جهلٍ.

❋ **وأراد الله بحمزة خيرًا**: دخل حمزةُ المسجد ينظر وإذا به يجد أبا جهلٍ جالسًا فى القوم مسرورًا بما فعل، فأقبل حمزةُ نحوه، وبسرعة البرق رفع قوسه وأهوى به على أبى جهلٍ فجرحه جرحًا مُنكرًا، ثمَّ قال له: «أتشتم محمَّدًا وأنا على دينه أقول ما يقول» قال له ذلك يتحدَّاه ويُرهبه لأن حمزة كان أعزَّ فتًى فى قريش، ولذا قال لأبى جهلٍ: «رُدَّ ذلك علىَّ إن استطعتَ» أى يتحدّاه أن يقتصّ لنفسه، وأن يواجه حمزةَ بالقوَّة؛ ليُرِيَه ما هو أقوى ولكنَّ أبا جهلٍ خاف ولم يفعل.

فقام رجالٌ من بنى مخزومٍ - عشيرة أبى جهلٍ - إلى حمزة ليأخذوا لأبى جهلٍ ثأره منه.

خشى أبو جهلٍ العواقب، وكان خفيفَ العقل أحمقَ طائشًا فقال لقومه: «دعُوا أبا عُمارة - اتركوه - فإنِّى سببتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا».

لقد قال حمزة لأبى جهل: «وأنا على دينِ محمَّدٍ» ولم يكن أسْلَم بعْدُ، ولكنَّه الغيظُ والتَّهديدُ، ثمَّ انصرف إلى الكعبة يتضرَّعُ إلى الله - عزَّ وجلَّ - أن يشرحَ صدرَه للحقِّ، ويُذهبَ عنه الباطلَ والشَّكَّ، فلمَّا سأل ربَّه، وأتمَّ دُعاءَه

شرَح الله صدَره يقول: «فما استتْمَمْتُ دُعائى حتى زَاحَ عنِّى الباطل، وامتلأ قلبى يقينًا»، فذهبتُ إلى رسول الله ﷺ، فأخبرتُه بما كان من أمْرى، فدعا لى بأنْ يثبِّتنى اللَّهُ، يقول:

حمدتُ اللَّهَ حينَ هَدَى فؤادى ... إلى الإسلام والدِّينِ الحنيف
لـديـنٍ جـاء مـن ربٌ عـزيـزٍ ... خبيرٍ بالعباد بِهم لطيفِ[1]
إذا تُـلِيَـتْ رسـائـلُهُ عـلـيـنـا ... تَحدَّرَ دمْعُ ذى اللُّبِّ الحصيف
رسائلُ جاء أحمدُ من هُداها ... بـآيـاتٍ مُـبـيِّـنـةِ الـحـروفِ

❋ **وكان إسلامه فتحًا وقوّة**: ولمَّا أسلم حمزةُ عرفت قريشٌ أن رسولَ الله ﷺ قد صارت له قوةٌ وعزٌّ وقد امتنع؛ لأن أقوياء كعمر وحمزة انضموا إلى رَكْب النُّور والهدى، وأدركت قريش أنَّ حمزة سيكون درعًا قويًّا بإذن الله، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﷺ، وفكّروا فى أساليب أخرى بعيدًا عن العنف ظنًّا منهم أنَّهم يَمكرون وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلالٍ وضياعٍ، رضى الله عن شهيد غزوة أُحدٍ البارِّ حمزة بن عبد المطَّلب.

❋ ❋ ❋

أمانان لأمّة محمّد ﷺ
من العذاب العامّ وبركة دعائه لها

إنَّ أمَّة محمد ﷺ هى أمَّةُ الدَّعوةِ، وأمَّةُ الإجابةِ: أمّا أمّةُ الدَّعوة فهم النَّاسُ كافَّةً من جميع الأجناس والألسنة، لأنَّه خاتمُ النَّبيِّين والمُرسَلين ومبعوثٌ إلى النَّاس جميعًا، وإنَّ الحجَّةَ قائمةٌ عليهم إلى يوم القيامة، فمن آمن دخل فى أمَّة الإجابة، وهم الذين شهدوا لله بالوحدانيّة ولمحمَّدٍ بالرِّسالة واتَّبعوا النُّور

---

(١) لطيف: صفة لرب مجرورة فى قوله: (من رب عزيز خبير لطيف بهم، فتقدَّم الجار والمجرور (بهم) على لطيف.

الذى أُرسِل معه، وما زالوا والحمد لله فى زيادةٍ مُطّردةٍ بفضل يُسر تعاليم الإسلام، ووضوح عقائده وسلامتها، وبفضل قيام البراهين من كتاب الله وسنَّة رسوله على صدق الدَّاعى وقوّة حُجَّته وسُطوع دليله.

وكان كلُّ نبيٍّ قبل محمَّدٍ ﷺ يُرسل إلى قومه خاصّةً، أمَّا رسالتُه هو فإلى النَّاس عامَّةً، وقد شاءت إرادةُ الله - عزَّ وجلَّ - أن يأخذ المعاندين للرُّسل قبله المصرّين على الإنكار أو الشِّرك أو التَّكبُّر على الإذعان والخضوع لله أن يأخذهم بالعذاب العام، مع نجاة النبى والمؤمنين به، وذلك بعد قيام الحجَّة عليهم، وبعد ظهور المعجزة التى يعجزُ عن الإتيان بمثلها البشر، يأخذ سبحانه المعاندين بالعذاب لشدَّة عنادهم، ولعلم الله - عزَّ وجلَّ - بحالهم وبأنَّهم مُصرُّون لا يتوبون، ومن ذلك:

❋ نجاةُ رسولِ الله نوح - عليه السلام - والمؤمنين به فى السَّفينة وهلاكُ قومه المعاندين بالغرق فى الأمواج الهادرة التى اجتاحتهم عن بكرة أبيهم.

❋ وقد نجّى الله هودًا النَّبىَّ العربىَّ والمؤمنين، وقلبت الأعاصيرُ ذاتُ الأصوات المُفزعة والقوَّةِ العظيمة قلبت دورَ هؤلاء المعاندين وردمتهم فى الرِّمال، وإن ديار عادٍ تُذكِّرنا للعبرة.

❋ أما ثمودُ فقد اغترُّوا مثل عادٍ بالقوَّة والمَنعَة ووفرةِ المال وعاندوا نبيَّهم العربىَّ صالحًا - عليه السلام - وأصرُّوا وكابروا بعد أن طلبوا معجزةً خارقةً للعادة ولكنهم تجاسروا وقتلوا الناقةَ العجيبةَ بعد تحذيرهم وإنذارهم وتخويفهم من عاقبة قتلها، فأمر الله نبيَّه صالحًا والمؤمنين بالخروج من الديار، وباغتت المكابرين جميعَهم صاعقةٌ ماحقةٌ أذلتهم وأبادتهم عن آخرهم، وبقوا لحدِّ الآن أثرًا بعد عَينٍ عبرةً لمن يعتبر.

❋ وكان مصيرُ الثُلّةِ المكابرة والجماعة الضَّائعة فى متاهات الكبر والضَّلال

والمتابِعَةِ لرؤوس الفساد والعناد من آل فرعون وجنده كان مصيرهم الغرقَ إذْ ابتلعتهم مياهُ البحر، وكانوا متطاولين بسلاحهم وكبريائهم وجموعهم الهادرةِ بالقوَّةِ والصَّولة والكثرة فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، ولو أنَّهم فكّروا حين كانوا ينظرون إلى موسى - عليه السلام - وقومه وهم يمشون على أرض البحر مطمئنِّين فى طريقٍ يُحيطه من الجانبين جبلان من الماء لو فكَّروا تفكيرَ طالبِ الحقِّ لأدركوا عظمةَ المعجزة الإلهية، ولأقروا لموسى بالرِّسالة، ولله بالوحدانيَّة، وتابوا وثابوا إلى الحقِّ، ولكنَّ الباطل أعماهم عن الهُدى والنُّور، وأخذت الكبرياءُ بزمامهم عن التواضع للّه - عزَّ وجلَّ - فعمُوا وصمُّوا وهلكوا وصاروا عِبرةً لمن كان له قلبٌ.

❁ وكان لوطٌ - عليه السلام - يرى فى قومه إصرارًا على الكفر والفساد والإفساد والرَّذيلة القبيحة كلَّ القبح [التى تُبيحها بعضُ دول المدنيَّة الأوربيَّة المعاصرة لنا الآن، وإذا لم تستحى فاصنع ما شئت] وكان لوط - عليه السلام - يرى فى عملهم وإصرارهم موجبات غضب الله عليهم، ولذا كان عليه السلام يتَّجه إلى ربِّه ضارعًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشُّعراء] أى إذا أخذتَهم ياربِّ بالعذاب فنجّنى والمؤمنين برسالتى من عذاب ما يعملون، فأنجاه الله والمؤمنين، وأهلك المعاندين المصرِّين على الكفر والخبائث بإرسال سحابةٍ على قَدْرِهم وفيهم امرأةُ لوطٍ أمطرتهم حجارةً من نَّارٍ، وإنَّ المسافرين المارّين بديار قوم لوطٍ باللَّيل أو بالنَّهار يرون آثار هذا العذابِ الإلهيِّ، فهل من معتبر متبصّرٍ؟

❁ ونصح شعيبٌ النَّبىُّ العربىُّ أهلَ مدين وكانوا فى ثراءٍ ورخاءٍ فاتَّجهت النُّفوس الخسيسةُ إلى محبَّة المال إلى درجة العبادة، فاحترفوا السرقة والاختلاس من المكاييل والموازين، وطغوا وبغوا، ووضعوا فى آذانهم

صوارفَ عن سماع كلمة الحقّ وعن التّفكُّر فى النّصيحة القيّمة التى تؤدّيهم إلى خير الدُّنيا وخير الآخرة، ومع إلحاح شُعيبٍ - عليه السلام - بالنّصيحة تبجّحوا بطلب العذاب فى الدُّنيا وبدل أن يقولوا: إن كنتَ صادقًا سألنا الله الهداية لأنفسنا، قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أى قطعًا من العذاب مهلكة: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٨) ولمَّا طال عنادُهم وكان فى علم الله أن المصرِّين منهم لا يُرجى منهم خيرٌ ولا توبةٌ أخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة، وقانا الله السُّوء، إنَّها سحابةٌ أظلَّتهم بعد حرٍّ شديدٍ أصابهم فكتمت أنفاسهم، فأصابهم بذلك عذابٌ شديدٌ فوق طاقة البشر، ثمَّ صبَّت عليهم السَّحابةُ نارًا أحرقتهم جميعًا ولم ينجُ سِوى شعيبٍ والمؤمنين، وإن فى ذلك لآيةً وعبرةً تهدينا إلى كمال قدرة الله وعظمته وإلى أنه سبحانه هو الإلهُ الواحدُ لا يُعبد غيره، ولا يُرجى سواه.

* أما أمة محمَّدٍ ﷺ: وقد شاءت إرادةُ الله - عزَّ وجلَّ - ألا تُؤخذ أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ بالعذاب العامِّ الذى يُحيط بالمكابرين من هذه الأمَّة عن بَكْرةِ أبيهم.

*** المعجزة الباقية الدائمة ومعجزات الأنبياء السابقين:**

ومعلومٌ أن معجزات الأنبياء قبل نبيِّنا ﷺ كانت قائمةً أمام كلِّ أمَّةٍ منهم يُدركونها بحواسِّهم ويرونها بأعينهم كمعجزة العصا واليد البيضاء من غير سُوءٍ لموسى - عليه السلام - وناقة صالحٍ - عليه السلام - وإحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وقد أيّد الله رسوله عيسى ابن مريم - عليهما السلام - بذلك، وقد بقيت أخبار هذه المعجزات فى كتاب اللَّه - عزَّ وجلَّ - وما نزل به جبريلُ من الوحى على رسولنا ﷺ.

وكان لرسولنا ﷺ معجزاتٌ رآها النَّاسُ وأدركوها ماثلةً أمامهم ولكنَّ معجزتَه الكُبرى هى آياتُ كتاب الله - عزَّ وجلَّ - وهى كلامه سبحانه وتعالى

باللفظ والمعنى، وهى معجزةٌ باقيةٌ خالدةٌ إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها قائمةٌ أمام العقول تُبرهن على صِدق الدَّاعى ﷺ وعلى كمال قدرة الله ووحدانيّته، وتتحدى البشر باللفظ والمعنى وبالمضمون، وكلّما ارتقى العقل الإنسانىُّ وجد فى آيات الله فى القرآن الكريم من المعجزات والبراهين ما يُنير للعقل طريقَه ويقتضى الإذعانَ وقبولَ الدخولِ فى دين اللهِ، وسيبقى دومًا كلامُ الله - عزَّ وجلَّ - ساطعًا غضًّا لا تَبْلَى جِدّته، ولا يخلُق عن كثرة الرَّدّ، ولا تَنقضى عجائبه، كلّما تدبَّرته وتلوته تشعر كأنه نزل لتوِّه، حفظه الله، ولنسمع قوله سبحانه من سورة «الحجر»: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ ونسأله أن يحفظ علينا حُبّنا لجنابه العظيم، ولكلامه الكريم، ولنبيِّه الحبيب وسائر الأنبياء والصَّحابة الأجلّاء أجمعين.

❋ الأمانان هما؟ شاءت إرادةُ العليم القدير أن يحفظ على أمة محمَّدٍ ﷺ أى أمةِ الدَّعوة وأمة الإجابة البقاء والوجودَ ورسولُ الله ﷺ حىٌّ بين أظهرهم يدعوهم ويرشدهم، ويصبر على أذى المعاندين، ولا يدعو عليهم بالهلاك العامِّ، ونجد ذلك فى سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ أى ما دمت حيًّا بينهم يا محمّد لا يقع عليهم العذاب العامُّ، كما حدث للأمم السَّابقة التى عاندت الرُّسُلَ.

كما شاءت الإرادةُ الإلهيّةُ أن يكون الاستغفارُ أمانًا من هذا الهلاك العامّ مهما كثر المعاندون، ومهما شاع الفساد والخلاف فى الموحّدين بعد أن ينتقل الرَّسولُ محمَّدٌ إلى الرَّفيق الأعلى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الآية: ٣٤).

وكما جاء عن ابن عباسٍ - رضى الله عنهما - فى توضيح ذلك يوم انتقل الرَّسول الحبيبُ ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى بما معناه: كان لكم أمانان من

عذاب الله، أما أحدهما فرُفع، وبقى لكم الاستغفار فتمستكوا به، وقد جاء بمعناه مرفوعًا عن أبى موسى - رضى الله عنه - وأخرجه التِّرمذيُّ: «أنزل الله أمانين لأمَّتى، فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» ﷺ إنّه عليه السَّلام الرحمةُ العامّة الرَّءوف الرَّحيم، وما زلنا نعيش فى نور هَدْيه وسنَّته وشريعته، نستغفر الله فى كل وقتٍ، ونصلّى ونسلِّم على الحبيب المصطفى نرجو رحمةَ ربِّنا.

وهذا من رحمة الله بهذه الأمَّة، ومن المعجزات أن هداية القرآن ما زالت تدعو الناس جميعًا، وأنَّ سنَّة رسول ﷺ وسيرته العطرةَ ما زالت قائمةً ترشدنا وترشد الناس جميعًا وتوضِّح الطَّريق لأهل العقل والحكمة، وكان المسلمون وما زالوا فى زيادةٍ مطَّردة، لم تَخلُ أمَّةٌ ولا عصر من دخول النَّاس فى دين الله الحقِّ، عن محبَّةٍ ورغبةٍ فيما عند الله من الرَّحمة.

* **دعوة الرَّسول ﷺ لأمَّته**: وقد دعا رسولُ الله ﷺ لهذه الأمَّةِ بالسلامة من الهلاك العامِّ، فأجاب المولى سبحانه دعاءه، وهذا يؤكِّد أن الحجَّة قائمةٌ على الناس على الملحد والكافر منهم كما هى قائمةٌ على المؤمن إذا شرد وشايع أهلَ الفساد والشَّرِّ، ذلك أن عذاب الآخرة أشدُّ وأمرُّ، فليتَّقِ العقلاءُ ربَّهم.

والحديث جاء فى صحيح مسلم بألفاظٍ منها: ما أخبر به عامر بنُ سعدٍ عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يومٍ من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بنى معاوية دخل فركع ركعتين وصلَّينا معه، ودعا ربَّه طويلًا، ثمَّ انصرف إلينا فقال: «سألتُ ربِّى ثلاثًا، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة، سألتُ ربِّى: أن لا يُهلك أمّتى بالسَّنَة - أى بالجفاف والقحط العامّ - فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أمَّتى بالغَرق فأعطانيها، وسألته أن لَّا يجعلَ بأسَهم بينهم شديدًا فمنعنيها».

ونسأل الله السَّلامة من تفرّق المسلمين ومن معاداة بعضهم بعضًا، فهذه هى الفتن التى كسرت شوكتهم، ولله الأمرُ من قبل ومن بعد.

ولفظه عند النَّسائىّ: «سألت ربِّى - عز وجل - أن لّا يُهلكنا بما أهلك به الأممَ قبلنا فأعطانيها، وسألتُ ربِّى - عزّ وجلّ - أن لّا يُظهرَ علينا عدوًّا من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربِّى أن لّا يُلبسكم شيعًا فمنعنيها».

ومن شفقته على أمته ﷺ أنه كان يدعو ربَّه دومًا وهو يبكى ويقول: «اللّهمّ أمَّتى أمَّتى» رحمةً لها وخوفًا عليها [رواه ابن عمر وأخرجه مسلم].

إنَّ عدوّ هذه الأمة لا يقوى عليها إلا عن طريق الشِّقاق فيما بينها، نسأل الله صلاح نفوسنا وأحوالنا وتبصيرنا بما فيه خيرنا والرَّحمة بنا.

إننا نرى بركات استغفار الموحّدين الصالحين وبركات حفظ الله لهذه الأمَّة من الهلاك العامِّ، وبركات دعوة رسول الله ﷺ ماثلةً شاهدةً بعظمة الإسلام وبمعجزة القرآن، فقد عمَّ الفساد وطمّ فى أمَّة الدَّعوة، وشاع الخلافُ والتَّنافر وشرور المدنيَّة المعاصرة ومفاسدها فى أمة الإجابة، وإن الجميع سالمٌ من الهلاك العامِّ، إلا ما يأتى من النُّذر المُنبّهة كالزلازل والبراكين والأعاصير والفيضان من حينٍ إلى حينٍ لعل الغافلين يزدجرون.. فهل من متدبِّرٍ معتبرٍ؟

* * *

من السَّابقين: المبارك الدَّعوة:

الزُّبير بن العوَّام

«يا مولى الزُّبير اقض عنه دينه فيقضيه»

هو من بنى أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ وأبوه خُويلد بن أسدٍ وأُمُّه صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب عمَّةُ الرسول ﷺ وهو حوارىُّ رسول الله ﷺ وزوجُ أسماء بنتِ أبى بكرٍ - رضى الله عنهم أجمعين - وكان معروفًا فى شبابه بالشَّجاعة والبطولة بين أقرانه، وهو أحدُ العشرة المُبشَّرين بالجنَّة وأحدُ السِّتَّة أصحاب الشُّورى الذين تُوفِّى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم.

وكان الزُّبير بن العوام من السَّابقين إلى الإسلام فكان رابعًا أو خامسًا، وكان عمره حينئذٍ ستَّ عشرةَ سنة وحضر جميعَ الغزوات مع رسول الله ﷺ وهاجر رضى الله عنه الهجرتين، وهو أول من رفع سيفًا فى الإسلام، وفى يوم بدرٍ لم يكن مع المسلمين سوى فَرسَين كان الزُّبيرُ على واحدٍ منهما، وفى يوم أُحدٍ ثبت الزُّبير بنُ العوام مع رسول الله ﷺ، وبايعه على الموت، وفى غزوة الفتح كانت مع الزُّبير إحدى رايات المهاجرين الثَّلاث؛ إذْ كان الزُّبيرُ على المَيْسَرة وخالد بن الوليد على المَيْمنة.

❋ حوارى رسول الله:

وعن الزُّبير بن العوام قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبىٍّ حوارىٌّ وحواريِّى الزُّبيرُ ابن عمتى»، ذلك أنَّ الزُّبير كان صافى النفس مطيعًا شجاعًا مقدامًا راغبًا فيما عند الله، وقد روى جابر، كما عند البخارىِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب: «من يأتينى بخبر القوم؟ فقال الزُّبير: أنا، فقال: من يأتينى بخبر القوم (يَعنى بنى قريظة)؟ فقال الزُّبير: أنا، ثمَّ كرَّر ﷺ السُّؤال ثالثة فقال الزُّبير: أنا»، فجمع له رسولُ اللَّه ﷺ أبويْه فقال له: «فداك أبى وأمِّى» وقال: «إنّ لكلِّ نبىٍّ حواريًّا وإنّ حوارِيِّى الزُّبير». [وهذا اللفظ فى سيرة ابن كثير].

وهذا وسام شرفٍ آخر يُتوَّجُه الزُّبير من الهادى الحبيب ﷺ.

❋ **منثوراتٌ عنه**:

لما بُعث الزُّبير إلى مصر فقيل له: إنَّ بها الطَّاعون، فقال: «إنَّما جئنا للطَّعن والطَّاعون» ولما قُتِل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - محا الزُّبيرُ نفسه من الدِّيوان.

❋ وفى يوم «اليرموك» على أطراف الشَّام كان الزُّبير أفضل من شهدها، واخترق يومئذٍ صفوفَ الرُّوم من أوَّلهم إلى آخرهم مرَّتين، ويخرج من الجانب الآخر سالمًا، ولكنَّه جُرح فى قفاه بضربتين.

❋ وكان سمحًا جوادًا عظيم البرِّ، وكان كثير المال، ومكاسبُه كلُّها من وجوهٍ حلالٍ ومشروعةٍ، وكان بلغة عصرنا الحاضر «رجلَ أعمالٍ وتاجرًا ناجحًا».

❋ **وصيته**: لما وقف الزُّبير يوم الجمل فى الحرب بين علىٍّ بن أبى طالبٍ والأمويين دعا ابنه عبد الله بن الزُّبير، فقام إلى جنبه وقال له: «يا بُنىَّ إنَّه لا يُقَتَلُ اليوم إلا ظالمٌ أو مظلومٌ، وإنَّنى لا أرانى إلا سأقتل اليوم مظلومًا»، ثمَّ قال له: «يا بُنىَّ بِعْ ما لنا واقْض دَيْنى» وأوْصَى بالثُّلث.

وكان الدَّين يشغل باله - رضى الله عنه - وذلك أنَّ النَّاس كانوا يُودِعون عنده أماناتهم لفَرْط الثِّقة فيه - رضى الله عنه - فكان الزُّبير يقول للمؤدِع: «لا ولكن هو سلفٌ إنِّى أخْشى عليه الضَّيعة» ومعنى ذلك أنه يُحوِّل الأمانةَ إلى قرضٍ مضمونٍ، فإذا ضاع المال تحمّل الزُّبير المسؤولية وتُردّ الأمانة إلى صاحبها، أمّا الأمانة فلا ضمان لها ما دام الأمين يضعها فى حِرْزِ مثلها، فإذا ضاعت فى هذه الحالة فإنها لا تُردّ.

ثمَّ قال الزُّبير لابنه عبد الله: «يا بُنىَّ إن عَجَزْتَ عن شىءٍ من الدّين، فاستعن عليه مولاى» سبحانه وتعالى جلّ شأنه، أى توكّل على الله، واجتهد فى الدُّعاء بإخلاصٍ، واجتهد فى العمل والكسب حتى يتيسّر لك المال بفضله سبحانه.

قال عبد الله: فواللَّهِ ما دريتُ ما أراد حتى قلتُ يا أبت مَن مولاك؟ قال: «اللهُ»، قال عبد الله: «فوالله ما وقعتُ فى كُربة من دَيْنه إلا قلتُ: يا مولى الزُّبير اقْضِ عنه دينَه فيقضيَه».

ولمّا مات الزُّبير لم يترك درهمًا ولا دينارًا، وإنَّما ترك أرضًا فيها شجرٌ ونحو خمسَ عشرةَ دارًا فى المدينة والبصرة والكوفة ومصر.

وباع عبدُ الله ابنه الأرضَ بثمنٍ كبيرٍ تمكّن به من الوفاء بديون أبيه الكثيرة، فقال له بنو الزُّبير: اقْسِم بيننا ميراثنا، قال: «لا واللهِ لا أقْسِمُ بينكم حتى أنادى فى الموسم أربع سنين: ألا مَنْ كان له دينٌ على الزُّبير بن العوّام فليأتنا فَلْنَقْضِه».

وجعل عبد الله ينادى كلَّ سنةٍ بالموسم (موسم الحج) فلمَّا مضت أربعُ سنين قسّم التَّركة.

وكان للزُّبير - رضى الله عنه - أربعُ نساءٍ فكان ميراث كلٍّ واحدة منهنّ: «ألفَ ألفَ دينارٍ ومائتى ألف» إذ كان مجموعُ ما بقى للورثة بعد إخراج الثُّلث وبعد قضاءِ الدَّين «تسعةً وخمسين ألف ألف دينارٍ وثمانمائة ألفٍ» وكانت كلُّها من وجوهٍ حلالٍ بفضل النّيّة الطَّيّبة والخوف من الله ورجاء رحمته وستره فى الدُّنيا والآخرة.

وفاته: وكانت وفاته - رضى الله عنه - غدرًا فى موقعة «الجمل» لأنّه رجع مسرعًا عن القتال، فلحق به ثلاثةٌ من بنى تميم بمكانٍ يقال له «وادى السّباع» فانقضّوا عليه وقتلوه - رضى الله عنه - وأخذ أحدهم وهو «عمرو بن جرموز» رأسَه وسيفَه وذهب إلى علىٍّ - رضى الله عنه - فارتاع علىٌّ بن أبى طالبٍ وحَزِن حزنًا شديدًا، وأشار إلى سيف الزُّبير - رضى الله عنه - وقال: «إنّ هذا السَّيفَ طالما فرّج عن وَجه رسول الله ﷺ الكُرَبَ» وقال - أيضًا - «بشِّر قاتلَ ابن صفيّة بالنَّار» رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنّاتِ الفردوس مثواه،

وتأملوا يا أهل العقل والبصيرة ما تفعل الفِتن بالناس، وكيف تُعْمى البصائر وتَهْدى إلى الهلاك والضَّياع؛ لذا حذّر منها رسول الله ﷺ ونبّه على الأمَّة لكى يجتنبوها ويأخذوا أنفسهم بالرُّجوع إلى هداية الإسلام ونوره والتراضى والتَّفاهم وسعة الصَّدر وكفّ أسباب الشَّرِّ ليكونوا يدًا واحدةً؛ كأنَّهم دومًا بنيانٌ مرصوصٌ فى أمنٍ وأمانٍ.

* * *

المبارك المجاب الدَّعوة:

سعيد بن زيد - رضى الله عنه -

«كرامة الولىّ مُعجزةٌ لنبيّه»

أبوه زيدُ من بنى عدىٍّ القرشيِّين: رُوى أنَّ رسول الله ﷺ قال عن أبيه زيد ابن عمروٍ من بنى عدى: «قد رأيتُه فى الجنَّة يسحب ذيولًا»، وروى أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن زيد بن عمروٍ والد سعيد فقال: «يُبعثِ يوم القيامة أمةً وحده»، وذلك بفضل إخلاصه التَّوحيد ونبذِه الشُّركاءَ والشُّفعاءَ من القلب وبالعمل، وهذا كان دأبَ والد سعيد بن زيدٍ قبل ظهور الإسلام.

❋ **وفاة أبيه زيد على التوحيد**: ولقد توفِّى والد سعيد بن زيدٍ قبل نزول الوحى على رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين، وكان يقول عن نفسه: «أنا على دين إبراهيم» - عليه السلام - أى أنَّه يؤمن بأنَّ الإله واحدٌ لا شريك له فى ملكه، وهو من القلائل الذين نبذوا عبادة الأصنام فى الجاهليّة بعد أن أجالوا الفكرَ والنَّظرَ فى ملكوت السموات والأرض، لذا كان زيدٌ والدُ سعيد ينادى فى مكة بالتَّوحيد، وحرّم على نفسه ما كان يذبح على الأصنام، وكان يستقبل الكعبة ويقول: «هذه قبلةُ إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرًا ولا أصلِّى له، ولا أذبح له، ولا آكل ما ذُبح له، ولا أصلِّى إلا إلى هذا البيت حتى أموت»، أى يتّجه إلى الكعبة يناجى ربّه

وخالقه، وله شِعرٌ عظيمٌ فى التوحيد ومناجاة الله - عزَّ وجلَّ - لطلب العفو والمغفرة والهداية إلى ما يحبُّه الله ويرضاه.

❋ **تلبيته**: وكان زيد بن عمروٍ يقف بعرفة فى الحجِّ ويقول فى التلبية: «لبيك لا شريكَ لك ولا نِدَّ لك»، ويقول: «لبيكَ مُتعبِّدًا لك مرقوقًا»، أى عبدًا مرقوقًا يعبدك وحدك.

❋ **من آرائه وتأمُّلاته:**

وممَّا كان يقوله زيدٌ والد سعيدٍ للنَّاس: «الشَّاةُ خلقها اللَّه، وأنزل من السَّماء ماءً، وأنبت لها الأرض، ثمَّ يذبحونها على غير اسم الله - إنكارًا لذلك وتقبيحًا لهذا العمل الفظيع - لا آكل ممَّا لم يُذكر اسم الله عليه».

وكان يبثُّ تأمُّلاته فى أبياتٍ يُعبِّر فيها عن إيمانه بوجود الإلهِ الواحدِ القادر الذى لا شريكَ له فى ملكه، ومن ذلك قوله:

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ ... أدِينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمورُ
عزلتُ اللَّاتَ والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبورُ

ويقول:

ألا أيُّها الإنسانُ إيَّاكَ والرَّدَى ... فإنَّك لا تُخْفِى من اللَّه خافِيا
وإياك لا تجعلْ مع الله غيره ... فإنَّ سَبيلَ الرُّشْد أصبح بادِيا

❋ **نِعْم الابنُ سعيدٌ:**

هذا والدُ سعيد بن زيدٍ إنّه مفكِّرٌ حكيمٌ استخدم عقله فى الاتِّجاه الصَّحيح، وكان ينكر على قومه ما يأباه العقل السَّليم حتى عادَوه، فلا عجب إذا كان ولدُه سعيدٌ ممَّن بادروا إلى اعتناق الإسلام والاطمئنان إلى الدِّين الحقِّ.. دينِ الفطرة الإنسانيَّة السَّليمة.

❋ **إسلام سعيدٍ:**

فقد أسلم سعيد بنُ زيدٍ - رضى الله عنه - قبل أن يدخل رسولُ الله ﷺ دار

الأرقم بن أبى الأرقم المخزوميّ، وكم كان أبوه زيدٌ يتمنّى أن يُدرك النّبىَّ العربىَّ الذى تحدّث عنه أهلُ الكتاب حين زارهم زيدٌ فى الشّام، وسألهم عن الدِّين الحقِّ فبشروه بأنَّ نبيًّا عربيًّا قد أظلّ زمانُه وأنه مبعوثٌ من أرضه التى خرج منها، ولكنّ العُمر لم يطل بزيدٍ حتى يُدرك نزول الوحى على رسول الله ﷺ، إذ مات مقتولًا وهو فى طريق عودته من الشام إلى موطنه مكة المكرمة ينتظر الرسول الذى تحدّث عنه أهلُ الكتاب، وكان الرسول ﷺ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره.

وإن سعيدَ بنَ زيدٍ وزوجَهُ فاطمةَ بنتَ الخطاب ابنةَ عَمِّه وشقيقةَ عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - كانا سببَ إسلام عمرَ - رضى الله عنهم أجمعين - إذْ اقتحم عمر عليهما دَارَهما وهو غاضبٌ بعد أن علم بإسلامهما، وكان عمر فى أوّل الأمر شديدًا على المسلمين، وفى دار سعيدٍ تدبَّر عمرُ بعضَ آيات الكتاب الحكيم من سورة (طه) فخشع وسكن قلبه، وذهب عنه غضبُه، وطلب أن يدلاه على مكان رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه، وقد كان.

❋ **من العشرة المبشَّرين بالجنَّة**: وسعيد بن زيدٍ - رضى الله عنه - أحدُ العشرة الذين بشَّرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وتُوفِّى ﷺ وهو عنه راضٍ، وكان من المهاجرين الأوَّلين.

وشهد سعيدٌ - رضى الله عنه - مع رسول الله ﷺ المعارك كلَّها ما عدا بدرًا، إذ ورد أن رسول الله ﷺ بعث سعيد بنَ زيدٍ وطلحة بنَ عُبيد الله قبل خروجه ﷺ من المدينة بعشر ليالٍ ليأتياه بخبر عِيرِ قريشٍ (تجارتها) بعد أن خرجت من الشَّام متَّجهةً نحو مكة.

فخرج سعيد وصاحبُه حتى بلغا «الحوراء» جهة الشَّام فلم يزالا مقيمين

هناك حتى مرّت بهما العير، وقد وصل الخبرُ إلى رسول الله ﷺ قبل رجوعهما إلى المدينة فندب أصحابه، وخرج ﷺ يريد العير.

ولمّا رجع سعيدٌ وصاحبه إلى المدينة ليخبرا رسول الله ﷺ وجدا أن المسلمين قد خرجوا، فخرجا من المدينة ليلحقا برسول الله ﷺ فلقياه وهو فى طريق عودته بعد أن نصره الله - عزَّ وجلَّ - على المشركين فى بدرٍ.

لذا لم يشهد سعيدٌ الوقعةَ وضرب لهما رسولُ الله ﷺ بسهامهما وأجورهما فى بدرٍ، فكانا كمن شهدها، قال ابن إسحاق: «سعيد بنُ زيدِ بنِ عمرو ابن نُفيلٍ من بنى عدىٍّ بن كعبٍ قَدِم من الشام بعدما قَدِم رسولُ الله ﷺ من بدر إلى المدينة، فكلّمه فضَرَب له بسهمه»، أى من غنائم غزوة بدرٍ لأنه كان فى مهمّةٍ رسميةٍ لها علاقةٌ، فصار عُذره مقبولًا عن عدم حضور المعركة، رضى الله عنه.

وممّا رواه سعيد بن زيدٍ عن رسول الله ﷺ قوله: «اثبُتْ حِراء فإنّه ليس عليك إلا نبىٌّ أو صِدّيقٌ أو شهيدٌ» قال: فسمَّى تسعةً: رسول الله، وأبا بكرٍ وعمر، وعليًّا، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزُّبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوفٍ، وسعد بن مالكٍ، وقال: لو شئتُ أن أسمّى العاشرَ لفعلت؛ يعنى نفسه.

ومن رواية سعيدٍ - رضى الله عنه-: قال رسول الله ﷺ: «عشرةٌ من قريشٍ فى الجنة: أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلىٌّ بن أبى طالبٍ وطلحة والزُّبير وعبد الرحمن بن عوفٍ وسعد بن مالكٍ وسعيد بن زيدٍ، وأبو عبيدة ابن الجرَّاح».

❋ واتقوا دعوة المظلوم:

كان سعيد بن زيدٍ رجلًا مباركًا مجابَ الدَّعوة بفضل نقاء سريرته وإخلاصه

لدين الله، وحبّه لله ولرسوله، وقد روى البخاريُّ ومسلمٌ أن امرأةً عربيّة قبليَّةً اسمها (أروى) وقصَّتها هذه فى الصَّحيح ادّعت على سعيد بن زيدٍ أنه أخذ شيئًا من أرضها، فلما سأله مروان بن الحكم، قال سعيدٌ: أنا كنت آخذ من أرضها بعد أن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من أخذ شبرًا من أرضٍ ظلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين»، فقال مروان: لا أسألك بيّنةً بعدها، فدعا سعيدٌ ربَّه فقال: «اللَّهمَّ إن كانت كاذبةً فأعْمِ بصرَها، واقتُلْها فى أرضها»، فما ماتت هذه المرأةُ حتى ذهب بصرُها، وبينا هى تمشى فى أرضها، إذْ سقطت فى حُفرةٍ فماتت، وروى عنها أنها قالت: «أصابتنى دعوةُ سعيدٍ».

❋ **وفاته**: مات سعيدُ بنُ زيدٍ - رضى الله عنه - يومَ جمعةٍ بالعقيق وقيل بالمدينة، وذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين، وكان يومَ موته قد جاوز السبعين عامًا - رضى الله عنه - وممَّن شهد جنازته سعدُ بنُ أبى وقَّاصٍ وابنُ عمر، رضى الله عنهم أجمعين.

❋ ❋ ❋

نعيم بن مسعودٍ الغَطفانىُّ
من أنجح سفراء صَدر الإسلام

إنّ غزوة الأحزاب «الخندق» وقعت فى شهر شوَّال أوائل العام الخامس من الهجرة الشَّريفة، وكان الموقف فيها عصيبًا، إذ واجه المسلمون فيها تجمّعًا وثنيًّا قبليًّا من نحو عشرة آلاف مقاتلٍ حاصروا المدينة المنوَّرة يساندهم اليهود داخل المدينة، وقد عقدوا العزم على مناصرة المشركين، وقد قاموا بدورٍ كبيرٍ فى تأليبهم وتجميعهم، وخرج المسلمون فى نحو ثلاثة آلاف لمواجهة القبائل، وجعلوا ظهورهم إلى جبل سلعٍ، وحفروا بينهم وبين المشركين خندقًا ليكون وسيلةً دفاعيَّةً تُعيق تقدُّم الجيوش المتحفِّزة.

وطال الحصار، واشتدَّ البلاء، واعتصم رسولُ الله ﷺ بربِّه يدعوه ويتضرّع إليه: «اللّهمَّ منزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، اهزم الأحزاب، اللّهمَّ اهزمهم وزلزلهم».

❋ **إسلام نعيم بن مسعودٍ**: وأبصر نعيم بن مسعودٍ وهو من قبيلة غطفان المشاركةِ فى الحصار أبصر أنوار الحق، وسطعت فى قلبه براهينُه، وهو من بين الذين خرجوا مع القبيلة لقتال المسلمين، واستطاع أن يصل إلى رسول الله فى تكتُّمٍ شديدٍ، وقال: «يا رسول الله، إنِّى قد أسلمتُ وإنَّ قومى لم يعلموا بإسلامى، فمُرنى بما شئتَ».

❋ **الحرب خدعةٌ**: طلب إليه الرَّسول ﷺ أن يكتم إسلامه لتتاحَ له فرصةُ الحركةِ دون أن يشكَّ فيه أحدٌ، وقال له: «إنَّما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّلْ - فعل أمر من التَّخذيل وبثِّ الشُّكوك فى النُّفوس - عنّا إن استطعت، فإنَّ الحرب خُدعةٌ».

وكان لنعيم بن مسعودٍ علاقةُ مودّةٍ قديمةٌ مع بنى قريظة من يهود المدينة

فانطلق إليهم يخوِّفهم من حلفائهم المشركين معتمدًا على ثقتهم فيه وصداقته لهم، فقال لهم: «إنكم تحالفتم مع قريش وغطفان من مشركى العرب ضد محمَّدٍ والمسلمين، قالوا: نعم»، فقال لهم محذِّرًا ومخوِّفًا من سوء عاقبتهم مع المسلمين فى المدينة إذا تحقَّق النَّصرُ لهم على مشركى العرب الذين تجمعوا لحربهم، فإنَّهم - أى العرب - فى هذه الحالة سيفرّون إلى بلادهم، وتبقون أنتم يا معشر يهود فى مساكنكم بالمدينة وجهًا لوجهٍ أمام المسلمين ولا طاقة لكم بهم، فلابدَّ لكم من ضمانة لبقاء المشركين معكم حتى نهاية حربكم مع المسلمين.

فقالوا له: لقد أشرتَ علينا بالرَّأى، فماذا نصنع؟ طلبوا منه المشورة، قال نعيم لبنى قريظة: «تطلبون من حلفائكم العرب رهائن من أشرافهم وكُبرائهم يكونون معكم فى بيوتكم حتى تنتهى الحربُ بينكم وبين المسلمين».

فسرّهم رأى نعيمٍ، وعملوا على إنجازه، أى بأن طلبوا بالفعل من المشركين عددًا من رجالهم المرموقين يكونون رهائن لديهم فى المدينة لضمان عدم فرار العرب وترك اليهود وحدهم فى مواجهة المسلمين.

❊ **نعيم عند المشركين**: وفى مجلس أبى سفيان بن حرب القرشىّ وقادة معسكر المشركين أفاض نعيم بن مسعودٍ هذا الدبلوماسىُّ الذَّكىُّ فى بيان مخاوفه من غدر يهود بحلفائهم من قريشٍ وغطفان.

وقال لهم: «إنّه قد بلغه أنَّ اليهود ندموا على هذا الحِلف - أى مع العرب - لخوفهم من عاقبة الغدرِ بالمسلمين ومواثيقهم معهم، وقد أرسلوا إلى محمَّدٍ النَّبىِّ يعترفون بخيانتهم ويُظهرون ندمهم ويطلبون منه الصَّفح»، وفعل مثل ذلك مع قبيلة غطفان حليفة قريشٍ.

ثمَّ قال لهم نعيمٌ: إنَّ اليهود قالوا لمحمَّدٍ: إنَّنا سنأخذ من قريشٍ ومن

غطفان عددًا من أشرافهم يكونون عندنا ثمَّ نُسلِّمهم لكم تضربون أعناقهم، وبعد ذلك نُحارب معكم - يا معشرَ المسلمين - حتى نطردَ العرب المشركين عن مدينتنا.

وقد وافق النَّبيُّ محمَّد على خِطَّة اليهود، فإن طلبوا منكم ذلك يكون هو الدَّليل على صدق ما بلغنى من تسليم رقاب كبرائكم لمحمَّدٍ - ﷺ -.

❋ **ووقع الخلاف والشَّكُّ والحذر من الحلفاء**: وأرسلت يهود إلى القرشيِّين وغطفان يطلبون رهنًا من أشرافهم إن هم أرادوا الاستمرار فى التحالف معهم حتى تنتهى الحربُ مع المسلمين، وحتى يضمنوا بقاء العرب المشركين حول المدينة؛ ولكى لا يفرُّوا ويتركوهم وحدهم فى مواجهة المسلمين، قال اليهود: «فإنَّا نخاف إن اشتدَّ القتالُ أن تفرّوا إلى بلادكم وتتركونا والرَّجل - محمَّدًا - فى مدينتنا ولا طاقة لنا بذلك منه».

❋ **ونجحت الخطَّة**:

وبفضل من الله كتم نعيمٌ إسلامه، ونجحت مساعيه، وتفكَّك حِلفُ الشَّيطان، وصار كلُّ فريقٍ يخاف الفريقَ الآخر، فبنو قُريظة يخافون من العرب المشركين ويحذرون منهم، والعربُ يرتابون فى بنى قريظة، ويحذرون منهم ومن غدرهم أكثر من حذرهم من المسلمين.

وخذّل الله بين حلفاء الشَّيطان، وبعث اللَّه الرِّيحَ العاتيةَ فى ليلةٍ شاتيةٍ.. وقال أعوان الشَّيطان: الفِرارَ الفرارَ، الهربَ الهربَ، وكفى الله المؤمنين شرَّ القتال.

❋ ❋ ❋

صفحةٌ من حياة قائدٍ:

خالد بن الوليد

❁ عند ظهور الإسلام:

كان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميُّ فتىً ناشئًا يوم بدأت أنوار الدَّعوة الإسلاميَّة تأخذ طريقها إلى قلوب فئةٍ قليلةٍ من أهل مكة هداهم الله، وشرح صدورهم للحقِّ.

وكان بنو مخزوم وهم قوم خالدٍ من أقوى البطون القرشيَّة، وكانوا قبل الإسلام أصحابَ السُّلطة العسكرية فى مكة المكرَّمة، فقد أسندوا إليها مسؤوليةَ القُبَّة والأعِنَّة، والقُبَّة: هى مجتمع الجيش، والأعِنَّة: هى قيادة الفرسان، وكان فى بنى مخزومٍ كبرياءُ الجاهليَّة وشموخُها.

وظهر محمَّد بنُ عبد الله ﷺ يدعو إلى الحقِّ والهدى ويجتمع فى مجلسه تحت ظلال الدَّعوة الجديدة، القويُّ والضَّعيف، والغنى والفقير، والحرُّ والعبد، والمكيُّ والآفاقيُّ الجميعُ إخوةٌ متساندون متحابُّون، يحترم الصغيرُ منهم الكبير، ويعطف الكبيرُ على الصَّغير، ويَلين القويُّ للضَّعيف، ويؤاخى الغنيُّ الفقيرَ، فأصابت الدَّعوةُ كبرياء الجاهليَّة فى فؤادها، وهزَّت التَّعالى بسبب النَّسب أو الجاه أو الثَّراء هزًّا، وزلزلت الأرضَ تحت أقدام كلِّ متغطرسٍ جبَّارٍ، وكانت بذلك تلطم كبرياء بنى مخزومٍ وتعاليها وعنجهيَّتها.

لهذا كان زعماء بنى مخزومٍ من أشدِّ النَّاس عداوةً للرَّسول ﷺ وفى مقدِّمتهم: الوليد بن المغيرة، وكان يُلقَّب بوحيد قريشٍ، وفيه يقول الله تعالى من سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾.

أجل.. كان الوليد لآيات الله عنيدًا؛ لأنَّه حسد الرسولَ ﷺ على نعمة النُّبوَّة والرِّسالة، فأبى إلَّا إعلانَ الحرب عليه، وإيذاءه وإيذاء أصحابه، وتدبير المكايد لهم على الرَّغم من إدراكه لإعجاز القرآنِ الكريم، وإيمانِه الذى لم يستطع أن يُخفيه بصِدق الرسول ﷺ.

وعلى مسلك أبيه سار خالدٌ زمنًا ثمَّ عاد إليه رُشده، فنفر من الدَّعوة أوَّل الأمر كما نفر أبوه الوليد، وأسندت إليه قريشٌ قيادةَ الفرسان وهو فى رَيْعان شبابه، فوجَّه كلَّ قُوَّته لمحاربة الإسلام، فكان قائدَ الميمنة فى غزوة أُحدٍ، واستطاع بدهاء القائد البصير بموازين المعارك الحربيَّة أن يجعل كفَّةَ النَّصر تميل من جانب المسلمين إلى جانب المشركين مهتبلًا فرصة الخطأ الذى وقع فيه كثرةٌ من الرُّماة المسلمين، إذ خالفوا أوامر قائدهم، ونسوا وصايته ﷺ بالثبات فى مواقعهم، ولكنهم تركوها حين صارت بشائرُ النصر تلوح أمام أعينهم، فكانت تلك هى الفرصةَ التى ينفذ منها القائد الداهيةُ خالدُ بن الوليد ولم تُذهله عنها الهزيمةُ المُطبِقة بقومه، فكرّ بالخيل هو ومن معه وداروا من وراء جيش المسلمين، وحملوا على من بقى من الرماة.

❋ **وفى الخندق**: ثمَّ اشترك خالدٌ فى غزوة الخندق مع الأحزاب الذين جمعوا جموعهم وتوجهوا إلى المدينة لغزو المسلمين فى حاضرة دولتهم النَّاشئة.

وكان خالدٌ فى هذه الغزوة أكثر المشركين نشاطًا دائمَ الطَّوافِ بخيله حول الخندق يلتمس مضيقًا يُقحم منه الخيل، وكان بِوُدِّه أن يلتقى بالمسلمين ليُناجزهم ويبارزَهم، فلم يتمكَّن، ثمَّ جاء نصر الله، ورأى النَّاسُ من آيات اللّه ما رأوا، وأسلم المشركون سِيقانهم للرِّيح بعد أن هبّت عاصفةٌ عاتيةٌ عصفت بخيامهم، وقُدورهم، ومع هذا كان خالدٌ بحميّة الجاهليّة آخر من ترك الحومةَ هو وعمرو بن العاص بعد فشل الأحزاب وفرارهم.

❋ **فى عام الحديبية**: وفى عام الحديبية تصدّى خالدٌ مرّةً أخرى للنَّبىِّ ﷺ حين قصد مكَّة لأداء العمرة فى السَّنة السَّادسة من الهجرة، فقد حدث أن ندبت قريشٌ خالدًا فى مائتى فارسٍ للقاء المسلمين قبل أن يبلغوا مكة.

دنا خالدٌ حتى صار قريبًا من المسلمين، وكان خالدٌ يرصد أصحاب رسول اللّه ﷺ عن بُعْدٍ.

وحانت صلاةُ الظُّهر فصلى رسولُ الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف..

المسلمون يقفون فى سكينةٍ وخشوعٍ بين يدى الله - عزّ وجلّ - وفكَّر خالدٌ المحاربُ وهمّ أن يُغير ويهجُم على رسول الله ﷺ وهو فى صلاته؛ ولكنه أحسّ برهبة، ولم يطاوعه عزمُه ولا قلبُه أن يفعل ذلك، وقال فى نفسه: «الرَّجل ممنوعٌ». أى لديه حمايةٌ ورعايةٌ لا يعلمها إلا الله.

❋ **قلبه يبدأ فى التَّحوّل**: ومنذ أن أخذته سكينةُ المسلمين وهم فى الصَّلاة، فصدّته عن الإغارة عليهم رهبةُ قلبه من الخشوع فى الصَّلاة؛ منذ هذه اللَّحظات أخذ قلبه يتحوَّل، وحضره رشدُه، وجعل يفكر فى أمر الإسلام.

وتعال بنا أيُّها القارئ العزيز نسمع خالد بنَ الوليد يُفصح لنا عن مشاعره وخواطره فى تلك الفترة من حياته يقول:

«.. لمّا أراد الله بى من الخير ما أراد قذف فى قلبى حبَّ الإسلام، وحضرنى رُشدى، وقلتُ: قد شهدتُ هذه المواطنَ كلَّها على محمَّدٍ، فليس موطنٌ أشهده إلا وأنصرف وإنِّى أرى فى نفسى أنِّى مُوضِعٌ فى غير شىءٍ، وأنَّ محمَّدًا سيظهر..». أى: يجد فى نفسه أنَّه يبذل جهودًا كبيرةً وتضيع هباءً، فأكّد له قلبُه أنَّ محمَّدًا سيعلو دينُه وينصره ربُّه.

❋ **فى عُمرة القضية**: وتُسمَّى عُمرةَ القضاء وكانت فى السَّنة السَّابعة من

الهجرة، حيث دخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكةَ لقضاء العمرة بمقتضى صلح الحديبية الذى تمَّ فى العام السادس.

وتغيَّب خالد بنُ الوليد عن مكة فلم يشهد دخوله ﷺ، وكان أخوه الوليد ابنُ الوليد قد شرح الله صدره للإسلام، ودخل مع النبىّ ﷺ فى تلك العمرة؛ فأخذ يبحث عن أخيه خالدٍ فلم يجده، وكان يَتحرَّق شوقًا للقائه لثقته فى عقله ورجاحةِ رأيه لكى يُحدّثه عن حلاوة الإيمان، وعن عظمة الإسلام، وسموِّ مبادئه.. فلمَّا يئس من لقائه فى تلك الفترة كتب إليه كتابًا.

وتعال بنا يا أخى القارئ نتأمَّل ما جاء فى هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد...

فإنى لم أرَ أعجبَ من ذَهاب رأيك عن الإسلام، وعقلُك عقلُك..!، ومثل الإسلام يجهله أحدٌ؟؛ وقد سألنى رسولُ الله ﷺ فقال: أين خالدٌ؟ فقلت: يأتى اللهُ به، قال: ما مثلُ خالدٍ يجهلُ الإسلام.!. ولو كان جعل نِكايتَه وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له، ولقدَّمْناه على غيره، فاستَدْرِكْ يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتك مواطنُ صالحةٌ..».

* **أول النُّور**: ولنسمع خالدًا يحدِّثنا عن أثر هذا الكتاب فى نفسه فى تلك المرحلة من حياته، يقول: «.. فلما جاءنى كتابُ أخى نشطتُ للخروج، وزادنى رغبةً فى الإسلام، وسرَّتنى مقابلةُ رسول الله ﷺ، ورأيت فى النَّوم كأنِّى فى بلادٍ ضيِّقة جدبة، فخرجتُ إلى بلد أخضرَ واسعٍ، فقلت: إنَّ هذه الرُّؤيا حقٌّ..!.. فلمَّا قدمت المدينة، قلتُ لأذكرنّها لأبى بكرٍ، فذكرتها له فقال: هو مَخْرجُك الذى هداك للإسلام، والضِّيقُ الذى كنت فيه الشِّركُ».

لقد تباعد ما بين خالدٍ والشِّرك، وتقارب ما بينه وبين الإسلام يوم رَدَّته سكينةُ الصَّلاة عن جموع المسلمين، وهم مسالمون، خاشعون، قانتون قرب

البيت الحرام، وأخذتْ الظُّلمةُ تنقشع عن بصيرته رويدًا رويدًا، وكان يسأل نفسه: من أين لمحمدٍ ذلك النصرُ المبين بعد النصر المبين؟ ومن أين له تلك المهابةُ التى تردُّ عنه الأعين والأيدى عن قريبٍ؟، ومن أين له ذلك العونُ الذى يُدركه وقد أحاطت به الهزيمةُ من كلِّ فَجٍّ، فإذا هو خارجٌ منها، وإذا هو الظَّافر الطَّارد، وقد ضلَّ خيلٌ (فُرسانٌ محارِبون) لأعداء دينهِ إذْ زعموا أنَّه الطَّريد المهزوم؟، ومن أين للمسلمين ذلك الأدب؟ وذلك الخشوع؟. إن محمَّدًا لممنوعٌ!. وإنه لنبيٌّ حقًّا.

ثم جاءته رسالةُ أخيه الوليد، وكانت رؤياه، وشرح الله صدره للحقِّ، فقرَّر الخروج إلى رسول الله ﷺ.

❋ **إلى المدينة**: وفى صفر من سنة ثمانٍ كان خالدٌ فى المدينة ومعه عمرو ابن العاص وعثمان بنُ أبى طلحة.

وابتسم الرَّسول الحبيب ﷺ سرورًا بقدوم خالدٍ وزميليه.

ونطق خالدٌ بالشَّهادتين أمام الحبيب المصطفى ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: «الحمد لله الذى هداك، قد كنتُ أرى لك عقلًا، ورجوتُ ألّا يُسْلِمَك إلَّا لخير».

وعاش خالدٌ بقيةَ عمره جنديًّا مخلصًا لعقيدة التَّوحيد، ومجاهدًا صادقًا، وقائدًا قلَّ أن يجودَ الدَّهرُ بمثله حتى وافته المنيةُ فى زمن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - ورضى عن خالد بن الوليد الذى قاد خمسًا وخمسين معركةً لم يُهزم فى واحدةٍ، ولم يُخْدع فى واحدةٍ، وكان يرجو أن يموت فى ميدان قتالٍ، ولكنَّ إرادة الله غالبةٌ فمات على فراشه...، رضى الله عنه.

❋ ❋ ❋

من أخبار حسّان بن ثابتٍ

فى يثرب كان مولده قبل مولد الرسول محمَّدٍ ﷺ بمكة المكَّرمة بنحو ثمانى سنواتٍ، وللخزرج انتسابُه، وليَعْرُب بنِ قحطان فى اليمن تمتدّ جُذوره، فهو يمنىٌّ عربىُّ الأصل، يثربىُّ المولدِ والنَّشأة.

عاش ستين سنةً قبل إسلامه وستين أخرى مجاهدًا بشعْره مع رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده.

* **ومن اللَّطائف**: أنَّ أباه «ثابتَ بنَ المُنذر بن حرام» عاش مائةً وعشرين سنةً أو تزيد، وكذلك عاش جدُّه «المنذر» وأبو جدِّه «حرامٌ» ولم يُعرف فى العرب أربعةٌ تناسلوا من صُلبٍ واحدٍ وعاش كلٌّ منهم مائةً وعشرين سنةً غيرهم.

* **المجاهد بشعره**: كان حسَّانُ - رضى الله عنه - أشْعر أهل المدَر، وكان شاعرَ الأوسِ والخزرج فى الجاهليّة، وكان شاعرَ النّبىّ ﷺ فى النُّبوَّة، وشاعر اليمن كلِّها فى الإسلام.

وجاء فى الخبر عن أبى بُريدةَ عند الأصبهانىّ وغيره أنَّ جبريل - عليه السلام - أعان حسَّانَ بنَ ثابت فى مديح النَّبىّ ﷺ بسبعين بيتًا.

وقد أخبر أحمد من حديث يَعْلى بن شدَّاد بن أوسٍ عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «إنَّ رُوحَ القدس لا يزال يؤيّدك ما كافحتَ عن الله - عزَّ وجلَّ - وعن رسول الله ﷺ».

وكان رسول الله ﷺ يقول عن شعر حسَّانٍ فى أعداء الإسلام: «لَهَذَا - أى هذا الشِّعر - أشدُّ عليهم من وقْع النَّبل».

وتلك هى الحرب النَّفسيَّة الإعلاميَّة لا تقلُّ خطرًا وبأسًا عن حرب السِّنان

والحديد والنَّار.

❋ **ومن ذلك**: قال الشّعبىُّ: «لمّا كان عام الأحزاب، وردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا، قال النّبىُّ ﷺ: «مَن يحمى أعراضَ المسلمين؟» فقال كعبٌ: أنا يا رسولَ الله، وقال: عبدُ الله بن رواحةَ: أنا يا رسول الله، وقال حسَّان ابن ثابتٍ: أنا يا رسول الله، فقال - عليه السلام-: «نعم اهجُهم أنت فإنه سيُعينك عليهم روحُ القُدس» - أى جبريل عليه السَّلام -.

وقال ابن عبّاسٍ - رضى الله عنهما - كما روى سعيد بن جبيرٍ: «لقد نصر حسّانُ رسولَ الله ﷺ بلسانه ويده»، أى: جاهد بلسانه ويده.

إن خِطّة الإعلام إذا كانت حكيمةً مُحكَمةً فإنها تكون من أكبر العون على حماية عقائد الأمة وصيانةِ فضائلها ودَعْم جهودِ التَّربية السَّليمة؛ لينشأ النَّاشئ على الأخلاق الكريمة والعزّة والشَّجاعةِ مع تثبيت الأفئدة والقلوب فى مواجهة الغزو الفكرى ومحاولاتِ تطييش عقول الشبابِ فيما يذهب بهم بعيدًا عن طريق الصواب والسدادِ والحفاظِ على القيم الثوابت.

ومن قوله:

شهدتُ بإذن الله أنَّ محمدًا رسولُ الله الذى فوق السموات من عَلُ

وقوله:

أكْرِمْ بقومِ رسولُ الله قائدُهم إذا تفرَّقت الأهواءُ والشِّيَعُ

وما أعظمَ شعره! وما أشدّ وقْعَهُ على الخصوم! وما أسماه وأعذبه فى مدح الإسلام ورسوله ﷺ! ولكن ما أجْبَنَ حسّانَ بنَ ثابتٍ حين تبرق السُّيوفُ فى دُجَى المعارك! فلسانُه صارمٌ لا عيبَ فيه ومعانيه بحرٌ زاخرٌ، وقد أثنت عليه عائشةُ أمُّ المؤمنين - رضى الله عنها - حين مرور جنازته؛ وذلك لحبّه لرسول الله ﷺ متجاوزةً عن هفوته وتَسرُّعه فى حادث الإفك، وقد بيّن اللهُ للمؤمنين وأخزى

المنافقين، وندم حسانُ وتاب، ورضى الله عن الصحابة أجمعين.

* * *

المغيرة بن شُعبة يُعلّم الفرس

لقد كان المغيرة بنُ شعبةَ - رضى الله عنه - سفير المسلمين إلى قادة الفرس للتّفاوض ولعرض الشُّروط المقتضية للسلام، وكان القائد الفارسىُّ رستمُ بطلًا مرموقًا له هيبةٌ شديدةٌ فى نفوس أهل فارس، وقد رفعوا منزلته إلى درجةٍ تُشبه التقديس، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم وأمرائهم، إذ لم يعرف الفرسُ ولا الرُّوم شيئًا اسمُه المؤاخاة أو المساواة بين بنى آدم.

حين دخل المغيرةُ بنُ شعبةَ على «رستم» فى غرفته وجده متعاظمًا منفوشًا على سريره، وكانت بطانتُه وأعوانُه على مسافةٍ منه فى ذلةٍ وانكسارٍ خافضى الرؤوس فى حضرته، فبادر المغيرةُ - رضى الله عنه - إلى الجلوس على السَّرير بجوار رستم، فارتُجَّ المكانُ بصياح «رستم» وأصواتِ الإنكار الممتزج بالذُّعر من هول ما قد يكون من مؤاخذة تقع عقوبتُها على الحراس، فأسرعوا إلى «المغيرة» يجذبونه من مكانه ليبعدوه عن القائد المغرورِ ذى القلائد والشَّارات، فى حين أن المغيرةَ رجلٌ بدوىٌّ ذو مظهرٍ غايةٍ فى البساطة، وما دَرَوْا رُجحانَ عقله، وصفاءَ نفسه، ونقاءَ ضميره الذى هذَّبه الإسلامُ وأكّد لمعتنقيه أن الناس لآدمَ وآدمُ من ترابٍ، فهم مُتساوون كأسنان المشط لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بمزايا أُخرويَّة ترفع صاحبها عند لقاء ربِّه بمقدار قوة إيمانه وخشيته من ربه وما قدَّمه من عملٍ طيّبٍ صالحٍ فى دنياه، أعطاهم المغيرةُ ابنُ شعبة درسًا عظيمًا بعمله هذا ثم بكلمته التى ارتجلها فى ثباتٍ ورزانةٍ وتواضُعٍ، فقال للفرس: «لقد كانت تَّبلغُنا عنكم الأحلامُ - أى أنَّكم أهلُ عقلٍ وحكمةٍ - ولكنِّى لا أرى أسْفَهَ منكم» ثمَّ قال: «إننا معشرَ المسلمين: لا

يستعبد بعضُنا بعضًا، فظننتُ أنَّكم تُواسون قومَكم كما نتواسى - أى كما نتساوى ونتآخى فى تراحُم وتعاطف -» ثم زادهم توبيخًا لرضاهم باستعباد بعضِهم بعضًا فقال: «فكان أحسنَ من الذى صنعتموه معى أن تُخبرونى أن بعضَكم أربابُ بعض، إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، ولا يصنعه أحدٌ، وإنى لم آتكم، ولكن دعوتمونى، اليوم علمتُ أنكم مغلوبون، وإنَّ مُلكًا لا يقوم - أى لا يستمرّ - على هذه السِّيرة ولا على هذه العقول».

إنَّها كلماتٌ من ذهب، ولو كان بين الواقفين من الفرس ذو حكمة وجرأة لردّ فى خطابه على المغيرة قائلًا: «ونحن - الفرسَ - علمنا اليوم أنكم أيها المسلمون غالبون منتصرون، وإن أحقَّ المُلك أن تقوم له قائمةٌ لهو المُلك الذى له سيرتُكم ونمط حياتكم من الشَّجاعة والتواضع والمساواة والمؤاخاة والعدالة، وما أنتم عليه أيها المسلمون من الفضائل والضمائر الحيَّة النَّقيَّة والرغبة فى الخير للناس جميعًا، مع رفضكم التامّ أن يستعبد الإنسانُ أخاه الإنسان» فهل نَعِى درسَ المغيرة ونتدبره، ونرى كيف تكون الشَّجاعة الأدبيَّة؟.

* * *

لمحاتٌ من الأدب الصادق والمعنى الرائق

الأدبُ الصَّادق هو الذى يُعبِّر عن عاطفةٍ شريفةٍ صادقةٍ، ويصوِّر لنا معانى رائعةً وقعت موقِعَها وجاءت فى مَحِلها فأقنعتْ وأمتعتْ، من ذلك على سبيل المثال قولُ حسَّانَ بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ - رضى الله عنه - فى وصف النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ:

خُلقتَ مُبَرَّأً من كلِّ عَيبٍ كأنَّك قد خُلقتَ كما تشاء

فهذا بيتٌ صادقٌ كلَّ الصِّدق، إذ كان الحبيب المصطفى ﷺ أتمَّ النَّاس خَلْقا - بسكون الحرف الثانى - وأكملَهم خُلقًا - بضمِّ الأوَّل والثَّانى -

جمع الله له فى نفسه العظيمة محاسنَ الآداب، ومكارم الأخلاق، وكان له من النور فى قلبه ما انعكس على وجهه الشريف فلم يره قريبٌ أو غريبٌ إلا تعلَّق به قلبُه وهابه ووضعه فى نفسه فى أعلى مكان حتى ولو لم يدخل فى دينه عنادًا ومكابرة، وقد حدَّث رجلٌ نفسه متسائلًا فقال لأمرٍ مَّا خَطَر له:

مَن ذا الذى ما ساء قَطّ ومَن له الحُسنَى فقط؟

فسمع هذا الرَّجل صوتًا ولم ير شخصًا يقول:

محمدٌ الهادى عليه جبريلُ هَبَط

إنَّه صاحبُ النَّفس المطمئنَّة الرَّاضية الشَّاكرةِ الصَّابرة، وصاحبُ الوجه الصَّبوح الوقور، فالوجهُ هو مرآةُ الإنسان، وقد كان لوجهه نورٌ ومزايا، فإذا ابتسم خرج نورٌ من بين ثناياه لا يَخفى على مُحدّثه، وقد حاول عمرُ ابن الخطاب - رضى الله عنه - أن يصوِّر ذلك على سبيل تقريب المعنى والحقيقةِ بالتَّشبيه والتَّمثيل فقال معبّرًا عن عاطفةٍ صادقةٍ وتجربةٍ حيَّةٍ:

لو كنتَ من شىءٍ سِوَى بشرٍ كنتَ المُنوِّرَ ليلةَ البدر

وفى بيتٍ صار عَلَمًا على الدلالة على ما جمع اللهُ له ﷺ من جمال الخلْق - بسكون الثانى وفتح الأول - وتمامه وكماله، وجمال الخلق - بضمِّ الأول والثانى - وتمامه وكماله بما لم يجتمع لأحدٍ قبله على هذا النَّحو فى ذلك يقول أبو طالبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ عن تجربة حية وواقعٍ عاشه مع ابن أخيه حتى شبَّ وكبر أمام عينيه، وقد ملأ عليه حياته حبًّا وسرورًا يقول:

وأبيضُ يُستسقَى الغمامُ بوجهه ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

وقال ابن عباسٍ: «كان إذا تكلّم ﷺ رُئى كالنُّور يخرج من بين ثناياه».

وقالت الرُّبَيِّعُ بنتُ مُعوِّذٍ لولدها: «يا بُنيَّ، لو رأيته رأيتَ الشمسَ طالعةً»

[القسطلانى: المواهب اللّدنية - المقصد الثالث].

وصدق صاحبُ البيت التالى فى تصوير تجربته الحيَّة وعاطفته الصَّادقة:

مُكمَّلُ الخلْق ما تُحصَى خصائصُه   مُنَضَّرُ الحُسْن قد قلَّت نظائرُه

إنه البدرُ المُباركُ الصَّادقُ الأمين، وإنَّ حبَّنا له ﷺ فريضةٌ وعقيدةٌ، مِثْل اقتدائنا به؛ فهو سببُ نجاتنا وفوزنا بإذن الله ورحمته بنا.

لقد سبقت أنوارُ دعوته إلى المدينة المنوّرة، ثم كانت فرحةُ الدُّنيا بوصوله ﷺ إلى مشارف المدينة، وكان أهلُها وأطفالها يُعبرون عن مشاعر صادقةٍ وعواطف محبّةٍ يقولون:

طلع البدرُ علينا   من ثنيَّات الوَدَاع
وجب الشُّكرُ علينا   ما دعا لله داع
أيُّها المبعوثُ فينا   جئتَ بالأمر المُطاع
جئت شرَّفتَ المدينةَ   مرحبًا يا خيرَ داع

لقد كان ﷺ كما قال حسَّان:

نورًا أضاء على البريَّة كُلِّها   مَن يُهْدَ للنُّور المباركِ يَهتدى
يا ربِّ فاجْمَعْنا معًا ونبيَّنا   فى جنَّةٍ تَثنى عُيونَ الحُسَّد
فى جنَّةِ الفردوسِ فاكتبها لنا   يا ذا الجلالِ وذا العلا والسُّؤدد
صلَّى الإلهُ ومن يحفُّ بعرشه   والطَّيِّبون على المبارَك أحمد

يارَبِّ .. يارَبِّ.. يارَبِّ تقبل دعاءنا هذا

* * *

الكلمة الطَّيِّبة أبقى وأنفع

إن لسانَ الإنسانِ العاقل المهذَّب يكون وراء قلبه يفكِّر فى الكلمة قبل أن يتحدَّث، ويصون لسانَه عن الشَّرِّ والسُّوء، ويتحرّز فلا ينطق إلا بخيرٍ، وإن صاحبَ الضَّمير الذى هذَّبه دينُ الله لا يغتاب أحدًا، ولا يُسيء إلى إنسانٍ، يطمئنُّ إليه إخوانُه، ويَحظى بثقتهم وتقديرهم لأنَّهم ألفوا منه الخير، وطِيبَ

الكلام، وطهارةَ القلب، فالمؤمنُ الصَّالح لا يتكلَّم إلا فيما يَعْنيه وفيما يخصُّه من أمور دينه أو أمور دنياه، ولا يخالط أهل الغيبةِ والنَّميمة واللَّغوِ والباطل، وإذا رأى أمرًا تكلَّم بخيرٍ أو سكت ليصونَ نفسه.

إنَّ العاقل الحكيم يضبط نفسَه حتى فى حالات الغضب فهو إمَّا أن يلجأ إلى الصَّمت إذا كان فيه النَّجاةُ والسَّلامة وتسكينُ النُّفوس وتهدئةُ الخواطر، وإمَّا أن تصدرَ عنه الكلمةُ الطَّيِّبة المناسبة للمقام.

إن العاقل الحكيم يعلم أن الكلمة الطيبةَ صَدقةٌ يُطفئ بها نارًا لفِتْنةٍ أو يردّ بها على سَفيه مِمّن يؤذون الآمنين، أو يعتذر بها لسائل محتاج، أو يُخفِّف بها عن صدر أخيه كُربةً، أو يُرشده بها إلى خير، ويكفّه عن باطلٍ وسوءٍ، مبتغيًا فى ذلك كله رحمة الله ثم الإحسانَ إلى النَّاس.

❋ الأسوة الحسنة وعلى الدرب نسير:

ولقد كان رسول الله ﷺ أحلمَ الناس، وأعفَّهم لسانًا وأطيبهم كلامًا حتى فى أشدِّ الحالات المُثيرة للغضب، فقد نالت منه قبيلةُ ثقيف وهم أهلُ الطَّائف، نالوا منه بالأذى حين زار مدينتهم الطَّائف يلتمس قلوبًا تَلين للحقِّ، فقال له أحدُ أصحابه وقد غضب بسبب إيذائهم لمن أراد لهم الخير: «يا رسول الله، ادعُ عليهم» فقال ﷺ: «اللهم اهدِ ثَقيفَ وأتِ بهم» فدعا لهم بالهداية، وقد دخلوا فى دين الله وبايعوا فى العام التَّاسع.

ونالت منه قريشٌ بالأذى الشَّديد فى غزوة أُحدٍ فسأله أصحابه أن يدعو عليهم، فقال ﷺ: «إنَّما بُعثتُ رحمة ولم أُبعث لعَّانًا» ثم دعا لهم بالهداية فقال ﷺ: «اللهم اغفرْ لقومى فإنهم لا يعلمون»، وعفا عنهم بعد أن تمكَّن منهم فى عام فتح مكة فى السنة الثَّامنة، وقال لهم: «لا تَثْرِيبَ عليكم اليوم،

اذهبوا فأنتم الطُّلقاء» أى الأحرار فلا أسرى ولا عقوبة على ما مضى.

ونهى الحبيب الهادى ﷺ عن سبِّ القتلى من المشركين يوم بدرٍ؛ لأن هذا السَّبَّ لا فائدة منه ويُثير نفوسَ ذويهم ويزيد العداوةَ اشتعالًا، وقد يؤذى السبُّ أقاربَهم من المُوحِّدين، وكلُّ ذلك ليس من خُلق المؤمن الحليم القوى، ولذا قال ﷺ: «لا تَسبُّوا هؤلاء - القتلى - فإنه لا يَخلُص - لا يصل - إليهم شىء مِمَّا تقولون: وتؤذون الأحياء - أى أقاربهم الأحياء - ألا إن الإيذاءَ لُؤمٌ».

صلى الله وسلم على رسوله الكريم وقد أثنى سبحانه على خُلُقه العظيم فى كتابه المبين فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] أعطاه ربُّه نفسًا سمحةً راضية مطمئنَّةً لا تعرف القسوة ولا الغلظة، وأثنى سبحانه عليه بذلك فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قالت أمُّ المؤمنين عائشة - رضى الله عنها-: «كان خُلُقه القُرآنَ يَرْضَى لرِضاه ويَسْخَطُ لسَخَطه» [رواه ابنُ المنذر].

❁ الرِّفق خيرٌ والعنف شرٌّ:

كان النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ أحسنَ النَّاس خُلقًا، وأعظمهم حلمًا، وأرحمهم بكلِّ ذاتِ كبدٍ رَطبٍ، وأعفَّهم، وأجودهم، وأشجَعهم، لم يُزعج نائمًا، ولم يُروِّع غافلًا مشغولًا بنفسه وبِعَمله منصرفًا إلى إصلاح حاله، ولم يجد منه الغريبُ ولا القريب إلا الرِّفقَ واللِّينَ وحُسنَ الخِطاب والتجاوزَ عما يبدو من جفاء الأعراب، وكان يحفظ لسانه ويصونه عن الفحش ولو مع من يستحقّ الردّ العنيفَ والشتم من اللئام الذين كانوا يستخدمون الألفاظ الخفيَّة فى الدعاء عليه، فقد كان بعضُ أهل الكتاب حين يمرُّون بمجلسه ﷺ يقولون: «السّام عليكم» بدلًا من السلام، والمراد بالسَّام: الموت، أو السَّآمة والمَلَلُ، أى

دعاء بالموت أو السَّأم والضَّجر والملل، فكان يُغضى عما يقولون وكأنه لم يسمع ويردّ بقوله: «وعليكم» أى عليكم مثل ما قلتم، وهم عليهم وزْرُ ظلمهم وتَعدِّيهم وسوء أدبهم.

إنَّ حذف الَّلام من لفظ «السلام» فيقول الشَّخص الشِّرّير «السَّام عليكم» ممّا يخفى غالبًا على السَّامع، أو أن يظنَّ السَّامعُ أن ذلك من سُرعة القول أو من التفاف الحروف من غير قصدٍ، ولكن أمَّ المؤمنين عائشةَ - رضى الله عنها - حين سمعت ذلك من رهطٍ من اليهود فطِنتْ له وفَهِمت مُرادهم فقالت غاضبةً: «وعليكم، ولعنكم الله، وغَضِب الله عليكم» فقد ساءها أن يُلقوا بالدعاء على الجالسين بهذا الأسلوب الخبيث وبهذا المكر السَّيئ.

وإن الرسول الرحيمَ الواسعَ الصدر لم يُعجبه من عائشةَ أن تُبادر إلى الغضب والشِّدة والمبالغة فى الرد عليهم بطلب لعنة الله وغضبه عليهم، والغضَبُ أشدُّ من اللعنة وأبقى، ولا شكَّ أنهم مُستحقُّون لذلك إن هم ماتوا على كفرهم وخبثهم، ولكنها لم تُقيِّد دعاءها عليهم بهذا القيد، ولذا فإن الرسول الرحيم الرفيقَ طلب إليها أن تكون فى مثل هذا الموقف رفيقةً وألَّا تبالغ فى ردِّ العدوان فقال لها: «مهلًا يا عائشةُ، عليكِ بالرفق، وإيَّاكِ والعُنفَ، والفُحشَ» كما قال لها: «إن الله يُحبُّ الرفقَ فى الأمرْ كلِّه» ثم بيَّن لها أنه أجاب بما يُناسب حالهم دون مغاضبة ولا شدة فقال لها: «قد قلتُ: وعليكم» فقد ردّ عليهم بمثل قولهم ولا زيادة، وبين أثر ذلك فقال ﷺ كما فى الصحيحين وعند أصحاب السُّنن: «رددتُ عليهم فَيُستجاب لى فيهم، ولا يستجاب لهم فىَّ» إذ هم البادئون وقد تعدَّوْا وظلموا وبسبب ظلمهم وتعدِّيهم لا يجد دعاؤهم مَحِلًّا فى المدعوِّ عليه بإذن الله.

لقد علَّمنا ﷺ أنَّ الرِّفق لا يكون فى شيءٍ إلا زانه، وأن المحروم من الرِّفق

يكون محرومًا من الخير، وفى ذلك استحبابُ أن يتغافل أهلُ الفضل عن صفة البطَّالين والحمقى، وأن يكونوا أكرم وأعظمَ نفسًا وأرفع مقامًا.

* * *

قصّةٌ يترتَّب عليها بعض الأحكام

❋ لا شفاعة فى حدٍّ بعد التَّقاضى:

صفوانُ بنُ أمية القُرشىُّ أسلم بعد غزوة حُنينٍ، ثمَّ هاجر إلى المدينة المنوَّرة، وكان فى ضيافة العباس بن عبدِ المطَّلِب، ثم رجع إلى مكة المكرمة لمنزلته فيها وبقى بها حتى مات، وكان فى الجاهلية أحدَ الأجواد الأشراف.

ووقع له حادثُ سرقةٍ وهو نائمٌ فى المسجد أو فى البطحاء كما فى رواية عطاء بن رباحٍ عند البيهقىِّ، واختلفوا أهو مسجد المدينة، أو المسجد الحرام؟ إذ جاء سارقٌ فأخذ الرداء من تحت رأسه، وأدركه صفوان - رضى الله عنه - وجاء به إلى رسول الله ﷺ شاكيًا، وثبت عند الرسول أنَّ هذا الرجل المتَّهمَ قد سرق الرِّداء، وأن هذا الرداء يساوى نصابَ الحدّ فى السرقة، وهو قطعُ يدِ السارق فحكم رسولُ الله ﷺ بقطع يدِ السارق لثبوت أركانِ الجريمة، ففى قطع اليد زجرٌ لغيره وتطهيرٌ له مع التوبة النصوح.

لمَّا سمع صفوانُ الحكمَ أخذته الشفقةُ على السارق، فطلب من الرسول عدم تنفيذ الحدِّ، وكان يظن أن القطع حقُّ المسروق منه يسقط بعفوه وتسامحه، فقال صفوان: «إنى لم أُرِد هذا يا رسول الله هو عليه صدقة!» فقال له ﷺ: «فهلَّا كان قبل أن تأتينى»

[أخرجه مالك وأحمد وأبو داود والنسائى

عن صفوان، وصححه ابنُ الجارود والحاكم].

أراد صفوان أن يجعل المالَ المسروقَ صدقةً على السارق ظانًا أن تنازله

عنه له يُنجى السارقَ من العقوبة، فأفهمه الرسول ﷺ ما يلى، كما يدل عليه قوله «فهلَّا كان قبل أن تأتينى»:

١ - إن العفو عن السّارق إنما يُمكن تمامُه قبل الخصومة ورفع الأمر للقضاء وثبوتِ السرقة على السارق، أما قبل ذلك فالصُّلحُ جائزٌ بين النَّاس إلا صلحًا حرّم حلالًا أو أحلّ حرامًا.

٢ - إن التصدق بالشيء المسروق على السارق بعد السرقة لا يسقط به الحدُّ عنه، ما دام الأمر وصل إلى القضاء وثبتت أركانُ الجريمة لديه، فلا شفاعة فى الحدّ إذن حينئذ.

لذا قال له: «فهلَّا كان قبل أن تأتِيَنى» أى إنَّما يصحّ لك ذلك قبل أن تَرْفعَ الأمرَ إلىَّ وتثبتَ السرقة، وقد وجب الحدُّ، إذ لا شفاعةَ فى حدٍّ من حدود الله متى وجب هذا الحدُّ.

ومن توجيهات الرسول ﷺ للمتخاصمين، كما عند أبى داود والنَّسائى والراوى عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص أنه قال: «تعافَوْا الحدودَ فيما بينكم، فما بلغنى من حدٍّ فقد وجب» أى يمكنكم التصالُح والتسامُح فيما يوجب الحدّ قبل أن ترفعوا القضيةَ إلى السلطان ومَن بيده الفصلُ والقضاء؛ لأنه بعد رفع الأمرِ للقضاء وثبوتِ الجريمة، ووجوبِ الحدِّ لا مجالَ للعفو عن المحدود، وإن كان التسامحُ بالقلوب باقيًا مع الرِّضَى بقضاء الله؛ إذْ أصبح الحدُّ بعد الإعلان عنه وإذاعتِه بعد الخصومة فيه أصبح حقَّ الجماعة والأمة، وليس لأحدٍ من الناس أن يعفوَ أو يتسامح، وقد وردت أحاديثُ عِدّة تعاضدت على تحريم الشَّفاعةِ بعد البلوغ إلى الإمام، وأنه يجب على الإمام إقامة الحدِّ، وفى حديث الزُّبير عند الدَّارقطنِيّ: «اشفعوا ما لم يصل إلى الوالى، فإذا وصل إلى الوالى فعفا فلا عفا الله عنه» وفى حديث عائشة: «أقيلوا ذوى الهيئات إلَّا

الحدود». أقيلوا: أى اصفحوا عنهم فى الزلّات التى تقتضى التّعزير بما يراه القاضى أو الحاكمُ مناسبًا للتأديب وليس فيه حَدٌّ، «واحفظوا عليهم كرامتهم» [أخرجه أحمد وأبو داود والنسائىُّ والبيهقىُّ].

فائدة: فى الحديث دليل على أنّ يَدَ السّارق تُقطع فيما كان مالكُه حافظًا له وإن لم يكن مغلقًا عليه فى مكان، قال الإمام الشافعىُّ: «إن رِدَاءَ صفوان كان مُحْرَزًا باضطجاعه عليه»، وإلى هذا الرأى ذهب الشافعىُّ والحنفيّة والمالكيّة [سبل السلام للصنعانى الجزء الرابع] والله أعلم.

* * *

أهلها ناجون ومعاندوها هالكون
السُّنّة النّبويّة المطهّرة سفينة نوحٍ - عليه السلام -

إن السُّنَّةَ النَّبويّةَ المطهَّرة هى المصدرُ الثانى للتَّشريع الإسلامى، وإن التَّشريعَ الثابتَ عن رسول الله ﷺ هو بوَحْيٍ من الله وإن لم ينزلْ به نصٌّ فى القرآن الكريم، فقد تستقلُّ السُّنَّةُ بالبيان، مثال ذلك ما جاء بشأن: تحريم نكاحِ المرأةِ على عَمَّتها وعلى خالتها، وتحريم لحومِ الحُمُر الأهليّة وكلِّ ذى نابٍ من السِّباع، فقد كان جبريلُ - عليه السلام - ينزل على رسول اللهِ بالسُّنة كما ينزل عليه بالقرآنِ، يُعَلِّمه إيَّاها كما يُعلِّمه القرآن.

وإن السُّنَّة الشَّريفة تُفسِّر القرآنَ وتُوضِّحه وتُفصِّل مُجملَه، ومن أمثلة ذلك: بيانُ الصَّلوات الخمس وكيفيَّاتِها وبيانُ مواقيتها وسجودِها وركوعِها وبيانُ فرائضها وسُننها وسائر أحكامها، وبيانُ تفاصيل الزَّكاة ومقاديرها، وبيانُ أعمال الحجِّ، وأعمالِ العُمرة وغير ذلك، فالسُّنَّةُ النَّبويَّة مُفسِّرةٌ، ومُبَيِّنةٌ، ومُفصِّلةٌ لما جاء فى الكتاب العزيز نأخذ ذلك من أعماله ﷺ ومن أقواله وتوجيهاته، ولا يمكن لمؤمنٍ أن يؤدى العباداتِ إلا باتِّباع السُّنَّة النَّبويَّة

والأخذِ عن رسول الله ﷺ، وقد فرض الله علينا طاعته ﷺ فى كتابه العزيز: كقوله تعالى من سورة الحشر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الآية: ٧) ومن سورة النور: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الآية: ٥٦) وقد ألزمنا اللهُ - عزّ وجلّ - وفرض علينا العمل بالكتاب والسُّنَّة معًا، قال تعالى من سورة القتال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (الآية: ٣٣) والأوامر بذلك كثيرةٌ فى آيات الكتاب العزيز، وهى أوامرُ ربانيّةٌ واجبةُ الاتّباع وويلٌ لمن أنكر ما ثبت عنه ﷺ أو ابتدع وبدّل وغيّر، فإننا عنه نأخذ، وبه ﷺ نقتدى، وله نتبع ﷺ وفى سورة النساء: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (الآية: ٨٠).

المارقون: وإن الذين تعلّقوا بظاهر القرآن الكريم، وتركوا السُّنّة التى قد ضُمّنت بيانَ الكتاب وتفصيلَ أحكامه كما استقلت بالبيان فى بعض الأمور من العبادات والأحكام والأوامر والنواهى، إن الذين فعلوا ذلك ولا يأخذون بالسُّنَّة هؤلاء ضالون مُضلُّون، وليسوا على مِلّة رسول الله ﷺ؛ لأنهم تركوا طريقه وذهبوا بعيدًا عن الاقتداء بالمبلِّغ عن ربّه والمبيِّن عنه سبحانه لعباده بالقول والعمل، ومن مات وهو منكرٌ للسُّنّة الشَّريفة الصَّحيحة مات على غير ملّة الإسلام، والعياذ بالله، ولنتدبّر ما يلى:

جاء فى الحديث الذى رواه المُطَّلِبُ بنُ حَنْطَبٍ أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركتُ شيئًا مِمَّا أَمَرَكم اللهُ به إلّا وقد أمرتُكُم به، ولا تركتُ شيئًا مِمّا نهاكم الله عنه إلا قد نهيتُكم عنه».

قال الإمام أحمد بن حنبلٍ: «السُّنَّةُ عندنا آثارُ رسول الله ﷺ، والسُّنَّة تُفسِّر القرآن، وهى دلائل القرآن».

إنَّ السُّنَّة مع القرآن أُقيمت مقامَ البيان عن الله، فهى مُبيِّنةٌ لأحكام القرآن،

ومُفصِّلةٌ لمُجْملاته، كما قال تعالى من سورة النَّحل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (الآية: ٤٤) وإنَّ العمل بالسُّنة فرضٌ لازمٌ، لا يستقيم دينُ المَرْءِ المؤمن إلا بالعمل بهما والإخلاص فى اتباع الهادى الحبيب ﷺ.

وتوضيحٌ: ومن السُّنَّة الطاهرة أخذنا ما أمر اللهُ به نبيَّه ﷺ فيما يتعلق بزكاة الفطر، وبصلاةِ العيدين، والسُّنن الرَّواتب، وصلاة الليل ووتْرِ العشاء، وكيفيةِ الطَّواف بالبيت المعظَّم وكونه سَبْعًا وكيفية السعْى بين الصفا والمروة وكونه سبعًا، وغير ذلك من الأحكام والبيان والآداب والفضائل والقيم الثَّابتة مِمّا تكفَّلت السُّنَّةُ الطاهرة ببيانه: بالقول، وبالفعل، وبالصِّفة، وبالتَّقرير فكلُّ ما ثبت عنه ﷺ (من قولٍ أو فعلٍ أو صفةٍ أو تقريرٍ) مِمّا هو مفصَّلٌ فى الصحاح وكتب السنة فهو سنةٌ هاديةٌ متَّبعة، ونحن مرتبطون بسلسلة ذهبيَّة منذ عصر الرسول وقد أخذ عنه أصحابه - رضوان الله عليهم - وعنهم أخذ التابعون، وعنهم أخذ تابعو التابعين والسِّلسلة استمرّت، وما زالت، وستظلُّ إلى يوم الدِّين بفضل ربِّ العالمين، فنحن فى عصرنا هذا كأننا نرى ونشاهد رسول الله ﷺ فى عباداته ومعاملاته وفضائله العالية ونسمع ما يقول ونعايش حياتِه كلِّها وحياةَ أصحابه؛ لأنَّها حياةٌ مستمرة بالفعل إلى يوم القيامة، واسألْ قلبك أيُّها المؤمن تجدْ الجواب والحنين إلى الحبيب ﷺ نسأل الله - عزّ وجلّ - أن يرزقنا حُسْن العمل بكتابه وبسنَّة نبيه ﷺ.

وعند البخاريِّ عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمَّتى يدخلون الجنة إلا مَن أبَى، قالوا: يا رسولَ الله ومَن يَأْبَى؟ قال: مَن أطاعَنى دَخَل الجنةَ ومَن عصانى دخَل النار». وفى لفظٍ: «ومن عصانى فقد أَبَى» أى: قد امتنع عن مُتابعته ﷺ.

وكيف تتمُّ طاعتُه ﷺ إلا باتِّباع هَدْيه والعمل بسُنَّته؟

وفى الحديث الذى رواه أنس بنُ مالكٍ وأخرجه التِّرمذىُّ وقال: «حَسَنٌ غريبٌ»: «مَن أحيا سُنَّتى فقد أحبَّنى، ومَن أحبَّنى كان معى فى الجنَّة».

وفى خطبة حَجّة الوداع رواية ابن عبَّاس - رضىَ الله عنهما-: «إنِّى قد تركْتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضلُّوا أبدًا، أمرَيْن اثنين: كتابَ الله، وسُنَّة نبيِّكم، أيُّها الناسُ، استمعُوا ما أقول لكم تعيشوا به» ﷺ، وقد جاء بمعناه فى رواية جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - عند الإمام مسلمٍ.

* * *

الشّفاعة رحمةٌ ثابتةٌ عقلاً وشرعًا ونحن فى أشدّ الحاجة إليها وهذا طَلقُ بنُ حَبيبٍ شَكَّ فى الشّفاعة فسأل وتعلّم فُطوبى لمن لا يتعاظم على التّعلُّم لينقذَ نفَسه

«اللهم ارزُقْنا حبّك وحبَّ كلامك وحبَّ نبيك وارزُقنا شفاعته يوم الدين»

طلْقُ بنُ حبيبٍ العنزىُّ البصرىُّ صَدوقٌ فى الحديث، من الطَّبقة الثَّانية من التابعين من أهل البصرة، عرفوه بالزُّهد والحديث وحُسن الصَّوت بالقرآن والخشوع، وعلموا عنه طولَ القيام بالليل، وكان يخشى الفتن ويتحرَّز منها، سمع وتعلَّم من ابن عباسٍ، ومن عددٍ من الصَّحابة - رضى الله عنهم - وقال عنه أبو زرعة: «ثقةٌ» وكانت له كَبواتٌ فكريَّةٌ لنظرِه فى الأمور من جانبٍ واحدٍ ولحبْسه فِكرَه عن استيعاب الأدلَّة والنَّظر السَّديد فى الآيات، وقد كَبَّلوه فى الحديد على عهد الحجَّاج بن يوسف الثَّقفىّ (فى عصر بنى أميّة) ومات فى السِّجن «بواسطٍ» وهو قريبٌ من مائة عامٍ.

❋ **إنكاره الشَّفاعة وخوفُه وسؤاله:**

تكلَّم طلقُ بنُ حبيبٍ عن نفسه فقال: «كنتُ أشدَّ النَّاس تكذيبًا بالشَّفاعة، فسألتُ جابرَ بن عبد الله – رضى الله عنه – فقال: «يا طُليق سمعتُ النبى ﷺ يقول: «يَخرجون من النَّار بعد دخولٍ، ونحن نقرأ الذى تقرأ»

(رواية البخاريّ فى الأدب المفرد وفى الصَّحيح).

وفى هذا تأكيدٌ لخروج الموحِّدين الصَّادقين فى إيمانهم وقد ماتوا على التَّوحيد دون ما يُناقضه، ورجحت سيئاتُهم على حسناتهم، تأكيدٌ لخروجهم من النار برحمة الله – عزّ وجلّ – بهم وتشفيعه فيهم مَن أراد سبحانه من عباده.

وفى رواية الإمام أحمد قال طلْقُ بن حبيبٍ: «فلقيتُ جابر بنَ عبد الله فقرأتُ عليه كلَّ آية ذكرها الله – عزّ وجلّ – فيها خلودُ أهلِ النار، فقال جابرٌ الصَّحابىُّ الجليل: «يا طلقُ بنَ حبيبٍ: أتُراكَ أقْرأُ مِنِّى لكتاب الله – عزّ وجلّ – وأعلمُ منِّى بسنَّة رسولِ الله ﷺ؟».

يسأله: هل تظنُّ يا طلقُ أنك أكثر تدبرًا وفهمًا لما جاء فى كتاب الله وسنة نبيِّه منِّى؟ وهذا تقريرُ حالةٍ وليس عُجبًا ولا تعاظُمًا فقال طلقُ: «لا واللهِ يا جابر – بل أنت أقرأ منِّى لكتاب الله وأعلمُ بسنَّة رسوله منِّى» أى: أنت أعظم تدبُّرًا وفهمًا وأعلم منِّى بالكتاب والسُّنَّة، قال جابرٌ – رضى الله عنه – يُعلِّمه صحةَ النَّظر فى كتاب الله وأدلته قال: «إن الذى قرأتَ – يا طلقُ – أى من الآيات الدالة على الخلود فى النار –: إنما أهلُها هم المشركون – أى الذين ماتوا على الشرك وليسوا مؤمنين صادقين – ثم قال جابرٌ: ولكنْ قومٌ – أى مؤمنون صادقون – أصابوا ذنوبًا فعذَّبهم الله بها، ثم أُخرِجوا جميعًا». . وأشار بيديه إلى أذنيه مؤكدًا أنه سمعه من رسول الله ﷺ.

وقد ورد فى خروج أهل التَّوحيد الخالص من النار أحاديثُ صحيحةٌ منها

فى البخاريّ ومسلم فى باب الإيمان، وباب صفة أهل الجنة، والله - عزّ وجلّ - يقول من سورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآيتان (٤٨، ١١٦) أى: لا يغفر لمن ماتُ مشركًا ولا شفاعةَ فيه، وإن الشفاعة برحمته للموحِّدين.

❋ القول الفصل فى ثبوت الشَّفاعة وأنواعها:

ثبت جوازُ الشَّفاعة عقلًا، كما أنَّ الله أرادها رحمةً بعباده، وقد ثبت ذلك بنصِّ القرآن الكريم، وبالأحاديث الشَّريفة التى بلغت بمجموعها حَدَّ التواتُر تؤكِّد لنا: صحَّة الشَّفاعة.

وقد أجمع علماءُ السَّلف ومنهم الصَّحابةُ والتَّابعون ومَن بعدهم من أهل السُّنة والجماعة على ثبوت الشَّفاعة، خلافًا لمن انحرفوا بالفِكر عن جادَّة الكتاب والسنَّة ولبَّسَ عليهم الشيطانُ وشَوَّش فِكرَهم ممَّن ينتسبون إلى طوائف منها: ما سُمِّى بالخوارج وبعض المعتزلة ومن اغترَّ بهم من سائر الناس.

إن الله - عزّ وجلّ - أرحمُ الراحمين، ولولا طمعُنا ورجاؤنا فى رحمته وعفوه وكرمه لهلك النَّاس جميعًا، وهو سبحانه أرحمُ بعباده من رحمتهم بأنفسهم، رحمهم فى الدُّنيا بالخير والصِّحة والرِّزق والفهم، ويشملهم فى الآخرة بواسع رحمته وعظيم كرمه، وإن التوحيد النقى الخالص من كل شائبةٍ من شوائب الشرك أو الشكِّ لمِن أعظم أسباب نيل ما عند الله من الرحمة، ولا ينال العاصى الشفاعةَ إلا به، وإن الشفاعة بابُ رحمةٍ عظيم، وإن قلوب الموحِّدين متعلِّقة دومًا برحمة الدَّيَّان سبحانه وتعالى؛ وإنَّ الشَّفاعة التى أرادها الله لعباده لمن أعظم أبواب الرحمة.

❋ أقسام الشَّفاعة: إن الشَّفاعة خمسة أقسامٍ هى:

القسم الأول: الشفاعةُ لإراحة الخلْق من هول الموقف وتعجيلِ الحساب،

وقد ورد فى ذلك أحاديثُ بطرق متعددة منها فى الصحيح رواية أنس بن مالك وأبى هريرة - رضى الله عنهما -.

والقسم الثانى: تكون الشفاعةُ فى إدخالِ قومٍ الجنَّةَ، وهذان القسمان مُختصَّان بالنبى محمد ﷺ، وفى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عند البخارى: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ، فأريد إن شاء الله، أن أختبئَ دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة».

وفى رواية أنس - رضى الله عنه - عند البخاريِّ؛ قال ﷺ: «كلُّ نبيٍّ سأل سؤالًا» أو قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ قد دعا بها فاستُجيبت، فجعلتُ دعوتى شفاعةً لأمتى».

القسم الثَّالث: الشَّفاعةُ لقومٍ استوجبوا النَّار من غير شرك (ولم يدخلوها) فَيُشَفِّع اللهُ فيهم النبى محمَّدًا ﷺ، ومَن يشاء اللهُ من عباده: والله - عزّ وجلّ - يقول فى آية الكرسيِّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾

(الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة).

وفى هذه الآية الكريمة تأكيدٌ عن طريق الحصْر والقصْر؛ لأنَّ الاستفهام فيها بمعنى النَّفى أى لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه سبحانه، فالشَّفاعة ثابتةٌ ورحمةٌ بالعباد ولكنّها تتم بإذن الله - عزّ وجلّ - للشَّافع وللمشفوع له.

لفتةٌ: أما قوله سبحانه فى الآية الكريمة السَّابقة عليها (٢٥٤) ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ فَنفْى الشفاعةِ هنا مُقيَّدٌ بأنَّه لا شفاعةَ لأحدٍ إلَّا من بعد إذنه سبحانه لمن يشاء ويرضى، فالإطلاقُ فى الآية مُقيَّدٌ بآية سورة طه (١٠٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ وإنَّ النبىَّ محمَّدًا ﷺ مأذونٌ له، أو يَستأذن هو ربَّه فيؤذَن له على النَّحو الذى أراده الله له ﷺ، فهذا الأمرُ بابُ رحمة وفضلٍ من الله - عزّ وجلّ - فالشفاعةُ يوم القيامة لا تنفع إلَّا

بإذن الله وفْق مشيئته سبحانه وحكمته، وهذا يدلُّ على أن الله - عزّ وجلّ - جعل الشفاعةَ يوم القيامة رحمةً بالمشفوع فيهم وتكريمًا للشَّافع، وليس أكرم على الله من نبيِّه محمد ﷺ وهو صاحبُ الوسيلة والدرجة الرَّفيعة بفضل الله فخصَّه بالشَّفاعة العُظمى، فسبحان الكريم الوهَّاب.

القسم الرابع: (الشَّفاعة لمن دخل النار من الموحّدين) وإن من دخل النَّار من المذنبين الموحِّدين يأذنُ اللهُ فى الشفاعة لهم حسب الإرادة الكاملة والحكمة البالغة فَيُشَفِّعُ اللهُ فيهم: النبيِّين والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ثم يُخرِج الله بفضله كلَّ من قال: «لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

❋ شفاعة المؤمنين النَّاجين لإخوانهم:

وفى حديث أبى سعيدٍ الخدرىِّ - رضى الله عنه - عند البخارىِّ فى باب «فضل السُّجود» وكتاب الأذان جاء فيه: «فإذا رأوا أنهم قد نَجَوْا وبقِى إخوانُهم، يقول الناجون: ربَّنا إخوانُنا كانوا يُصلُّون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا:

فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقالَ دينار من إيمان فأخرِجوه، ويُحرِّم الله صورَهم على النَّار، [أى يُحرِّم صورَ وأجسامَ الذين سيشفعون فى إخوانهم] فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه، فيُخرجون من عرفوا ثمَّ يعودون.

فيقول سبحانه: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقالَ نصفِ دينارٍ فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول عزَّ وجلَّ: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقالَ ذرَّةٍ من إيمانٍ فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا».

❋ تعليق أبى سعيدٍ وبيانه: قال أبو سعيدٍ راوى هذا الحديث وهو من علماء الصَّحابة وأجلَّائهم:

«فإن لم تصدِّقونى فاقرءوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ (النساء: ٤٠) فيشفع النَّبيُّون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبارُ - سبحانه وتعالى - بقيتْ شفاعتى: فيقبض قبضةً من النار فيُخرج أقوامًا قد امتحشُوا - احترقوا - فيُلقَوْن فى نهرٍ بأفواه الجنة يقال له ماءُ الحياة» إلى أن يقول أبو سعيد: «فيخرجون كأنَّهم اللؤلؤ، فيُجعل فى رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة».

❋ **عُتقاء الله**: وهؤلاء الذين تحدَّث عنهم أبو سعيدٍ هم عُتقاء الله - عزَّ وجلَّ - نفعهم خلوصُ توحيدهم وصفاؤه فماتوا على كلمة «لا إله إلا الله» خالصةً من قلوبهم، وصدَّقوا بنبيِّه محمَّدٍ وبجميع الأنبياء والمرسلين، وآمنوا باليوم الآخر وبالبعث والحساب وبالجنة وبالنار وبالقضاء والقدر لم تَزِغ قلوبهم عن هذا حتى الموت، فجبر اللهُ بفضله تقصيرَهم فى العمل مع إيمانهم بالفرائض والواجبات والأوامر والنَّواهى، جبر الله تقصيرهم بالعفو عنهم بعد سجنٍ فى جهنَّم جزاءً وفاقًا لتقصيرهم، وكان شفيعَهم سلامةُ إيمانِهم وصدقُ يقينهم.

ومن حديث أنس بن مالكٍ فى كتاب التَّوحيد (صحيح البخاريِّ) جاء: «فأقول - أى محمدٌ ﷺ - يا ربِّ - ائذنْ لى فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول عز وجل: «وعِزَّتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأُخرِجنَّ منها من قال لا إله إلا الله» أى مات عليها خالصةً من قلبه - كما بيَّن ذلك رسول الله ﷺ فى قوله: «أسعدُ النَّاس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه» [أخرجه البخاريُّ ورواه أبو هريرة] يقول أهلُ العلم: ومن يقولها خالصًا فلا تنفكُّ عنه مقتضياتُها: أى سيكون لصاحبها عملٌ صالحٌ من الفرائض والسُّنن والفضائل.

إن الله عز وجل يعاقب بعدله ويُثيب برحمته وإن رحمته يوم القيامة خاصَّةٌ بأهل التوحيد الذين ماتوا وهم يُقرون لله بالوحدانية وبكمال الصفاتِ ولنبيه

محمدٍ ﷺ بالرِّسالة وبكل ما أخبر به عن ربِّه فى الكتاب والسُّنَّةِ الثَّابتة.

❋ **ولكن**: ولكن لا يغترَّ أحدٌ من العباد وذلك على قاعدة: «لو أحسنُوا الظَّنَّ لأحسنُوا العمل» أى من أحسن الظَّنَّ بالله وتعَلَّق بحبل الرَّجاء فعليه أن يجتهدَ فى طاعة ربِّه واجتناب مناهيه؛ لأن المصرِّين على معاصى الله حتى الاحتضار يُخشى عليهم عند الاحتضار أن يَسبق عليهم الكتابُ فينطقوا بكلمة الكُفر بدلًا من أن ينطقوا بكلمة التَّوحيد التى تأخذ بأيديهم إلى ساحة الرحمة والعفو، لأن من يموت على الكفر أو الشِّرك أو ينطق بكلمة الكفر عند الموت لا تنفع فيه شفاعةُ الشَّافعين.. فلماذا؟.

❋ **«فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين»:**

هذه الآية الكريمة من سورة «المدَّثِّر» تؤكِّد وجودَ الشَّفاعة وأنَّها كائنةٌ يوم القيامة تنفع من عباد الله مَن شاء الله، وهم الموحدون على اختلاف أحوالهم ومنازلهم ولا تنفع المقطوعَ بخلودهم فى النار، وهم وإن كانوا طوائف شَتَّى فى الدُّنيا ونِحَلًا مختلفةً إلا أنهم من المغضوب عليهم والضَّالين المنحرفين عن حقيقة توحيد الله وصفاته.

يقول جارُ الله الزَّمخشريُّ الخُوارزميُّ فى كتابه «الكشَّاف»: «أى لو شفع لهم الشَّافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتُهم؛ لأن الشفاعةَ لمَن ارتضاه الله، وهم - أى المشركون والكفارُ بجميع طوائفهم - مسخوطٌ عليهم، وفيه دليلٌ على أن الشفاعة تنفع يومئذٍ؛ لأنَّها تزيد فى درجات المُرْتَضِيْن». [الزَّمخشريُّ فى تعليقه على الآية (٤٩) من سورة المدثر]. فالزمخشرى وهو من المعتزلة الذين تُنكر جذورُهم وبعضُ فروعهم الشفاعةَ قد استدل بالآية الكريمة على ثبوت الشفاعة لمن يرتضيهم الله - عزَّ وجلَّ - ممن خشى الله ومات على التوحيد، وقولُ الزمخشريِّ: «لأنَّ

الشفاعة يومئذٍ تزيد فى درجات المُرتَضَيْن»[١] فيه إشارةٌ إلى النوع الخامس من الشفاعة وهو: الشَّفاعة فى زيادة الدرجات، أى لأهل الجنة أنفسِهم: فقد يكون بِرُّ الولَدِ وصلاحُه سببًا فى رفع درجةِ والديه أو أحدِهما إذا كانا من أهل الجنة ليلحقوا بولدهم فى درجته؛ وجاء عند الحاكم والبيهقىّ أن ابن عباسٍ - رضى الله عنهما - قال: «إن الله ليرفعُ ذُرِّيَّة المؤمن معه فى درجته فى الجنة، وإن كانوا دونه فى العمل، لتقرَّ بهم عينُه» وعنه عند البزَّار والطَّبرانىّ: «إذا دخل الرجلُ الجنةَ سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملَك فيقول: ياربّ، قد عملتُ لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به: والله - عزَّ وجلّ - يقول من سورة الطُّور (٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهذه من شفاعة المؤمن للمؤمن من ذريته فيتم إلحاقُ الأقلِّ عملًا بالأكثر عملًا فضلًا من الله وإحسانًا وزيادةً فى النعيم لأهل مَحبته.

❋ التَّوحيد الخالص هو سببُ الشَّفاعة:

نقل شارحُ «الأدب المفرد» للبخارىّ وهو فضل الله الجيلانىُّ الهندىُّ فى شرحِه حديثَ طلْقِ بنِ حبيبٍ (الحديث رقم ٨٢١) نقل عن مدارج السَّالكين لابن القيم: «واعلم أن الشفاعة التى أثبتها الله ورسولُه هى الشفاعةُ الصادرةُ عن إذنه لمن وحَّده، وإن أعظم الأسبابِ التى تُنال بها شفاعتُه التوحيد، وإن الشَّفاعة التى نفاها الله - عزَّ وجلّ - هى الشَّفاعةُ مع الشِّركِ الذى يموتُ عليه

---

(١) الزمخشرى يؤمن بمبدأ الشفاعة وأنها ثابتة لمن يرتضيهم الله ولا تنفع الشفاعة لمن غضب الله عليهم، ولكن عبارته الأخيرة اقتصرت على نوع واحد وهو الزيادة فى درجات المرتضين، أى من ارتضاهم الله وهنا لزم التنبيه على أنها ثابتة لجميع من ماتوا على التوحيد على النحو الموضح فى المقال أعلاه وليست مقصورة على نوع واحد وهو (رفع درجات بعض أهل الجنة) ذلك أن الزمخشرى كجماعته المعتزلة يرى خلود أصحاب الكبائر من الموحدين فى النار، وهذا انحراف شديد فى الفكر والنظر لمخالفتهم صريح كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أصحابُه دون توبةٍ ورجوع إلى التَّوحيد والدِّين الحقِّ.

ولأن الله لا يرضى بالشفاعة ولا يأذن فيها إلا لمن رضى قوله وعملَه، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيدَه واتباعَ رسوله ﷺ» (بتلخيصٍ).

وإن القرآن الكريم يُخبر بأن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ (الزمر: ٤٤) ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ (السجدة: ٤)، فهو سبحانه: «الذى يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحمَ عباده، فيأذن هو لمن يشاء أن يُشفَّع فيه - بتشديد الفاء مفتوحة بعد ياء مضمومة وشين مفتوحة مبنى للمفعول - والذى يَشْفع عنده إنما يشْفع بإذنه وأمره سبحانه بعد شفاعتِه عز وجل، وهى إرادتُه من نفسه أن يرحمَ عباده».

❋ **سمات أهل النجاة**: فالشفيعُ ممتثل لأمر الله ومطيع لحُكمه، فالأمرُ لله وحده، والعقلاءُ يحبون الله من كل قلوبهم، ويرجون رحمته سبحانه، ويخافون عذابه: فيوحِّدونه، ويطيعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ويذكرونالله كثيرًا، وَيتحرَّون الحلالَ الطيبَ من المطاعم والملابس والشراب، ويعيشون على هداية ونورٍ من كلام ربِّهم واتباعِ سنةِ نَبيِّهم، راجين بذلك وجْهَ الله عز وجل، راغبين فى عفوه وكرمِه فلا رياءَ ولا سُمعةَ، ولا شِرك فى قولٍ أو عملٍ أو نية، مع قوة المحبة للخالق والخوف من غضبه وعقابه ليشملهم برحمته فى يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إن الذى يعبدُ ربَّه بالخوف والرجاء والحُبّ أى يجمع هذه الثلاثة دومًا فهو مؤمنٌ موحِّدٌ بفضل الله.

وصلَّى اللَّه وسلم على النَّبيِّ الأمين وعلى آله وأصحابه الطَّيِّبين الطَّاهرين.

❋ ❋ ❋

الاستقامة على الطّريقة طريقة محمّد ﷺ:

التزموا الصّراطَ المستقيم صِراط نبيّكم وسائر المرسلين

جاء بإسنادٍ صحيح عن ابن مسعودٍ - رضى الله عنه - قال: خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ يومًا خطًا - أى مستقيمًا - ثم قال: «هذه سبيلُ الله» ثمَّ خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره ثم قال: «هذه سبلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليها» ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

(الأنعام) [تفسير القرطبي].

والصِّراط المستقيمُ هو دينُ الإسلام الذى نزل به الوحى على النبىِّ محمدٍ ﷺ ووضحَتْ لنا شرائعُه وأحكامه وحدوده وضوحًا تامًّا، إذ جاء بيان ذلك فى القرآن الكريم وفى السُّنَّة النَّبويّة الصحيحة عمليّةً وقوليّةً، ولذا جاء عن النبى ﷺ قوله: «لقد تركتكم على المَحجَّة البيضاء ليلُها كنهارها لا يَزيغُ عنها إلا هالك» والمحَجَّة: الطريق، والبيضاء: كناية عن وضوحها أى وضوح شرائع الإسلام وما تضمنته هذه الشرائعُ من خيرٍ للأنام؛ لهذا كان الخيرُ كل الخير فى المحبّةِ والإخلاص للهِ والاتباع للنبى ﷺ.

وقد فسَّر ابنُ مسعودٍ - رضى الله عنه - الصِّراط المستقيم حين سئل عنه تفسيرًا عمليًا مُحَسًّا بضرب المثَل الذى به يسْهُل إدراكُه وتصورُه على النحو الذى فسَّره به النَّبىُّ ﷺ حين خطَّ لهم خطًّا مستقيمًا فى الأرض، ضرب به المثَلَ لاستقامة سبيل الله، وهو المَحَجَّةُ البيضاء والطريقُ الواضح الذى لا عِوجَ فيه ولا اختلاف، وخطَّ حوله خطوطًا عن يمينه وعن يساره لتجسيم تفرُّق مذاهب أهل الأهواء والإلحاد وتعدُّدِها، وكلُّها على ضلالٍ بعيدةٌ عن سبيل الله، وذلك لكى يلزمَ المؤمنُ طريق النَّجاة ولا يَحيد عنه حتى لا يهلكَ

مع أرباب الهوى، وإن ابن مسعودٍ قال شارحًا: «تَركَنا محمدٌ ﷺ فى أدنى هذا الطَّريق، وطرفُه فى الجنة، وعن يمينه طُرقٌ، وعن يساره طُرقٌ، وهناك رجالٌ يدعون من مرَّ بهم فمن أخذ وسار فى تلك الطُّرق - أى المتشعِّبة - انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصِّراط المستقيم انتهى به إلى الجنة»، وهذا حقٌّ لأن لزوم الصراطِ معناه الاقتداءُ بالنبى ﷺ فى عقيدته وعباداته أى فى صلاته وصومه وحجِّه وزكاته ونَذْرِه وخوفه ورجائه وذكرِه لله - عزّ وجلّ - وسائر ما يتقرب به العبد إلى ربه وقد بينه النبى ﷺ بالعمل والقول بيانًا شافيًا فعلينا أن نسير فى طريق محمد ﷺ بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ مع الإخلاص؛ ليكون العملُ مقبولًا بإذن الله تعالى، وعلينا ألا نبتدعَ طرقًا أو عباداتٍ لم يَرِدْ بها كتابٌ ولا سنة؛ لأن الجنة محجوبةٌ عن كل صاحب بِدعةٍ كما أخبرنا الهادى الحبيب ﷺ. . وقد شاهد ابنُ مسعود - رضى الله عنه - بدعةً فى العبادة على كيفيةٍ لم تكن على عهد رسول الله ﷺ فقال لفاعليها من التَّابعين مُنكرًا: ما هذا؟ فقالوا له: ما أردنا إلا الخير، فقال لهم: «وكم من مُّريدٍ لِّلخير لن يُصيبَهُ» أى: إن السَّاعى إلى الخير ينبغى له أن يسلك له الطَّريق الصَّحيح وهو: الإخلاصُ والاقتداء لا الرياء والابتداع، وقال أبو العالية: «عليكم بالأمر الأول الذى كانوا عليه قبل أن يفترقوا» أى ما كان عليه الخلفاء الرَّاشدون وسائر أصحاب رسول الله ﷺ ففيه الطمأنينةُ والنَّجاةُ بفضْل الله.

فاتِّباعُ طريقِهِ ﷺ مع الإخلاص لله والمحبَّةِ له سبحانه التى هى أساسُ العبادة والدَّافعُ إليها؛ لأن الذى يحبّ من قلبه من أنعم عليه وخلقه فإنه يُطيعه ولا طاعة إلَّا عن محبّةٍ للذَّات العليّة، وذلك مع الصِّدق والتزام الصَّالحات وتجنُّب المنهيّات والوقوفِ عند حدود الله، مع تجديد التَّوبة دومًا ولزوم الاستغفار والرُّجوع إلى الله، إنَّ ذلك هو الطَّريق الصَّحيح.

نسأل الله التَّوفيق والهداية إلى صراطه المستقيم فى العقيدة والعمل والأخلاق والمعاملات والثبات على هذا الصِّراط حتى نلقاه سبحانه وتعالى ونسأله أن يحقِّق لنا دعاءنا فى صلواتنا وفى غير الصَّلوات: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ وثبتنا عليه يا ذا الجلال والإكرام لتمُنَّ علينا برحمتك وفضلك وإحسانك بأن تحشرنا مع أهله الذين رضيت عنهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين وحَسُن أولئك رفيقًا.

* * *

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [الأنعام]

* * *

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام]

* * *

كلمةٌ فى:

الآيـة والمعجزة

❋ **المعجزة:**

إن لفظ «المعجزة» مُصطلحٌ علميٌ لم يردْ بهذا اللفظ فى القرآن الكريم وقد أطلقه العلماءُ على «الأمر الخارق للعادة المقرونِ بالتَّحدِّى للدَّلالة على صِدْق النَّبِىّ فيما أخبر به عن ربِّه سبحانه وتعالى، وأنه مبعوثٌ لتبليغ ما جاءه به الوحى».

وتلك خاصَّة بالأنبياء، وقد سُمّيت معجزة لعجز البشر عن أن يأتوا بمثلها.

❋ **ومن شروطها:** (١) أن المعجزة تكون خارقةً للعادة، أى لم يألف الناسُ حدوثَ مثلها فى حياتهم ولا يقدر أحدٌ منهم على الإتيان بها، ومن أمثلة ذلك: - ما ثبت من انفجار الماء من بين أصابع النبى محمد ﷺ حين اشتدَّت حاجةُ النَّاس إلى الماء فى مسيرهم معه، كما فى حديث أنسٍ - رضى الله عنه - عند البخارىّ: «فرأيتُ الماءَ ينبعُ من تحت أصابعه حتى توضّئوا عن آخرهم» فصلَّوا العصر متوضِّئين.

- وقلْب عصا موسى بن عمران - عليه السلام - حَيّةً حقيقيّةً وابتلاعها ما صنعه السَّحرةُ عن طريق الإيهام والتَّخييل فبان بذلك زيْفُهم وبطل تخييلهم وبادروا إلى الإيمان.

- وإخراج ناقة صالح - عليه السلام - من صخرةٍ أمام عيون النَّاس.

- وتمكين أصابع داود النبىّ - عليه السلام - من تشكيل الحديد وصناعة الدُّروع والزُّرد لأوَّل مرَّةٍ.

- وتمكين عيسى بن مريم - عليهما السلام - بقدرة الله وحده وبأمره من

شفاء المرضى وإحياء الموتى، يرى الناسُ ذلك من عيسى، وأمّا الفاعلُ فهو الله وحده، فهذا التَّمكين أمام الناس معجزةٌ لعيسى - عليه السلام -.

- ومثل عدم تمكين النار المحيطة بجسد إبراهيم الخليل - عليه السلام - من إحداث أدنى ضررٍ بجسمه القابل للاحتراق مثل غيره من النَّاس.

- وبقاء يونس بن متَّى - عليه السلام - فى بطن الحوت فترةً يسبِّح ربَّه حتى لفظه الحوت سالمًا آمنًا بفضل ربِّه.

٢ - ومن تلك الشُّروط أن تكون المعجزة مقرونةً بالتَّحدِّى، وهو طلب المعارَضة والمقابلة، وقال المحقِّقون: «التَّحدِّى الدَّعوةُ للرِّسالة».

٣ - وأن لا يأتى أحدٌ من البشر ولا من الجنِّ بمثْل ما أتى به الرسولُ مما تحدّى به قومَه أن يأتوا بمثله، إن كان ذلك بمقدورهم، وعبر عن ذلك بعض العلماء بقولهم: «هى دعوى الرسالة مع أمْنِ المُعَارضة»، ولذا فإن أحدًا - على سبيل المثال - لا يستطيع أن يأتى بمثل آية أو سورة قصيرة من القرآن الكريم، فهو المعجزة العقليةُ القائمةُ إلى يوم القيامة يعجز الخلق عن الإتيان بشىء من مثل كلام الله - عزّ وجلّ - فى القرآن.

٤ - ومن شروطها: أن تقع المعجزةُ على وفْق دعوى المتحدِّى بها، كما فعل رسولُ الله صالح مع قومه، وكما فعل رسولُ الله عيسى - عليهما السلام - وسائرُ المرسلين فقد وقعت معجزاتُهم على وفق ما قالوه ونبّهوا عليه، وكانت معجزاتهم حسِّيّةً كانفلاق ماء البحر لموسى - عليه السلام - وخروج النَّاقة من الصخرة ونحو ذلك.

ومن طريف ما يُذكر - هنا - أن مُسيلمة الأعورَ الكذَّاب ادّعى النُّبوَّة وقال لقومه: سأتْفُل لكم فى البئر ليكثر ماؤها، فلما تَفَلَ فيها غارت المياهُ وذهبت بعيدًا، فأخزاه الله أمام النَّاس، وصارت دعواه من أدلّة كذبه.

هذه الشُّروط الأربعة للمعجزة إذا اختلّ شرط منها لم تكن معجزة.

❋ الآية والبرهان والبيّنة:

لم يردْ لفظ «المعجزة» فى كتابٍ ولا سنّةٍ وإنما فيهما لفظ: (الآية والبرهان والبيّنة) مثل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر]، ومثل: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقد ورد لفظ الآية والآيات فى مواضع كثيرة مثل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وإن كبار الأئمة يُسمُّون معجزات الأنبياء «دلائل النُّبوَّة، وآيات النُّبوَّة».

من دلائل نبوته ﷺ:

دلائل نبوة محمَّدِ بن عبد الله بن عبد المطَّلِب بن هاشمٍ ﷺ كثيرةٌ، والأخبار بظهور معجزاته شهيرةٌ، من ذلك:

١ - ورود صفته فى كتب الله المنزَّلة كالتوراة والإنجيل وغيرهما، وأن خروجه يكون بأرض العرب.

٢ - ما خرج بين يدى أيام مولده وقبل مبعثه من الأمور العجيبة الغريبة القادحة فى سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم، المؤيّدة لشأن العرب المُنوِّهةِ لذكرهم، وذلك مثل قصَّة الفيل وصاحبه أبرهة وجيشه، وما أحل الله بهم من العقوبة والنَّكال، ومثل خمود نار فارس، وسقوط شُرفات إيوان كسْرَى، وغَيْض ماء بحيرة ساوة، وانتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافعٍ لها من أمكنتها.. وغير ذلك من الإرهاصات التى نقلتها الأخبار المشهورة، ومن ظهور العجائب فى ولادته ﷺ، وأيَّام حضانته وبعدها إلى أن بعثه الله نبيًّا رسولًا.

٣ - ومن دلائل نبوَّته ﷺ محبَّةُ القلوبِ له وإجماعُها على عِفَّته وصدقه وأمانته وكمال عقله؛ إذ لم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوبَ من مال فيُطمَعُ فيه، ولا من قوَّةٍ فيَقْهَرُ بها الرِّجالَ، ولم يكن له أعوانٌ على الرأى الذى أظهره والدينِ الذى دعا إليه، ولم يكن معه فى أول الأمر سوى ثلاثة من ضعاف البشر امرأة وغلامان.

٤ - وكانت قريشٌ وسائرُ العرب أمةً جاهليةً متشدّدةً فى وثنيَّتها، ولا تجمعهم ألفةُ دين، ولا نظامٌ سياسىٌ، ولا نَمَطٌ اقتصادىٌّ، ولا تردعهم عن الشرور والتعادى ضمائرُ مُهذّبةٌ ولا نوعُ تربيةٍ تهذِّب الطباع الشديدة، وتُلين القلوبَ القاسية.

وقد ألَّفَ النبىُّ محمدٌ ﷺ - بفضل ربّه - بين هذه القلوب المتنافرة، وجمع كلمةَ هذه النُّفوس المتعادية، حتى اتفقت الآراءُ، وتناصرت القلوبُ، وتماسكت الأيدى، فصاروا قلبًا واحدًا فى مؤازرته ونُصرة دين الله.

وفى محبّته ﷺ هجروا الوطنَ وتركوا قومهم وعشائرهم، بل وبذلوا مُهجَهُم وأموالهم فى نصرته، وخرجوا للجهاد إعزازًا للدِّين، وطاعةً للنَّبىِّ الأمين، لا يرجون إلَّا مرضاةَ ربِّ العالمين، لم يطلبوا دنيا، ولا عِوضًا من متاعها.

وإنَّ المتأمِّل فى أحوال صحابته والمؤمنين به، وكيف أرخصوا كلَّ شىء فى سبيل ما جاءهم به طاعةً لله ولرسوله؟ لوجد أنَّ ذلك إنما وقع بأمرٍ إلهىٍّ، ولرأى المتأمِّلُ فيه أمرًا خارقًا للعادات تعجز عن بلوغه قُوى البشر، ولا يقدر عليه إلَّا من له الخلقُ والأمر تبارك وتعالى، فلولا إرادتُه سبحانه وهدايته، وإعانته، وتوفيقُه لما حدث هذا الانتقالُ الفجائىُّ من الحميَّة الجاهليَّة، والعصبيَّة العمياء، والانفراديَّة التى اتَّسم بها ضميرُ الجاهلية إلى الإذعان للبرهان، والالتفاف حوله ﷺ مع غاية الانقياد، والمحبة، والطاعة لرجل لم

يملك مالًا، ولا سلطانًا، ولا بيده قوّةٌ مادّيةٌ قاهرةٌ.

إنَّه التَّأييد الإلهيُّ وكفى، وبيانُه فى مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

ثمَّ تأمّل.. القلوب التى تدين له ﷺ بالمحبة تأمّل أمَّة الإسلام قد صاروا ثلث سكَّان المعمورة بفضل سماحة الإسلام ويُسْره، وإن كانوا فى حاجةٍ شديدةٍ إلى الفقه فى الدِّين والعلم بأحكامه وإلى مزيد من التعاون والتناصر والأخذ بأسباب القوة فى ميادين العلم والاقتصاد وبناء القوة التى تحمى بلادهم ومقدساتهم.

٥ - ومن دلائل نبوته أنه لم يعرف ﷺ الكتابةَ ولم يقرأ المكتوب: وذلك من أوضح دلائل نبوته ﷺ، فقد حفظ التاريخ له أنه كان أميًا لا يخط كتابًا بيده، ولا يقرؤه، نشأ فى أمة أميّة فى بلد ليس فيها عالمٌ يعرف أخبار الماضين، ولم يخرج ﷺ فى سفر لطلب العلم، ولم يجلس إلى مُعلِّمٍ، ثم نزل عليه الوحى بأخبار الأمم الماضية وأحوالها مع رسلها، وبما جرى لهم وعليهم، وجاء بما أعجز الفصحاءَ والعلماءَ والأحبارَ عن أن يأتوا بمثله، وكان مجىء قصة يوسفَ النبى - عليه السلام - وأحواله مع إخوانه وأبيه وغيرها من القصص كان مجىء ذلك على لسانه ﷺ بمثابة إحياء الموتى لعيسى بن مريم - عليهما السلام - معجزةً ظاهرةً وبرهانًا ساطعًا على أنه نبى يوحى إليه، وغير ذلك من الآيات والبينات والبراهين.

٦ - وكان القرآن الكريم أعظمَ المعجزات وأبقاها حتى يوم القيامة، فهو المعجزة الباقيةُ الخالدة، تخاطب العقلَ وتُنير له الطَّريق، إلى جانب ما كان له من معجزات حسِّية وردت بها الأخبارُ مثل ما كان لإخوانه الرُّسل السابقين.

فقد تحدَّى الفصحاءَ والبلغاء بما فى القرآن الكريم من الإعجاز فى اللفظ والمضمون، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة أو آية من مثله فعجزوا، وقد كان العرب عند نزول الوحى فى أوج فصاحتهم وبلاغتهم، فكان عجزهم من أعظم الأدلة على صحة نبوّته وبرهانًا واضحًا وحجةً قاطعةً على صدقه فدخلوا فى دين الله أفواجًا على مدى عقدين من الزَّمان، وقد بهرهم نورُ القرآن بألفاظه ومعانيه، ووعده ووعيده، وإخباره عن أمورٍ لم يكن لمحمَّدٍ ﷺ علمٌ بها ونحو ذلك من وجوه الإعجاز، ولم يتعنَّت إلا المكابرون والحاسدون وأربابُ الأهواء، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء].

اللّهمّ ثبّت قلوبنا على دينك، وصلِّ اللّهمّ وسلِّم على خاتم رسلك.

* * *

❋خاتم الأنبياء والمرسلين:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلى ومَثَلَ الأنبياء من قبلى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بيتًا فأحسَنَه وأجْمَلَه إلا مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ، فَجَعَلَ الناسُ يطوفون به، ويعجبُون له، ويقولون: هَلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ، فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتمُ النَّبِيِّين» [أخرجه البخاريُّ].

* * *

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

* * *

القِسمُ الثَّالِثُ :

مِن نُورِ هَدْيِهِ وَتوجيهَاتِهِ الشَّرِيفَة

صلى الله عليهِ وسلم

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام]

التّوحيد والتّنزيه

التَّوحيدُ: معناه الإيمانُ بأنَّ الله هو المنفردُ بالألوهيَّة لجميع الخلائق وأن الجميع عبيدُه وخلْقُه وفقراءُ إليه، وأنه سبحانه الغنيُّ عمَّا سواه وأنَّ كلَّ ما سِواه فى احتياجٍ إليه، والإيمانُ بأنه المعبودُ بحقٍّ ولا معبودَ بحق سواه.

والتَّنزيه: هو تقديسُ الله - عزّ وجلّ - فهو سبحانه المُتَّصفُ بكلِّ كمالٍ والمُنَزَّهُ عن كل نقصٍ لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، ليس كمثله شىءٌ، لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وإنَّ كلَّ ما خطر ببالِكَ فهو سبحانه بخلاف ذلك.. لا مثيل له ولا شبيه، بل هو سبحانه وتعالى كما وصف نفسه فى كتابه وعلى ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - ولنسمع الله - عزّ وجلّ - يقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ (آل عمران) ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وأمرنا سبحانه بتنزيهه عن كلِّ سوء ونقص فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [ختام سورة الحاقة].

وإن عقيدةَ التَّوحيد والتَّنزيه الكامل هى أساسُ كلِّ سُمُوٍّ وأصلُ كلِّ رُقىٍّ فى المدارج الصَّحيحة للكمال الإنسانىِّ بناحيتيه الجسدية والروحيَّة، وهذه العقيدة هى مفتاحُ التَّقدُّم والرُّقىِّ فى حياة المسلمين؛ إذ التوحيدُ الخالص والتنزيهُ الكامل هما أكبر ما جاء به النبى ﷺ لتقريره للبشر، وهما العنصران الفاعلان فى رسالة الإسلام من بين سائر عناصره ومبادئه الأخرى التى هى بمثابة الآثار العملية التى تُشير إلى الإيمان، وتدلُّ عليه وتبين صحته وسلامته فى القلب.

إن عقيدة التوحيد والتنزيه هى التى تفسر لنا سرعةَ ازدهارِ الحياةِ العلمية والاجتماعية والسياسية لدى العرب بعد ظهور الإسلام، إذ خرجوا من جاهلية

مظلمةٍ إلى مدنيَّةٍ راقيةٍ مضيئة أقامت حضارةً عالية البنيان سليمةَ الأركان لم يعرف لها تاريخُ البشر مثيلًا، وقد برز دورُ العرب الحضاريُّ الرَّاقى فى أقلَّ من ربع قرنٍ منذ ظهور الإسلام ممَّا أدهش الفلاسفةَ وحيَّر العلماء، إذ كيف صارت أمَّةٌ متناحرةٌ فيما بين عشائرها وقبائلها كانت تقف على حافَّة هاوية الهلاك بسبب سوء الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والمفاسد الخلقية، كيف صارت هذه الأمةُ أمةَ الأمم فى العلم والعدل والرحمة والهداية إلى الحقِّ والرَّشاد وتحقيق المساواة والإخاء.

إن أمَّة العرب التى قامت بأمانة تحضير العالم كلِّه بفضل الإسلام وعقيدته لو أنها قلبتْ دورَها مدارسَ، وأتَوْا لهذه المدارس بكبار الحكماء والمعلِّمين من فارس والهندِ والرُّوم واليونان لمَا استطاعت بمدارسها وبأفكارها البشريَّة أن تتخلَّى عن طلب الثَّأر وحبِّ الغارة وشرب الخمر ولعب الميسر والقمار وقهر الأقوياء ذوى النفوذ والمال للضُّعفاء وغير ذلك من المصائب الاجتماعيَّة والمساوئ الأخلاقية التى كانت متفشِّيةً فى الجاهلية.. ولَمَا برز منها ومن غيرها من بلدان المسلمين مئاتُ العلماء فى فروع العلم المختلفة التى تتصلُ بالدين مثل تفسير القرآن الكريم وبيان الأحكام والفقه وأصول الفقه وعلوم السنّة والحديث والتوحيد وغيرها، ومثل علوم اللغة التى نشأت فى إطار خدمة القرآن الكريم وتيسير تلاوته وفهم معانيه واستنباط أحكامه مثل النحو، والصرف، والقراءات، والبلاغة والإعجاز، وأصول اللغة وفقه اللغة والمعاجم اللغوية، هذا إلى جانب العلوم العقلية والكونية مثل (الطِّبِّ، والرِّياضيَّات، والفيزياء، والكيمياء، والجغرافيا، وعلوم أخرى رائعة مثل (السيرة النبوية، والمغازى، والتَّاريخ العام، والتَّراجم) وكانت المراكز العلميَّة والأدبية مزدهرةً فى جميع الحواضر والمدن من الأندلس بالغرب حتى حدود

الصِّين فى الشرق، تُعطى عطاءً سخيًا لجميع الشُّعوب والبلدان مما كان له أعظم الأثر فى نهضة العلوم بدول أوربا وفى ظهور مدنيَّتهم الحديثة، إنَّ علماء المسلمين فى عصر ازدهار حضارتهم كانوا كالشَّمس للدُّنيا والعافية للناس، وذلك بفضل إيمانهم بالإسلام وتمسُّكهم بعقيدته عقيدة التَّوحيد والتَّنزيه والعمل بمقتضاها.

* * *

اللهُمَّ لا إلهَ إلَّا أنتَ، سُبحانَكَ:

اللَّهُمَّ لا إلَهَ إلَّا أنتَ، سُبحانَكَ، رَبِّ إنِّى ظلمتُ نَفْسى فَاغْفِرْ لى، وأنتَ خَيرُ الغافرين.

اللَّهُمَّ لا إله إلَّا أنتَ، سُبحانَك، ربِّ إنِّى ظلمتُ نفْسى فارْحَمْنى، وأنتَ أرحمُ الرَّاحمين.

اللهمَّ لا إلهَ إلَّا أنت، سُبحانك، ربِّ إنِّى ظلمتُ نفْسى فتُبْ علىَّ، وأنتَ التَّوابُ الرَّحيم.

وصَلِّ اللهمَّ على النَّبىِّ الأمين وعلى أحبابه إلى يوم الدِّين.

* * *

تربيّة النفوس وأعظم وصيّة

*** لا خير فى الكبرياء:**

هذه قصّةٌ نقلها إلينا الإمامُ أحمد والإمامُ البخاريُّ وعددٌ من أصحاب كتب السُّنن وراويها عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص - رضى الله عنهما - فتدبّروها ففيها خيرٌ عميم يقول فيها: «كنّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من أهل البادية» ووصف حال هذا الرجل وما كان يبدو عليه من مظاهر الترفُّع والعُجْب فى مَلْبسه وفى مَنْطقِه أمام رسول الله ﷺ، فقد كان هذا الشيخُ القبلىُّ يلَبسُ الطّيْلسان الأخضر المكفوفَ بالحرير، فهو شيخُ قبيلةٍ مُتعظّمٌ مترفِّعٌ، ثمّ قال يريد رسول ﷺ: «إن صاحبكم قد وضَع كلّ فارسٍ ابنِ فارسٍ، ويرفعُ كلّ راعٍ» وضَع كلّ فارسٍ: يعنى جعل السّادة الأقوياء يتواضعون ويجالسون الضُّعفاء والفقراء على أساس المؤاخاة والمساواة.

*** المساواة والمؤاخاة:** إن المساواة والمؤاخاة التى حقَّقها الإسلامُ ممّا أزعج كبرياء الجاهليّين واستنفر عُتاتَهم لحرب رسول الله ﷺ، وهذا الرّجل البدوىُّ جاء من باديته تُزعجه أنباءُ المسلمين وأحوالُهم وتواضعُ بعضِهم لبعض، وكيف تُهذِّب الدّعوةُ الكريمةُ من طباع أهل الشّرف والقوّةِ ليكونوا مُتواضعين، يُجالسون الرعاة والفقراء وأهلَ الضّعف، وتتساوى الرُّؤوسُ فى الحقوق والواجبات، ويَرفُق القوىُّ بالضّعيف، ويتعاونون على البِرِّ والتّقوى، ويصير من الرُّعاةِ والموالى والضُّعفاء ذوو مكانةٍ ورأيٍ ومَشُورةٍ وقيادةٍ.

يقول راوى هذا الحديث: «فقام إليه النّبىُّ ﷺ مُغْضَبًا فاجتذبه» أى هزّه من مجامع ملابسه أسفلِ الرّقبة.

*** غضبه للحق دومًا:** وإنّ النّبىّ ﷺ يَغْضب للحقّ وحده، ولذا قال له: «ألا أرَى عليك لباسَ من لا يَعْقِل» وهذه العبارةُ فيها استنكارٌ لحال الأعرابىِّ

من حيثُ مظهرُ الكبرياء فى الملابس، وإنَّ دليل هذه الكبرياء ظاهرٌ فى اللفظ الذى تحدّث به هذا الرجل البدويُّ، إذ هو لا يرى للضِّعاف حقًا فى المواساة والمؤاخاة وتحقيق الذات، وتلك نظرةٌ جاهليةٌ عمياءُ أبطلها الإسلامُ، وأقام دولة المساواة، وأتاح الفُرصَ أمام جميع الناس لتحقيق ذواتهم والوصول إلى المراتب التى تتفق مع قدراتهم وطاقاتهم مع التكريم والاحترام لكل إنسان.

ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس وتحدّث بوصية أخيه رسول الله نوح - عليه السلام - لولديْه عند الوفاة يأمرهما وينهاهما، وهى أعظم وصيَّةٍ، وفيها الأمر والنَّهى:

(١) الأمر بتوحيد الله وإخلاص التَّوحيد ولزوم كلمة «لا إله إلا الله» فإنَّها أعظم وأثمن من كل المخلوقات.

كما أمرهما بتنزيه الله وحمده ولزوم كلمة: «سبحان الله وبحمده» فإنَّ لله كلَّ صفات الكمال وكلَّ نُعوت الجلال والجمال، وإن كلَّ ما خطر ببالك فإن الله - عزَّ وجلَّ - بخلاف ذلك، لا شريك له ولا ولد ولا ندَّ، وأنه - سبحانه - المستحقُّ للحمد والشُّكر، فهو مُولى النعم وصاحبُ الفضل.

(٢) ونهاهما عن أمرين فظيعين مهلكين هما: الشِّركُ بالله، والكبرياءُ والتَّعاظُم، فمن أشرك ومات على شركه فهو خالدٌ فى نار جهنَّم، ومن نازع الله فى كبريائه وتعاظم على عباد الله قصمه الله وأذلَّه ولقى الله وهو عليه غضبان.

❋ **فما الكبر؟ فزع الجالسون من أمر الكبْر وعواقبه وسألوا:** هل الكِبر أن يكون لأحدنا حُلّةٌ يلبسها؟ أى ثوبٌ نظيفٌ جميلٌ؟ قال: ﷺ. لا، أى ليس الأمر كذلك، فقالوا: هل الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شِراكان حسنان؟ والشِّراك: هو سير الحذاء، قال: لا، هل أن يكون لأحدنا دابَّةٌ يركبها؟ قال: لا، هل أن يكون لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه؟ قال: لا.

وإن كل هذه الأسئلة تدور حول مظاهر الثَّراء والعزِّ فى عصرهم فسألوه ﷺ - إذن - عن حقيقة الكبر؟ فقال ﷺ: هو «سفَهُ الحقِّ، وغمْطُ النَّاس».

والسَّفه هنا: أن يكون لك على رجل مالٌ ينكره فيأمره رجلٌ بتقوى الله فيأبى، أى يتعالى على النصيحة وينكر حقَّ الناس.

وغمصُ الناس أو غمطهم بمعنىً واحدٍ: وهو أن يمشى الشَّخص أو يدخل مجامعَ النَّاس وهو شامخٌ بأنفه، وإذا رأى الضُّعفاء والفقراء لا يلقى عليهم السلام ولا يمدّ يده إلى أحد منهم إنَّما يُجامل أهل الغنى والقوَّة، كما أنَّه يجانب مجالس الضُّعفاء والفقراء.

فالكبرياء تنبع من نفسٍ مريضةٍ وبنوايا خبيثة، ويصدقُ فيهم الحديثُ الذى أخرجه البخاريُّ والنَّسائىُّ والتِّرمذىُّ وأحمد عن عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جدِّه وفيه: «يُحشر المُتكبِّرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ فى صُور الرِّجال يغشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكان، يساقون إلى سجنٍ من جهنم يُسمى بُولَس - بضمِّ أوله وفتح ثالثه - تعلوهم نارُ الأنيار - أى نار النِّيران - ويُسقون - بضمِّ أوَّله - من عُصارة أهلِ النَّار، طينة الخبال».

بُولَس: مكانٌ مُظلمٌ من الإبلاس وهو اليأس من تخفيف العذاب، والعُصارة هنا: الصديد المنتن وهو طينة الخبال.

فطوبى لأهل التواضع والرفق طوبى للمرء المسلم الذى يلاطف خادمه ويأكل معه، ويحمل متاعه، ويساعد أهل بيته فى عملهم ويرفق بالحيوان، ويرتاد دورَ العبادة يجالس الناس ويألفهم ويألفونه، ويمسح على رأس اليتيم، ويرقّ قلبه للمريض والمسكين.

❋ وتلك وصيَّة رسول الله نوحٍ - عليه السلام - لابنيه وهى وصيَّةٌ لكلِّ النَّاس:

جاء فى الحديث الشَّريف الذى رواه زيدُ بنُ أسلم وأخرجه البخاريُّ وأحمد

وغيرهما قال رسول الله ﷺ: «إن نبىَّ اللهِ نوحًا ﷺ لمَّا حضرته الوفاةُ قال لابنيه - أو لابنه - إنِّى قاصٌّ عليكما الوصية: «آمرُكما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين: آمرُكما بلا إله إلا الله: فإن السمواتِ السبعَ والأرضين السبع لو وُضِعْنَ فى كفَّةٍ وَوُضعت «لا إله إلا الله» فى كفَّةٍ لرجحتْ بهنّ، ولو أن السمواتِ السبعَ والأرضين السَّبعَ كُنَّ حلقةً مُبهمةً لقصمتهُنَّ لا إله إلا الله.

وسبحان الله وبحمده: فإنها صلاةُ كل شىء، وبها يُرزق كلُّ شىء.

وأنهاكُما عن الشِّرك بالله والكبر» [لفظ البخارىّ فى الأدب المفرد] أما لفظ أحمد ابن حنبل فى المسند فهو: «أنهاكما عن الشرك بالله والكِبر، وآمركما بلا إله إلا الله؛ فإن السمواتِ والأرضَ وما بينهما لو وُضعت فى كِفةِ الميزان، ووُضعت «لا إله إلا الله» فى الكفّة الأخرى، كانت أرجحَ - أى ثواب لا إله إلا الله - ثم قال: «وآمركما - باثنتين - سبحان الله وبحمده، فإنهما صلاةُ كل شىء، وبهما يُرزق كل شىء».

وفى لفظٍ عند النَّسائىّ فى وصيته لولده: «وأوصيك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاةُ الخلْق وتسبيحُ الخلق، وبها يُرزَق الخلق: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

إن هذه الوصية العظيمة هى التى بعث الله بها جميعَ الأنبياء والمرسلين، وهى نورُ السموات والأرض، ومن أجلها خَلق الله الخلقَ ليوحِّدوه ويُنزِّهوه عن أن يكون له شبيهٌ أو نِدٌّ أو ولدٌ أو صاحبة، ويعظِّموه ويصفوه بكل صفات الكمال وكل نعوت الجلال والجمال، وله وحده الكبرياء والعظمة فليس لأحدٍ غيره سبحانه أن يتصفَ بصفةٍ منهما، وفى الحديث القدسىّ كما جاء عند مسلمٍ وأبى داود: «العزُّ إزارى، والكبرياءُ ردائى فمن نازعنى بشىءٍ منهما عذَّبتُه» [رواه أبو سعيد وأبو هريرة] والمقصود بهذا المثل أنَّ العزَّ والكبرياء لا ينفكَّان

عن الله - جلّ جلاله - فهما أحقُّ بالله تعالى وله ألزمُ واقتضاهما جلالُه، فمن تعظَّم فى نفسه، واختال وتكبر على طاعة الله أو تكبَّر على عباد الله فقد أهلك نفسه.

إنّ كلمة «لا إله إلا الله» هى أعظمُ الذِّكر بها نتعبّد وبمقتضاها نعبدُ: نُصلِّى ونُزكِّى ونتصدَّق ونصوم ونحجُّ لله وحده، وعليه وحده نتوكَّل، وبه نستغيث، وله نرجو، ومنه نخاف ولطلب مرضاته نخضع ونسجد؛ فهو وحده المعبود بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سِواه.

وإن كلمة: «سبحان الله وبحمده» كلمةُ التنزيه والتعظيم فهو سبحانه المُنزَّه عن السُّوء وعمَّا يعتقد ويقول الملحدون والمشبِّهون والمعطِّلون، وإذا قال العبد «سبحان ربِّى الأعلى» قال الله: «صدَقَ عبدى أنا فوق كلِّ شىء، وليس فوقى شىءٌ، اشهَدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له، وأدخلته الجنة» إن الكونَ كلَّه يُسبِّح ربَّه ويحمده، وإنَّ كل ما خطر ببالك أيُّها الإنسان فاللهُ بخلاف ذلك، فاحذروا المصيبة الأعظم وهى (الشِّرك بالله والكبر) وأكثروا من قول: «لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوةَ إلا بالله».

* * *

البيئة والإنسان وتدبّروا وصايا الإسلام

«لو أنّ عنزة عثرت فى شطّ الفرات
لسئل عنها عمر لِمَ لَمْ يمهّد لها الطّريق»

«عمر بن الخطاب»

البيئة: يابسةٌ، وهواءٌ، وماءٌ، والإنسان يضرب بقدميه على اليابسة لا غنى له عن ذلك؛ لطلب عِلمٍ أو مالٍ أو اكتساب خبرةٍ ومهارةٍ، ويحيط به الهواء قائمًا وقاعدًا ونائمًا يُمِدُّه كما يُمدُّه الماءُ بأسباب الحياة حتى تنقضى الآجال،

وإن سلامةَ هذه البيئة من أوجب واجبات الفرد والدولة.

وإذا سلمت البيئةُ من أسباب الأذى والقذى ومن الإهمال كان مردودُ ذلك عظيمًا على سلامة البدن، وسكينةِ النَّفس، وطِيب العيش، وبقدر ما يُعطى الإنسانُ بيئته من العناية والوقاية والجهد الطَّيِّب بقدر ما تعظم مكاسبه، ويسلم له بدنه وحواسُّه، ويرتاح قلبه فيمضى بعزمٍ أقوى فى أداء دوره والمشاركة فى بناء أمته وتحقيق حياةٍ أفضل.

والبيئةُ لا يعكِّر صفاءها، ولا يُسيء لجمالها ونظافتها إلا فعلُ الإنسان، كما أنه هو المسؤول الأوَّل عن شقِّ الطرق وتمهيدها واتخاذِ الوسائل والسُّبل لتيسير حركة الناس وضربهم فى الأرض.

وإن الأذى فى الطَّريق أو على شواطئ الأنهار ومعابر النَّاس والحيوان إنما يتأتَّى من صُنع الإنسان بإلقاء الفضلات والأقذار والقمامة والشَّوك والزجاج والمسامير ونحو ذلك، كما يتأتَّى تعكيرُ صفاء الهواء وتلوُّثه وتعتيمُ نقائِه عن طريق الأدخنة والرَّوائح الكريهة والتَّجارب النَّوويَّة ونحوها من الموادِّ السَّامَّة البالغة الضَّرر، إلى جانب الأصوات العالية التى تنبعث من السَّيَّارات ونحوها بداعٍ وبغير داعٍ فى غالب الأحوال، كما هو المشاهَدُ والمسموع ليلًا ونهارًا مما لا يخفى على أحدٍ ولا يحتاج إلى بيِّنة، بل إن المياه الراكدة والجاريةَ كثيرًا ما يلحقها الأذى من الناس بالتَّبوُّل والتبرُّز أو بإلقاء القاذورات، أو باتِّخاذ مجارى بعض الأنهار والترع وسيلةً لتصريف فضلات الإنسان، وإزاء هذا ونحوه فإننا أصبحنا فى حاجةٍ شديدةٍ إلى أخذ أنفسنا بالجدّية فى معاملة البيئة، وتبصير المواطنين، وأصحابِ المطاعم وسائقى السَّيَّارات، وأصحاب المهن على امتداد الطُّرق وداخل المدن والقرى لإصلاح الآلات والسَّيارات ونحوها، تبصير هؤلاء وغيرهم لاتِّخاذ وسائل من قِبل أنفسهم للحدِّ من

تلويثهم الهواءَ والمياه والطريقَ، مع العمل الجادّ على حماية مجارى المياه والهواء واليابسة من كلّ أسباب الضَّرر والأذى النفسيّ والذهنيّ والماديّ، وإن المساهم فى حماية البيئة متطوِّعًا أو مأمورًا بحكم وظيفته فإنه يقوم بعمل هو من صميم عمل الأبرار، كما فى حديث أبى برزة فى الصَّحيحين، وعند أصحاب السنن قال: يا رسول الله دلّنى على عملٍ يُدخلنى الجنة قال: «أمِط الأذى عن طريق الناس»، وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين وغيرهما: «مرّ رجلٌ بشوك فى الطريق فقال: «لأُميطنّ هذا الشوكَ لا يضرّ رجلًا مسلمًا فغُفر له».

إن من محاسن أعمال الأمة أن تُزيل كلّ ما يضر بالبيئة: اليابسة والهواء والماء، فإن الإنسانَ وكلّ ذى روحٍ أمانةٌ وإن الوقاية لمن أجلّ الأعمال فمتى يتمُّ إحراق النُّفايات والفضلات والقمامة بطرق سريعة وفى أماكن شديدة البُعد عن الإنسان متى نرى ذلك؟ إن إفساد البيئة بأبواق السيارات وبروائح الأطعمة عند تجهيزها فى المطاعم، وغليان الزيوت فى الشوارع والطرق لإعداد بعض المطعومات إن ذلك كله يمكن تخفيفه إلى حدٍّ بعيدٍ إذا استخدم السائق عقله وحِذقه دون وضع يده على بوق سيّارته فى اللّيل وفى النّهار وإذا وصلنا إلى وسائل سليمة يلتزمها أصحابُ المطاعم والمطابخ، ويلتزمها المسؤولون عن جمع النُّفايات؟ هذه تنبيهاتٌ على أمورٍ ذات خطرٍ فى حياة المريض والكبير والصَّغير والعالم والمتعلّم، وكفى!!

* * *

صيانة الخِلقة واحترامُها
وتحذيرٌ للمربّين والمؤدّبين

إن وجْه الإنسان هو مرآته وصورتُه التى يُعرف بها، ووجهه لطيفٌ رقيقٌ فيه أعظمُ حواسّه وجوارحِه وألطفها، وإن أعضاء الوجه نفيسةٌ غاليةٌ، وأكثرُ

إدراكنا بها: فبالعينين نرى ونقرأ، وبالأذنين نسمع، وباللسانِ نتذوَّق المطعوم والمشروب ونتحدَّث، ويجرى ماءُ الحياة منه إلى سائر الفم والبلعوم، أضف إلى ذلك أنفَ الإنسان وما يؤدِّيه من المنافع لبقاء الحياة ولسلامة النَّفس والصَّدر.

وكم يُسيء الوالدُ حين يغضب فيبادر إلى لطم وجه الولد، وكم يخرج عن اللِّياقة وعن حُسن المعاملة الزَّوجُ الذى يتهوَّر فيرفع كفَّه الغليظة بعجرفة وسوء استخدامٍ للسلطة ويهوى بها على المرآةِ الشَّفافة اللَّطيفة الجميلة، وهى وَجْهُ الزَّوجةِ الذى هو أوْلَى بالتَّكريم والصِّيانة، ومن مساوئ بعض الأزواج والمربِّين وأربابِ الأعمال أنهم يُقبِّحون الوجوه بالشتيمة وبالألفاظ البذيئة بالتشبيه بوجه الغراب أو وجه القِرد أو بقولهم: «قَبَّح الله وجهك» وهم ما يدرون أنهم يُسيئون إلى أنفسهم أعظمَ الإساءة؛ لأنهم يُقبحون صنعةَ الله - عزّ وجلّ - وإن صنعة الله تُحترم فى الإنسان وفى غير الإنسان ولا تُهان، فسبحان الخالق العظيم الذى أحسن صُنعَ كلِّ شىءٍ، وأعطى كلَّ مخلوقٍ ما يَليق به ويناسبه ويُعينه على أداء وظيفته والإبقاءِ على حيويته، وما تأمَّلنا مخلوقًا فى جُملته إلا وجدنا التناسقَ والجمال والرَّوعةَ بوضوح فى تناسُب تركيب الوجه مع سائر الجسد ومع طريقة المخلوق فى سعيه وحرصه على سلامة حياته، وانظر إلى القرد أو الفأر أو القطة أو الفيل وغير ذلك، وقل سبحان الخالق العظيم أعطى كلَّ شىءٍ خَلْقه ثمَّ هداه لطرق معاشه ودفاعه عن نفسه.

فيا معشر الآباء، يا معشر المعلِّمين، يا أصحاب الأعمال رفقًا بمن تحت أيديكم من الأولاد، والتلاميذ، والخدم والعمَّال لا تسبُّوهم، لا تُهينوهم، لا تقبِّحوا وجوههم بضربٍ ولا بشتيمةٍ، تفاهموا باللَّفظ السَّليم والإقناع وحسن الأدب لتُعلِّموا مَنْ هم تحت أيديكم وتنالوا فضل الخُلُق الكريم والطَّبع

المستقيم.

وأنتم معاشرَ الأزواج إنَّ بطولتكم إنما تكون فى صبركم على أداء الأعمال وتحمُّل المسؤوليات مع سعةِ الصَّدر والحلم، وأن تكونوا ألطفَ ما يكون وأرقَّ ما يكون وأضعفَ ما يكون مع أهليكم أزواجكم وأولادكم، واسمعوا جميعًا التَّوجيهات الغنيَّة بالتَّربية السَّليمة والتَّوجيه الرَّشيد، وفسِّروا لأنفسكم هذه الأحاديث: «لا تقولوا قَبَّح اللهُ وجهَه» [أخرجه البخاريُّ] «إذا ضرب أحدكم أخاه فليجتنب الوجْه» [أخرجه مسلمٌ والبخاريُّ والراوى أبو هريرة] أى حتى ولو فى حال ثورةِ الغضب فى العِراك بين الأفراد، وإن عدم الحِدَّة والبُعدَ عن أسباب الخصام والمِراء والعداوات أفضل للمؤمن: «إذا ضرب أحدكم خادمه فليجتنبِ الوجه» [أخرجه النسائىُ وغيره] وفى لفظٍ: «فليتَّقِ الوجه» «فلا يلطم وجهه» إن الضَّرب على الوجه قد يؤدِّى إلى مصائبَ عظيمةٍ للعين أو الأنف أو الفم أو السَّمع، فَصَلُّوا وسلِّموا كثيرًا على رائد المربِّين الرَّحيم بأمته.

* * *

اللجوء إلى الله عند الكرب والقلق والهمّ والخوف

❋ اقرأ هذا واحفظه وثابر عليه أوّل النّهار وفي الليل:

أولًا: (١) توسَّلْ إلى الله بكلمة التَّوحيد عند شعورك بالهمِّ أو الغمِّ أو الكرب أو الخوف من إنسان أو شيء، واطلُبْ من الله حاجتك مع قوة الرجاءِ والثِّقةِ فيما عند الله من الرَّحمة والإلحاح بالدُّعاء والذِّكر والتَّضرُّع تقول: «يا ربِّ: أسألُك بلا إلهَ إلا أنت ربُّ السمواتِ السَّبع وربُّ العرش العظيم، وأسألُك بلا إله إلا أنت ربُّ السمواتِ السبع وربُّ العرش الكريم، وأسألك بلا إله إلا أنت ربُّ السمواتِ السبع والأرَضين السبع وما فيهنّ إنك على كل شيءٍ قديرٌ» ثم تطلب حاجتَك مثل أن تقول: أسألُك أن تُفرِّجَ كرْبي، وتُزيلَ هَمِّي وغمِّي، وأن تملأ قلبي طمأنينةً، ونفسي سكينةً، وأن تطردَ عنِّي المخاوفَ وأسبابَها، وأن تُعيذَني من شرور عبادك وتحفظَني من مكرهم، وأن تجعلَني بعطائك قانعًا، وعلى البلاء صابرًا، ولك حامدًا شاكرًا «وتدعو بما شئتَ وبما تحتاج إليه، وتكرر الدعاء بعد التوسُّل بكلمة التوحيد صباح مساء راجيًا رحمة الله.

(٢) وعند الشُّعور بالخوف تقول: «لا إله إلا اللهُ الحليمُ الكريمُ، سبحانَ اللهِ ربِّ السمواتِ السبع وربِّ العرش العظيم، لا إله إلا أنت عزَّ جارُكَ، وجلَّ ثناؤُكَ» «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرش الكريم، اللهمَّ اصْرِف عنِّي شرَّه». أي: اصْرِفْ عني شرَّ مصدرِ الخوف، واصرفْ عنّي سببَه، وتدعو وتطلب ما تشاء من ربِّك بعد هذا التوسّل

(٣) الإكثار من دعاء نبيِّ الله يونس، ودعاء نبي الله أيوب - عليهما السلام - مع حضور القلب بالمطلوب: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظّالمين»

فقد توسّل يونس - عليه السلام - بالتَّوحيد والتَّنزيه، واستغاث، وثابر على التضرُّع والتَّوسّل إلى الله بتوحيده وتنزيهه ففرَّج الله كربه.

وتقول: ربِّ: إنى مسَّنى الضُّرُّ وأنت أرحمُ الرَّاحمين، متوسِّلًا برحمته سبحانه كما فعل أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].

وتقول متوسِّلًا طالبًا عونَ ربك ورحمته: اللهمَّ رَحمتَكَ أرجو، فلا تَكِلْنى إلى نفسى طَرفةَ عينٍ، وأصْلح لى شأنى كلَّه، لا إله إلا أنت.

يا حىُّ يا قيومُ برحمتك أستغيث، «حسبُنا اللهُ ونِعم الوكيل».

وتطلب من ربِّك إزالة الهمِّ وكشفَ الغمِّ وتفريجَ الأزمة وهدايةَ الولد وصرفَه عن اللَّهو والعبث ونحو ذلك، مع الإلحاح بالتَّوسُّل والدُّعاء.

ثانيًا: إذا كنت تأرق باللَّيل أو تفزع من النَّوم أو تشعر بعبث جِنِّى فثابر على الدعاء الآتى والرقية التالية، وتمسح بعد النفخ فى كفَّيْك على رأسك وصدرك (ولأولادك عند اللزوم تفعله لهم).

أ - عند الاضطجاع للنوم تقرأ المعوذات الثلاث (قل هو الله أحد والمعوذتين) ثلاثَ مرات تنفخ فى كفيك بعد كل قراءة وتمسح على الرأس والصدر والظهر.

ب - تستعيذ بكلمات الله التامات تقول: بسم الله الرحمن الرحيم: أعوذُ بكلمات الله التاماتِ من غَضبه وعِقابه، وشرِّ عباده، ومن همزاتِ الشياطين وأن يحضرون. «ثلاثًا».

أعوذ بكلمات الله التامةِ من شرِّ ما خَلق وذَرَأ وبرأ، ومن شرِّ ما يَنزل من السماء ومن شرِّ ما يَعرُج فيها، ومن شرِّ ما ذرأ فى الأرض ومن شرِّ ما يخرج منها، ومن شرِّ فِتنِ الليل والنهار، ومن شرّ كلِّ طارق إلا طارقًا يطرق بخير

يا رحمن».

ويلزمك أن تُصلى وتسلم على رسول الله وآله وصحبه عند البدء وفى الوسط وعند الختام، مع نية الرجوع إلى الله والاعتصام بحبله المتين، والقناعة والرضَى.

*** وهذه فوائدُ جليلةٌ عند الدُّعاء والتَّضرُّع:**

أولًا: عند الدُّعاء توسَّلْ إلى الله بأسمائه الحسنى ثمَّ اطلبْ حاجتك فى تضرُّعٍ وقوَّة رجاءٍ تقول: «يا بديعَ السمواتِ والأرض يا حىُّ يا قيوم، إنِّى أسألك كذا..».

أو «يا ذا الجلال والإكرام، ويا حَنَّانُ يا مَنَّانُ».

أو «اللهم إنِّى أسألك بأن لك الحمدَ لا إله إلا أنت، يا منَّانُ، يا بديعَ السموات والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرام..» أو: يا حىُّ يا قيوم برحمتك أستغيث.

أو: «يا ربِّ.. يا ربِّ.. يا ربِّ» ثمَّ تسأله حاجتك وتُلحّ بالدُّعاء.

أو تتوسَّل بكلمة التوحيد «لا إله إلا أنت» وكلمة التَّنزيه «سبحانك» ونحو ذلك.

ثانيًا: اعلم أن الله - عزَّ وجلَّ - لا ينسى عبده الذَّاكر، ولا يخيِّب مَن رجاه، ولا يُضيِّع من أحْسَنَ التَّوكُّل عليه وفوَّض الأمور إليه سبحانه، وإنَّ دانيال النَّبىَّ - عليه السلام - حين حبسه ظالمُه وسلَّط عليه أسدًا جائعًا امتلأ قلبه طمأنينةً ورضى بقضاء الله وقدره، وخشع بين يدى ربِّه حامدًا شاكرًا صابرًا مفوضًا فقال:

«الحمدُ لله الذى لا يُخيِّب مَن دعاه، الحمدُ لله الذى لا يَكل من توكَّل عليه إلى غيره، الحمدُ لله الذى هو ثقتُنا حين تنقطع عنَّا الحيل، الحمد لله

الذى هو رجاؤنا حين تسوءُ ظنونُنا بأعمالنا، الحمد لله الذى يَكشف ضرّنا عند كرْبنا، الحمد لله الذى يجزِى بالإحسان إحسانًا، الحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة» فأنجاه الله من المهالك، وجعل من الأسد له حارسًا عليه السلام، وبقى فى عناية ربِّه حتى انقضى أجله وبطلت مكيدة ظالميه.

وهذا الحِرز من أنفع الدُّعاء بفضل الله عند الشَّدائد والمخاوف، وتأمَّل ما فيه من الحمد على كلِّ حالٍ، والتَّفويض التَّامِّ، وقوَّةِ الرَّجاء فى رحمة الله، والإيمان بأنَّ الصَّبر نجاةٌ.

وقال الحسنُ بن الحسن أرسل الحجَّاجُ والى العراق فى طلبى، فقلتُ: «لا إله إلا اللهُ الحليمُ الكريمُ، سبحان اللهِ، وتبارك الله ربُّ العرش العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين». فقال الحجاج له - وهو لم يسمع ما قاله - واللهِ لقد أرسلتُ إليك وأنا أريد قتلك، وإنك اليوم أحبُّ إلى نفسى من كذا وكذا، وفرّج الله كربته بالتَّوسُّل بالأسماء الحُسنى وكلمة التَّوحيد والتَّفويض إلى الله صاحبِ الأمر.

ثالثًا: وينبغى لك عند شدَّة حاجتك أن تختار لطلب حاجتك وكشْفِ ضُرِّك الوقتَ الفاضلَ مثل وقت السَّحر أو بين الأذان والإقامة، وتختار الحالةَ الأفضل التى تكون أنت عليها كالوضوء واستقبال القبلة وتقديم عَملٍ صالحٍ مثل الصَّدقة راجيًا وجه الله وحده، واسترضاءِ والديك إن وُجدا أو الدعاء لهما، ثمَّ تدعو وتستغيث فى خشوعٍ وخضوعٍ وخفض صوتٍ متوسِّلًا بأسماء الله الحسنى أو بعملك الصَّالح الذى رجوتَ به وجْهَ ربِّك وحده مثلِ برِّ الوالدين ونحو ذلك، وتُثابر فى الدُّعاء، وتلح به، وتُصلِّى على الحبيب المصطفى وتبكى أو تتباكى. ومن الدعاء الذى تحرص عليه: «اللهُ اللهُ ربى، لا أُشرِك به أحدًا، أسألك اللهم بخيرك من خيرك الذى لا يُعطيه غيرُك، لا إله إلا أنت، اجعلنى فى عبادِك، اللهم إنى أستجيرُك من كلِّ شىء خلقتَ،

وأحترسُ بك منهم، اللهم احفظنى بفضلك من أمامى ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى ومن تحتى، وصلِّ اللهم على النبى الهادى وعلى آله وصحبه آمين».

فمتى يكون الدعاء أرْجَى للقبول بإذن الله: إن الدعاء مع حضور القلب من أنفع الدَّواء، وأعظم السّلاح، وإن الدُّعاءَ نُورُ السموات والأرض، وممَّا يجعل الدعاءَ أرْجَى للقبول ملاحظة ما يلى:

* طهارة القلب من الشِّرك فلا يدعو مع الله أحدًا من عبيده.

* طهارة الطَّعام والشَّراب والملابس من الحرام ومن حقوق النَّاس المسلوبة.

* اليقين بأنه لا قادرَ على إزالة الشِّدّة أو تحقيقِ الرَّخاء والخير إلا الواحدُ القهَّار.

* عدم الدَّعوة على أحدٍ بالضَّرر والشَّرّ، وإنَّ الدُّعاء بالهداية وإرجاع الحقوق إلى أصحابها يكون أفضل للدَّاعى وللمدعوِّ له.

*** وادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة:**

فإن يمين الله - عزّ وجلّ - ملأى، وخزائنَ رحمته ونعمه لا تنفدُ أبدًا، ولو اجتمع الخلقُ كلُّهم إنسهم وجِنُّهم ناطقُهم وأخرسُهم فى ساحةٍ واحدةٍ وسألوا ربَّهم من فضله، وأعطى سبحانه كلَّ واحدٍ من أفرادهم مسألته وحقَّق له رجاءَه فإن ذلك لا يُنقص من مُلكه وخزائن إحسانه شيئًا، وكأنَّ الجميعَ أخذ قطرةً من البحر، وقد دعا اللهُ - عزّ وجلّ - عباده إلى أبواب رحمته يتوجهون إليه بالدعاء والرجاء، ووعدهم بالإجابة، ولذا فإن الدعاء يكون أقربَ وأرجى للقبول إذا كان قلبُ الدّاعى حاضرًا مليئًا بالثِّقة والرَّجاء ولنتدبَّر: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وإن الرسول الحبيب ﷺ يبيِّن ذلك بقوله:

«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيبُ دعاءً من قلب غافل لاهٍ» [أخرجه الترمذيُّ ورواه أبو هريرة].

وإنَّ أنفعَ الأدويةِ وأعظمَ أسلحة المؤمن الإلحاحُ فى الدُّعاء، ففى الحديث الذى روته عائشة - رضى الله عنها-: «إنَّ اللّهَ يحبُّ المُلحِّين فى الدُّعاء»، وفى حديث أبى هريرة عند ابن ماجه: «من لم يسأل اللّهَ يغضبْ عليه» فلا تغفلوا عن الدُّعاء فى ليلٍ أو نهارٍ.

ولذا جاء النَّهى عن تعليق الدُّعاء بالمشيئة، وهذا موطنٌ ينبغى لنا الالتفاتُ إليه والعمل به، فلا أقول: اللّهمَّ اهدِ ولدى إن شئتَ، وإنما أعزمُ المسألةَ فإن الله يفعل ما يشاء لا مُكْرِه له، فأقول: اللهمَّ اهدِ ولدى، وقد جاءت بذلك الأحاديث فى الصَّحيحين وعند أصحاب السنن من رواية أنس وأبى هريرة.

فلتلهج ألسنتُنا بالدعاء نطلب من ربِّنا كلَّ ما فيه صلاحُ أمورنا وأحوالنا فى الدِّين وفى مصالح دنيانا، فإذا تأخَّرت الإجابة نظلُّ على الثِّقة فإنَّ دعاءنا مجابٌ لا محالة بفضل الله وإحسانه وفيه الخيرُ لصالح الداعى على أىِّ حالٍ.

* أن يختار الدَّاعى لحاجته أحسنَ الأحوال والأوقات مثل: التَّوجُّه إلى القبلة مع الطَّهارة - ما أمكن - أن يكون دعاؤه بعد فعل خيرٍ أراد به وجه الله وحده، وعقب الصَّلوات، وفى السُّجود، وبعد الأذان، ويوم الجمعة، وقبل ظهور الفجر - ما استطاع - وعند غروب الشَّمس للصَّائم، وفى حالة السَّفر، والمرض لرقَّة القلب، وعند تلاوة القرآن، وزيارة المريض.

* مع ملاحظة [التَّضرّع والخشوع، واستحضار الخوف، وقوَّة الرَّجاء، والمداومة، وأكل الحلال، واستحضار عظمة الرَّبِّ] والصَّلاةُ والسَّلام على أشرف المرسلين.

* * *

من صفات أهل العقل والنّفس المطمئنّة

إن أهل الحكمة والصَّلاح هم الذين تهذَّبت أخلاقهم، واستقامت مسالكهم، وصلحت أعمالهم ونواياهم، وكان إيمانُهم بربِّهم هو الرَّقيبَ عليهم فى سرِّهم وعلانِيَتِهم إنهم: أهلُ الرفقِ والتواضع ولينِ الجانب وعفَّةِ اللسانِ يَألفون ويألفهم الناسُ ويرتاحون إليهم، إنهم أهلُ الصدقِ والأمانة والوفاء يثق الناسُ بهم، ويرتاحون للتعامل معهم، وإن قلوبهم بالإيمان عامرةٌ، وبالإخلاص مضيئة، يخشَون الله، ولا يخشون فى الحق لومةَ لائم، يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، وإن الليل وسكونَه يتعطَّر بدعواتهم وبكائهم بين يدَىْ ربِّهم وبإلحاحهم على الله بالاستغفار وطلبِ العفو وقبول التوب والتجاوز عن الذنب وبالتوفيق لما يُحبُّه الربُّ، أجسامُهم فى الأرض وأرواحهم فى السماء، تركوا الأُنس مع أهل اللغو والعبث والبِطالة واللهو، فآنستهم ملائكةُ الرحمن فى مجالس ذِكرهم لله وفى صلواتهم، ثم إنهم ينامون على ذِكر الله، ويستيقظون على ذِكرِ الله، ولا تغفل قلوبُهم عن المراقبة والمحاسبة، فرزقهم الله بفضله الطمأنينة والرضى والقناعة، فهم أهل العفاف والغِنى: رضوا بقضاء الله، وآمنوا بلقائه، وقَنِعوا بعطائه، فهم أغنى الناس، وأسعدُ الناس، وأوفرهم حظًّا من خيرى الدنيا والآخرة بفضل الله وإحسانه، وإن أعظم الغِنَى أن تكون أيها الإنسان ذا نفس راضيةٍ قانعةٍ، تأخذ بالأسباب الصحيحة، وتشكر على النعماء، وتصبر على البلاء، فأنت راضٍ عن الله على كل حال، فيرعاك الله فى كل حال، ويدّخر لك ما هو خيرٌ من متاع الدنيا وزينتها وما هو أهنأُ لنفسك وأسْعدُ لروحك، ويكفيك - أيها الإنسان - أن يرضى الله عنك، فادع الله دومًا: «اللهم إنى أسألك نفسًا بك مُطمئنَّة؛ تَرضَى بقضائك، وتُؤمن بلقائك، وتَقْنَع بعطائك» وأن يجعلك من أهل التُّقى والعفاف وغنى النفس.

إن التعفُّف يجعلك قانعًا راضيًا، ويحجبك بفضل الله عن الحرام، ويمنعك من الإسراف وتلك خصالُ أهل الحق والصلاح، لا يطمعون فيما ليس لهم، ولا يُعطون النفس كلَّ ما تشتهيه حتى لا تدفعهم إلى المهالك وتُغريهم بالتجاوز والرغبة الجامحة التى قال فيها الشاعر الحكيم:

إذا المرءُ أعطى نفسَهُ كلَّ ما اشتهت ولم يَنهَها تاقَتْ إلى كلِّ باطل
وساقت إليه الإثمَ والعارَ بالذى دعتْـه إليـه مـن حـلاوةِ عاجِـل

إن العاقل لا يجرى وراء كلِّ ما تشتهيه نفسه؛ لأن النفس إذا لم يفطمها صاحبُها لا تشبع، وإذا تسلَّطتْ طغتْ، ومن حكمة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - «كفى بالمرء سَرَفًا ألَّا يشتهىَ شيئًا إلا اشتراه وأكله».

فطوبى لأهل الحلم والتعقُّل والتوسُّط والتواضع والأناة، أهل الطاعة وسلامة اليقين، والرضَى بعطاء ربِّ العالمين، فهم الحامدون الشاكرون الراضون على كلِّ حالٍ.

* * *

من أدب النُّبُوَّة:

حَسّنوا جوار نعم الله

جاء عن عروةَ - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ دخل على عائشة - رضى الله عنها - فرأى كِسْرةً مُلقاةً، فأخذها فمسحها، فقال: «يا عائشةُ حسِّنِى جوارَ نِعَم الله - عزّ وجلّ -» [فى كتاب الشُّكر لابن أبى الدُّنيا].

هذا التَّوجيه النَّبوىُّ الكريم الناسُ فى حاجةٍ إلى تدبُّره والانتفاع به فهو نافعٌ للفرد ونافعٌ للأسرة ونافع للأمة فى مجموعها، إذ يُحرِّض النَّبىُّ ﷺ على حِفظ النِّعمة ومعرفة مقدارها وصيانتها بالأسلوب الملائم لها للانتفاع بها عند الحاجة، كما يوجِّه ﷺ المؤمنين إلى تقدير كلِّ ما يمكن أن نحتاج إليه أو

يحتاج إليه غيرُنا وذلك بصونه وعدم امتهانه.

❋ **أمثلةٌ**: إن الثَّوبَ الذى تشعر أنت بعدم الحاجة إليه فإن هناك من إذا حصل عليه سيقوم بإصلاحه وينتفع به، وإن الطعامَ الذى يزيد عن حاجتك وتدفع به إلى التُّراب وتُغطِّى عليه ما أكثرَ مَن يحتاجون إليه، وعليك إذا أعددتَ طعامك أن تجعله من أوَّل الأمر بقدر ما يَفى بالحاجة ولا يزيد، فبدلًا من أن تُلقيه فى التُّراب ادْفَعْ به إلى من يتطلَّعون إلى المَرحمة ويتوقون إلى التَّعاطف.

إن الآلة فى عصرنا الحاضر تجعل من الرَّثِّ جديدًا ومن الخَلَق قَشيبًا ومن النُّفايات أمرًا ذا منفعةٍ وقيمةٍ.

إن «الكرتون» الذى يُلقَى مع أكوام النُّفايات وإن الملابسَ القديمةَ والأوراقَ المُمزَّقة صارت الآن ذات قيمةٍ تدعم الاقتصاد العام إذا أحسنَّا الانتفاعَ بها كذلك عظام الحيوانات والطُّيور وسائر ما تراه الأسرةُ أنه أمرٌ كاللَّغو وشىءٌ تافهٌ لا يُعتدّ به.

❋ **عبارةٌ بليغةٌ**: إنَّ ذلك كلَّه وغيره يلفتنا إلى الإيجاز وذِرْوة البلاغة وعُمق النظرة وشمول الفكرة فى قول الرسول ﷺ لعائشة: «حسِّنى جوارَ نعم الله».

وماذا يمكن أن يقال عن الزجاج بعد تكسُّره، وعن الصفائح القديمة والحديد ونحو ذلك من المواد.

إن رجال المالِ وأربابَ الاقتصاد لو أرادوا أن يضعوا أمام أنظارهم مَثَلًا يُذكِّرهم بقيمةِ الانتفاع بكل ما فى أيدينا وفى مواقع أنظارنا فإنهم لن يجدوا عبارةً أشمل وأنفع وأعظم توجيهًا لتقدير النعمة والانتفاع بها من قول الرسول (ﷺ): «حسِّنى جوار نعم الله».

إن المرء الذى يُحسن جوار نعم الله هو ذلك الذى ينتفع بالنِّعمة على

وجهها الصَّحيح بلا إفراط ولا تفريط، وهذا معنًى يلحظه المتأمِّل من كلام الرسول (ﷺ) فى تحريضه عائشةَ على أن تُحسن جوارها لنعمة الله.

* **والعقل نعمةٌ**: فالعقل نعمةٌ وهبةٌ ربَّانيَّةٌ ومن إساءة جواره أن نُفرِطَ فى سهر اللَّيالى بدون دافع حقيقىٍّ وسببٍ قوىٍّ لذلك، أو أن نُعرضَه للضَّعف والخبال بتعاطى المفتِّر والمخدِّر ونحو ذلك حتى ينقلب الأمر إلى إدمانٍ ويصيرَ المرءُ تحت سيطرة العادة أو ما يسمُّونه «الكيف» اللعين..

ومن سوء التَّدبير أن نُضيِّعَ العقلَ بالمُسكر فيغيب أوقاتًا تطول أو تقصر عن الوعى.. وقد دُعِى شاعرٌ إلى الشَّراب فقال للدَّاعى: «إنما قَرينى إليك عقلى فدعْه لى» فالرجل يعامل الناسَ ويُبادلهم وعقله قرينُه فى كل ذلك فكيف يقبل عاقلٌ لنفسه أن يُسىء إلى نفسه وعقله بالمسكرات.

* **الصِّحَّة**: وما يقال عن الإحسان فى مجاورة نعمة العقل يقال عن الصِّحَّة العامَّة فمن حُسْن جوارها إعطاؤها كفايتَها من الغذاء والماء بلا إسراف ولا تقتيرٍ فَكِلا طَرَفَى قَصْدِ الأمورِ ذَميمٌ، والحقُّ تبارك وتعالى يرشدنا إلى ذلك فيقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وأثنى على أهل التَّوسُّط والاعتدال من عباده المؤمنين فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

وإنَّ جَعْلَ الصِّحَّةِ العامَّة للبدن عُرضةً للضَّعف أو الهلاك إنَّما يكون من إساءة استعمال النِّعمةِ، وهذه الإساءةُ كما تكون بتعاطى المفتِّر والمخدِّر والمسكر فإنها تكون أيضًا بالتَّدخين بجميع ضروبه، وقد ثبتت أضرارُ التَّدخين ثبوتًا لم يعد فى حاجةٍ إلى دليلٍ أو برهانٍ، فهو إلى جانب ما يسبِّبه من سوء رائحة الفم وضعف القدرة على التركيز لوقتٍ طويلٍ والحدِّ من النَّشاط الجسمىِّ فى

مجال التربية البدنية، إن التدخين إلى جانب ذلك يعرِّض صاحبه لأمراضٍ خطرةٍ، والمدخنون أسهل الناس أمام هجْمةِ الشَّلل ونحوه ممن لا يدخِّنون.

❋ **الإسراف فى العبادة**: إن الرسول ﷺ ردَّ على بعض الصحابة خِطَّته حين أراد أحدُهم أن يقوم الليل لا يرقد، وحين أراد آخر أن يصوم الدهر لا يُفطر، كما عزم ثالثٌ على اعتزال النِّساء فلا يتزوج أبدًا قائلًا لهم: «أمَا إنى والله لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلِّى وأرقد، وأتزوَّج النِّساء» [الحديث فى الصحيح].

وما ذلك إلا لأن هذا النَّحو من الخِطَّة يُضعف قدرةَ البدن، ويُعيقُه عن الاستمرار فى حيويَّته ونشاطه، وإن الرقاد فى الليل بالقدر الكافى يمنح للجسم نشاطًا، ويجدد له حيويته وكذلك الفطر بعض الأيام وصوم بعضها، وإن فى الزَّواج عفَّةً للنفس وتكثيرًا للنَّسل وإبقاءً على النَّوع.

❋ **خير الأمور أوساطها**: وماذا نقول عن الإسراف فى المال أو عن شدَّة البخل به على النَّفس والولد؟ وماذا تقول عن استخدام الكهرباء استخدامًا سيئًا أو ترك صنابير المياه بلا إصلاحٍ بحيث تُبدِّد كمياتٍ من المياه تضيعُ هباء مع أن الماء هو رُوح الحياة؛ وما أشدَّ حاجةَ الإنسان إليه، وما أشدَّ سعيه فى بعض المناطق للبحث عنه فى جوف الأرض لإحيائها ولحاجة الإنسان وسائر الحيوان!.

إن الأمثلة فى حياتنا كثيرةٌ ومتنوعةٌ، وإن عبارة الرسول ﷺ: «حسِّنى جوار نعم الله» ينبغى أن تكون نُصبَ أعيننا دائمًا فى المنزل، وفى الحقل، وفى المصنع، وفى المكتب، وفى الطريق، وعند استخدام السيارة وفى كل شئون حياتنا.

فعلينا أن نُقدر النعمة ونشكر للمنعم واهب الحياة.

❋ **صيانة النعمة**: وعلينا أن نصون النعمة، ونحفظها ونستخدمها استخدامًا

سليمًا وصحيحًا بلا إفراط ولا تفريط، فذلك من شكر النعمة، وإن الشاكر يجد الزيادة بإذن الله. . أمَّا استعمالُ النعمة فى الشر والفساد أو عدم حفظها وصيانتها وعدم الشكر للمنعم؛ فإنه يجعلها عُرضة للضياع، كما قال الرسول ﷺ لعائشة محذرًا: «فإنها قلَّما نفرتْ عن أهل بيتٍ فكادت أن ترجعَ إليهم».

* * *

الحلال الطّيِّب

خلق الله البشر، واستعمرهم فى الأرض؛ إذ ألهمهم بفضله وإحسانه عمارتَها من الحرث والغرس، وحفرِ الأنهار، واتخاذِ البيوت للسَّكن وغير ذلك من الوسائل والأسبابِ المؤدِّية إلى ترقية حياة الإنسان.

وخلق الله - عزَّ وجلَّ - فى الأرض خيراتٍ كثيرةً وجعل للوصول إليها، والانتفاع بها وسائل متعدِّدةً، ومنح سبحانه الإنسان القدرةَ على العمل والسَّعى وعلى اتِّخاذ الأسباب للحصول على الخيرات والطَّيِّبات.

وقد أباح الله - عزَّ وجلَّ - لعباده الانتفاعَ بالحلال الطَّيِّب، وأمرهم بالسعى وبالعمل مع حُسن التَّوكُّل على الله وشكره سبحانه على نعمه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النّحل]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، ويقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. وتعدَّدت أمام الناسِ سبلُ الكسب، وتنوَّعت الأعمالُ، وقد كثرت الطُّرقُ المشروعة لتحصيل المال، وتنمية الحياة، وترقية حياة الإنسان فى مجالات: الزِّراعة، والصِّناعة، والتِّجارة، وسائرِ الحرفِ والأعمال التى تخدم الحياةَ العامَّة، وتحقِّق المصالحَ للناس.

ومن فضل الله على عباده أنه سبحانه وتعالى جعل سعيهم وكدَّهم لعمارة

حياتهم عملًا مشكورًا، ما دام ذلك فى إطار القواعد والأحكام التى شرعهاالله لعباده، وليس فى شىءٍ منها اعتداءٌ على حقٍّ، أو انتهاكٌ لما حرَّم الله، يقول الله - عزّ وجلّ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]. ويقول سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

ويرغِّب الرسول الحبيب ﷺ أهلَ الإيمان فى اتِّخاذ المهنة، ويُحبِّب فى شرف الحِرفة فيقول: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عملِ يده، وإن نبيَّ الله داودَ كان يأكل من عمل يده» [أخرجه البخاريُّ].

ويحثُّ ﷺ على الاشتغال بالزِّراعة فيقول: «ما من مسلمٍ يَغرِسُ غرسًا، أو يزرع زرعًا، أو يَبذُرُ بذرًا، فيأكلَ منه إنسانٌ أو طيرٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقةٌ» [رواه أنس وأخرجه البخاريُّ]. ويقول عليه السَّلام: «التمسوا الرِّزقَ من خبايا الأرض» [عند بعض أصحاب السُّنن].

* **التِّجارة**: وحث الإسلام على الاشتغال بالتجارة؛ لأنها عمادٌ لا غِنى عنه، وأساسٌ لنموِّ الزراعة وازدهار الصناعة وسائر الحرف، مع ما فى التجارة من أبوابٍ للكسب المشروع والسعى المحمود المشكور لمن اتقى الله وسلمت تجارتُه من الحرام والشبهات، وفى الحديث: «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعةَ أعشارِ الرزق»، وحسب السَّعى والعمل شرفًا أن يكون رسلُ الله وأنبياؤُه ممن اشتغلوا بالحرف والمهن، فقد اشتغل نوح - عليه السلام - بالنِّجارة، وكان داود - عليه السلام - حدادًا أُلهم صناعة الدروع، وكان إدريس - عليه السلام - خيَّاطًا، واشتغل الحبيب المصطفى ﷺ بالرَّعى وبالتِّجارة، وما من نبىٍّ إلا وقد رعَى الغنمَ وكانت له حرفةٌ أو عمل مع علوِّ مكانتهم، وشرفِ منازلهم عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

* **العمل مع النِّيَّة الصالحة عبادةٌ**: إن العمل للدُّنيا والسَّعى لإصلاح

المعاش إذا اقترن بالنِّيَّة الصالحة والرَّغبة فى كفِّ النَّفس عن الحرام، وإغناء العيال، والإسهام فى دعم قوَّة الأمة، كان العامل فى هذه الحالة كالمجاهد فى سبيل الله، ولنسمع هذه البشرى التى رُويت عن رسول الله ﷺ [وجاءت عند بعض أصحاب السنن]: «من سعى على عياله من حِلٍّ فهو كالمجاهد فى سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالًا فى عَفَاف كان فى درجةِ الشهداء».

وجاء فى الأثر عند بعض أصحاب السنن: «ليس خيرَكم مَن ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكنْ خيرُكم من أخذ من هذه وهذه».

فالدنيا مطيَّةُ الآخرة، والعاقل يأخذ متاعَها وسيلة للسعادة الأخروية.

وعلينا أن نتحرَّى الحلالَ الطيبَ من المكاسب فإن آكلَ الحرام إنما يأكل نارًا، وإن المال الحلالَ إذا خالطه الحرامُ نُزعت بركتُه، وفُتحت أمام صاحبه أبوابٌ من الشرور والمفاسد تسوء عاقبتها.

إننا حين نفكر تفكيرًا سديدًا على صوابٍ وهداية: لَمَا حلفَ تاجرٌ على سلعة، ولا سرق بائعٌ من ميزانٍ أو كيل، ولا احتكر أحدٌ طعامًا أو غيره مما يحتاج إليه الناس، ولَمَا سعى عاقلٌ إلى إغلاء الأسعار على الناس، ولما خان صانعٌ فى صنعته، بل لتركنا شيئًا من الحلال مخافةَ الوقوع فى الشبهات.

إن الحلال الطيبَ أبوابُه كثيرة ومُيسَّرةٌ بفضل الله، أمَّا الحرامُ فمداخلُه رديئة، وطرقُه مظلمةٌ، وكسبُه خبيث، وآكلُه يقسو قلبه ويُحرَم من مرضاة ربه، وفى الحديث: «ولا يكسب عبدٌ مالًا حرامًا فيتصدَّقُ به فيُقبلَ منه (أى لا يقبل منه) ولا ينفقُ منه فيبارَكَ له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النَّار» [عند بعض أصحاب السُّنن].

* * *

المؤانسة يعرفها أهل المحبّة فهل عرفناها؟

❋ ذِكْرُ الله واستحضارُ كمال عظمته ورحمته فى القلب:

وبالمؤانسة بتلاوة كتابه وبذِكر عظمتِه وكمال سلطانه ورحمته، وباستحضار خوفِ غضبِه ورجاء رحمتِه سبحانه ترتاحُ النُّفوس، وتشعُر بالسكينة، ويزول عنها كلُّ همٍّ وقلق، وتتوجه القلوبُ بالرغبة والرهبة، بالرجاء والخشية إلى مالك القلوب ومُصرّفِها حيث شاء، تدعوه سبحانه، وتبتهل إليه أن يثبتها على دينه الذى رضيه اللهُ لعباده، وهو دينُ السلام والسلامة، دينُ الأمن والأمانة، وبالرجاء والدعاء تطلب النفوس والقلوبُ من بارِئها العونَ والتوفيق لتوجيه قُواها وعملِها لطلب مَرْضاةِ الواحدِ الديَّان الذى يرحمُ من رَحِم عباده، ويقبل توبةَ التائبين، ويغفر للنادمين، ويفتح باب رحمته للفارّين من لهب المعاصى وجحيم الغفلة والذنوب.

وكلما اشتدَّ الرجاءُ قويت المحبةُ، وكلما ازدادت الخشيةُ تيقَّظ وقَوِى الوازعُ الدينى والرقيبُ الداخلى الذى هو أنفع للفرد من القوانين ورقابة الإنسان للإنسان؛ لأن الوازع الدينى أقوى فى الزجر والردع، فيحيا صاحبُ المؤانسة الذى يراقب ربَّه وينظر إليه دومًا فى سرَّائه وضرَّائه فى سرّه وعلانيته يحيا فى توازنٍ مستمرٍّ، فإذا حدّثته نفسه الأمّارةُ بالسُّوءِ قال: ربى شاهدٌ وناظرٌ إلىَّ فكيف أغيب عنه؟ لا حيلة لى؟ فمرضاتُه سبحانه أولى، ألوذ برحمته من شرور نفسى، وإنَّ طلبَ رحمته هو أعظمُ مُناى، وهؤلاء الذين تتيقَّظ قلوبُهم خشيةً ورهبةً ورجاءً وطمعًا هم الذاكرون أصحابُ القلوبِ اليقظة والضمائرِ الحيَّة التى صقلها صِدقُ اليقين، وقد أثنى عليهم ربُّهم الرحيمُ بهم فى كلامه القديم فبشَّرهم برحمةٍ منه ورِضوانٍ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، إذا ذكروا رحمتَه بعباده ولطفه بهم اطمأنت نفوسُهم، وعظُم رجاؤهم فى قبول التَّوبة والعمل الصالح وطمعوا فى مغفرة الذَّنب، وهم

أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ، ٣٥ والأنفال: ٢]، وإنهم إذا ذكروا عظمة سلطانه وشديدَ عقابه وكمالَ قُدرته ارتاعت نفوسُهم، وكفُّوا عن الظلم وعن الهمِّ به وعن معاصى الله خوفًا من سوء العاقبة، فقلوبهم بفضل هذه المؤانسة على الخوف والرجاء؛ ليظلُّوا بحبل الله متمسكين وبشريعته عاملين، حتى يَحْظَوْا بوعد الكريم الذى لا يتخلَّف فضلًا منه وإحسانًا، هؤلاء الذَّاكرون الحامدون الشاكرون هم أهلُ المؤانسة الذين إذا دُعوا إلى باطل، وإذا حدَّثتهم أنفسُهم بإخلال بواجبات الإيمان ذكروا وعيد الله وغضبه، وفَزِع الرَّقيب الداخليُّ قائلًا: اللهُ ناظرٌ إليك، اللهُ معك، أين تذهبُ منه، المُلك مُلكه، والكلُّ خاضعٌ لسلطانه، فيرتدّ للمرء عقلُه الواعى، ويكفُّ عما همّ به أو يتوب عمَّا سقط فيه بلا تسويفٍ، مع شعورٍ بشدَّة الخوفِ وقوةِ الرَّجاء، ويلجأ إلى المؤانسة ببكاء النَّدم واستحضار عظمة من لا عظيمَ سواه، كما يأنسُ بالتَّعبُّد خشيةً ورغبةً على مُقتضى ما كان يتعبد رسولُ الله ﷺ، يتلو كلامَ الله أو يستمع له مُنصتًا بتدبُّرٍ وخشوعٍ، يذكر الله تضرُّعًا وخوفًا، يسبحه، يستغفره، يوحده ولا يرى فى الوجود غير إحسان خالقه إليه ونعمه التى لا تُحصى، ويذكر غضبه سبحانه الذى تزول منه الجبالُ الرَّواسى وتندكُّ الأرضُ دكًّا.

إنها المؤانسة بتدبُّر كلام الله وبذكره وشكره وباستحضار عظمته وسلطانه وبالنَّظر إلى رحمته وعفوه بعين الرَّجاء والثِّقة فتطمئن القلوبُ بعد الوجل، ولا يتسرب اليأسُ من رحمة الرَّحيم الرحمن، فإنه لا ييأسُ من رحمة الله - عزَّ وجلَّ - إلا القومُ الكافرون ولا يقنط من رحمته إلا الضالون، إن النفس الطيبة تطمئن بوعد العظيم الجليل الكريم لأهل المحبة والمؤانسة والطاعة واليقين الصادق؛ فيعظم الرجاءُ مع استمرار الخشية حتى لا تهجُمَ الغفلةُ على القلب.. وقانا الله منها.

* * *

اللّيالى العشر والمؤانسة الأعظم

أقسم اللهُ - عزَّ وجلَّ - فى مُحكَم كتابه بالفجر والليالى العشر ليلفتَ العبادَ إلى شرفها وكثرة بركاته وخيراته فيها، وليغتنمَها أهلُ المحبة الذين يحدوهم الشوقُ دومًا إلى مرضاة ربِّهم وإلى الرغبة فيما عنده من الرحمة وحُسن الثَّواب.

ففى فجر كلِّ يومٍ له سبحانه آيةٌ؛ يطلع الفجرُ فنشاهدُ آيات باهرات ناطقاتٍ بقُدرة خالق الفجر وآياته، وشاهداتٍ بعظمة مُقدِّرِه؛ إذْ لا يختلُّ أوانُ طلوعِه يَعقُبُ الليلَ ولا يضطرب ميزانُ بزوغه ويبدأ به النهارُ؛ لأن الحيَّ القيُّوم أحسنَ كلَّ شىءٍ خلَقه وأعطى كلَّ مخلوقٍ سماته ونظامَه، فليس له سبحانه شريكٌ فيحدثُ الاضطرابُ عند الخلاف، كما يحدثُ بين الشَّريكين أو الشُّركاء من البشر، وهو سبحانه كاملُ القدرة كاملُ السُّلطان يُولج الليل فى النهار، ويُولج النهار فى الليل، فتتفاوت مقاديرهما تبعًا للفصول التى أرادها مُقدِّرهما، فيطول الليلُ فى فصلٍ، ويطول النَّهارُ فى فصلٍ آخرَ، وساعاتُ الليل والنهارِ معًا ثابتةٌ ونظامُ الفجر هو هو بجماله وروعته يبدأ به النهارُ، وينتهى ببزوغه الليلُ على نظام لا يختلُّ يبعث فى النفوس الرغبةَ فى التفكُّر والتدبُّر وفى إجالةِ الفِكر فى آيات الرحمن، ويرى عبادُ الرحمن فى الفجر وآياته كمالَ عظمةِ الديَّان فيخرون لله سُجَّدًا، يستقبلون نهارهم بالصلاة شكرًا لله على حفظهم فى ليلتهم وعلى نعمته عليهم باستقبال يومٍ جديد يكون على عمل ابن آدم يوم القيامة شهيدًا، فهل هناك مؤانسةٌ فى آخر الليل وأول النهار أعظمُ من المؤانسة بالتدبُّر والتفكُّر وعبادةِ الرحمن، والتَّضرُّع إليه لطلب الرَّحمة والرِّضوان، وهل لنا غيره سبحانه؟

ويُقسم الخالقُ سبحانه بمخلوقٍ آخر وهو اللَّيالى العشر تنبيهًا على فضل

هذه الليالى وحثًّا على اغتنام الفرصة، فمن زرع حصد، ومن جدَّ وجد، ومن استكثر من الخير مع الإخلاص والمحبة وجد الكرامة، ومن زرع الشَّوك وجد النَّدامة، ومن الشَّوك: السَّهرُ فى الباطل، وفى مجالس اللَّغو والنميمة والغيبة وتعاطى المحرَّمات كالحشيشةِ والمسكرات والمخدرات وأكل الحرام والنظر إلى الصور التى تُشوش على القلب والعقل، وتشغل الإنسانَ عن النوم والراحة أو عن ذكرِ الله وتلاوة القرآن.

إن الليالى العشرَ عظمتُها من عظمة ما جعل الله فيها من الخير وأبواب البر، وكان رسول الله ﷺ مع عالى مقامه فى التواضع والذل بين يدى رب العالمين، كان ﷺ أشدّ عزمًا وأقوى جلدًا فى الطاعة والعبادة فى هذه الليالى المباركات، ففيها بدأ نزولُ القرآن العظيم، وفيها الليلة المباركة التى تعظم فيها أجورُ أهل المؤانسة بالتدبر والتفكر والندم والاستغفار وذكرِ الله وشكره وتلاوة القرآن، مع الإلحاح بالدعاء فى طلب مرضاته سبحانه ورحمتِه بنا وبالمسلمين وأن يكفينا شرّ الطامعين وجبروتَ الملحدين وقسوةَ أعداء الحق والدين، وإننا إذا سِرنا على طريق الحب والشوق عشنا فى هذه الليالى نتمثَّل رسولَ الله ﷺ، فهو قائم بيننا بسُنته الهادية وأعماله وأقوالِه الشافيةِ، نتعبد، ونستزيدُ مقتدين متبعين من أبواب البر كالصدقات وصلةِ الرحم والدعاء للوالدين وطلب مرضاتهما والسعى فى إزالةِ أسبابِ الخصومات والشحناء، وفى هذه الليالى يحلو التهجدُ والاعتكافُ ولو زمنًا قليلًا حسب الجهد والطاقة للمؤانسة فى ضيافة الرحمن ببيتٍ من بيوته وكلُّنا مِلكٌ له.

إنها العشرُ الأواخرُ من رمضان إنَّها أيامٌ وليالٍ يضاعف الله فيها أجور العاملين المخلصين، ويشبهها فى البركة والبرِّ والرَّحمة العشرُ الأول من ذى

الحجّة كلَّ عامٍ، حيث يطيب للمؤمنين كثرةُ التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّكبير وتلاوة القرآن وكثرةُ الصَّوم فى أيَّامها، أو صومُ تسع الأيَّام الأولى منها كُلِّها، ويحرم صومُ يوم العاشر ولا يُقبل من فاعله لأنه يومُ عيد عظيم، يوم فرحٍ، وسرورٍ وتعاطفٍ وتراحم ومودَّةٍ وتزاورٍ.

فطوبى للمشمِّرين فى ميادين البرِّ والخيرات أهل المحبة والمؤانسة، ونرجو من الله أن يَكْثُروا ويتكاثروا حتى تنمحىَ الشُّرورُ، ويزول الباطلُ والزُّور، إنه سميعٌ مجيب الدَّعوات.

* * *

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

[فصلت].

الصّدق أمانةٌ والكذب خيانةٌ

الصِّدقُ والأمانة رأسُ مالِ من لا مالَ له، وتاجٌ على رؤوس أصحَّاءِ القلوب أهل التَّقوى والإخلاص، وإنّ الكذبَ والخيانةَ دناءةٌ وخسةٌ وعلامة على النفاق، ووصمةُ عارٍ فى جبين الفاشلين أهل الضَّياع، وكما لا يجتمع الإيمانُ والكفر فى قلب الشخص فى وقتٍ واحد، فكذلك لا يجتمع له الصدقُ والكذب معًا ولا الأمانةُ والخيانةُ معًا، فإذا تجلّت الأمانةُ فى القلب طردت الخيانة، وإذا استقرت خصالُ الصدق والحرص عليه زال الكذبُ بعون الله، كما أنه إذا تجلّى الإيمانُ فى القلب وسطعت فيه أنوارُه امتنع عنه ظلامُ الكفر وخصالُ أهلِ النفاق بإذن الله وإحسانه.

وإذا كان الإنسان صدوقًا اكتسب المحبة والثقةَ، ونجحت مقاصدُه ووجد العونَ من المحيطين به عند الحاجة؛ ذلك أن الثقة فى صدقه تبعث على الثقة فى أمانته فالصدوقُ لا يجور ولا يخون، وبذلك يَسْلمُ للصادق عِرضُه وخُلُقُه فإن الصدق يدلّ صاحبَه على كل خير وبرٍّ، ويأخذ بيده إلى الأبواب والأعمال والأخلاق الصالحة التى تؤدّيه إلى جنات النعيم؛ فالصادقُ يستقيم بفضل الله وخوفه من ربه يستقيم فى مسالكه وتوَجّهاته، وإن نقيضه الكذوبُ، فإذا تعوّد اللسانُ الكذب جرَّ ذلك صاحبَه إلى كل نقيصةٍ، وهَوَّن عليه كلَّ خسيسة، فهو يخون فى نقل الخبر فيُضلِّل السامعَ، ويغيِّر الوقائع، ويزوِّر الحقائقَ وتلك خيانةٌ تجرّ إلى تغيير القلوب، وإضاعة الحقوق، وظلم قوم، والتغرير بآخرين، ويَهُونُ على الكذوب إنكارُ الأمانات، وتسهل عليه شهادةُ الزور والإيقاعُ بالبرىء وتبرئةُ المجرم الظَّلوم، وإن تزوير وثائقِ السفر، وتزوير الأوراقِ النقدية، والشهاداتِ والبطاقاتِ ونحوها إنما يتأتّى هذا التزوير ومثله عن طريق فساد التربية الذى أدّى إلى خرابِ الضَّمائر واستقرارِ الكذب فى

النَّفس، ومن الكذب تولَّدت كلُّ النَّقائص، وقد بيَّن لنا الحبيب الهادى ﷺ هذا النَّمط من العيوب الأخلاقيَّة ذاتِ الأثر المدمِّر فى حياة الفرد والجماعة فى عبارةٍ موجزةٍ فيها إعجازٌ: «فإن الكذبَ يَهدى إلى الفجور» [عند البخارىّ من حديث عبد الله بن مسعودٍ] وكلمة «الفجور» تدلُّ على كل خصلةٍ قبيحةٍ وفعلةٍ ذميمةٍ، ولمَّا سأله رجلٌ: «وما عملُ أهل النار؟ قال عليه السَّلام: الكذبُ، إذا كذب العبدُ فجَر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النَّار»

[مسند أحمد رواه ابن عمروٍ].

وفى وصيته للمسلمين كما رواه أبو بكر الصِّدِّيق: «عليكم بالصِّدق فإنه مع البِرِّ، وهما فى الجنة، وإيَّاكم والكذبَ فإنه مع الفجور، وهما فى النَّار» ففيه تحذيرٌ شديدٌ من الكذب؛ لأنَّ فيه الهلكةَ وفى كتاب الله - عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] والأبرار هم أهل الصِّدق الذى يدُلُّ صاحبه على كلِّ برٍّ وخيرٍ، والفجارُ هم أهل الكذبِ والفجورِ فى الخصومات والدعاوى والبيع والشِّراء وسائر المعاملات المعنوية والمادية، وقد جعل الله تعالى اللعنةَ على الكاذبين، فقال سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات] أى الكاذبون أى لُعِنُوا، وهو دعاءٌ عليهم بالهلاك لكثرة كذبهم وعدم مبالاتهم بتحرِّى الحقيقة فيقولون ما يخطر على البال، فهم أصحابُ القول المختلف، قد يُخبرون عن الأمر الواحد بأقوالٍ مختلفةٍ من عند أنفسهم دون مراعاة حقيقة الواقع؛ لأنَّ الصِّدق هو مطابقةُ الواقع بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، ومن لم يفعل ذلك فهو خَرَّاصٌ ملعونٌ والعياذُ بالله، ويروى السمعان بن النوّاس التَّحذيرَ النَّبوى من الكذب ومن إلقاء الأخبار والكلام عفْوَ الخاطر أو مع تعمُّد الكذب؛ لأن فى ذلك تضليلًا للسَّامع قد تترتَّبُ عليه مساوئ ومفاسدُ وخصوماتٌ وضياعُ حقوقٍ ونحو ذلك: «كبُرت خيانةً

أن تُحدِّث أخاك حديثًا هو لك مُصدِّقٌ، وأنت له كاذب»، وفى حديث أبى هريرة: «والكذبُ ينقص الرِّزق»، وفى البشرى للصَّدوق بدوام السَّتر وسعة الرِّزق جاء فى الحديث: «ما أمْلق تاجرٌ صَدوقٌ» أى ما افتقر صدوقٌ، ولكنَّ العيب فينا - نحن - حين ينزل بأحدنا الإفلاسُ وسوءُ الحال بسبب منع الزكاة أو الغشّ والتدليس والكذب والأيمان الكاذبة الغَموس، فلنسأل أنفسنا دومًا ونراجعْ عيوبنا ولنتبْ إلى بارئنا، ونطلب منه العفو والرحمة وسعةَ الرزق والهدايةَ للصدق والحق ولزومَ صراطه المستقيم، وهذه بشرى لمن يدربون أنفسهم على الصدق حتى يصير عادةً ملازمةً، فمن الحديث الذى رواه أبو أُمامة وأخرجه أبو داود: «أنا زعيمٌ ببيتٍ فى وسط الجنَّة لمَن ترك الكذبَ وإن كان مازحًا» ﷺ فهو مرشدنا وروحنا وحبيبنا.

إن الصِّدق منجاةٌ والكذبَ مَهْواةٌ فلنتدبر حالَنا ولنربِّ أولادنا على التزام الصِّدق فى كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ؛ نربيهم بالقدوة فيكون الأب صدوقًا وتكون الأمُّ ملتزمةً الصِّدق مراقبةً للسانها حتى فى أقلِّ الأمور، ولنشجِّع الأولاد على أن يقولوا ما عندهم ما داموا صادقين، إن الكذب والصِّدقَ عدوَّان لدودان لا يجتمعان فى قلبٍ ولا على لسانٍ واحدٍ، وإن الهداية نطلبها من الله.

* * *

المال لا تنقصه الصَّدقات

*** الأسخياءُ أحباب الله:**

إنَّ خزائنَ الله لا تنفدُ أبدًا، وما نقص مالٌ من صدقةٍ، ومن أنفق فى سبيل الله، وواسَى المسكينَ والفقير وذا الحاجة أنفق الله عليه، وبارك له فى ماله، وضاعف له الثَّوابَ مع خُلوص النِّيَّة وصدق اليقين وسلامة الدين، وفى

الحديث القدسىّ: «يا ابنَ آدم أنفِق أُنفق عليك»

[رواه أبو هريرة وأخرجه البخاريُّ].

وفى الحكمة: «تفاوتُ الأرزاق لا حيلةَ للعبد فيه»، فياذا المالِ طَهِّره بالصَّدقة، فالبخلُ لا ينفع صاحبه؛ لأن دنيانا فانيةٌ وسنترك كل شىء، ومع كثرة الرِّزق وإقبال الخير لا يضرّ الإنفاقُ فى سبيل الله وفى وجوه الخير، فالبركةُ من الله وحده وهذا هو الباقى:

أنفِقْ ولا تَخْشَ إقلالًا فقد قُسِّمَت … على العبادِ من الرَّحمنِ أرزاقُ
لا ينفعُ البُخْلُ مَعْ دُنيا مُوَلِّيةٍ … ولا يَضُرُّ مع الإقبالِ إنفاقُ

وفى الأثر: «أنفِق ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالًا» إنَّ مِن أعظم ما يقدِّمه المرء، ويدّخره لنفسه: إدخالَ السُّرور على قلبِ مؤمن، بأن تقدِّم له العون عند حاجته، أو تقدِّم له الكساء والغِطاء، أو تسدّ جوعته، أو تعينه على قضاء ديونه، أو تُزيل عنه القلق عند مرضه أو تخفِّف عنه أعباء نفقات الأولاد والعيال مبتغيًا وجه الله - عزّ وجلّ - وإن السَّخىّ قريبٌ من الله، قريبٌ من جنَّات النَّعيم، وعند الطَّبرانىّ من رواية الحسن بن علىّ - رضى الله عنهما-: «إنَّ من مُوجبات المغفرة إدخالَكَ السُّرورَ على أخيك المسلم».

وعند أبى الشَّيخ (البخارىّ) فى لفظٍ من رواية ابن عمر - رضى الله عنهما -: «أحبُّ الأعمال إلى الله - عزّ وجلّ-: سرورٌ تُدخله على مسلمٍ، أو تَكْشِفُ عنه كُربةً، أو تطرد عنه جَزعًا، أو تقضى عنه دينًا» إننا فى أشدِّ الحاجة إلى هذا التَّكافُل والتَّعاطُفِ والتَّراحُمِ ورعايةِ الغنى للفقير والقوىِّ للضَّعيف دون منٍّ ولا أذًى ولا مصلحةٍ شخصيَّةٍ، ولكن نفعل الخير ابتغاء الرَّحمة والخير من المنعم الوهّاب.

فإنَّ الصَّدقة مع الإخلاص تدفع الآفات عن المال وتطفئُ غضبَ الله - عزّ وجلّ - وتُهوِّن سكرات الموت، وما تلَفَ مالٌ فى برٍّ أو بحرٍ إلا بسبب منع

الزّكاة، والشُّحّ بالمال على مستحقّيه، فالمالُ مالُ الله والفقراءُ عِيالُه.

وفى الحديث: «الصَّدقةُ تُطفئ غضبَ الرَّبِّ، وتدفعُ مِيتةَ السُّوء»

[أخرجه الترمذىُّ ورواه أبو هريرة]

ورُوى أنَّ رجلًا قال لرسول الله ﷺ: «إنِّى أكره الموتَ، قال: ألك مالٌ؟ قال: نعم، قال: قَدِّم مالَك، فإنَّ المرءَ عند ماله».

والصَّدقةُ من أسباب شِفاء الأمراض بإذن الله خاصَّةً إذا كانت خالصةً لوجه الله، وأتبعها المؤمنُ بالدُّعاء لنفسه مع التَّوسُّل إلى الله بصالح العمل ليزيل اللهُ بفضله الكربَ، ويَشفى المريضَ، ويَهْدِى الولدَ، ويباركَ فى المال، ويسْترَ العيوب، ويُطفئَ نارَ الفتن بفضله وإحسانه؛ لأنَّ الصَّدقة الخالصةَ لله عملٌ صالحٌ نتوسَّل به لطلب الخير ودفْع الضُّرِّ والشَّرّ، وفى الحديث الذى رواه الحسن – رضى الله عنه-: «حصِّنوا أموالكم بالزَّكاة، وداوُوا مرضاكم بالصَّدقة، واستقبلوا أمواجَ البلاء بالدعاء والتضرع» [عند بعض أصحاب السنن].

فطوبى لمن أدخل السرورَ على قلب مؤمنٍ، وطمأن خاطر اليتيم، وأعان على طاعة الله، وأسهم فى سَتْر العورات وحِفْظِ الكرامات، طوبى لمن كسا عاريًا، وأشبع جائعًا، وأطعم صائمًا، طوبى لمن جعله الله – عزّ وجلّ – مِفتاحًا للخير مِغلاقًا للشَّرِّ، ساعيًا فى قضاء حوائج الناس.

إن السَّخاء وحُسن الخُلق من أخصِّ خصال أهل الإيمان وسلامة الدِّين وعند أبى الشيخ من رواية عائشة – رضى الله عنها – وعن أبيها: «ما جُبلَ ولىٌّ لله – عزَّ وجلَّ – إلا على السّخاء وحُسنِ الخُلق».

أما الشّحيح الضَّنينُ بالخير مانعُ الزَّكاة، المُمْسِكُ وهو قادرٌ فلا يواسى مُعدمًا، ولا يعطف على فقيرٍ ولا يتيمٍ ولا أرملةٍ، فهو كما جاء فى حديث ابن عُمر: «الشحيحُ لا يدخل الجنَّة» (عند الطَّبرانىّ). وعند أبى داود وابن حبَّان

عن أبى هريرة – رضى الله عنه–: «شرُّ ما فى الرَّجل: شحٌ هالعٌ، وجُبنٌ خالعٌ».

وقانا الله السُّوء، وحفظنا من الشُّحِّ والبخل، ورزقنا السَّماحةَ وحبَّ المساكين فإنهم أحبابُ رسولِ الله ﷺ.

* * *

أدّبوا أولادكم تكسبوا مرضاة ربكم

إنَّ أولادنا هم زهورُ حياتنا ورياحينُها، وبهجةُ قلوبنا وفلذاتُ أكبادنا تمشى على الأرض، وهم غِراسُ مستقبل أمتنا جيلًا بعد جيل، فإن غرسنا طيِّبًا جنتْ الأمةُ أمنًا واستقرارًا وازدهارًا، وإن غرسنا شوكًا واعوجاجًا وأهملنا الغرس فإنه يتكاثر ويؤذى ونَجنى ألمًا وقلقًا، ثم نشارك فى الذنب والإثم، حين يقال: منحنا الله العطيّةَ الابنَ والبُنَيَّةَ على فطرةٍ سليمةٍ نَقِيَّةٍ كأَنّ الولدَ منهم صفحةٌ بيضاءُ نَنقُشُ عليها ما نشاء، فإن كان خيرًا أصلحنا وجنينا ثمرًا طيِّبًا شهيًّا، وإن كان غيرَ ذلك فلن نجدَ إلا المُرَّ والحنظل وضياع الابن والبُنية، فليتدبر ذوو البصائر قبل أن نُحاسَب ويقالُ لنا: لِمَ أسأت التربية؟ ولِمَ أهملت الرعيّة؟ وأنت راعٍ لم تعرف حَقَّ النِّعمة فيما استرعاك الله، ويتعلق أولادُك أو تلامذتُك أيُّها المعلِّمُ برقبتك قائلين: ضيَّعتنا، أشقيتنا، أهملتنا، نشكوك لربنا رجاء أن يخفِّف عنا، وذلك يوم يفرّ المرء من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبته وبنيه قائلًا: نفسى، نفسى.

إن رعاية الأولاد وتأديبهم التأديبَ السليم الصحيحَ فى نور الكتاب وسنة الحبيب ﷺ مع إبعادِ كلِّ أنواع المؤثراتِ الشريرة من محيط حياتهم إن هذا أمرٌ واجبٌ على الأبوين، وعلى كل المؤسَّسات ذات الصلة بالأمة وتربية أبنائها؛ وليس هناك ما هو أعظمُ لتربية الفرد وإعداده على أفضل وجه لخدمة أهداف الأمة فى الرخاء والازدهار والأمن من تربيته على مبادئ دين الله والأوامر الإلهية وعلى الأخلاق السَّنِية المحمَّديَّة التى كان عليها خيرُ البريَّة وإخوانُه

المرسَلون والنَّبيُّون صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين.

إن أفضل عطيةٍ من الوالد لولده أن يُنشِّئه على طاعة الله وحُبِّ الخير والخُلق الحَسن والاستقامة وكراهية الشَّرِّ والفساد، وأن يطهِّر بيئتَه من كل عوامل الضَّغط النَّفسيِّ بالشر والفساد، سواءٌ كانت هذه العوامل بالصَّوت أو بالحركة والصُّورة أو بالصُّحف والكتب ذاتِ الأهدافِ الرديئة والأذواق البذيئة والأغراض القبيحة، وغير ذلك مِمَّا لا يَخْفَى على أحد، وأن ينتقى له الكبيرُ ما يقرأ ويُغذِّى فكره ويُحسِّنُ له سلوكه ويساعده فى معرفة حقوقه وواجباته، ويفتح أمامه أبوابَ الأمل فى أن يكون عضوًا نافعًا منتجًا مهذَّبًا، يسلك مسالك الصَّالحين الراشدين الذين عرفوا ربَّهم واقتدوا برسولهم.

وفى الحديث الشَّريف: «ما نَحَل والدٌ ولدَه من نِحْلَةٍ - أى عطيةٍ وهِبةٍ - أفضلَ من أدبٍ حسَن» [رواه عمر بن سعيدٍ وجاء فى شرح كتاب «الأدب المفرد»] لأنه بالأدب الحسَن يصون الناشئُ شرفَ الانتساب إلى أسرته، كما يصون مواريثَه المعنوية والماديَّة، ويراعى أمانة عمله فى الكبر، فالأدبُ الحسن والخُلق الكريم كنزٌ لا يفنى، وبه تُصان الماديَّاتُ ويتمُّ التَّصرُّفُ فيها بعقلٍ وحكمةٍ وفى الوجوه الصَّحيحة النَّافعة، بخلاف ما عليه الأشرار والمنحرفون.

وفى الحديث : «لأن يؤدِّب الرجلُ ولده خيرٌ من أن يتصدَّق بصاعٍ» [رواه جابر بن سمرة وأخرجه البخاريُّ فى الأدب المفرد] وفى الحديث الذى روته عائشة - رضى الله عنها-: «من ابْتُلِى من هذه البناتِ بشىءٍ فأحسنَ إليهنَّ - أى بالرِّعاية والتَّربية - كنَّ له سترًا من النَّار» [أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ] وفى رواية ابن عبَّاسٍ عند الطبرانيِّ: «فأنفقَ عليهنَّ، وزوَّجهُنَّ، وأحسَن أدبهنَّ».

فطوبى لمن يرحم أولاده ويُربِّيهم على طاعة الله ويكون هو لهم قدوةً صالحةً، وطوبى للمعلِّم الذى يُراقبُ ربَّه فى تربية وتوجيه تلامذته؛ لأنه

المشارك للأب المؤثِّر فى عقل التِّلميذ وعاطفته وميوله، فإذا أحسن المعلم واجتهد مخلصًا فلن يضيع عمله عند ربِّه.

❋ الحبل على الغارب وعواقب سوء التَّربية:

إن الحفاظ على تماسك الأسرة، والاستمراريةَ فى احترام الصَّغير للكبير وفى توقير المتعلِّم للمعلِّم، ورحمةِ الكبير بالصَّغير أمرٌ تفرضه قواعدُ الأخلاق المنضبطة مع أوامر الدِّين، المتطابقةِ مع فِطرةِ الإنسان المقتضيةِ لدفع سفينة الحياة فى الاتجاه السليم بعيدًا عن هدير الأمواج الثائرة بالشرور وبالمفاسد والقيم الناقصة، والفتن المدمرة، وبالنتُوء وشَواذِّ الأخلاق المعوِّقة للمسيرة الخيِّرة الدافعة إلى الانحراف والهلاك.

هل سمعنا على مدى تاريخ أمتنا العريقة أن الآباء والأمهات يهجرون بيوتَهم هربًا من شدة سوء أخلاق أولادهم، ومن تزايد شرور أقوالهم وأفعالهم؟ إننا - أمةَ الإسلام - والحمدُ لله أمةُ البيتِ المستقرِّ والعلاقاتِ السليمةِ، والروابطِ الأُسَرية والاجتماعية المَتينة، لم تصلْ ولن تصل بإذن الله أمتنا العظيمةُ إلى الحدِّ الذى أصبح مصدرَ شكوى وقلقٍ وخوفٍ فى دُول المدنية الأوربية المعاصرة بعد أن أباحوا ما لا يجوز إباحتُه، وبعد أن وضعوا الحريةَ فى غير موضعها الصَّحيح، وأطلقوا للعواطف الجانحةِ والنَّزعاتِ الخبيثة والشهواتِ المدمِّرة العِنان، ووضعوا حبلَ الحِصان الجامِح على رَقبته وأطلقوه فأخذ يدمِّر هنا وهناك، دمَّرَ نفسَه، وصار مبعث شرٍّ وسوءٍ لأمته يرتع كما يحلو له؛ إنه لولا ضوابطُ الدِّين وهدايتُه وقوانينُه لانفرط عقدُ الحياة الإنسانية، ولصار الجميعُ هباءً منثورًا فى غابةٍ كبيرةٍ، فالحمدُ لله على نعمة دينِ الله.

ودليل ذلك ما اخترتُه من تقاريرَ شِبه رسمية تحمل صيحاتٍ باكيةً منزعجةً قلقةً صدرت فى أمريكا، ونقلتُ بعضها فى كتابى «إلى البرهان يا أولى

الألباب» [عن جريدة الشَّرق الأوسط فى ٢٨ من جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ ٩ مارس/ آذار ١٩٨٦م] وفيها: حَذّر خبراءُ وعلماءُ اجتماعيون أمريكيون من خطورة ظاهرةٍ اجتماعيةٍ آخذةٍ فى التفشِّى ممّا يُهدِّد آخر ما تبقَّى من لُحْمَةِ العائلةِ الأمريكية وتماسُكها، والظَّاهرةُ هى هروبُ الأبوين أو أحدِهما من المنزل بسبب عدم قدرتهما على تحمُّل العيش مع أبنائهما خصوصًا الذين هم فى سنِّ المُراهقة قال «سام جونسون» الطَّبيب النَّفسانىُّ: «إنَّ أعدادًا مُتزايدة من الآباء والأمهات يُفضِّلون الهربَ من البيت على العيش مع أبناءٍ لا يَقْدِرون على تَحمُّل تَصرُّفاتهم غير الأخلاقية، وإنَّ الأخلاقَ المنحطَّةَ لهؤلاء الأولادِ وسلوكهم وتصرفاتهم المتغطرسة تُهدِّدُ ما تبقَّى من لُحْمَة وترابُط العائلة الأمريكية، إنَّهم لا يحترمون أىَّ قيمٍ اجتماعيةٍ ويستخدمون الكلام البذىء، ولا يُقيمون وزنًا لأىِّ سُلطة».

وقال غيره من الإخصائيين: «فى الماضى كان الأطفال أو الأبناءُ عمومًا عاملًا مساعدًا على تكوين الأسرة وتمتين روابطها، فأصبحوا اليوم لعنةً على تماسك الأسرة».

لقد زرعوا ويزرعون فى أوربا وأمريكا الشَّوكَ وهم اليوم يحصدون الحنظل والمرّ ويدمِّرون أنفسَهم بأنفسهم، ويتفاخرون بالمعاصى وبأخبث الأفعال، وأدنأ الأخلاق وتفشّى العنف والرذيلة والعاداتِ المرذولة مع التَّشرُّد خاصة الأطفال بالملايين فى البرازيل وغيرها يضيعون فى الشَّوارع وتحت الأشجار وفى قبضة عصائب المخدرات واللصوص والشواذّ المنتنين، وقل ما شئت من سوء الأحوال والبشاعة التى يتعرّض لها أبناء الشَّوارع فى دول المدنية المعاصرة، ولعلكم سمعتم نداء رئيس أمريكا فى مايو عام (٢٠٠٢) من أجل فضْل البنين عن البنات فى المدارس، وتلك من البدايات التى بدأوا يعبِّرون

عنها باقتضاب فقد زرعوا الحنظل والمرّ؛ والثمراتُ مزعجةٌ إلى أبعد الحدود بسبب الانفلات باسم الحرية حتى يتناول العربيدُ فى هولاندا المرأة على عتبة المسجد عيانًا بيانًا نهارًا عُريًا كالبهائم، ثم يقال للشَّاكين إن ذلك تمَّ فى حدود منطقة محل سكنه، ولا عتاب ولا مؤاخذة، فلا حول ولا قوة إلا بالله [ولقد قرأنا ذلك فى صحيفة قاهرية فى مايو أو يونيو عام ٢٠٠٢]. عسانا نعى هذا الدرسَ، ونكبِت كلَّ ظاهرةٍ لتمرُّد الجيل الجديد مع عدم السَّماح بالخروج عن قيمنا الثَّابتة وفضائلنا العالية السليمة وتطهير وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية من مُثيرات الشهوات والفتن والعواطف الشريرة الجامحة، كما ظهرت فى عبدة الشيطان وأمثالهم والشواذ ونحوهم وفى البلطجة والعنف وغير ذلك، نسأل الله السلامة، وإنَّ اللبيبَ تكفيه الإشارة.

❋ **اعدلوا بين أولادكم فى المعاملة والعطية:**

إنَّ العدل بين الأولاد أمرٌ يُوجبه الدينُ ويرضاه العقلُ المستقيم، وهو العدلُ فى المعاملة والرعاية وفى الهبة المالية والعطيَّة العيْنيَّة، وكذلك فى توزيع البشاشة والسؤال وتفقُّد أحوال الأولاد مع سعة الصدر للجميع، أما محبةُ القلب على نحوٍ زائدٍ نحو ولدٍ بعينه فأمرٌ لا شىء فيه على شرط ألا يُؤثِّر فى عدالة الوالد وحُسن تأديبه لهم جميعًا، مع مراعاة الفروق الفردية فى التأديب رحمةً بالأولاد؛ لأنَّ التأديب الحازمَ المتعقِّل من العدل والرحمة.

❋ **القصة التوضيحية لنا جميعًا:** وهى القصةُ التى حكاها الصحابى الجليل النعمان بن بشير بعد أن كبر وصار رجلًا ليحفظ لنا التاريخُ حُكمَ رسولِ الله ﷺ فى شأن العدل بين الأولاد فى العطية، قال النُّعمانُ بنُ بشير كما فى الصحيح: «أعطانى أبى البشيرُ - رضى الله عنه - عطيةً» فقالت أمِّى عَمْرةُ بنت رَوَاحة: «لا أرضى حتى تُشهِدَ رسولَ الله ﷺ» فقال أبى لرسول الله:

«إنى أعطيتُ ابنى من عَمْرة بنتِ رواحةَ عطيةً فأمرتنى أن أُشْهِدك يا رسولَ الله» فقال ﷺ: «أَعطيتَ سائرَ ولدِك مثلَ هذا؟ قال: لا، فقال النبى ﷺ «فاتقوا الله، واعْدِلوا بين أولادكم» قال النعمان: «فرجع - أبوه - فردّ عطيته» وجاء فى بعض روايات هذا الحديث قولُه ﷺ: «أَشهِدْ على هذا غيرى» و «فلا تُشهِدنى إذن فإنى لا أشهدُ على جَوْرٍ - أى على ظلمٍ -» وقال: «فأرجِعْه» وفى رواية للشعبى عند مسلمٍ: «اعدلوا بين أولادِكم فى النِّحَل - أى العطايا - كما تُحبون أن يَعدلوا بينكم فى البِرِّ» وكان النعمانُ بن بشير فى هذا الوقت صغيرًا.

وفى هذا التوجيه والأمر النبوىِّ ما يوجب المحافظة على ما فيه التآلفُ بين الإخوة الكبار والصغار، والابتعاد عن كلِّ ما يُؤدِّى إلى وقوع الشحناء بينهم أو يورث العقوقَ للوالدين، أو يجعل بعضَهم يشعر بأنَّه مظلومٌ لعدم المساواة فى معاملة الأب وفى عطاياه لأولاده.

قال المُهلَّبُ: «هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الإمام - أو القاضى - يردّ الهِبةَ والوصيةَ مِمّن يَعرف منه هروبًا من بعض الورثة»، أى إذا كان الشخص معروفًا عنه أنَّه يسعى لتفضيل بعض الورثة على بعض كمن له أولادٌ من أكثر من زوجةٍ أو يميل لبعض أولاده لأسبابٍ خاصَّةٍ ونحو ذلك.

وقد قال أهل العلم: بتحريم هذا التفضيل، كما قالوا ببطلانه ما دام هذا التفضيل لغير سببٍ شرعىٍّ واضحٍ للجميع - وقلوبُهم راضيةٌ بقدر الإمكان - قال أحمد بنُ حنبل: «إن كان للتفاضل سببٌ كأن يكون أحدُ الأولاد مريضًا جاز وإلا فلا»، وقال جمْعٌ من أهل العلم: «إن كان التفضيل فى العطية يؤدى إلى العقوق فهو حرامٌ لا مكروهٌ» والأحاديث الواردةُ تؤكد التحريم، وقد سمَّاه الرسول ﷺ «جَوْرًا» أى: ظلمًا وعند العدل فى العطية يتساوى البنين والبنات فى مقدار العطية على الأرجح، بخلاف الميراثِ؛ لأن الأمرَ فى الحديث

الشريف عامٌّ فى العدل بين الأولاد أى الذكور والإناث، وإنَّ تحقيق العدل العامِّ بين الأولاد ورعايةَ الصغار وأبناءِ الأمِّ المُتوفَّاة أو المُطلَّقة أو نحو ذلك يؤدِّى هذا العدلُ إلى تبادُل الاحترام بينهم والتعاون والبِرّ بالوالدين؛ وإن للإنسان نورًا من إيمانِه يهديه إلى الحقِّ والصواب.

ومن وقع منه شىءٌ من ذلك أو حدَّث به نفسَه أو همَّ به فعليه أن يلجأ إلى أهل الفتوى من أهل العلم والفِقه فى الدِّين الذين يخافون القول على الله وعلى رسولِهِ بغير علمٍ وفهمٍ ومعرفةٍ واضحةٍ، والله أعلم.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

[التغابن].

لماذا القلق والانتحار يا أولى الأبصار؟

إن المؤمن الموحّد حياتُه كلُّها خيرٌ وسكينةٌ وغِنىً، إن أصابته سرّاءُ شكر المنعم الوهّابَ قانعًا بعطائه فكان شُكره خيرًا له وبركةً، وإن أصابته ضرّاءُ صبر راضيًا بقضاء ربِّه سليمَ القلبِ من الجزع والشكوك فكان ذلك خيرًا له فى دينه ودنياه، وبشكرِه النعمةَ وصبره على البلاءِ والشِّدّةِ يقوى عزمُه دومًا على مواجهة متطلبات الحياة، فإن شِعار المؤمن الموحّد دومًا: «اللهمَّ إنِّى أسألك نفسًا بك مُطمئنةً: تُؤمن بلقائك، وترضَى بقضائك، وتقنع بعطائك» فهو لا يصيبه الهلعُ عند الصدمة، ولا يطغى ويزهو ويتكبّر عند العطاء وإقبال الخير؛ لأنَّ المؤمنَ قد صحّت نظرتُه إلى الحياة الدنيا، فمتاعُها خادمٌ لا مخدومٌ، وهو وسيلةٌ لنيل ما عند الله من الرحمة، وليس متاعُ الدنيا غايةً يحيا لها وبها قلبُ الإنسان، فإذا لم تتحقق آمالُه أو أصابته محنةٌ فى نفسه أو ماله تفطّر قلبه، وساءت حالته، واضطربت نفسه، إنَّ المؤمن البصير والعاقلَ المستنير لا يكون من هؤلاء اليائسين من رحمة الله أبدًا لعلمه بأنَّ الرزق مقسومٌ وأنَّ الأمر بيد الله وحده؛ وإنَّ المصحّات النفسيةَ والعصبيةَ يأوى إليها من اختلَّ توازنُهم لضعف اليقين، أو لفقدان حلاوةِ الإيمان واتّخاذ المقاييس المادية وحدها فى تقويم ثمرات الأعمال والجهود، غير عابئين بالروح مع ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، لذا شاعت الأمراضُ التى استعصت على الطبّ فى البيئات والبلدان التى نسيت الله فأنساها مصالحَ أنفسها، ولم يزدهم الانطلاقُ فى بحور الرذيلة والفوضى الأخلاقية إلا بؤسًا وظلامَ نفسٍ، ونرى مظاهرَ ذلك فى كثرة الدجّالين والمشعوذين ومن يُسمّونهم المُعالجين الروحانيين، وكثرت الطوائفُ والفرقُ والمجموعاتُ التى تحاول الهروب من ضغوط المدنية المادية على النفوس، وهذا الهروبُ النفسىُّ أو النفسىُّ والجسدىُّ معًا نرى له مظاهر متعددةً

فى عالم الواقع : فكثرت مصانعُ الخمور، وأقبلت الملايينُ عليها غير ناظرين إلى مضارِّها ومساوئها وعظيم شرورِها، هذا إلى جانب فُشوِّ تعاطى المخدِّر والمفتِّر على نحوٍ يُنذر بأعظم الأضرارِ وضياع الشباب، وكم من جماعاتٍ تَهيم فى الأرض، أو تتخذ من المناطق التى تكثر فيها الخضرةُ والأشجارُ مرتعًا، أو يعيشون فى اختلاطٍ قَذِرٍ فى الخرائب داخلَ المدن وخارجها.

إن المدنية الماديةَ تقتل فى الإنسان روحَه الشريفةَ وتسعى لإشباع حاجاته الجسدية فصِرنا نسمع عن تظاهرات السَّفلةِ والمنحطين والشواذِّ الفاسدين المُفسدين بأنها تظاهراتُ الفخرِ والمجد، وإذا ضاع الحياءُ صنَع الفاسدُ ما شاء؛ بل إنه أمام طغيان المادةِ على النفوس لجأ الكثير إلى التخلّص من الحياة بالانتحار بعد أن أضنتهم الهمومُ والتفكيرُ فى حياتهم التعِسَة التى لا همَّ لهم فيها إلا الرتْع كما ترتعُ الأنعام دون ضوابط أخلاقيةٍ ولا قيمٍ روحيةٍ.

إن الصحَّة والمرض، والقُدرة والعجزَ، والغنى والفقر، والنجاحَ والفشل، والقوةَ والضعفَ إنَّ كلَّ ذلك وغيره من الله وحده، ونحن - معاشرَ بنى آدمَ - نشعر شعورًا ضروريًّا بأنَّنا لا نملك لأنفسنا شيئًا، ذلك أنَّنا مقهورون تحت قدرته سبحانه، نأخذ بالأسباب الصحيحة ونتوكلُ عليه ونرضَى بما تحققه جهودنا، وتُسفر عنه أعمالنا، فكلُّ شىءٍ عنده سبحانه بمقدارٍ، وإنَّ الرضى والقناعة والصبر والشكر سكينةٌ للنفس، وطبٌّ للقلب، وكنوزٌ لا تفْنَى، ونطلب من الله دومًا العون على ذكره وشكره وحُسن عبادته والرضَى بقضائه وقَدَرِه، والصبرِ عند الصدمة والشكر دومًا وعلى كلِّ حال.

إنَّ ما أصابَ الإنسانَ لم يكن ليُخطِئَه، وما أخطأه ممّا سعى فيه وصار منه قابَ قوسين أو أدنى من مالٍ أو نجاحٍ ونحو ذلك لم يكن ليُصيبه، وإنَّ الذى أخطأه من حظوظ نفسِه ولم يحصُل عليه وقد صار لغيره ما كان فى قدرة أحدٍ

من الناس أن يجعلَه من حظّه ونصيبه؛ لأنَّ تلك أمورٌ مقسومةٌ وأرزاقٌ مُقَدَّرةٌ وخطواتٌ مكتوبةٌ علينا، وعلينا أن نسعى ونأخذَ بالأسباب الصحيحةِ، ونرضَى ونحمد الله على كلّ حالٍ ونعيش على الصبر والشكر، ونجتهد فى طلب الخير من كلّ حلالٍ طيّبٍ.

إن الإنس والجنَّ لو اجتمعت على أن ينفعوا شخصًا بشىءٍ لم يكن مُقدَّرًا له فإنهم لا يستطيعون، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوه بشىءٍ فلن يضروه إلا بشىءٍ قد كتبه الله عليه وقدَّره سبحانه له، فلا يأسَ من رحمة الله، رضينا بما قسم الله، والحمدُ لله على كلّ حالٍ.

* * *

مكارم الأخلاق تاج الإنسان وبهاؤه

إنَّ الإنسانَ صورةٌ ظاهرةٌ وأخرى باطنةٌ، وإنَّ الصورةَ الظاهرةَ منه هى الجسمُ بأوصافه وخصائصه، وإنَّ صورتَه الباطنةَ هى «النفسُ» ولها خصائصها ومعانيها، وعن النفس يصدرُ الخُلُق - بضمّ أوله وثانيه - وما به يكون المرءُ ممدوحًا أو مذمومًا، ولذا فإنَّ الإنسان يُوزن مقدارُه بالنفس لا بالجسم؛ أهو أهلٌ للثناء لأنَّ ما يصدر عنه من قولٍ أو فعلٍ يدلُّ على التربية السليمة الحسَنة والخُلُق القويم الكريم، أم هو أهلٌ للنفور منه وعدم الرضَى عن مسالكه وأعماله؟ ويتوقف تقديرُ المرء على صفات نفسِه وميولها وعلى ما تكتسبه من خيرٍ أو شرٍّ لا على صفات بدنه، وقديمًا قال الشاعر الحكيم: «فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانٌ» وإذا كان الإنسانُ يكتسبُ صفاتِه الجسميةَ من طريق النسب، فإنَّ أخلاقه المُكتسَبةَ ومعتقداتِه يتحصَّل عليها باختياره وميوله ويصير مسؤولًا عنها أمام ربِّه بعد بلوغه، وقد يظهر للبيئة أثرٌ فى توجيه هذه الميول وتأصيلها فى المنزل والمدرسة وفى المؤسسات الاجتماعية وغيرها كوسائل

الإعلام، ولنا فى سير الأنبياء والأولياء الصالحين ما يفسّر لنا ذلك، فقد نشأ بعضُ الرسل الكرام فى بيوتٍ أبى رُعاتُها قبولَ الحقِّ والهدى الذى دعا إليه النبيُّ أو الرسول، وكذلك كان حالُ عمِّ النبيِّ محمدٍ ﷺ، فأبو طالب ابن عبد المطلب اختار ما كان عليه آباؤه من عبادة الأصنام مع أنَّه كان شديدَ الحبِّ والتقدير لابن أخيه مؤمنًا بأنَّه صادقٌ أمينٌ، ولكنْ كفر قلبُه وتكبَّر على اتِّباع ابن أخيه، وإنَّ أبا طالب هو القائل: «ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ من خير أديانِ البريَّة دينًا»، ثم قال: «لولا المعرَّة» أى أن يُعيِّره قومُه إن هو ترك دينَ آبائه وتابع ابنَ أخيه ومات على ذلك، وكذلك كان أبو لهبٍ ولكنه كان شديد العداوة والحسد للرسول ﷺ، وكان الرسول محمَّدٌ ﷺ رافضًا كلَّ مظاهر الشرك والوثنية قبل أن يأتيه الوحى، واختار التفكُّرَ فى آيات الله الكونية كما فعل جدُّه الأعلى إبراهيمُ الخليل - عليه السلام - الذى رفض قبل الرسالة كلَّ مظاهر الشرك والإلحاد، فى حين ظلَّ أبوه (أو عَمُّه) «آذرُ» بعد بعثة إبراهيم - عليه السلام - على جحوده وإنكاره، وبقى جامدًا على عبادة الأصنام، ورَفَض البراهينَ والدلائل التى خاطبت عقله، وانظر إلى ابنِ نوح - عليه السلام - الذى أصرَّ على عناده وكفره، إذ لم يأخذ عن أبيه المعانى الساميةَ الكريمة والعقيدةَ الصحيحة، وعقَّ أباه ولم يستمع إلى نُصحه حتى هلك مع الهالكين، والأمثلة كثيرةٌ، وفى حياتنا عبرٌ وآياتٌ، فهذه الظاهرة واضحةٌ فى مسيرة الإنسان فى كل عصرٍ، إذ إن كلَّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسه، وإن الثواب والعقابَ فى الآخرة متوقِّفان على الصفات الباطنة ومعتقدات المرء وما ينطوى عليه قلبُه، أمَّا مَا يتعلَّق بالصورة الظاهرة فهو خاضعٌ لمقتضى العقيدة وما يترتب عليها من عمل الجوارح، إنْ خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، وفى الحكمة:

كن ابنَ من شئتَ واكتسِبْ أدبًا ... يُغنيك محمودُه عن النَّسَبِ

أي: لا تقل كان أبي، ولكن قل: ها أنا ذا، فالإنسان ابنُ أدبه وخُلقه قبل حسبه ونسبه، وإن السلامةَ في الآخرة تكون بصحة العقيدة وصحةِ العمل والإخلاص فيه.

وإن أكرم وأعظمَ ما يكون عليه المرءُ بعد طهارة الباطن بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح والإخلاص أن يكون المرءُ حَسَنَ الأخلاق، كريمَ النفس، طيبَ العشرة، صدوقًا، عزوفًا عن الشرِّ والفساد، سخيًّا، شجاعًا، عفَّ اللسان، عفيفًا، أمينًا، وفيًّا، واسعَ الصدر حليمًا، متواضعًا، يحترم الكبير، ويرحم الصغير.

وفي حديث أمِّ الدرداء عند البخاريِّ وأبي داود وغيرهما: «ما من شيءٍ في الميزان أثقلَ من خُلقٍ حَسَنٍ» ويقول ابن عمر - رضي الله عنهما-: «لم يكن النبيُّ ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا»، وكان يقول ﷺ: «خيارُكم أحاسنُكم أخلاقًا» [جاء في الصحيحين والترمذيّ] وقد جمعت رسالته ﷺ جميعَ مكارم الأخلاق ومحاسِنِ الآدابِ التي تضبط مسالك الفرد على نمطٍ صحيحٍ وسليمٍ، وتحفظ للجماعة وقارها وسلامتَها من عوامل الضعف والاختلال، فاللهمَّ حسِّن أخلاقنا.

قال أنسٌ - رضي الله عنه - في الحديث المتفق عليه: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا»، وكان من دعائه ﷺ: «اللهمَّ كما حسَّنت خَلْقِي فحسِّنْ خُلُقي» [روته عائشة وأخرجه أحمد].

فالخُلق الكريم تاجٌ لصاحبه ونورٌ أمامه يهديه لكل خير ويجعله أهلًا لرحمة الله يومَ الحساب؛ ذلك أنَّ أكثر ما يكون سببًا في دخول المرء المؤمن جنَّةَ الخلد: «تَقْوى الله وحُسْنُ الخُلُق» [كما في حديث أبي هريرة عند الترمذي].

وإنَّ ألفاظ أهلِ البذاءةِ والفُحْش وأعمالهم هي أعمالُ المستحقين للنَّار؛

لأنّ الله يُبغضُ الفاحشَ البذىء، ويبغض المتكبرين وأهلَ القسوة والغلظة والتجبُّر على الضعفاء والمتواضعين، وإنَّ من أعظم الرزق مكارمَ الأخلاق.

ومن مكارمِ الأخلاق: الرفقُ واللّينُ والصفحُ عن المسىء وعدمُ مخالطة السفهاء والبطّالين وأهل اللهو، فيا لسعادةِ أهْلِها، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «إنّ هذه الأخلاقَ من الله فمن أراد الله به خيرًا مَنَحه خُلُقًا حَسَنًا، ومن أراد به سوءًا مَنَحه خُلقًا سيئًا» [عند الطبرانى فى الأوسط].

إن الأدبَ الرفيع وسهولةَ الطبع والتواضعَ وعُلوَّ الهمة والأمانة والصدقَ ولينَ الجانب ومراقبةَ علّام الغيوب فى السرِّ والعلن لمن أعظم أسباب النَّجاح فى الدنيا ولنيْل ما عند الله من الرحمة فى الآخرة.

* * *

أوفوا الكيل وزنوا بالقسطاس المستقيم

إنَّ العمل بالتجارة والتقليبَ فى السلع والبضائع لمن أشرف المهن وأعظمها شيوعًا؛ لأنَّ النَّاس لا غِنى لهم عن قيام طائفةٍ من بينهم يَجلبون الخيرات ويشتغلون بالتجارات؛ ليجد الناسُ ما يحتاجون إليه من دواءٍ وطعامٍ وكساءٍ وأدواتٍ وأثاثٍ، وليحصلوا على ما يحتاج إليه الطفلُ بل والبهيمُ، وقل ما شئت، ولولا التجّارُ والتجارةُ لكسد سوقُ الحياة، فهى عمادٌ لنجاح الصناعة وترويج المصنوعات، وإن التجار هم عصبُ ازدهار الزراعة وتنوُّع المحاصيل وتحقيق التكامل بين جهة وأخرى؛ فالفائض فى جهة يُنقل إلى المحتاجين إليه فى جهةٍ أو أمّةٍ أخرى، وقد أمر الله بها وأثنى عليها وفتح أبوابها أمام عباده: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء: ٢٩).

فالتجارة ثُلث المُلك كما كان يقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكان يحث القرشيين على الاشتغال بها، وقد أثنى الرسولُ ﷺ على التاجر الصدوق الأمين، وبيَّن أنه رفيعُ المنزلة يوم القيامة إذا صدق إيمانُه وطهَّر تجارته وكسْبَه من الغشِّ والتدليس والكذب، وامتنع عن الحَلِف على السلعة وتَاجَرَ فى الحلال الطيِّب وما يُباح التقليبُ فيه من السلع وصنوف المَبيعات، وإذا نزَّه التاجرُ نفسه وتجارته عن الاحتكار وإيذاء الناس بالغلاء المُصطنع والمُدبَّر عن قصْدٍ وعمدٍ، وراقب الله فى كسبه واجتهد فى ذلك مع حُسن النية والقصد، فإن الله يبارك له فى كسبه وينال ثقة الناس ورضاهم لأمانته وصدقه.

ومع تحرِّى التقليب فى الحلال الطيب وما يباح العمل فيه بالبيع والشراء فإن واجبَ التجار أن يعدلوا فى معاملاتهم؛ فهم كالقُضاةِ وإن موازينَ العدل يُسأل عنها الجميعُ يوم القيامة؛ يُسأل عنها القاضى فى قضائه بين الناس، ويُسأل عنها الراعى فى عدله ورعايته شئون الرعية، ويسأل عن موازين العدل التاجرُ كما يُسأل عن مكياله ومقياسه، ولذا كان من عمل الأنبياء تنبيهُ أهل البيع والشراء وحَثُّهم على استقامة المقاييس والموازين والمكاييل بحيث يتمُّ البيعُ والشراء بالقسطاس المستقيم لا تَظلمون ولا تُظلمون، وكان أعظم عمل شعيبٍ النبىِّ - عليه السلام - بعد الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالإلهية والربوبية ووجوب عبادته وحده وطاعته أنَّه عليه السلام كان يطلب من قومه الكفَّ عن اختلال موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم عند البيع والشراء، وكان يحثُّهم على عدم بخس الناس أشياءهم بتقبيح بضائعهم وتعييبها ليسارع أصحابها إلى بيعها بأقلَّ مما يليق بها تخلُّصًا منها: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)﴾ [هود].

وقد أنذر القرآن الكريم الذين لا يعدلون فى الموازين والمكاييل بيعًا أو شراءً ولنتدبر من سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [المطففين].

أى: هلاكٌ للذين إذا باعوا أعطَوا المشترِى ناقصًا بالحِيَل فى الكيل والوزن والمقياس، وإذا اشترَوا احتالوا على أن يأخذوا أكثرَ من حقِّهم عن عمدٍ وقصدٍ، ولو نظروا إلى الموقف فى الآخرة وفكّروا فى ذلك لتحرَّوا الحقَّ والعدل خوفًا من غضب الربِّ، فهذا نذيرٌ للتاجر الذى إذا اشترى استوفى وحرّك المكاييل ليأخذ أكثر من حقِّه، وإذا باع بَخَس وطفَّف وأنقص المشترى حقَّه عن عمدٍ وقصدٍ وخِفَّة يدٍ، وذلك مثلُه مَثَلُ من يشدُّ القماش شدًّا على المقياس - المتر - ليبخس المشترى حقَّه، ومن البخس والظلم إخفاءُ عيوب السلعة، ورفعُ السعر فوق طاقة الناس بدون وجه حقٍّ، أو رفعُه لقومٍ واعتدالُه لآخرين استغلالًا لحُسن نية بعض الناس.

فراقبوا الله أيها الناس بائعين ومشترين ومستثمرين تربحوا وتنجحوا بفضل الله - عز وجل -.

* * *

الإسراف مذمومٌ ولو فى المباح من طعامٍ وشرابٍ

كم هم صَرْعَى التُّخمة فى ليالى رمضان وفى العيدين؟ إنَّ هؤلاء وأمثالهم لم ينتفعوا من الحِكَم الصحية للصوم، إذ من حِكَمِه حبسُ النفس عمَّا تشتهيه من ألوان الطعام والشراب فى نهار رمضان لتصحَّ الأبدان، وتخفَّ الأوزان، وليتعودَ المؤمن على القصد والتوسُّط فى معيشته؛ أمَّا أن نصومَ النهار ونهجُمَ على ألوان الطعام عند الغروب، ونسلِّى الليل بما ضررُه أعظمُ من نفعه من الحلوى والمُكسّرات والمُعجَّنات فإنَّ ذلك مِمّا تثقُل به المعدةُ ويضعف التنفسُ؛ وإنَّ كظّ المعدة بالأطعمة والإثقال عليها ينتج عنه فى غالب الأحوال اضطرابُ الأمعاء، وثقلُ الرأس، ومع المداومة على الإكثار من الطعام بما يزيد على الحاجة فإنَّه يتسبب فى تعب المفاصل والدوخة والصداع، وهذا هو الغالب فى أحوال الناس، ولو عملوا بنصيحة الدين، ثم بتوجيهات الطبِّ لقنعوا بما يَخِفُّ على المعدة، وينشط به الجسمُ وها هو ذا نصفُ الطبِّ فى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الآية: ٣١) وهذا أوجزُ وأجمعُ وأدقُّ ما جاء فى الطبِّ الوقائىِّ حتى قال مفكِّر أعجمى: «إنَّ هذه الآية جمعت نصفَ الطبِّ»، إنَّ الإسراف فى كلِّ شىءٍ مذمومٌ وضارٌّ بالفرد والجماعة، وإذا كان لديك فائضٌ فبادر به إلى المُشتهين له وهم على حياءٍ من ذُلِّ الحاجة لا يُمدون أيديهم ولا يسألون جارًا ولا صديقًا، وتعرفهم بالحسِّ الصادق إذا لقيتهم أو شاهدتَ غالبَ أحوالهم وأحوال أولادهم، وفى الحديث: «الاقتصادُ نصفُ العيش» [رواه أنس وأخرجه الطبراني] ومن وصيته ﷺ قوله: «يا أبا ذرٍّ لا عَقْلَ كالتدبير» [من حديث أبى ذرٍّ عند البيهقي].

إنّ الاعتدالَ والتوسُّط فى كل شىءٍ دليلٌ على رجاحة العقول وعلى حسْن التدبير وقد قالوا فى الحكمة «خيرُ الأمور أوساطها» ومن الإسراف الممقوت وضعُ المال فى الحرام كالحشيشة والأفيونة ونحوهما والدخَّان والخمر وكلِّ

مسكر وفيما يفسد العقل والنفس، ويفسد الأخلاق والأولاد، وإنَّ الاعتدال فى النفقات فى الطعام والشراب والثياب يحفظ على الإنسان وقاره وعلى الأسرة الهدوء ويُضفى عليها الاحترام، ولنبتعد عن كلِّ مظاهر الخيلاء والفخر الكاذب، فالإنسان بأدبه وأخلاقه وصحة تفكيره وسلامة عقله وحسن تدبيره.

* **الاعتدال فى الطعام والشراب:** إنَّ المعدة وعاءٌ يساعدك على إقامة حياتك إذا أعطيتها بالقدر المناسب الذى لا يكظُّها ويُرهقها من الطعام والشراب، فإذا أعطيتها كلَّ ما تَشتهى فأنت مُسرفٌ، وإذا ملأتها عن آخرها فأنت مُسرفٌ، وإذا أعطيتها فوق طاقتها فأنت ظالمٌ لنفسك إذ تجعلها عرضةً للتلف وتجعل نفسك عرضةً للأمراض، ولذا كان من توجيهات الرسول ﷺ: «ما ملأ آدميٌ وعاءً شرًّا من بطنٍ: حسب ابنُ آدمَ لُقيماتٍ - أو أُكَيْلات - يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان فاعلًا لا محالة: فثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ لنفَسِه»

[أخرجه أحمد ورواه المقدام]

وفى هذا سلامةٌ للنفس، وحيويةٌ للجسم، وتنشيطٌ للذهن، وتخفيفٌ عن المعدة، وتيسيرٌ للهضم الذى تعود منافعه على صحة البدن.

إنَّ الإسلام لم يُحرِّم علينا الحلال الطيبَ من المأكل والملبس والمشرب، ولكنه أمرنا بالتوسُّط والاعتدال فى كلِّ شىءٍ لسلامة أبداننا واحترامنا لأنفسنا، واعلمْ أن كلَّ درهمٍ يُنفَق فى غير مَحِلِّه هو إسرافٌ فى الاقتصاد العامِّ؛ لأنَّ هذا الاقتصادَ هو مجموعُ ما تملكه الأمةُ من أفرادٍ ومؤسساتٍ، وإن الأفرادَ ونشاطهم وسعيهم وثمراتِ سعيهم إن هذا كلَّه هو المرآة التى نرى عليها مركزَ الأمة الاقتصاديِّ ومكانتها بين الأمم، وإنَّ الموارد البشرية السليمة من عوامل الضعف والتخاذل الساعية المُجدّة المعتدلة هى التى تبنى وترفع البناء، تُعطى وتأخذ أى منها وإليها، وإنَّ سَعْى الأفراد فى مجالاتهم الخاصَّة يعود مردودُه العامُّ على الأمة ومتانة موقفها أو ضعفه وقد ذمَّ الله المسرفين وأنذرهم بقوله

فى الآية السابقة: إنَّه لا يُحب المسرفين أى فى الطعام والشراب وزينة الملابس والغلوِّ فيها وفى ذلك ذمٌّ للمسرفين فى سهر الليالى وفى الانغماس فى الشهوات والملذات، وإنَّ كلَّ درهمٍ يُنفق فى لذَّةٍ أو شهوةٍ محرَّمةٍ فهو إسرافٌ، وإنَّ التقليل من الطعام والدهون والحلوى والملح والابتعاد عن حشو الأمعاء حشوًا إنَّ الابتعاد عن هذا يجعل الذهن صافيًا، والحركة سليمةً، ويجدُ المرءُ فى النَّوم راحةً مع جودة الهضم وانتفاع الجسم.

❋ **التفاتات: من صفات أهل الحكمة والصلاح:**

قال الله تعالى فى صفة عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

من صفات المؤمنين الصالحين الناجين بإذن الله تعالى الاعتدال والتوسُّط فى كلِّ أمورهم وحسب ما هم عليه من حالٍ ومالٍ:

❋ **الاعتدال فى النفقة:** من صفات عباد الرحمن الصالحين أنَّهم معتدلون فى نفقاتهم فلا إسرافَ ولا تقتير ولا نفقةَ فى حرام.

وقد كانوا يرَوْن أن من أنفق فى غير طاعةِ الله فهو الإسرافُ، ومن أمسك عن طاعة الله - عز وجل - فهو الإقتار، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القَوَام، أى التوسُّط والاعتدال.

وقال ابن عباسٍ: «من أنفق مائةَ ألفٍ فى حقٍّ فليس بسَرفٍ، ومن أنفق درهمًا فى غير حقِّه فهو سَرَفٌ، ومن مَنَع وشحَّ فى الحقوق التى تلزمُه فقد قَتَر».

وقالوا: «الإنفاقُ من مال غيرك سَرَفٌ على أىِّ حالٍ». وإن الآية الكريمة تصفُ لنا هؤلاء الذين لا ينفقون مالًا، سواء قلَّ أو كثُر فى معصيةٍ لله - عز وجل - لأن ذلك الوجه من الإنفاق حظرته الشريعةُ وحرَّمته، وهم كذلك لا يعْتَدُون على مالِ الآخرين ويطهِّرون أيديهم وبطونَهم منه، وفى نفقة الطاعات وفى المباحات لا يُسرِفون ولا يتجاوزون الحدَّ، ويلتزمون التوسُّط حسب

الحال، ولا يُضيّعون حقّا وجب عليهم كنفقة أسرةٍ أو نفقة والدين ورعايتهما، كما أنهم لا يُقتّرون ولا يُضيّقون حتى يُجيعوا العيال، وإنّما هم يَلْزمون العدلَ فى كل الأمور.

❁ **ضبط شهوات النفس**: ومن مبادئ أهلِ الحكمةِ والصلاح فى ذلك أنَّ المرء لا يجرى وراء كلّ ما تشتهيه نفسُه؛ لأنَّ النفسَ لا تشبع، وإذا تسلطت طغتْ، ومن أقوال عمر: «كفى بالمرء سَرَفًا ألا يشتهى شيئًا إلا اشتراه فأكله».

وفى الأثر الشريف: «إنَّ من السَّرف أن تأكلَ كلَّ ما اشتَهَيْتَ»، وقِسْ على ذلك، فالمؤمنُ الحقّ هو الذى يضبط نفسَه، ويظهر بالمظهر اللائق دون خُيلاء أو زِينةٍ لا تليق، وهذا يجعلنا أهلَ حكمةٍ فى أفراحنا ومآتمنا، وفى كلّ ما يمتّ بحياتنا الاجتماعية، فالإسراف فى الأفراح كالإسراف فى المآتم كلُّه يتناقض مع صفات عباد الرحمن الذين يخافون غضب ربِّهم ويرجون رحمته، فهذه المظاهر وهذا الإسراف الذى ذاع وشاع لا مُبرِّر له ولا حكمةَ فيه.

ومن حكمة أهل العدل والتوسُّط قولهم:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهت ... ولم يَنْهَهَا تاقتْ إلى كلِّ باطلِ
وساقت إليه الإثْمَ والعارَ بالذى ... دعتْه إليه من حلاوةِ عاجلِ

ومن وصايا عمر لابنه: «كُلْ فى نصف بطنِك، ولا تطرحْ ثوبًا حتى تَسْتَخلِقَه، ولا تكنْ من قومٍ يجعلون ما رزقهم اللهُ فى بطونهم وعلى ظهورهم»، و «تستخلقه» أى يصير قديمًا.

فطوبى لمن تأدّب بأدب الإسلام وتجنَّب الزهو الفارغ والإسراف للتفاخر والتباهى، وإن الفقراء والمساكين والمرضى واليتامى فى أشدِّ الحاجة إلى فوائض أموال الأثرياء والمبذِّرين المبعثرين هنا وهناك على غير هدايةٍ وتعقُّلٍ.

❋ فائدة تمّت تجربتُها وحقّقت منافع عظيمةً للبدن:

وهى خُلاصةُ بحثٍ لطبيبٍ أمريكىٍّ ولتجربته الخاصّة به ويمكن تلخيصها فيما يلى:

١ - فى الفطور: نشرب الماء المناسب على الريق، مع تناول عصيرٍ طازجٍ أو مصّ برتقالة ونحوها أو أكثر، ثم تأكل شيئًا من الفاكهة على قدر استطاعتك وما تميل إليه منها.

٢ - الفاكهة طعامٌ مستقلّ دومًا نأكله قبل تناول وجبة الطعام «الغداء أو العشاء أو الإفطار» بنصف ساعة أو بعدها بخمس ساعات، ولا يؤخذ مع الفاكهة شىءٌ آخر لا من الخضر ولا من غيره.

٣ - وجبةُ الغداء أو العشاء: إذا كان الطعام من الخُضَر مطبوخةً أو طازجةً أو هما معًا فإننا نستطيع أن نأكل معه الأرز والخبز وما شئت من الموادّ النشويّة كالبطاطس والمكرونة، وفى هذه الحالة نمتنع عن أكل ما فيه بروتين (كاللحوم والسمك والبيض والألبان).

٤ - والقاعدة العامة لسلامة المعدة وحيويّة الجسم وصحته هى: عدمُ الجمْع بين المواد النّشوية والموادّ البروتينية فى الوجبة الواحدة؛ فمع المواد البروتينية نأكل الخُضَر طازجة ومطهية، ونكثر من أكل الخيار والقثاء والخسّ وغير ذلك، وكذلك الخضر المطهية.

٥ - ومعنى ذلك باختصار فإن الوجبة تتكوّن من: موادّ بروتينية وخُضرٍ طازجةٍ ومطبوخةٍ وبالكميّة التى تُريدها؛ أو من: الخُضر والخبزِ وسائر النشويات.

٦ - التقليل من السكر والملح الأبيض والخبز الأبيض (الدقيق الفاخر)

والاحتراس من الحلويات (المعجَّنات مثل البسبوسة والجاتوه ونحوهما) والاحتراس من المياه الغازية وجميع المُعلّبات والمحفوظات بوسائل كيماوية.

نسبة البروتين فى الفول المدمس والعدس قليلة، ويمكن الأكل بالملعقة ومع الخيار والطماطم ونحوهما أو مع الخبز، و «السندوتش» يكون بالخضر كالبطاطس والباذنجان المقلى ونحو ذلك بدلًا من الجبن والبيض ونحوهما وقِسْ أنت، وعوّد أولادك، هذه خلاصةٌ تمت تجربتُها وتظهر الفائدةُ بإذن الله مع الاستمرار، بل إن حاجة المعدة والأمعاء للطبِّ مع هذا النظام ستكون نادرة جدًّا مع الصبر والدقة فى التطبيق، وستجد راحةً فى المفاصل، كما ستشعر بحيويةٍ أعظم وبصحةٍ عامّةٍ أفضل ونشاطٍ أوفر.

وإنَّ كلَّ خيرٍ فهو بفضل الله ورحمته بعباده.

* * *

استعيذوا بالله من الحسد ومن شر حاسدٍ إذا حسد

أحِبُّوا للناس ما تُحبون لأنفسكم، إنَّ الإنسانَ يُحبُّ لنفسه التوفيقَ فى طاعة الله، وفى سعة الرزق والبركةِ فى الأولاد والأموال، ويحبُّ لنفسه القناعةَ والأمنَ والسلامة والوقايةَ من الشرِّ والأشرار، وإنَّ علامةَ صدق اليقين وسلامةِ الدين أن يُحبَّ المرءُ للناس ما يُحبُّ أن يكون لنفسه من الخيرات والبركات واستقامة الحال.

أما الحاسد فهو مريضٌ يحتاج إلى دواءٍ وطبٍّ ليحمى نفسَه من غضب الربِّ ثم من سخط الناس ودعائهم عليه إذا عرفوا أمره، ولذا فإنَّهم يَنفرون منه ويتحاشون مخالطته لسوء طويَّته، وعدم رِضاه بما قسم الله له.

والحاسدُ مذمومٌ؛ لأنَّه عدوٌّ لنعمة الله، متسخِّطٌ على قضاء الله، غيرُ راضٍ بما أعطاه الله، يريد الخير والنجاح بلا جهد، ولا يصبر على بلاءٍ، ويرغب

فى زوال النعمةِ من صحةٍ أو مالٍ أو عِلم ونحو ذلك عن المحسود، ثم هو يشغل فِكره ونهاره بمراقبة المحسود ولو فى ذهنه، ويتقلَّبُ فى الليل بهموم الحسدِ الذى يضغط على قلبه وفؤاده فكأنه يعيش على جمرةٍ دومًا، فلماذا لا يستعيذ الذى يجدُ فى قلبه شيئًا من ذلك يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ومِمّا يجدُه فى نفسه من الحسد؛ ويساعده على طهارة نفسه من ذلك أن يلجأ إلى الصلاة وذكرِ الله وتلاوةِ القرآن، ثم يتجهَ إلى العمل الجادِّ والسعى والضرب فى الأرض بهمَّةٍ وعزمٍ إذا أراد أن يكون لنفسه مثلُ ما للمحسود من الخير مع حُسن التوكُّل على الله والرضى عن الله، ويرضَى دومًا بقضائه وحكمه سبحانه، ويحمد الله على كلِّ حالٍ، وليعلم أنَّ الحاسد يعترض على الله فى حُكمه ما دام لم يرضَ لأخيه ما أعطاه الله من النعمة، ويقول بلسان الحال: لماذا؟ فهذا من عمل الشيطان؛ إن الحسدَ ضيَّع إبليسَ وجعله مرجومًا ملعونًا إلى أبد الآبدين، إن الحسد مزّق بيتَ يعقوب النبى ﷺ وألجأ أولاده إلى الكذب والتلفيق وارتكابِ جُرمٍ فظيعٍ بمحاولتهم إتلافَ نفسٍ كريمةٍ سليمةٍ من شوائب المكر والخداع نقيّةٍ طاهرةٍ، وقد أنقذها الله من أسباب المهالك بفضله، وقد عقُّوا الوالد، وأدخلوا الحزنَ على قلبه، حتى كان ما كان من أمرهم وأمرِ يوسفَ الصدِّيق النبيِّ الطاهر ﷺ ثم تابوا وأنابوا، وما كان ذلك كله من الأمور الفظيعة التى قاموا بها إلا بسبب الداءِ الذى أهلكَ إبليسَ عليه لعنة الله، وأهلك ابنَ آدمَ الذى حسد أخاه ودفعه الحسدُ إلى أفظع الجرائم، وسَنَّ بذلك هذه السنَّة القاسية الفظيعة، وهى قتْلُ النفس البريئة بغير حقٍّ فلزمه مثلُ إثمِ كلٍّ من يعمل عمله ويقتل نفسًا بريئةً بغير حقٍّ إلى يوم الدين، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

ولذا فإنَّ الحاسدَ إذا بغى وظلم ليشفى نفسه المريضةَ من المحسود كان من

أكابر المجرمين، والعياذُ بالله، كحسد أبى لهب للنبى محمَّدٍ ﷺ وحسدِ قابيلَ ابنِ آدمَ لأخيه هابيل، وبهذا الحسد وقعت أوَّل جريمة قتل فى الأرض، إنَّ الحاسد يضرُّ نفسه، وإن النعمةَ باقيةٌ للمحسود ما شاء الله وأراد، فلنطهِّر نفوسنا من البغضاء والشحناء والتنافس الرخيص الضارِّ، فالدنيا فانيةٌ وعملُ الآخرة باقٍ، وإن سلامةَ الإيمانِ تقتضى سلامةَ القلب من الحسد والحقد وسائر الأمراض القلبية والنفسية، فلا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، كما أوصانا أطهرُ قلبٍ وصاحبُ أشرفِ نفسٍ ﷺ، ولنتدبّر: «لا يجتمعُ فى جوفِ عبدٍ الإيمانُ والحسد» [رواه أبو هريرة وأخرجه ابن حبّان]، وفى الحديث الذى رواه ضَمُرةُ بنُ ثعلبةَ: «لا يزال الناسُ بخيرٍ ما لم يتحاسدوا» [رواه الطبرانى ورواته ثقات].

إن سلامةَ قلبك وسلامةَ نفسك أمانةٌ فى عنقك، وإن أعظمَ طبٍّ للسلامة من القلق وإزالة الهمِّ أن تنظُر فى عيوب نفسك فتصلحَها، وأن تنظرَ إلى حالك وتسعى فى تكميل ما ينقصك بجدِّك واجتهادك وبحُسْن توكُّلك على الرزَّاق الوهَّاب، وأن تنام وليس فى قلبك غِشٌّ لأحدٍ، وأن تستقبل نهارك بحمد اللهِ وشُكره والاستعانةِ به، وليس فى قلبك غِشٌّ أو سوءٌ لأحدٍ.

* * *

طوائف اشتدّ غضب الله عليها فاحذروها

احذروا الدجّالين، احذروا أهلَ العِرافة والكَهانة والسحر والعِيافة، احذروا كلَّ من يدّعى عِلْمَ المكنونات، والإخبارَ عن الأمور المُغيَّبات، أو يدَّعى معرفةَ ما يحدُث فى مستقبل الشخص، واحذروا كلَّ من يكتب الطلاسم وحلَّ السحر ويعطى التمائم والأحجبة، احذروا أمثال هؤلاء.

لقد اشتدَّ غضبُ الله - عز وجل - على السحرة والمتكهِّنين والعرَّافين

وأشباه هؤلاء من الفئات المتقاربة والمتماثلة فى أغراضها وطرقها فى الكسب الحرام الخبيث، فهم مضلِّلون يزرعون الوهْمَ فى قلوب الذين يقصدونهم، ويشغلون عقولهم بالأباطيل، ويدفعون كثيرًا منهم إلى الارتباط بهم وكثرة التردُّد عليهم بأساليبَ شيطانيةٍ وحيلٍ إبليسيَّة بادّعاء التديُّن والتقوى حينًا، وادعاءِ الاتصال بالجانِّ الخبيث الماكر حينًا، وادعاءِ معرفةِ حال الشخص من كفّه أو ورق الكوتشينه أو النظر فى فنجان القهوة، أو من الخط فى الرمل، أو ضَرْب الودَع، أو النظر فى النجوم أحيانًا، وإنَّ كلَّ ذلك من الباطل لا يَعْمَلُ به إلا كلُّ خبيثٍ مطرودٍ من رحمة الله - عز وجل -.

وإن كلَّ من يصدّقهم ويتردَّدُ عليهم يكون مغضوبًا عليه مثلهم؛ لأنّه يساعد على الترويج لهؤلاء، ويخالف أوامرَ الله - عز وجل - وتوصيات وتنبيهات رسول الله ﷺ، كما أنَّ الذى يُصدقهم ويتردَّدُ عليهم يَضْعُف إيمانُه بالله، ويُسلِمُ نفسَه للشرِّ والوهم، وقد يترتب على تردُّده مفاسدُ وأضرارٌ تلحق به أو بمالِه وأهلِه ووقتِه أو بدينه وهو أعزّ شىء عليه.

إن السحر ونحوه كالشرك بالله، ويشترك فى ذلك الساحرُ ومَن يُصدِّقه، وفى حديث جابرٍ وأخرجه البزَّار بإسنادٍ جيِّدٍ: «من أتَى كاهنًا فصدّقه بما قال فقد كفر بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ» وفى رواية أبى هريرة عند أبى داود والترمذيِّ: «من أتى عرَّافًا أو كاهنًا» وفى رواية أنسٍ عند الطبرانيِّ: «من أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد برئَ مما أُنزل على محمَّدٍ، ومن أتاه غير مُصدِّق له لم تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً» والكاهنُ: هو الذى يزعم أنَّ الجنَّ تُخبره بالأمور المُضمَرة، أى الغائبة والخفيّة عن الناس، وقد يصادف كلامُه الواقعَ بمحض المصادفة لا عن قصدٍ من الكاهن ولا عن علمٍ منه، فيعظم لذلك شرُّه ويزداد خطرُه ومثله الساحر والعرَّاف، فقد يقول: سيأتيك ضيفٌ ومعه لك

أمانةٌ أو ستصلك رسالةٌ أو نحو ذلك مِمَّا يشعرُ الكاهنُ أنَّ للمستمع إليه اهتمامًا به، وقد يحدث ذلك أحيانًا، ولكنَّ قولَ الكاهن لم يكن عن علم وإنما كلامُه يكون مُجرَّدَ إرضاءِ «للزبون» وتخمينٍ؛ فينبغى لكلِّ عاقلٍ أن يتقى الله فى نفسه وفى أولاده وفى ماله وفى عقله، لا ينقاد بهذه السهولة لهؤلاء الخبثاء المكّارين الذين خربُّوا بيوتًا، وأساءوا إلى كرامات كثير من الناس، وزرعوا الوهم والبلبلة والقلق فى نفوسٍ كثيرةٍ كانت على خيرٍ، فليتقِ اللهَ هؤلاء الدجّالون الماكرون آكِلو أموالِ الناس بالباطل والسُّحت، وليرجعوا إليه سبحانه بالتوبة والإنابة وبتبصير الناس قبل فوات الأوان وطول الندم والحسرة، ولنتق الله فى أنفسنا، فالمترّددون عليهم هم السببُ فى جبروتهم وسطوتهم ومغالاتهم فى الكذب وأعمال الكفر والفجور.

تحذيرٌ: عرفنا ناسًا يدَّعون الشفاء بالقرآن، وهو شفاءٌ والحمد لله لمن يَرقِى نفسَه بنفسه به؛ لأنَّ المؤمنَ هو أرحمُ الناس بنفسه، ومثل ذلك رحمةُ الأب والأم بالولد؛ وإن الرقية الشرعيةَ تحتاج إلى القلب الرحيم وإلى حضوره وتضرّعه وخشوعه، أمَّا من عرفناهم فقد استفحل خطرُهم، وقد تسمع من أفرادٍ منهم بعضَ الآيات القرآنية فتجدهم لا يُحسنون القراءةَ ولا يُجيدونها وفاقدُ الشىء لا يُعطيه، فليتقوا الله فى الناس وليرحموا أنفسَهم من غضب الله، وقد ذكرت الصحفُ وقائعَ وجرائم وقعت من بعضهم منها ما وصل إلى حدِّ قتل المتردِّد لسرقة سيارته أو لاستخدام بصْمته ميّتًا على مُبايعة، فليحذر أصحابُ العقول من النساء والرجال وليأخذوا بالأسباب الصحيحة فالطبُّ الصحيح موجودٌ، وهو من نعمة الله على العباد، وإن القرآن ينير بيوتنا، وحرامٌ أن تقرأ سيدةٌ فى مكبِّر الصوت «الميكروفون» أو ترفع صوتها أمام غير المحارم من الرجال ويختلط الحابلُ بالنابل وإنَّ صوتَها عَوْرة،

ويتكلف النساءُ والرجال مشقةَ السفر وراء هذا الوهم وجريًا وراء وسائل أعوان إبليس؛ هدانا الله وتاب علينا.

فاقرأ القرآن لنفسك ولأولادك وأهل بيتك بنية العبادة والثواب والعلاج، داعيًا الله متضرِّعًا إليه مع الأخذ بالأسباب الصحيحة والعرض على الطبيب وتعاطى الدواء، فهو نعمة من الله، والشافى هو الله والدواء سبب.

إنَّ العاقل البصير يطيع الله - عز وجل - فى أوامره ونواهيه، ويأخذ نفسه بوصايا رسول الله ﷺ وتعاليمه، إنَّ العاقل البصير يحترمُ عقلَ نفسِه ويصونُ كرامتَه، وينظر فيما حوله متدبِّرًا، ويرى أن قضاء الله - عز وجل - واقعٌ لا محالة، كما يرى أنَّ هؤلاء الدَّجَّالين وأهاليهم تصيبهم الأمراضُ والشدائد ويجرى عليهم ما يجرى على الناس، ولا يستطيعون بدجلهم وسحرهم عملَ شىءٍ.

وإذا كان الدجّالون يعلمون الخفيّات ويصنعون بزعمهم (المعجزات) فلماذا لم يسوقوا على قاتلى الآمنين فى أوطانهم من المستعمرين والطامعين لماذا لم يسوقوا عليهم ما يساعد على تدميرهم ودفع الشرور عن الضعفاء الآمنين؟ فلنتق الله فى أنفسنا.

* * *

الأمن نعمةٌ جليلةٌ

❋ **بها يستقرّ الحال، ويهنأ البال، وتنمو الحياة:**

حبّب الله - عز وجل - الأمنَ إلى النفوس، وحثّ عليه، ودعا إلى توطيد أركانه، وضرب له الأمثالَ فى القرآن الكريم، وهيّأ له الأسباب، من أخذ بها ولزمها أدام عليه نعمةَ الأمن والأمان: وفى ظلالها يكون الرخاءُ والنماءُ وفرحةُ الإنسان بثمرات جهده؛ وتبادل التقدير والاحترام بين الجيران والأهل وسائر الناس:

❋ إن نعمة الأمن ليس لها نهايةٌ فى الحُسن والجمال والمعانى الجليلة التى تندرج تحتها وتنضوى تحت لوائها وتنبعث من بركاتها وأنوارها: وانظر إلى أمّةٍ تصفو لأبنائها الحياةُ بلا كدَرٍ، وتنمو فيها العلاقاتُ بين الناس بلا تردُّدٍ ولا حذَرٍ، ويتراحم الناسُ لدفع مَضرّةِ البؤس والفقر، ويتعاضَدُ القويُّ والضعيفُ يتبادلان المحبّة والرفق فيرتاح القلبُ والصدر، ويتبادر الناس وقت اللزوم لدفع غوائل الفساد والشرّ.

ومن الوسائل لتحقيق أمن النفس وسلامتها من المحاذِر والمخاوف:

اعْلَمْ أنّك إذا سالمتَ الناسَ سالموك.

وإذا بسطتَ لهم يدَك بالخير بسطوا لك قلوبَهم بالمحبة والبِرّ.

وإذا أحسنت إلى المسىء لك أخجلته وأعنتَه على الإحسان.

وإذا خلتْ المجالسُ من حمَّالى وحمّالاتِ الحطبِ النمّامين المحرِّضين على البغضاء والشحناء فقد أغلقنا بابًا عظيمًا من أبواب الإفساد والشرّ.

وإن الشتيمةَ كالنَّميمة يجب قلعُ جذورهما من الألسنة والقلوب: إنَّ الذى يسطو باللسان أو بالفعل على الآمنين فإنه يُعكّر الصفو ويُعرقل المسيرة، وقد أخافه ربُّ العزّة والجلال بأهوالٍ لا يرقى العقلُ إلى تصوّر شدائدها، ولا يصل

الخيالُ إلى أبعاد أهوالها.

إذا حقق الفردُ الأمنَ من نفسه فلا ضررَ ولا ضرارَ، وعاش أهلُه وجيرانُه فى أمنٍ وسلامٍ منه عاش الجميعُ آمنًا ويطمئنُّ كلُّ فردٍ فى بيته وسِربه، وتيسَّر لهم المناخُ الصالح للوصول إلى الأخذ بأسباب: الأمن الصحىِّ، والأمن الاجتماعىِّ والغذائىِّ، والأمن على الفكر والعقل والقلب من وسائل التشويش والإفسادِ والإضرار بالأخلاق والمسالك والعقائد.

إنَّنا بالصيانة والاحتراس من دابَّة الأرض وسُوس عصا سليمان وبأخْذ الحيطة من كلِّ وجهٍ إنَّنا بهذه الوقاية من عوامل الإفساد وإثارة الأحقاد والضغائن نحفظ أنفسَنا وأمَّتنا وعلاقاتِنا من أسباب الضعف والخِذلان والشقاق والخصام؛ لأنه لا يعمل فى الظلام إلَّا من ساءت نواياه، وضعفت حُجَّتُه، وفسد ضميرُه.

إنَّ شريعة الله جاءتنا بالزواجر وبالأوامر والنواهى، وبالحدود والأحكام والجزاء، وبالردع والزجر، والترغيبِ والترهيب، وبالعفوِ والإحسان وبيانِ القواعد الشرعية وما اشتملت عليه من الحقوق والواجبات، وافْعَل ولا تفعلْ، إنما كلُّ ذلك من أجل أمن الإنسانِ وسلامته وراحته، فطوبى لمن أمنه الناس وسلموا من يده ولسانه.

ومن القواعد والأسس التى ينبغى لنا أن نلتفت إليها: «المسلمُ من سَلِم الناسُ من يده ولسانه، والمؤمنُ من أمِنه الناسُ على أموالهم ودمائهم وأعراضهم» [رواية أبى هريرة عند الترمذىِّ والنسائىِّ].

ثلاثةٌ ليس لها نهايةٌ الصحةُ والأمنُ والكفايةُ

أى ليس لها نهايةٌ فى الجمال وتحقيق الخير والسلام والازدهار.

ولنتدبَّرْ: «من بات آمنًا فى سِربِه (بيته)، مُعَافًى فى بَدَنه، عنده قوتُ يومه،

فقد حِيزَت له الدنيا - بحذافيرها - »

[الترمذىُّ رواية عبد الله بن محصن الخطمىّ عن أبيه أبى محصن].

إنَّ الإنسان هو العنصر الفاعل فى حياة الأمَّة، فإذا أصلح كلُّ إنسانٍ نفسَه وأحوالَه، وكفَّ عن الناس شرَّه، وأعطاهم من نفسه ما يحبِّبه إليهم ويسرُّ نفوسَهم لو فعل كلُّ إنسانٍ هذا لعاش الجميع آمنين فى محبَّةٍ ووفاءٍ.

* * *

الزيارة وصفاء المودّة

التزاور ظاهرةٌ اجتماعية تؤكد التماسكَ والترابط بين أبناء الأمة، كما يدلُّ التزاورُ على سلامة البنية الاجتماعية وخُلوّها من علل التمزُّق وأمراضِ الأثرة وأسبابِ الجمود العاطفىّ، والتبلّدِ النفسىّ وغير ذلك من العلل المؤذنة بانهيار المجتمعات المادية التى جانبتْ إرشادَ الدين الإلهىّ، وانغمست فى بُؤَر النَّزَعَات الفرديّة، كما انغمست فى الملاذِّ والأهواء والأغراض الخاصَّة فلا تعاطُف ولا تراحُم بين أبنائها، بل ولا بين أبناء الأسرة الواحدة فى غالب الأحيان.

إنَّ التزاور أثرٌ من آثار المحبَّة والرغبة فى الخير وفى دعم العلاقة بين أفراد العائلة والجيران والأصدقاء وأبناء الحرفة الواحدة، وفى التزاور مواساةٌ وتشاورٌ وشعورٌ بالثقة والطمأنينة، وفيه إزالةُ ما قد يكون فى النفوس من الجفوة أو الحذر، ولا يخلو الأمرُ من الفوائد المادية بالتعاون وتبادُلِ الخبرات إلى جانب العوائد المعنوية التى هى أبقى أثرًا وأعظمُ نفعًا خاصَّةً إذا خلت النفوسُ من الأغراض الذاتية ومن أسباب الأحقاد والتنافر، وإذا كانت الزياراتُ بريئةً خالصةً لوجه الله - عز وجل - وكان الغرضُ منها إطفاءَ نار الشوق، وتطييبَ الخواطر، وتفقُّدَ الأحوالِ للإعانة على الخير، وعلى دفع

أسباب الضرّ، وللمواساة والتهنئة عند الخير، والتعزية والتسلية عند المكروه.

وما أجْمَلَ ما يقع بين الأهل والجيران وأهل القُرى والضواحى فى المدن فى أيام الأعياد من التوادّ والتزاور؟ ومثله ما نراه فى إجابة الدعوة عند العُرس والعقيقة، وما يقوم به الناسُ من تلقاء أنفسهم لمواساة أهل الميت وحضور جنازته، وتعزية أهله؟ إن هذا ومثله لمؤشِّرٌ عظيم على أن حياتنا الاجتماعيةَ ما زالت قائمةً على التعاون والتساندِ والتراحُم والمحبة، وإن كنا نأمل فى المزيد وفى تدريب الجيل الجديد على هذا النمط الرفيع من المسالك الاجتماعية العالية القيمة، العظيمةِ الأثر، الإيجابية المنفعة، والتى افتقدتها أممُ المدنيّة المادّية القائمة على الفردية والأنانية ووضع الحبل على الغارب للأولاد ورفْع يدِ الأبوين عنهم، وهم فى سنِّ الطيش والاندفاع، إن هذا وغيره أدَّى إلى تقطيع أواصر العلاقات الإنسانية والاجتماعية السليمة وأفْقَدَ الناسَ حلاوةَ التراحُم والتعاطفِ والمواساةِ.

لقد جعل الدينُ الحنيف للتزاور شأنًا عظيمًا وحثَّ عليه، وبارك أصحابه أربابَ النوايا الصحيحةِ الطيبة السالمةِ من كلِّ غرضٍ خبيث ومن حبِّ الاستطلاع ومن الهوى الذاتى لدوافعَ غيرِ طيّبة؛ فمن عاد أخاه أو صديقه مريضًا، أو زاره صحيحًا لتوكيد المحبّة والتعاون على الخير بارك الله فى خطواته، وأجزل ثوابه وكأنّه ماشٍ فى سبيل الله، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه البخاريُّ فى الأدب المفرد وأحمد وغيرهما: «إذا عاد الرجل أخاه أو زاره، قال الله له: «طبتَ وطاب ممشاك وتبوَّأت منزلًا من الجنَّة» وفى هذا بُشرى برفع الدرجات لمن يعاود الزيارة مرة بعد أخرى لتوثيق الروابط، وتقوية دعائم العلاقات الأسرية والاجتماعية، ومن زاره صديقُه أو قريبُه فليكرمْه بما يقدر عليه دون مبالغةٍ حتى لا يشقَّ عليه، وذلك حين يضطرّ

هذا الزائرُ أن يُرهق نفسه إذا زاره صديقُه على سبيل مقابلة المعروف بمثله أو بما هو أفضلُ منه، وربما تكلّف فوق طاقتهِ، فعلينا أن نلتزم المقدورَ عليه فى تقديم «التحية» وإكرام الضيف دون إسرافٍ ومبالغةٍ، ومن المأثور عند السلف: «لا تُكرم صديقَك بما يَشُقُّ عليك»، وعلينا عند الزيارة بالمؤانسة وتقريب القلوب والإشعار بالسرور والإخلاص فى المشورة والنصحية، وأن تخلوَ المجالس من الغِيبة والنميمة والقيل والقال فيما ليس لنا فيه خيرٌ أو مصلحةٌ ومنفعةٌ، وعلى الزائر ألا يُثقل على المزور بطول الوقت أو مراقبة ما يجرى فى البيت لتزداد المحبةُ والثقة.

* * *

أعيادنا للشكر وتجديد العزم على اتّباع الهدى النبوى

❋ العيد عودٌ للفرح والسرور وتأكيد الأخوَّة والمحبَّة:

وكيف لا يفرح الموحّدون فى يوم عيدهم وقد مكَّن لهم ربُّهم من قهر الشيطان بإتمام الصيام، وإحياءِ ليالى رمضان بالقيام، وأدخلوا السكينةَ على قلوب غير القادرين بصدقة الفطر وما تيسّر من فضل الكساء والمال والطعام.

إنَّها فرحةُ الشكر؛ لأن التوفيق لأداء الطاعة والقيام بالفريضة من أعظم النِّعَم؛ لأنَّها من الصالحات الباقيات التى يتعلق بها رجاؤُنا فى نيل ما عند الله من الرحمة والعفو والغفران: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُكبِّر المسلمون يومَ فطرهم حتى يبدأ الإمامُ صلاة العيد، إنه تكبير الشكر الذى يهزُّ قلوبَ الكبار والصغارِ بالفرحة والسرور: «اللهُ أكبر، اللهُ أكبر، لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ كبيرًا».

«الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد».

❋ التهنئة: قال أنس: «كانت الصحابةُ يقولون لرسول الله ﷺ إذا انصرفوا

من صلاة العيد: «تقبّل اللهُ منّا ومنك يا رسول الله»، فيقول: «نَعَم، تقبل اللهُ منا ومنكم».

ومن أمارات وحدة الأمة وتراحُم أبنائها حرصُها فى العيد على تبادل التهانى والدعاء بالقبول وبعود السرور، وبإزالة المفاسد والشرور، وحرصُها على القيام بصلة الأرحام، وكفالة الأيتام، والرحمةِ للمسكين والضعيف والعاجز والعائل رقيق الحال.

❋ **ومن أمارات السعادة:** وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا وفَّقه إلى توبةٍ نصوحٍ بعد رمضان فيسلك العبدُ المؤمنُ مسالكَ أهل الصلاح المقتدين بخير الأنام، ويواظبُ على أداء أركانِ الإسلام، ويجتهد المؤمنُ الموفَّقُ فى النوافل وسائرِ القُربات ما استطاع، ويكفّ جوارحَه عن الشر والسوء، ويحفظ لسانه عن القيل والقال واغتياب الحاضر والغائب، ويقول للنَّاس حُسنًا، ولا يتكلم إلا بخيرٍ أو بذكر الله - عز وجل -.

ومن أمارات السعادة الابتعادُ عن مجالس اللغو والباطل والسوء، ومجانبةُ البطَّالين أهل الغفلة عن طاعة الرحمن، ويراقب العبدُ ربَّه فى سره وعلانيته قانعًا بعطائه، مؤمنًا بلقائه، راضيًا بقضائه.

❋ **والفرحة الأتمّ والأكمل:**

إن العيد هو عيدُ الوحدة والوئام وعيدُ التراصِّ خلف الإمام لتأكيد وحدة قلوب المسلمين فى كلِّ مكانٍ؛ فإنَّها إذا تنافرت وتحاسدت وتقاتلتْ صارت بعيدةً عن منهج العيد مجافيةً للطريق الذى دعانا إليه ربُّ العباد.

إنَّ العودة إلى الله بصدقٍ وإخلاصٍ وتصفيةِ قلوبنا من أكدار المعاصى والتباغض وبتنقيةِ حياتنا مما يُغضب الرحمن، وبتنميةِ نوازع الخيرِ والبرِّ فى النفوس بالتربية السليمة والتوجيه السديد والقدوةِ الحسنة فى البيوت

والمدارس والمعاهد والنوادى، وإبعاد ناشئتِنا عن كلِّ ما يضرّ بنفوسهم، وعقائدهم، أو يسىء إلى أخلاقهم ويشوِّش على فكرهم سواء بالكلمة أو بالصورة أو الحركة.. إنَّ هذا مع تمَسُّكِنا وعملنا بالمناهج المستمدةِ من تعاليم السماء يُعيد إلى أمتنا أصالتها كاملةً فهى خيرُ أمة أُخرجت للناس، وهى الأسوةُ، ولها الريادةُ فى العلم والخُلق والعدلِ والإحسان، وإن عالمَ عصرنا الحاضر فى أشدِّ الحاجة إلى معطياتنا، فهو عالمٌ يسوده القلقُ والجهلُ بحقيقة الفضيلة، ويقوده الشيطانُ إلى مَهاوى الدمار النفسىِّ والجسدىِّ والضياع فى متاهات الحيرة والقيم الفاسدة وضلالات الفكر والهوى.

عيدُنا أجملُ عيدٍ وأعظمُه، وفرحتُنا به تكون أتمَّ وأعظمَ يوم يزول الشرُّ والعدوان من فلسطين ومن كلِّ شبرٍ من أمَّة الإسلام، وتعود لهذه الأمَّة العظيمة هيبتُها وتضامُنها وتضافُر جهودها لخدمة الأوطان فى ظلال تعاليم الإسلام ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

يا عيدنا عُدْ إلينا دومًا ونحن فى أمنٍ وسلامٍ ورخاءٍ وازدهارٍ، وقد كسرنا شوكةَ العدوان، وارتفعت رايتُنا بالعدل والإخاء والتراحُم والتكافل والأمن والأمان مع اندحار كلِّ عوامل الشرِّ والفساد.

* * *

تعظيم كرامة الإنسان وحقوقه ووجوب الكفّ عن إيذائه

❋ واشتغال كلِّ امرئ بتحسين أحوال نفسه:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسْن إسلامِ المرءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيه» [أخرجه الترمذىُّ وقال: حسن].

إن المرءَ إذا حَسُن إسلامُه فهمًا وعملًا ومسلكًا فإنه يُعنَى بإصلاح نفسِه، ويُلازمه شعورٌ بأنه مُقصِّر فى طاعة ربِّه، وشغلَتْه عيوبُه عن مساوئ الناس، وشَغَل وقتَه بما يعودُ نفعُه على دينه ودنياه.

إن الرسولَ ﷺ أوْجَز لنا هذا النَّمطَ العالى من التربية فى ألفاظ قليلةٍ جمعت معانى جليلةً، ومبادئ ساميةً من تدبَّرها وأخذ نفسَه بها شغلتْه معالى الأمورُ عن سَفْسَافها، وآمن بأن كلامَه من عَمَله فهو محسوبٌ له أو عليه، فيدفعُه إيمانُه وحِرصُه على تكميل نفسه بالفضائل إلى أن يكون كلامُه بميزان فلا يخوض فيما لا يخصُّه، ولا يبحث عن عيوب غيره، ولا ينطق إلا بخيرٍ، ولا يشارك فى لغو الكلام وباطله وساقطه مما لا فائدة من ورائه لدنيا أو لدينٍ.

إن المرءَ إذا حسُن إسلامُه فإنه لا يجالس أهلَ البِطالة الفارغين، ويشغل نفسَه بصنعةٍ تنفع، أو بقراءةٍ تفيد، وقلبُه ولسانُه يلهج بذكر الله وعظمتِه ومراقبته، ذلك أن ما يَغنى المؤمنَ العاقل حقّا هو العملُ والقولُ الذى يجده فى ميزان حسناته يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ، أمَّا العملُ الذى لا منفعةَ فيه ولا قيمةَ له فهو ضائعٌ على صاحبه، وأما العمل الذى فيه معصيةٌ فهو شرٌّ ووبالٌ على مُرتكبه، وكذلك الأقوالُ تُوزن بميزان الأفعال، ولذا فإنَّ الصحابىَّ عُقبةَ بنَ عامرٍ حين طلب إلى رسول الله ﷺ النصيحةَ الجامعة لخصال الخير قال له: «أمْسِكْ عليك لسانَك، ولْيَسَعْكَ بَيْتُك، وَلْتَبْك على خَطِيئتِكَ» [أخرجه الترمذىُّ]، وفى هذه النصيحة إرشادٌ لخيرٍ كثيرٍ يعود نفعُه على صاحبه فى الدنيا والآخرة، فإنه حين يُمسك لسانه إلا عن خيرٍ وحقٍّ مع لزوم الصدق فى القول ومع حُسْن الكلام

وطيّبه أحبّه الناس، واطمأنوا إليه وأرضَى ربّه، وإذا انصرف إلى العناية بأمور بيته، وقضى فيه أوقاتَ فراغه من شُغله فإن ذلك يُعينه على إصلاح النفس، والعناية بالأهل، وإصلاح الخلل فى حينه.

أما البكاءُ على الخطيئة ندمًا وطلبًا للمغفرة من الله - عز وجل - فإنَّه دليلٌ على محاسبة النفس، ومعرفة أخطائها، ومن تاب مخلصًا تاب الله عليه، ففحوى هذه النصيحة أنَّها حثٌّ على أن يُعْنَى المرءُ بما يَعْنيه ويخصُّه من أمور دينه ودنياه وبما يجعله أهلًا لرحمة الله.

وقد بشَّر الحبيب المصطفى ﷺ المسلم الذى يَشْغَلُه إصلاحُ نفسِه وأحواله عن الاشتغال بمراقبة الناس وأحوالهم بشَّرهُ برضوانٍ من الله وفضلٍ: «طُوبى لمن شَغَله عيبُه عن عيوب الناس» [رواه أنس وأخرجه البزار بإسناد حسن]

كما أنه ﷺ أنذر المشتغلين بالبحث عن أحوال الناس، وتتبُّع مَساوئهم فقال لهم: «يا معشَرَ مَن آمنَ بلسانه ولم يدخُل الإيمانُ قلبَه لا تغتابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عوراتهم؛ فإنه مَن يَتَّبِعْ عوراتِ المُسلمين يَتَّبعِ اللهُ عورَته، ومن يَتَّبعِ اللهُ عَوْرَتَه يَفْضحْه ولوْ فى جَوفِ بيته»

[رواه أبو برزة التلمئ وأخرجه أبو داود].

قال مجاهد: «خُذوا ما ظَهَر ودَعُوا ما سَتَره الله»، وفى الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى حَرَّم من المسلم دَمَه وعِرضَه وأن نَظنَّ به ظنَّ السُّوء» [أخرجه البيهقىُّ فى الشُّعب]، أمَّا الذى يجاهر بالسُّوء والفاحشة والخبائث ويتحدَّث بذلك دون مبالاةٍ فلا يَحرُم سوءُ الظنِّ فيه والحذَر منه.

قال الحسن البصرىُّ التابعىُّ - رضى الله عنه-: «من علامات إعراضِ اللهِ تعالى عن العبدِ أن يجعلَ شُغْلَهُ فيما لا يَعْنيه».

وقد سُئل لقمان الحكيم عن الخصال التى يراها سببًا فيما بَلَغه من الفضل

فقال: «صِدْقُ الحديثِ، وأداءُ الأمانة، وتَرْكُ ما لا يَعْنِينِى»

[ذكره الإمام مالك].

ومما مدح الله بهِ عباد الرحمن أنّهم لا يتخوّضون فى أعراض الناس، ويُصمُّون آذانهم عن اللغْو والباطل فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢) وبشّرهم الله - عز وجل - بالفوز والفلاح. فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ (المؤمنون)، فكل ما لا منْفَعة فيه ينصرفون عنه، ولا يُعطونه بالًا إذْ لديهم من المصالح الدينية والدنيوية ما يَشْغلهم عما لا يعنيهم، ولنتدبر ما قاله أبو هريرة - رضى الله عنه-: «أكثرُ الناس ذنوبًا أكثرهم كلامًا فيما لا يَعْنيهم»، وتُوفِّى رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رجل: أبْشرْ بالجنَّة، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ لا تَدرى (أو ما يُدْريك) فلعلّه تكلّم بما لا يَعْنيه أو بَخِلَ بما لا يُغْنيه»

[أخرجه الترمذى ورواه أنس].

وجاء فى التوجيه الشريف أنَّ حُرمة المؤمن أعظمُ عند الله من حرمة الكعبة، فهذا ابنُ عمر - رضى الله عنهما - يقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يطوفُ بالكعبة، ويقول: ما أطْيبَك وأطيبَ ريحَكِ، وما أعظَمك وأعظَمَ حُرْمتك، والذى نفسُ محمَّدٍ بيده لَحُرمةُ المؤمنِ أعظمُ عند اللهِ تعالى حرمةً منكِ: مالهُ ودَمُه وأن نَظُنَّ به إلا خيرًا» [أخرجه ابن ماجة].

والعِرضُ هو موضعُ الذمّ والمدح من الإنسان، وهذا يتصل بكرامة الإنسان وسُمعته ومكانته بين الناس، فلا يحلُّ لأحدٍ أن ينالَ من مؤمنٍ بما يُؤذيه، أو يُسىء إليه، أو يَغُضُّ من شأنه، واللهُ - عز وجل - ينهى المؤمنين عن الازدراء بإخوانهم أو الطعن فيهم بما يكرهونه فيقول من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ

عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ (الآية).

وأكَّد الحبيب المصطفى ﷺ حُرمةَ المؤمنِ وكرامته وحرمةَ عِرضِه كحرمة دمه وماله بقوله: «كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمُه ومالُه وعِرْضُه»

[فى الصحيحين والترمذىّ والراوى أبو هريرة].

وفى تبشيع عمل أهل الغيبة والطعَّانين فى أعراض الناس الآكلين لحوم إخوانهم يبيِّن الرسول ﷺ أنَّه رأى ليلةَ المعراج قومًا لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يمزّقون بها لحومَ وجوههم وصُدورهم، فلمَّا سأل عنهم جبريلَ - عليه السلام - قال له: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعُون فى أعراضهم»

[أخرجه أبو داود والراوى أنس بن مالكٍ].

فطوبى لمن شغله إصلاحُ نفسه عن البحث عن عيوب غيره، طوبى لمن طلب المغفرة لكلِّ الذين اغتابهم أو عابهم ولو فى حضرتهم تائبًا إلى الله راجعًا إليه نادمًا.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

[الحجرات]

للمساجد آدابٌ ورعايةٌ خاصّةٌ

إنَّ المسلم وهو مُقبلٌ على المسجد يكون على هيئة الوقار والسكون، ويُراعى نظافةَ الثوبِ والبدن والفَم بحيث لا تنبعث منه رائحةٌ غير مُستحبَّة تؤذى المصلين كما تؤذى ملائكةَ الرحمن، ثمَّ يدخل المسجدَ مبتدئًا برجْله اليُمنَى ويقول: «اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمدٍ، اللهم اغفرْ لى ذنوبى وافتحْ لى أبوابَ رحمتك»، أمَّا عند خروجه منه فإنه يبدأ برِجْله اليُسرى قائلًا: «وافتح لى أبوابَ فضلك» مكان «رحمتك» مع بقية هذا الدعاء.

ولحُرمة المسجد ورعايةِ مكانته يبدأ المسلمُ بصلاة ركعتين تحيةً له، وإذا كان الإمامُ فى صلاة الفريضةِ فإنه يدخل فى الصلاة معه فهى فريضتُه وهى بفضل الله تحيةُ المسجد - أيضًا - وإذا صلَّى سُنةً بعد الأذان كسنةِ الصبح أو الظهر عند دخوله المسجدَ أغنتْه عن ركْعَتَى التحية.

وينبغى لداخل المسجد أن يأخذَ مكانَه حيث تنتهى صفوفُ الجالسين فلا يترك مكانًا خاليًا أمامه، ولا يأخذ مكانًا خلف الصفوف بعيدًا عنها؛ لأنه إن فعل ذلك هو وغيره فقد يُضطرُّ القادمُ متأخِّرًا لتخطِّى رقاب الجالسين وإيذائهم بحركته ليجلس فى الأماكن الخالية، ويتحمَّل المتسبِّبُ فى هذا إثمَ ذلك؛ أمَّا الشخصُ الذى يتخَطى الرقاب وليس أمامه أماكنُ خاليةٌ فإنه يتحمّلُ إثمَ عمله ووِزْرَه إذا فعل ذلك من غير ضرورةٍ مُلجئةٍ وكانت الصفوفُ الأماميةُ تامةً ومتراصَّةً، ومن الضرورة دخولُ الإمام إلى المحراب، وكذلك إلى المنبر يوم الجمعة، ومن آداب المسجد عدمُ منازعة أحدٍ فى المكان، فالمكانُ فى المسجد لمن سَبَق إليه، ومنها عدمُ التضييق على أحدٍ فى الصف.

ويجب أن يتحاشى المسلمُ المرورَ أمام المصلِّى فإذا وضع المصلِّى سُترةً أمامه مشى القادمُ خلفَ السترةِ ولا يمشى بينها وبين المصلِّى؛ لأنَّ ذلك إثمُه

عظيمٌ لإخلاله بما يجب توافُره من الهدوء والسكينة والخشوع.

وإن الجالسَ فى المسجد يصرفُ قلبَه ولسانَه لذكر الله وتلاوة القرآن بدون صوتٍ ولا تشويشٍ على الجالسين، بل يُسْمِع نفسَه فقط، ولا يقطع على جاره اشتغاله بالصلاة، أو بذكر الله وتلاوة القرآن، فالمساجدُ أماكنُ للهدوء والخشوع ولانصرافِ كلٍّ واحدٍ بقلبه إلى الله - عز وجل - يدعوه ويذكره.

ولا يتكلم الجالس بكلامٍ لا فائدةَ منه ولا مصلحةَ فيه، كما لا يجوز رفعُ الصوت بأى حالٍ إلا لأذانٍ أو إقامةٍ أو خُطبةٍ أو درسٍ يُلقيه الإمام، كما لا يليق لمؤمنٍ أن يفرقعَ أصابعَه أو أن يعرضَ سلعةً للبيع فى المسجد، أو أن يشترى شيئًا من أحدٍ، ولا يجوز سؤالُ الناس فى المسجد، وحتى السؤال عن الأشياء الضائعة لا يليق فى بيوت الله، وقد ورد النهى عن ذلك، ولا يجوز بحال رفعُ السلاح أو ترويعُ أحدٍ أو المنازعاتُ والخصومات، وحتى حدود الله كالقصاص ونحوه لا تُقام فى المساجد التى هى بيوتُ الله، وعملُنا فيها هو العبادةُ نؤدِّيها خالصةً لوجهه الكريم، وإن شعارَ المؤمنين فيها التواضعُ والرفقُ والمؤاخاةُ والمحبَّة والمساواةُ وخفضُ الجناح والخشوع والخضوعُ والبكاءُ أو التباكى لتأكيد التوبة وتجديدها، إن الجالس فى المسجد كأنَّه فى صلاة ما دام على وضوئه، فَلْيغتَنِم الجالسُ الوقتَ فى توجيه القلب والفكر للعبادة وطلب مرضاةِ الله - عز وجل - ولا يصدرُ عنه ما ينافى آداب المسجد، التى هى بيوتُ الله، والجالسون ضيوفُه سبحانه وتعالى يطمعون فى كرمه ورحمتِه، إنها بيوتُ الذين يخافون يومًا تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ، وهم أهل التسبيح والتحميد والتكبير وتلاوة القرآن أهلُ كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يرجون رحمةَ الله ويخافون عذابه.

* * *

الله خالق كلّ شيءٍ والسلامة فى الأدب مع الله «أشكو إلى الله لطلب رحمته ولا أشكو من الأيام»

❋ من أدب الأكابر القُدوة:

نبدأ بموقفٍ عظيمٍ لرسول الله ﷺ وقد أحاطت به قساوةُ قلوب المتجبِّرين واشتد به أذاهم بين مكَّةَ المكرَّمةِ ومدينةِ الطائف فلجأ إلى الله وحده معتصمًا به قائلًا: «اللهم إنِّى أشكو إليك ضعف قُوَّتى وقلةَ حِيلتى وهَوانِى على الناس يا أرحمَ الراحمين» ثم سأل الله - عز وجل - أن لا يَكِلَهُ إلى أحدٍ من الخلق وأن يرضى عنه: «إن لم يكن بك غضبٌ علىَّ فلا أُبالى».

إن شكوى محمَّدٍ خيرِ خلْق الله كانت لله وحده وقد تبرَّأ من قوَّة نفسه ومِن حَوْلِه وحِيلته متوسِّلًا إلى الله برحمته، راضيًا بقضائه، راجيًا لمن ظلموه واشتدُّوا فى أذاه أن لا يقعَ بهم العذاب: «لعلَّ الله أن يُخرِجَ من أصلابهم من يعبدُ الله» فهو دومًا مع الأمل والرجاء والطمع فى رحمة الله لنفسه ولغيره ﷺ.

ومن شكوى النفوس العظيمة قولُ يعقوبَ النَّبىِّ ﷺ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (يوسف: ٨٦) إنه يشكو إلى الله وحده بعرْضِ ما انبثَّ فى قلبه من الألم والغمِّ فأولاده دبَّ فى نفوسهم داءُ الحسد، وهذا من أعظم أسباب ما يُصيب الوالدَ من الغمِّ والهمِّ، كما أن صغيره المحبوبَ غاب عن عينيه، وهو كنور بصرِه، فتوجَّه إلى الله وحده راضيًا شاكرًا راجيًا رحمته، وتأمَّل عمقَ شعوره بالاحتياج إلى رحمة الرحمن: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (الآية: ٨٧).

وإن النَّبى أيوبَ - عليه السلام - امتحنه ربُّه بالضُّرِّ أصابه فى جسمه وفى أولاده وماله، وطال الوقتُ ومرَّت سنون، وهو صابرٌ راضٍ شاكرٌ ثم توسَّل

إلى الله بربوبيته وبرحمته وعَرَضَ حالته عرضًا، ولم تظهر منه الشكوى، واللهُ أعلم بحاله، ولنتدبر ما جاء فى سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الآية).

❋ **الإيمان بالقضاء والقدر**: إن قضاء الله هو حُكمه فى عباده على مُقتضى عِلمه وإرادتِه، وإن ما حكم به سبحانه فهو قدَرُه النافذُ لا محالة، فما شاء الله كان وما لا يشاءُ لا يكون رَضِى الناسُ أم سَخِطوا: إن مَسَّنا الضُّرُّ فهو قدرُه وحُكمُه ولا كاشفَ له إلا هو، وإن أرادنا سبحانه بخيرٍ فهو قدَرُه وحكمه ولا رادَّ لفضله عن عباده، ولا يصحُّ إيمانُ العبد إلا بالرضى والتسليم يقول من صميم قلبه: قدَّرَ اللهُ وما شاء فَعل، والحمدُ لله على كلِّ حالٍ.

وهو سبحانه الخالقُ لكلِّ شىءٍ، وإن الزمانَ والأيامَ ظرفٌ لما يقع فيه من الحوادث والأمور الخاصة والعامَّة، وهذا الزمان لا يعى ولا يدرى بما يدور ويجرى فيه، وكذلك المكان، وقد جعل الله للعبد الاختيارَ والميلَ وأرسل الرسل، وأنزل الكتبَ، وبين لنا الخيرَ والشرَّ، والحقَّ والباطل، والحلالَ والحرامَ والطاعةَ والمعصية ليُجازِى المسىء بإساءته، فقد أساء الاختيار، وهو مسؤول عن اختياره وعمله، وليُثيب المحسنَ بإحسانه فى اختياره العقيدةَ الصحيحةَ ولإخلاصه الطاعةَ لربِّه، واتِّباعِه لرسوله ﷺ مع الرضَى بقضاء الله وقدره.

إنَّ الراضين الشاكرين هم أهل العقل والحكمة.

وإنَّ الساخطين الجاحدين هم أهلُ الحماقة والهلكة.

❋ **ما يجوز وما لا يجوز من الشكوى**: إنَّ كلَّ ما يقع فى الكون إنَّما يقع بإرادة الخالق سبحانه ومشيئته فهو وحده له كمالُ الحكمة، وكمالُ الإرادة، وكمال العلم، وكمالُ القدرة، ويجوز للعبد أن يَصِفَ ما وقع من الشَّرِّ والضُّرِّ

سواء بالنسبة للحوادث العامة أو الخاصة، وهذا الوصفُ قد يكون للتنبيه من غفلة أو للعظة والعبرة، أو لالتماس الأسبابِ المُزيلة لآثاره، كما يصف المريضُ حاله للطبيب أو لذى خبرةٍ وتجربةٍ لغرضِ تَلمُّسِ الدواءِ المناسب عساه يُزيل المرضَ بإذن الله وحده وإرادته؛ لأنَّ الفاعل هو الله وحده، والدواءُ سببٌ قد ينفع أو لا ينفع، حسب المشيئة النافذة، فالشكوى تكون لله وحده على سبيل الدعاء والاستعانة، ولا يجوز أبدًا الشكوى من الله - عزَّ وجلَّ - أو سبُّ الأيام والزمان، أو التلفُّظُ بما يدلُّ على التبرُّم من قَدَر الله، فهذا خطرٌ عظيمٌ وجُرمٌ فظيعٌ.

❃ **ومما لا يجوز**: ومما لا يجوز صدورُه عن مؤمنٍ بالله وقدَرِه وقضائه فى خلقه أن يقول الشخصُ مثلًا: «ومن لؤم القَدَر أن حَدَثَ كذا وكذا لنا» ومثل قول بعضهم: «ضيَّع الدهرُ جَاهى» أو قوله: «من سُخف القدَر حصولُ كذا» ونحو ذلك من العبارات التى سمعناها أو قرأناها فى بعض الصحف؛ لأن ما يحدث لنا أو لغيرنا إنَّما هو قضاؤه سبحانه وحكمُه لإرادةٍ عليا وحِكمةٍ عظيمة، مما يُجدِّد فى أهل العقل والبصيرة النظر والاعتبار، ويُنشِّط العزمَ على الأخذ بالأسباب الصحيحة مع حُسن التوكُّل على الله والسعى لتحقيق ما هو أفضل؛ لأنَّ محاسبةَ النفس عند الفشل خيرٌ من التسخُّط ومن إلقاء التبعةِ على القدر أو على الأيَّام والليالى، فما أصابك أو أصابنا من سيئةٍ فمن نفسك أو من نفوسنا لسوء اختيارِنا وبسبب الانحرافِ عن طريق الله - عز وجل - وما يقع لنا فهو بإرادةٍ عُليا ولا مفرَّ من ذلك، فاللهُ خالق كلِّ شىءٍ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨) وإنَّ ما يحدثُ لنا مِمَّا قدَّره سبحانه من مرضٍ أو صحَّةٍ وغير ذلك مما يسرُّنا أو يسُوؤنا فالحكمةُ منه إما للتنبيه والإيقاظ من غفلةٍ، أو للاستدارج، أو لاختبار المؤمن الصالح الصابر الشاكر لرفع

درجاته؛ فإن الله - عز وجل - يختبر عباده بالخير والشرِّ، وإنَّ أهل الصبر والشكر من المؤمنين هم أهلُ العقل والحكمة، وإن الخيرَ والشرَّ من عند الله خلقًا وتقديرًا على مقتضى الحكمة والمشيئة؛ فإذا غيّر الإنسانُ ما يجده فى نفسه وعمله من قصورٍ أو تقصيرٍ وانحرافٍ، وعاد إليه رشده وسلك مسالك الصالحين، وثبت على الصراط المستقيم الذى فيه مرضاةُ ربِّ العالمين كان أهلًا لأن يغيِّر الله حاله بفضله وإحسانه إلى ما هو أحسنُ له وأفضلُ ولأن يُمدَّه بعونه، ويُبصِّره ويُسدِّده ويُوفِّقه، أمَّا التسخُّط وكثرةُ التندُّم فمن أمارات سوءِ الفكر وضعفِ العزائم والركونِ إلى وساوس الشيطان، التى تؤدِّيه إلى الخذلان.

يقول الإمام محمد عبده فى تفسيره سورة «العصر»: «قد يتوهَّم بعضُ الناس أن الوقت مذمومٌ، فأقسم اللهُ به لينبِّهَك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يُذمّ ويُسبّ كما اعتاد الناسُ أن يقولوا: «زمانٌ مشؤوم، ووقتُ نحسٍ، ودهرُ سوءٍ» وما يُشبه ذلك من الألفاظ، بل الزمانُ وعاءٌ للحسنات كما هو وعاءٌ للسيئات، وهو ظرفٌ لشئون الله الجليلة من خلْقٍ ورزْقٍ وإعزازٍ وإذلالٍ وخفضٍ ورفْعٍ، فكيف نذمُّ الزمانَ فى ذاته، وإنَّما قد يُذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة». ذلك أن أعمال الإنسان هى مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان، كما أن أعماله هى التى تكون مصدر سعادته إذا كانت على وفق شريعة الله، وأمره.

❋ **ومن سوء التفكير «سبُّ وشتيمة الأيام»**: إن الفاعل هو الله - عزَّ وجلَّ - وإنَّ جميع الحوادثِ إنَّما تَجرى بقضائه وقدره حسبما تقتضيه إرادتُه سبحانه ومشيئته، وإن المخلوقَ قد يكون سببًا لِمَا يقعُ أو لِما يحصل عليه شخصٌ بعينه، وذلك كمن يشفع لك فى الحصول على عملٍ مُباحٍ طيِّبٍ يُغنيك

عن سؤال الناس، فإذا حصلتَ عليه فإنّما حصلت عليه بإرادة الله ومشيئته وحده، أمّا العبدُ الذى سعى فيه فإنَّما هو سببٌ من الأسباب، ولذا فإننا نجد المؤمنَ عند اللزوم يقول: «قدَّر اللهُ وما شاء فعل، اللهمّ إنا نسألك العون»، كما يقول متمثِّلًا بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ (البقرة: ٢١٦) فالقتال - مثلًا - وبذل النفس والراحة والمال ممّا تعافه النفس ولا ترغب فيه، ولكن عند اللزوم يكون الخير كلُّ الخير للفرد والجماعة فى بذل النفس والنفيس، فهذه العبارات الحكيمةُ البليغةُ وأمثالها يتمثَّل بها الإنسانُ حسب المواطن فتملأ النفس طمأنينةً وسكينةً، وتقترن بشكر الله وحمده فيزداد بذلك المؤمنُ كمالًا فى طريق أدب النفس مع الخالق سبحانه.

* **نهى الله - عز وجل - عن سبِّ الدهر**: وفى هذا السياق جاء النهى فى الحديث القدسىّ عن شتيمة الدهر وسبِّ الأيام، مع التأكيد على أنَّ الأمور كلَّها بيد الله - عز وجل - وأنه هو خالق كلِّ شىء، فلا يجوز اعتقادُ نسبةِ شىءٍ ممَّا يقع للإنسان من خيرٍ أو شرٍّ لمخلوقٍ على سبيل الحقيقة، وهذا من ثوابت الإيمان وحقيقته، فالأمورُ تجرى بأسبابٍ هو خالقها ومُسبَّباتٍ - بفتح الباء الأولى مشدَّدةً - هو خالقها سبحانه وتعالى، وعلينا أن نأخذ بالأسباب الصحيحة ونتوكَّل على ربِّ الأرباب.

فقد أخرج البخاريُّ عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: قال الله - عز وجل-: «يُؤذينى ابنُ آدمَ، يَسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدى الأمرُ، أُقَلِّبُ الليلَ والنهار»، ومن أمثلة سبِّ الدهرِ أن يقول الشخص: «يا خيبةَ الدهر، أو: يا بُؤسَ الدهر، أو: ضَيَّعَ الدهرُ جاهى، أو: مَزَّقت الأيامُ شملَنا وأذلَّتنا بعد عِزٍّ»، يقول الإمام القسطلانى: «فإذا سبَّ ابنُ آدمَ

الدهرَ على أنه فاعلٌ لهذه الأمور، عاد السبُّ إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الفاعلُ الحقيقىُّ، وإنَّ الدهر إنَّما هو ظرفٌ لمواقع هذه الأمور».

ولنتدبر لفظ هذا الحديث القدسىّ عند الإمام مسلم: «يُؤذينى ابنُ آدمَ، يقول: يا خيبةَ الدهر، فإنى أنا الدهرُ أُقلِّب ليلَه ونهاره» أى هو سبحانه خالقُ الدهرِ وما يَجرى فيه من الحوادث، وفى الرواية عند الإمام أحمدَ بسندٍ صحيح: «لا تَسبُّوا الدهر، فإن الله تعالى قال: «أنا الدهر، الأيامُ والليالى إلىَّ - بياء مشدَّدةٍ مفتوحة - أجدِّدها، وأُبليها، وآتِى بملوكٍ بعد ملوكٍ». وهو سبحانه وتعالى: القائل: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الرحمن) فهو سبحانه يَرفع ويَخفِض، ويُعزّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء ويُغنى ويُفقر على مقتضى كمال الحكمة والإرادة.

إن الله - عز وجل - يعلمنا حسنَ الأدب فى اللفظ والحرص على سلامة عقيدةِ التوحيد، وإرجاع الأمورِ كلِّها إلى الله مع الاعتبار بالحوادث التى تجرى لنا ولغيرنا ليل نهارَ لنُجدِّد الإيمان دومًا، ونزداد من العمل الصالح، ونُصححَ المسار على الطريق الصحيح الذى رسمه الإسلام، وإنَّه بصحَّة العقيدة وسلامةِ اليقين تطمئنُّ القلوب، وترتاح النفوس، ويزول القلق والوهم، ويتقوَّى العزم على العمل لخيرى الدنيا والآخرة.

❋ لا تسبُّوا الدنيا وإياكم والتسخُّط عند الشدائد:

لقد شاع على ألسنة الغافلين سبُّ الدنيا مع أنَّ الدنيا وعاءٌ لما يجرى فيها من الحوادث من خيرٍ أو شرٍّ، وهى مزرعةٌ فمن زرع شوكًا حصد الندامة، ومن زرع ثمرًا طيِّبًا وفاكهةً وجد خيرًا وكرامةً، وقد نهى النبىُّ ﷺ عن سبِّها وبيَّن لنا أن دنيانا خيرٌ ورحمةٌ لمن سلك فيها مسالكَ الناجين أهل الصلاح والإصلاح، فقال: «لا تسبُّوا الدنيا» ثم مدحها فقال: «نِعْمت - الدنيا - مطيّةُ

المؤمن، عليها يَبْلُغ الخير، وبها ينجو من الشرِّ» فتأمل هذا التمثيل الرائعَ والتصوير المُجسِّم لموقف أهل العقل والحكمة من الدنيا ومتاعها: فراكبُ المطيّة العاقلُ البصيرُ إنما يركبها لقضاء مصالحه المباحة وللوصول إلى مقاصده الشريفة لصالح دينه أو دنياه، وليس للمفاخرة والغرور أو قصد اللهو ومجالس الفجور، ولذا فإن العاقل يسلك بمطيته الطريق السهلَ المسقيمَ ويُراعى الحدود، ويختار أسبابَ السلامة، كمن يراعى تعليمات المرور، مع حضور الذهن وهدوء النفس، وبذلك يصل الراكبُ إلى غايته سالمًا بإذن الله وتقديره.

أمّا أهل الغُرور فمع الغُرور والإعجابِ بالنَّفس والزّهو يطيش العقلُ السليم وتضيعُ الحكمة، وكمْ قاسى الناس من الحوادث التى يتسبَّب فيها المغرورون والطائشون والسُّكارى وأصحابُ المخدِّرات والحمقى والجهلة بآداب السلوك؛ لأنَّ هؤلاء يكونون فى الواقع على طرفَى الوسَطية (بالإفراط أو التفريط)، فلا اعتدال فى المزاج والفكر ولا فى المسلك والعمل، اختاروا الاعوجاج، وإن كلَّ نفسٍ بما كسبت رهينةٌ.

ولنتدبر روعةَ البيانِ النبوىِّ وتمثيلَه لدنيانا بالمطية (الركوبة) ؛ لأنَّ ما يقع من خيرٍ أو شرٍّ إنما هو باختيار مُستخدمها وراكبها أمّا هى فذلولٌ، فيكون فى حكم العقل الرشيد، المدحُ للراكب، والذمُّ للراكب.. أليس كذلك؟ ولا يلومنَّ أحدٌ إلا نفسه ولا يتسخّط على قضاء الله وقدره فهذا من أفظع الآثام، ودنيانا مطيّةٌ سهلةٌ، وكما تزرع تحصد.

فنحن - البالغين رجالًا ونساءً - بمسالكنا واختياراتنا فى الدنيا تكون عواقبنا.. أليس كذلك؟

❋ **دنيانا شريفةٌ وفيها خيرٌ ونورٌ**: إنَّ دنيانا فيها نورُ الهداية الربانية: فيها

الكتابُ الكريمُ وبلاغُ الرسول العظيم وسنتُه الهادية، كما أن فيها نورَ القمر والنجوم وضياءَ الشموس وبركاتِ السماء وخيراتِ الأرض، وقد أعطانا الله العقل وأعطانا هدايةَ الوحى ولم يتركنا سبحانه عبثًا وكَلًّا - بفتح أوله وتشديد اللام - مُهملًا، وأعطانا سبحانه الاختيار، فالخيرُ والشرُّ موجودان للاختبار وللاختيار حتى لا يتساوى المحسن والمسيء، ولكى نشكر المنعمَ على السرَّاء ونصبر على الضراء، ونُصلح عيوبنا أوَّلًا بأوَّل فإن كان عيبٌ فالعيبُ فينا نحن لا فى الدنيا ولا فى الزمان، أليس كذلك؟ أصلح اللهُ لنا نفوسنا وأحوالنا ونحمده على كلِّ حالٍ، إنَّ عقائدنا وأعمالنا باختيارنا، وهى التى تحكم لنا أو علينا، وإن الشاكرين الصابرين هم أعظمُ الناس ثقةً وراحةَ قلبٍ وطيبَ نفسٍ.

* * *

من حُسن السياسة
الحذر مع سلامة الصدر

المؤمن الصالحُ يكون سليم الصدر طاهرَ القلب من الحقد والغشِّ لا يمكر بالناس مكرَ السوء بل يتسامح ويتجاوزُ، ولا يُبالغ عندما يُظلم فى أخذ حقِّه، بل يظلُّ مراقبًا ربَّه، عفَّ اللسان، نظيفَ الضمير، حسنَ الباطن وحسنَ الظنِّ فى نظره إلى الناس حتى يقومَ له الدليلُ على خِلاف ظنِّه فيهم، فيقف الموقفَ الذى يرتضيه الشارعُ الحكيم ويتوافقُ مع قيم الإسلام وفضائله، فقد يأخذ لنفسه الحذر من شخصٍ ما، حتى لا يُخدع منه مرةً أخرى، ولكى يتجنبَ توسيعَ نطاق الفتن، ولو تحمَّل شيئًا من المسؤولية خشيةً مِمَّا هو أعظم ضررًا ممَّا وقع عليه من المكر به أو الظلم والغَبن، وهذا من بُعدِ النظر والمراقبة لعلَّام الغيوب، ولهذا قابل الرسولُ ﷺ بين المؤمن الصالح والفاجر الغادر بعبارةٍ بليغةٍ رائعةٍ مؤثِّرةٍ تنبِّه على خيرٍ عظيمٍ، وتحذِّر من شرِّ اللئام وأهلِ

الغدر، فقد جاء عند البخاريِّ وأصحاب السنن عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمنُ غِرٌّ كريمٌ، والفاجرُ خَبٌّ لئيمٌ».

ولفظ: الغِرّ - بكسر أوَّله وتضعيف آخره - الشَّخصُ الساذَجُ الذى لم يُجرِّب الأمور، وفى اللفظ تشبيهٌ أى: إن المؤمنَ الصالحَ السليمَ الصدر المتسامح فى الأمور التى لا تمسُّ الدِّين أو العِرض كأنه غِرٌّ أى شخصٌ ساذجٌ بسيطٌ ليس له تجارب تجعله يتجنَّب المزالقَ ويتقى شرّ الناس، أو هو فى نظر الآخرين كذلك؛ لأنه لا يَمكر ولا يَخدع ولا يغشّ ولا يخونُ ولا يحقد على أحد فترى الناسَ منه لذلك فى راحةٍ، لا يتأتَّى منه شرٌّ لأحدٍ ولا يصل منه ضرٌّ.

ويقابل «الغِرّ» لفظ «الخَبّ» - بفتح أوَّله وتشديد الباء - وهو الخدَّاع المكَّار الخبيثُ صديقُ إبليس فى الشرّ والسوء والأذى يتأذّى الناس جهرًا أو فى الخفاء بمكره وسوء نواياه: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، ولذا فقد وُصِف الفاجرُ الخدَّاعُ «باللئيم» مقابل لفظ «الكريم» فى صفة المؤمن الصالح، إذْ هو كريمُ النفس عالى الهمَّة طيِّبُ القلب، وواحدٌ بألفٍ فى صالح البناء الاجتماعى السليم.

وقد نبّه الرسول أهلَ الإيمان ليأخذوا الحذر مع ضبط النفس عن الشرّ فيكون المؤمنُ فطنًا كيِّسًا حازمًا لا يأتيه المكَّارون من جهة غفلته فيضروا به فإذا أُضير مرةً تيقَّظ مع تسليم الأمر لله فقال ﷺ: «المؤمنُ لا يُلسع من جُحرٍ واحدٍ مرّتين» وفى رواية: «لا يُلدغ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين»

[أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ ورواه أبو هريرة].

إن هذه التوجيهات كما يراد بها إصلاحُ الفرد وضبط سلوكه الاجتماعىّ فإنها توجّهُ إلى السياسة الأقوم فى أخذ الحيطة والحذر حتى لا يتسع الخرقُ

على الراقع، وعلى أهل النوايا الطَّيِّبة فى معترك الحياة أن يفوِّضوا أمورَهم إلى الله، ويتجنَّبوا بقدر الاستطاعة أصحابَ المكر وسوءِ النوايا، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

* * *

أفضل العبادات

✱ عبادات القلْب وعبادات البدن:

إنَّ أعظم ما ينفع العبدَ المؤمنَ إخلاصُ قلبه لله ومَحَبتُه له سبحانه، وطاعتُه فيما أمر، وانزجارُهُ عمَّا نَهى عنه وزجر.

وعباداتُ القلب هى أفضلُ العبادات وهى قِوامُ عبادةِ البدن ومُقَدَّمَةٌ عليها، إذ لا قبولَ لعبادات البدنِ إلا بتحقيق عباداتِ القلب وسلامتِها وتمامها، فالإيمانُ بوجودِ الله وبوحدانيته وبتفرُّده سبحانه بالإلهية وبالربوبية، وأنَّه هو الإلهُ المعبودُ بحقٍّ وليس هناك معبودٌ بحقٍّ سواه، وهو سبحانه الربُّ الرزَّاق الخالقُ المُنعم، فله وحده الحمد والشكر، هذا الإيمانُ الصحيحُ من مقتضياته عباداتُ البدن كالصَّلاة والصَّوم وسائر العبادات، فالعلمُ مقدَّمٌ على العمل ولا قبول لعملٍ صالحٍ إلَّا إذا صدر عن قلبٍ مؤمنٍ متَّبعٍ لرسول الله ﷺ.

فله سبحانه وحده عبادتُنا، وعليه توكُّلنا، وبه نستعين ونستغيث، وإليه سبحانه نتوجّه بالدُّعاء والخضوع والتضرُّع والتذلُّل، وله نرجو، ومن غضبه نخاف.

وإنَّ العلم بالله ووحدانيته وتنزيهه هو أولُ واجبات العبد المؤمن؛ وهو أعظمُ الفرائض وآكدُها، وإنَّ طلبَ العلم فريضةٌ أى: العلمِ بالله ثم العلم بعبادات البدن وما يتعلَّق بالمال والمعاملات والفضائل، فالعلمُ

مقدّمٌ على العمل، وإن العمل الصالحَ من غير إيمانٍ صحيحٍ ضائعٌ على صاحبه.

هذا بالنِّسبة لبيان تقدُّم عبادةِ القلب وسلامة عقيدته على عبادة البدن، أما بالنسبة لعبادات البدن فإن الصلاة هى أفضلُ عبادات البدن بدلائل كثيرةٍ منها:

❋ **أنَّ الصلاة قرينةُ الإيمانِ لا تسقط عن العبد المكلَّف بحالٍ**: يُصلّيها فى الإقامة وفى السفر، وفى الحرب وفى السّلم، وفى الصحة والمرض، وفى الشباب والشيخوخة: بقيامها وركوعها وقعودها وسجودها، أو إيماءً حسبما يستطيع على ضوء الحال الذى يكون فيه المؤمن، وبوضوئها أو بالتيمُّم لا يتركها حتى الغرغرة.

❋ **قد سمّاها الله «إيمانًا» فى قوله سبحانه**: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) أى الصَّلاة التى صلَّيتموها متوجّهين إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، وذلك نحو سبعة عشر شهرًا فى أوَّل الإسلام سواء من مات منهم قبل التحويل أو من بقى، فجاء إطلاقُ لفظ الإيمان على الملزوم وهو الصلاة.

❋ وشهدت السنّةُ الصحيحة أنَّها أفضلُ الأعمال، وبصفة خاصَّة صلاة الفرائض الخمس لأوَّل وقتها - كما فى الصحيحين من حديث ابن مسعود وابن عمر.

❋ وفى حديث عبد الله بن قُرط أنَّ الصلاةَ أوَّل ما يُحاسب به العبدُ يوم القيامة، ويتوقّف الحسابُ على الصَّوم والزكاة والحجّ والعمرة وقبول هذه العبادات على قبول صلاة العبد أولًا.

❋ ولأنَّ الصلاة تجمع ما تفرّق فى جميع العبادات مثل: النية والإخلاص وذِكْر الله والصلاةِ على النبيّ مع استقبالِ القبلة، والطهارة، وترك الشراب

والطغام والكلام، وشَغْل جميع الجوارح بطاعة الله مع حضور الباطن بين يدى الله، وهذا تجده كلّه متفرّقا فى جميع العبادات، ومنه ما يختص بالصلاة، فهل نتعاهد جميعًا على أداء الصلوات المفروضات لأوّل وقتها ونجتهد فى النوافل وسائر الطاعات طلبًا لمرضاة ربِّ الأرض والسماوات، فاللهمَّ أعنَّا على ذِكرك وشكرك وحسن عبادتك والتوبة النصوح.

❋ التفاتةٌ فى صلاة المأموم:

من توجيهات الرسول الحبيب ﷺ للمأموم حتى تكون صلاتُه خلف إمامه تامّة لا يُخشى عليها الضياعُ والفساد ما رُوى عن أبى موسى الأشعريِّ قال: خطب رسول الله ﷺ فبيّن لنا سُنَّتنا وما نقول فيها - أى فى صلاتنا - فقال ﷺ: «إذا صلَّيتم فأقيموا صفوفكم - أى عدّلوها حتى تكون مستويةً متراصَّةً - ثمَّ ليؤمَّكم أحدُكم، فإذا كبَّر الإمام فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا، وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقولوا: آمين، يجبكم الله، وإذا كبّر وركع فكبِّروا واركعوا؛ فإنَّ الإمام يركع قبلكم، ويرفع قبلكم - فتلك بتلك - وإذا رفع رأسَه فقال: «سمع الله لمن حمده»، فارفعوا رؤوسكم وقولوا: «اللهمَّ ربَّنا لك الحمد»، يسمع الله لكم، وإذا كبَّر وسجد فكبِّروا واسجدوا وإذا رفع رأسَه وكبَّر فارفعوا رؤوسَكم وكبِّروا - فتلك بتلك - وإذا كان فى القَعْدة فليكن من أوَّل قولكم: التحيَّاتُ لله والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ.. حتى تفرغُوا من التشهُّد».

إن الرسول ﷺ يعلِّمنا أن يكون عملُ المأموم متابعًا لعمل الإمام ويأتى بعده، ومعنى ذلك أن يحذر المأمومُ مسابقةَ الإمام فى ركوعه أو سجوده أو رفعه وخفضه، إذ إن الشيطانَ يقف للعبد المؤمن بالمرصاد يريد أن يُفسدَ عليه صلاته.. وعلينا أن نذكر دومًا أن المأموم لن يخرج من الصلاة إلا بعد تسليم

إمامه، فلماذا يُسابقه فى الأركان، ولتوضيح ذلك جاء عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قولهم: «لقد كان رسول الله ﷺ يستوى قائمًا وإنَّا لسجودٌ بعدُ» أى عند قيامه لركعةٍ تاليةٍ، وجاء عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - عند البخاريِّ فى وصف هيئة صلاتهم خلفه ﷺ: «كنَّا نصلِّى خلف النبى ﷺ، فإذا قال: «سمع اللهُ لمن حَمِده» - أى: واستوى قائمًا، واستوينا بعده - لم يَحْنِ أحدٌ منّا ظهْرَه حتى يَضَعَ النَّبىُّ ﷺ جبهتَه على الأرض»، وفى روايةٍ أخرى جاء توضيحُ ذلك: «فكان ﷺ إذا انحطَّ من قيامٍ للسجود لا يحنى أحدٌ منَّا ظهره حتى يضعَ رسولُ الله ﷺ جبهته على الأرض، وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يلبثون خلفه قيامًا حتى ينحطَّ النَّبىُّ ﷺ ويُكبِّر ويضعَ جبهتَه على الأرض، وهم قيامٌ ثم يتبعونه»، [وهذا حديثٌ متفقٌ عليه ورواه النعمان بن بشير]. . وفى حديث أبى موسى الأشعرىِّ: «الإمامُ يركع قبلكم، ويسجدُ قبلكم، ويرفعُ قبلكم»، وفى التحذير من مسابقة الإمام فى الصلاة جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «أمَا يخاف الذى يرفع رأسَه قبل الإمام أن يُحوِّل اللهُ رأسَه رأسَ حِمار أو يجعلَ اللهُ صورتَه صورةَ حمارٍ» [البخارىُّ من رواية أبى هريرة]، وفى هذا تنفيرٌ شديدٌ من سَبْق المأموم إمامَه، ومعنى ذلك أنَّ الذى يفعل ذلك أضاع صلاتَه خلف إمامه، مِمَّا يجعل المؤمنَ يحرص على أن يكون تكبيرُه وسائرُ أعماله بعد إمامه، فلو كبَّر قبله تكبيرة الإحرام - مثلًا - أو سلَّم من صلاته قبله فقد خرج من صلاة إمامه، فعلينا بالطمأنينة وعدم مسابقة الإمام فى شىءٍ رجاء قبول العبادة بفضل الله ورحمته.

وفى حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - عند البخاريِّ: «سقط رسولُ الله ﷺ عن فرسٍ فَجُحِشَ (جُرح) شقُّه الأيمن، فدخلنا عليه نعوده، فحضرت الصلاةُ، فصلَّى بنا قاعدًا فقعدنا، فلما قضى الصَّلاةَ قال: «إنَّما

جُعل الإمامُ ليُؤتمَّ به، فإذا كبَّر فكَبِّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفَع فارفعوا، وإذا قال: «سمع اللهُ لمن حمده» فقولوا: ربَّنا ولك الحمدُ، وإذا سَجَد فاسجدوا»، أى يأتى عملُ المأموم متابعًا لعمل الإمام تاليًا له، ومن حديث عائشة - رضى الله عنها - عند البخاريِّ: «وإذا صلى جالسًا فصلُّوا جلوسًا» وعن أبى هريرة مثله عند البخاريِّ.

❋ صلاتنا رحيمةٌ بنا مشفقةٌ علينا:

صلاتُنا هى أفضل أعمالنا قاطبةً، وإن كلَّ الفرائض من الأعمال كالصيام والزكاة والحجِّ والعمرة تابعةٌ فى القبول عند الله لقبول الصلاة؛ وإن قبول الصلاة يتمُّ بفضل الله إذا صحّت، وإن صحَّتَها تتمُّ بركنين أساسيين هما: الإخلاصُ، بأن يصدر العملُ من القلب خالصًا لوجه الله وإذعانًا لأمره وطاعةً له وشكرًا، فلا رياء ولا غفلة.

والركن الآخر هو: الاقتداءُ بالمُبَلِّغ عن ربِّه بالعمل وبالقول ﷺ، وإن الاقتداءَ به يقتضى: أداءَ الصلاة لأوَّل وقتها، والإحسانَ فى أدائها بإتمام الأركان والواجبات والسنن بطمأنينةٍ وخشوعٍ وحضور قلبٍ، مع طرد الهواجس ما استطاع، وأن يكون المصلِّى على طهارةٍ من الحدثين الأصغر والأكبر، ومتوجِّهًا إلى القبلة مع طهارة المكان والثوب مما يُنجِّسهما، وأن يُحسن قراءةَ سورة الفاتحة وما تيسّر من آى القرآن وسوره القصار، وعلى العبد أن يتأكد لنفسه من صحَّة تلاوته بقراءة الفاتحة وما معه من القرآن على أهل القرآن الذين تَلقَّوا التلاوةَ عن الذين أحسنوها، وإن على أئمة المساجد الذين يُجيدون ترتيلَ القرآن مع الصحة والإجادة أن يجعلوا من دروسهم سماعَ سورةِ الفاتحةِ من كلِّ مصلٍّ والصبر على التدريب فى هذا المجال احتسابًا وتعاونًا على البرِّ والتقوى.

❋ **كيف تُشفق علينا صلاتنا؟ لقد دأبت صلاتُنا على الحزن والألم من أجلنا؛ لأنها ترى من أحبابها أصنافًا تخشى عليهم**: فمنهم من لا يصلِّى الفرائض وقد لعب به الشيطانُ ليضُمَّه إلى المتشبِّهين بفريق الملحدين والمشركين فالفرقُ بين المسلم والكفر تركُ الصلاة، فكيف يهمل المكلَّفُ صلاتَه وقد وجبت عليه وهو بعقله لم يذهب عنه؟.

ومنهم من يقوم إلى الصلاة مجاراةً لرُفقة العمل أو المجلس أو الضيوف فى منزله، وبعد ذلك ليس للصلاة موضعٌ لديه فى برنامج يومه وليلته، فهو مشغولٌ بأحوال دنياه لاهٍ عن أوامر مولاه، وقد أخذ إبليسُ بزمامه ليضمه إلى فريق المكذِّبين بالحساب الذين ينظرون إلى الناس ولا يراقبون الله، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى لا عن خوفٍ ورجاءٍ ومحبَّةٍ لله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون] ويدخل فى هذه الزمرة هؤلاء الذين يؤخِّرون الصَّلاة عن وقتها تهاونًا منهم وعدم مبالاةٍ، فهم لا يحرصون على أدائها فى أول أوقاتها، وهذا شأنهم وحالهم، ولا عُذْرَ لهم فى ذلك؛ لأنهم لم يذوقوا حلاوةَ الصلاة، ولم يختلط بقلوبهم حُبُّها والرغبةُ فيها لتجديد التوبةِ وتجديدِ الصلةِ بالله دومًا عن طريقها وأدائها لأوَّل وقت كلِّ صلاةٍ منها، كما بيَّنه الشارعُ الحكيم ﷺ فصارت فيهم صفةٌ من صفات المنافقين الذين يخادعون الله وهو خادعهم، ويستدرجهم سبحانه من حيث لا يعلمون، فيعطيهم من الدنيا اختبارًا وامتحانًا أيشكرون أم يكفرون؟.

وتحزن صلاتُنا لأجل هذا الفريق الذى إذا قام إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس لا عن همَّةٍ من القلب، ولا عن توجُّهٍ من النفس رغبةً فيما

عند الله من الرحمة ورهبةً من عذابه وأليم عقابه، بل إنَّهم يقومون إليها خجلًا من الناس، وطلبًا للوصف بالإيمان والصلاح من ألسنة الآخرين، كما كان يفعل المنافقون الذين ذمّهم الله فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]، فهم يُظهرون التقوى بصلاتهم أمام الناس، وهو سبحانه مطَّلِع على قلوبهم ومجازيهم على نواياهم من النفاق العمليِّ الذى يجرُّ إلى الخزى والخسران، ومن تاب رحمه الله بفضله وإحسانه.

فمن كان من المسلمين فيه خصلةٌ من هذه الخصال لا يعطى صلاته باله ولا عنايته، فإنه يحتاج إلى تصحيح نفسه والرجوع إلى ربِّه بالتوبة والإنابة مع المثابرة على أداء الصلوات الخمس المفروضات فى اليوم والليلة بخشوعٍ وطمأنينةٍ وتدبُّرٍ وترتيلٍ، مع إعطاءِ القيام حقَّه والركوع حَقَّه والسجودِ حقَّه، والجلوس بين السجدتين حقَّه، وبحيث تسكنُ الجوارحُ وتطمئنُّ فى كلِّ ركنٍ مع حضور القلب بين يدى الربِّ؛ ذلك أن صلاتَنا تبكى على أسوأ الناس سرقةً، وهم هؤلاء الذين ينقُرون الصلاةَ نقرًا كنقر الغراب، ويسرقون من أركانها فلا طمأنينةَ ولا خشوع، ومن مات على مثل هذه الصلاة من المسلمين دون رجوعٍ وتوبةٍ مات على ملَّةٍ غير ملَّة محمَّدٍ ﷺ، كما قال صحابيٌّ جليلٌ.

إنَّ أخشى ما تخشاه صلاتُنا أن يتمَّ ردُّها من أبواب السماء، وتُؤمر بأن تقول لصاحبها ضيَّعك اللهُ كما ضيَّعتنى، وتخشى على الهاربين منها فى الدنيا أن يُحشروا مع المشركين والكافرين ولا ينفعهم صومٌ ولا صدقةٌ ولا زكاة.

فطوبى لمن مات على التوحيد الخالص، وهو أعظم الأركان القلبية،

ومات على مقتضيات التوحيد بأداء الفرائض، كما أمر الله وبيّن رسوله، ونافس فى الخيرات وسائر الطاعات.

* * *

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

[البقرة].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

[البقرة].

وفى الآية حثٌّ على حضور الجماعة أى صلوا مع المصلّين.

* * *

توجيهاتٌ وتجارب فى السوق والتجارة

❋ **عند دخول السوق**: كان رسول الله ﷺ إذا دخل السوقَ يقول: «لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، اللهمَّ إنِّى أسألك من خيرِ هذه السوق، وأعوذُ بك من الكفر والفسوق».

❋ **مدح السوق والتجارة:**

❋ **ورد أنَّ الرسول ﷺ قال لرجلٍ**: «الزمْ سوقَك».

❋ **وفى الحكمة**: السوقُ موائدُ الله فمن أتاها أصاب منها.

❋ **وفى الأثر الشريف**: «تسعةُ أعشارِ الرزق فى التجارة والحرْث..».

❋ **وإن الخير فى التجارة إذا كان للتاجر صفاتٌ هى**: إن باع لم يَمْدح بضاعتَه، وإن اشترى لم يَذُمَّ بضاعةَ غيره، وإن كان عليه ديونٌ وفَّى بها فى يُسرٍ وأمانةٍ.

❋ وإن كان له ديونٌ أيسر فى الطلب ورَفق بالمعسر، وإذا باع أو اشترى فإنه لا يَحلفُ صادقًا ولا كاذبًا، كما أنه يلزم الصدقَ دومًا ويتجنَّب الكذب.

❋ **فى الرُّخص والغلاء**: قال الأوائل: إن الموجود من كلِّ شىءٍ رخيصٌ بوجدانه غالٍ بفقدانه إذا مسَّتْ الحاجةُ إليه، قالت الهند: ما من شىءٍ كَثُرَ إلا رَخُصَ ما خلا العقل فإنه كلما كَثُر غلا.

❋ **نصائح للمشتغلين بالتِّجارة:**

❋ **فى الحديث**: «ما أفلس تاجرٌ صدوقٌ».

❋ **قال علىُّ بن أبى طالبٍ**: «من اتّجر بغير فِقْهٍ فقد ارتطم فى الرِّبا».

❋ **بم نجحتَ فى أعمالك؟ هذا سؤالٌ أجاب عن معناه عبد الرَّحمن ابنُ عوفٍ، فقال**: «لم أُرد ربحًا، ولم أشترِ عيبًا، ولم أبغِ بنسيئةٍ» أى

«لأجلٍ»، فهو لا يُغالى فى ربحه، ولا يشتغل فى سلع بها عيوب، مع خُذْ، وهاتِ، يدًا بيدٍ.

❋ **من حكمة الروم**: «إذا لم يُرزقْ أحدُكم بأرضٍ فليتحوَّل إلى غيرها».

❋ **الرابحُ فى كل سوق هو**: البائعُ لِمَا يُنْفَقُ فيها (أى للبضاعة المطلوبة).

❋ **فى الحديث الشريف**: «الجالبُ مرزوقٌ والمحتكر ملعونٌ».

❋ **فى الحديث الشريف**: «إن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنَه».

❋ **فى الشركة**: فى الحديث الشريف: «لا تزال يدُ الله على الشريكين ما لم يَخُن أحدُهما صاحبه، فإذا خان أحدُهما صاحبَه رَفَع البركةَ عنهما».

❋ **الإحسانُ فى قضاء الديون**: استسلف رسولُ الله ﷺ بَكْرًا «أى كان فى ذمّته جملٌ لأحد الصحابة»، فجاءته إبلٌ من الصدقة، قال أبو رافع فأمرنى النبيُّ ﷺ أن أَقْضِى الرجلَ (صاحب البكر) بَكْره، فلم أجدْ إلا رُباعيًا فقال ﷺ: «أعطِه إياه، إن خيرَ الناس أحسنُهم قضاءً».

(أى أمرنى أن أعطى صاحبَ البكر بكرًا أسمن وأفضل من بكره، أى بدون شروطٍ سابقةٍ عند الاقتراض).

❋ **كيف يصير الغالى رخيصًا**: كان الفضيل بنُ عياضٍ يقول: «الحمد لله، إذا غلا علينا شىءٌ تركناه»، والناسُ فى حاجةٍ إلى تفهُّم هذه الحكمة؟

وفى الحكمة: «إذا غَلا علينا شىءٌ تركناه فيكون حينئذٍ أرخصَ ما يكون».

وفى الشعر:

وإذا غَلا شىءٌ علىَّ تركتُه ... فيكونُ أرخصَ ما يكون إذا غلا
إلا الدقيقَ فإنَّه قوتٌ لنا ... فإذا غَلا يومًا فقد نزل البلا

وفى الحكمة: «لا تشتروا ما ليس لكم إليه حاجةٌ فيوشكَ أن تبيعوا ما لا

تستغنون عنه».

❋ **فى الكسب**: فى الحديث الشريف: «خيرُ الكسبِ كسبُ اليدِ لمَن نصح».

❋ **وفى الحديث**: «إن الله يُحبُّ التاجرَ الصدوقَ والصانعَ الناصحَ؛ لأنه حكيمٌ»، وفى ذلك تحريضٌ على الأمانة والدقّة والإخلاص والصدق.

❋ **ما علامةُ المحتكر؟**

❋ إذا سمع بالغلاء فَرِح وإذا سمع بالرّخَص اغتمّ.

❋ **وفى الحديث**: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضرب اللهُ ماله بالإفلاس».

❋ **وفى الحديث**: «من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله ورسوله».

❋ **فى الدنيا والآخرة**: جاء فى الأثر: «ليس خيرُكم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرةَ للدنيا، ولكنَّ خيرَكم من أخذ من هذه وهذه».

وفى الحديث المرويِّ عن النبيّ ﷺ: «نِعْمَ المطيةُ الدنيا فارتَحِلوها تُبلِّغْكم الآخرة».

وفى الكتب القديمة: «إذا كان فى البيت بُرٌّ «قمحٌ» فتعبَّدْ، وإذا لم يكن فاطلبْ، يابنَ آدم حَرِّكْ يَدَكَ يُسبِّبْ لك الرزقُ».

❋ **فى المال**:

❋ المال ينفد (ينتهى ويفنى) حِلُّه وحرامُه يومًا ويبقى بعده آثامُه.

ليس التقىُّ بمُتَّقٍ لإلهه ... حتى يطيبَ شرابُه وطعامُه
ويطيبَ ما يَجنى ويُكْسِبُ أهلَه ... ويطيبَ من لفظ الحديثِ كلامُه
نطق النبىُّ لنا به عن ربِّه ... فعلى النبىّ صلاتُه وسلامُه

وفى الحديث: «إن حسابَ أهل الدنيا هذا المال».

* **فى التفسير**: قال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] يعنى: كسبًا حرامًا.

وقال أبو صالحٍ فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم] يعنى: أغنى خَلْقَه بالمال، وأقنى: جعل لهم قُنيةٌ وهى أصولُ الأموال.

قال مجاهد (الخير) فى القرآن هو المال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات]، يعنى لحبِّ المال وجاء على لسانِ سليمان - عليه السلام - وهو يتحدَّث عن خَيْلِة: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص: ٣٢]، الخيرُ هنا يعنى المال.

ويكون المال خيرًا إذا كان حلالًا طيبًا وفى الخير مصروفًا؛ لأنَّ ما أدَّى إلى الخير فهو فى نفسه خيرٌ.

* * *

طبُّ القلوب

إنَّ ذِكْرَ الله - عزَّ وجلَّ - هو طبُّ القلوب، ونورُ البصائر، وشفاءُ الصدور وبذكر الله تطمئنُّ القلوب، وتنفرج الكروب، وتزول الهمومُ، وتُكَفَّر السيئات، وتُرفع الدرجات، وتُغفر الذنوب.. ولنسمع الله - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فهؤلاء هم أهلُ الإيمان والتُّقى والصدقِ والصبر والتوبةِ والخشوع لا يغفلون عن ذكر الله - عز وجل - فى كلِّ أحوالهم.

وإنَّ ذِكْرَ الله يصدر من القلب؛ لأنَّه استحضارُ عظمةِ الربِّ سبحانه وتعالى؛ فمن استحضر نارَهُ وعذابَه وغضبَهُ ذكر انتقامه وجبروتَه فخاف قلبُه وارتعد فؤادُه، ولجأ إلى التوبة وكثرةِ الاستغفارِ والإنابة، وقد ندب الله عباده

إلى ذلك فقال: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

ومن استحضر رحمةَ الله فى قلبه وسعةَ فضله سبحانه وما أعدَّه لأهل التقوى والتوبة وما وعدهم به من النعيم الدائم استبشر واطمأنَّ قلبُه وأحسن العبادة، وسلك طريقَ الرشاد والهدى، وإنَّ رحمةَ اللهِ بفضله وإحسانه قريبٌ من المحسنين الثابتين على صراطه المستقيم ودينه القويم، وإن هؤلاء هم الذين يذكرون أمرَ الله ونهيه فيقفون عند حدوده مُلزمين أنفسَهم بطاعته وباجتنابِ ما نهى عنه؛ ليذكُرَهم اللهُ بثوابه وبجزيل عطائه، ولنسمع الله - عز وجل - يقول لنا: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وإنَّ اللسانَ فى كلِّ حالٍ هو الذى يعبِّر عما فى القلب؛ لذا كان الخشوعُ من سمات الذاكرين، ويظهر ذلك فى سكون الجوارح وخفض الصوت، وفى التفكُّرِ فى معنى ما يذكر المسلمُ اللهَ به، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفى هذا تنبيهٌ على أن يُسمِع الذاكرُ نفسَه ولا يزيد إلا فى مواطنَ خاصةٍ حدَّدها الشارعُ الحكيم وندب إلى رفع الصوتِ بالذكر فيها ومنها: التلبيةُ للحجِّ والعمرة والأذانُ والإقامةُ والتكبيرُ أيام العيدين قبل صلاة العيد، وبعد الصلوات يوم العيد وأيام التشريق.. وقد جاء فى الحديث: «خيرُ الذكر الخفِىّ»، وممن شملهم عفوُ الله رجلٌ ذكَر الله خاليًا ففاضت عيناه.. يقول ابنُ المبارك: «لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يُسمَعُ لهم صوتٌ إن كان إلَّا همسًا بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولنسمع وصية رسول الله ﷺ لإحدى المسلمات: «وأكثرى من ذِكْر الله فإنك لا تأتين اللهَ بشىءٍ أحبَّ إليه من كثرة ذِكره» فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

❋ معالم على طريق النجاة من أقوالهم:

قال عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما-: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»، وكان بذلك يُلقى ضوءًا على معنى قول الرسول ﷺ له: «يا عبد الله، كُن فى الدنيا كأنك غريبٌ، أو كأنك عابرُ سبيلٍ، وعُدَّ نفسَك من أهل القبور» [رواية ابن ماجة]، وهكذا العارفون أهل الفطنة وصدق النظرة: لم يتخذوا الدنيا وطنًا، ولا رضوا بها إقامةً ولا مسكنًا، إنمَّا اتخذوها ممرًّا، ولم يجعلوها مقرًّا، كما قال عيسى رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «اعبروها ولا تعمروها» وقال: «مَن ذا الذى يبنى على موج البحر دارًا؟ تلك الدنيا فلا تتخذوها قرارًا» ومضمون ذلك أن طالب الفوز والنجاة لا يجعل الدنيا فى قلبِه، ولا يجعل طلبَ متاعها أكبر همِّه، إنما هى وسيلةٌ لنيل ما عند الله من الكرامة والخير، وإن الآخرة هى دار القرار.

❋ قال الفُضيل بن عياض: «جُعل الشرُّ كلُّه فى بيتٍ، وجُعل مفتاحُه الرَّغبةَ فى الدنيا، وجُعل الخيرُ كلُّه فى بيتٍ، وجُعل مفتاحُه الزُّهدَ فى الدنيا».

وقال عبد الله السجزىُّ: «علامةُ الأولياء ثلاثة: تواضعٌ عن رِفْعةٍ، وزُهدٌ عن قُدرةٍ، وإنصافٌ عن قوَّةٍ».

سألوا أبا سليمان الدارانىَّ: ما أفضلُ الأعمال؟ قال: «أن يطَّلِع اللهُ على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة سِواه».

وقال يحيى بن معاذٍ الرازىُّ: «لو أنَّ رجلًا فى علم ابن عباس وهو راغبٌ فى الدنيا لنهيتُ الناس عن مجالسته، فإنه لا ينصحك من خان نفسَه» فتأمَّلْ؟

❋ وكانت رابعة العدويةُ كثيرةَ الحزن والبكاء، وإذا سمعت ذِكر نار جهنَّم

غُشى عليها، وكانت تضع كفنها أمامها، وكانت تقول: «مالى حاجةٌ إلى الدنيا».

ومن المناجاة المنسوبة إليها، وفيها عبرةٌ وعظةٌ ورقَّةٌ للقلب:

فليتَ الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خرابُ
وليتك تَحلُو والحياةُ مريرةٌ وليتك تَرضى والأنامُ غِضابُ
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكُلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذى فوقَ الترابِ تُرابُ

❋ إنَّ ذاكِرَ الله - عز وجل - فى الخلوة، وقارئَ القرآن، لا يشعر أبدًا بالوحشة ولا بالمَللِ؛ لأنَّه يعلم أنَّ ربه جليسُ مَن ذكَره وتحرَّكت بحمده وتوحيده وتكبيره وتسبيحه شفتاه؛ سُئل عابدٌ: ألا تشعر بالوحشة وأنت كثيرُ الوحدة، فقال: كيف أستوحِش، والله - عز وجل - يقول: «أنا جليس من ذَكرنى»؟ وقال آخر: «وهل يستوحش مع الله أحدٌ»؟ أى مع ذكره وشكره وحسن عبادته، وقيل ليحيى بن معاذٍ: إذا هجرتَ النَّاس - وأطلتَ العُزلة - مع مَن تعيش؟ قال: «- أعيش - مع من هجرتهم له»، وقال ابن غزوان: «إنِّى أصبتُ راحةَ قلبى فى مجالسة مَن إليه حاجتى»، فاللهمَّ اجعلنا من أهل محبَّتك ورضاك.

❋ ❋ ❋

كن للفقراء كنزًا

أوحى الله إلى موسى - عليه السَّلام - فقال عز وجل: «يا موسى، كُن للفقراء كنزًا، وللضعيف حِصنًا، وللمستجير غيثًا أكنْ لك فى الشدَّة صاحبًا، وفى الوحدة أنيسًا، وأكلأْكَ فى ليلك ونهارك»، أى إن فعلتَ تكن فى حفظ الله ورعايته ليلك ونهارك بفضل الإخلاص والمحبة.

إنَّ أهل المروءة هم أولئك الذين مُنحوا قلوبًا رحيمةً، وهممًا عاليةً،

ووُفِّقوا للخير، وكانوا له أهلًا، يبذلون من وقتهم ومن سعيهم ومن جاههم لإسعاد الآخرين، ولإدخال السرورِ على قلوب أهل الضعف والمسكنة، أو لدفع السوء والأذى عن المظلومين.

إن المؤمن من ذوى المروءة يبذل من ماله إن كان لديه فضلُ مالٍ، ومن جاهه إن كان من أصحاب المكانةِ بين قومه، ومن فِكْره وحِكمتِه إن كان من ذوى العلم والخبرة والحنكةِ، لا يريد من وراء ذلك سوى مرضاةِ الربِّ وشكره سبحانه على النِّعمة.

إن الذى يقدِّم المعروفَ يَجنى الخير؛ لذا أمر الله موسى - عليه السلام - أن يكون للفقراء كنزًا يتلقَّاهم بصدرٍ رحبٍ، ويواسيهم، ويخفِّف عنهم ويلاتِ الحياة، وأن يكون لأهل الضعف ملاذًا، يقف معهم بما يستطيع بغيةَ الوصولِ إلى حقوقهم ودفْعِ الأذى عنهم وحمايتِهم مِمَّن يظلمهم، كما أمره عزَّ وجلَّ بالنهوض لإغاثة المستجير، وبهذه الأبواب من المروءات يكون المرء أهلًا لنصر الله ورعايته ليلَه ونهاره، وإننا لفى أشدِّ الحاجة إلى هذا التراحُم والتكافُل والتعاطف والتساند والتساعُد.

إن سَعْى القادرين فى حوائج أهل العجز والضعف يُقوّى الروابط بين أفراد الأمَّة، ويساعدها على تحقيق المزيد من الاستقرار والأمنِ، ويُتيح للمحبَّة أن تنموَ فى القلوب فتحِلَّ مَحِلَّ البغضاء والأحقادِ، وتخفِّفَ من ويلات الحسد والنِّقمة، وفى الحديث الشَّريف: «إنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخالُ السُّرور على المسلم»، وهذا ميدان يتنافس فيه المتنافسون الشرفاء النافعون الراجون رحمةَ الله - عز وجل - كما جاء فى الحديث الذى روته عائشةُ - رضى الله عنها-: «من أدخل على أهل بيتٍ من المسلمين سرورًا لم يَرضَ الله له ثوابًا دون الجنَّة».

إنَّ فى ميادين الحياةِ المتعددةِ فُرصًا لعمل الخير وإيصال البرِّ ولإسكات

صوتِ الشرِّ ودفْعِه وردِّه عن الناس، ولو بالكلمة الطَّيِّبة والإرشادِ لـمَا فيه صلاحُ الناس، وفى الحديث: «الدالُّ على الخير كفاعله»، وفى الحديث: «اتقوا النارَ ولو بِشقِّ تمرة فمن لم يجدْ فبكلمة طيِّبة».

فطوبى لمن أجرى اللهُ الخيرَ على يديه للنَّاس، وإنَّ أهلَ الخير والصدقِ أهلَ الإخلاص والرغبةِ الأكيدة فيما عند الله وحده من الرحمة هم أهلُ الصفوةِ والحكمة، الذين بهم تصفو علاقاتُ النَّاس من المكدِّرات، وكأنَّهم طبٌّ وبَلْسَم.

* * *

الوازع الدينىّ والضمير

الوازعُ الدينىُّ هو الذى يَزَعُ المؤمنَ ويكفُّه عن التعدِّى والتجاوز، ويمنعه من التهاون فى طاعة الله - عزَّ وجلَّ - ويدفعه إلى الانقياد لأمره ونهيه، وهذا الوازعُ هو ثمرةُ سلامة الإيمان وصدقِ اليقين والخوفِ من ربِّ العالمين، وهو الصورة الحيةُ للإيمان الذى هو الرقيبُ الداخلىُّ الذى يَزِنُ الأمورَ بميزان الوحى الإلهىّ فيما يتَّصل بالاعتقادات، أو المسالك والمعاملات، أو بالأخلاق والفضائل، فمقياسُه: افعَلْ أو لا تفعلْ، أى الأمر والنهى، كما جاء فى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ فهما نورُ المؤمن يكشفُ له الخير فيفعله، ويوضِّح له الحقَّ فيتمسك به ويلتزمه، كما يكشف به الشرَّ فيجتنبه والباطلَ فيفرُّ منه ويبغضه، وهذا النُّور الإلهىُّ المتمثِّل فى أوامره سبحانه ونواهيه هو المقياسُ الصحيح للفضائل والأخلاق القويمة والقيم الثابتة كالأمانة والصدق والحياء والوفاء والشجاعة.

وعلى قدر قوَّة الإيمان تكون يقظةُ هذا الرقيبِ الداخلىّ وقوتُه، فهو الذى يكفُّ أهلَ الإيمانِ عن نوازع الشَّرِّ ويردُّهم عن الفساد والسوء، وعن

الأخلاق الرديئة، ويدفع بالمؤمن فى مدارج الكمال الإنسانىّ بجانبيه الروحىّ والجسدىّ، وبتفاوت درجاتِ الوازع الدينىّ فى القلب والنفس والوجدان تتفاوتُ منازلُ أهلِ الإيمان والصلاح ودرجاتُهم فى سُلَّم الأولياءِ الصالحين.

❋ **الضمير**: أما كلمة «الضمير» التى ظهرت فى كتابات فلاسفةِ الغرب الماديين فهى كلمةٌ غامضةٌ أقاموها مقامَ دين الله فى الحكم على ما هو خيرٌ وما هو شرٌّ، وجعلوها مقياسًا للأخلاق والمسالك؛ فهل يفى «الضميرُ» وحده فى حال افتراض وجودِه فى توجيه قُوَى الإنسان وتوجيه نوازعه فى الطريق الصحيح الذى يتحقق له فيه الأمان والسكينةُ والطمأنينة؟

الجواب: كَلَّا، وألفُ كلَّا.. لأنَّ هذا «الضميرَ» مثل «العاطفة» يتأرجح كما تتأرجح العاطفةُ، ويتذبذب، وتختلف أحكامُه على الأمور من مجتمعٍ إلى مجتمعٍ آخر، ومن بيئةٍ ثقافيةٍ إلى بيئةٍ ثقافيةٍ أخرى، ومن مرحلةٍ تاريخيةٍ إلى مرحلةٍ أخرى، كما أنه يتأثر بالانتماء القبلىّ والعشائرىّ وباختلاف مناهج الحياة ومناهج التعليم ونوع التربية والمؤثِّرات العامَّة وتنوُّع المعتقدات والمذاهبِ الفكرية والسياسية من أُمَّةٍ إلى أخرى.

فالضمير وحده لا يعطينا قيمًا ثابتةً ولا فضائلَ مستقرَّةً تصلح بها أمورُ الناس فى كل زمانٍ وفى كل مكانٍ، ومن ثَمَّ فإنه لا يصلح أن يكون مقياسًا للأخلاق والفضائل ولا للحكم على الأشياء فيما يمكن أن يكون دومًا فى صالح الإنسان.

وقد رأينا الضمير القبلىَّ يقبل بكل سهولة نداءَ القبيلة ظالمةً أو مظلومةً، فيستبيح دماءَ الآخرين وأعراضَهم وأموالهم، وهو راكنٌ إلى مقتضيات إشباع النزعة القبلية، وكما كان قبل الإسلام فإنَّنا رأينا صوتَ القبيلة فى عددٍ من الأمم فى عصر مدنية القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين يعلو فوق

حكمة العقل الرشيد، فيدمّر صوتُ القبيلة أبناءَ الأمة الواحدة فيحارب بعضُهم بعضًا بقسوةٍ وفظاعةٍ فى غياب نورِ دينِ الله وهدايتِه عن القلوب والعقول، وإن الشواهدَ كثيرةٌ، وهذا الضمير المدنىُّ هو الذى يُسلّط آلةَ جهنَّمَ العسكريَّةَ الحديثة على المستضعفين، فيدمّر تدميرًا بلا هوادةٍ دون سماعٍ لصراخ الأطفال ولا لعويل النساء بل ويشدِّد الحصار تشديدًا، فتجوع البطون وتهزل الأجساد.

ألسنا نرى الضميرَ العلمانىَّ يستبيح الحرماتِ؟ ويتبجّح بارتكاب المخازى؟ وكشفِ العورات وبالإقبالِ على إشباع النزوات والغرائز البهيمية بلا حياءٍ ولا شرفٍ ولا كرامةٍ؟ وهو راكنٌ إلى مقتضيات دعوات العلمانيين الملحدين لا يشعر هذا الضميرُ الضامرُ الأعمى بخزيٍ ولا بعارٍ، وإنَّ معظمَ الأعمال فى هذه المجتمعات العلمانية يقع فى دائرة الخِزى والعار والمجاهرة بكل خبيثٍ وقبيحٍ مع انزواء الفضيلة، وانكماش الحياء، وبروز قرون الشياطين.

وقس على هذا ما استحلَّهُ الضميرُ الصهيونىُّ، والضميرُ الشيوعىُّ، وضمير مدنية الغرب، والضميرُ الصليبىُّ، والضمير الوثنىُّ، والضمير الجاهلىُّ، والضمائر التى أفسدها سوءُ التربية ووسائلها السقيمةُ فى الأمم التى أخذت بأسباب الانحلال والتحلُّل من الفضائل الساميةِ والقيم الروحية الثابتة ومبادئ الدين الحقِّ.

❋ ما الضمير الذى يريده الإنسان؟ إنَّه الضمير الذى هذَّبته مبادئُ دين الله، وصقله الإيمانُ الصحيح، وأيقظته آياتُ الوحى، وتربَّى تربيةً إسلاميةً صحيحةً، فعلِمَ ووعَى وعمل وعرف الحقَّ والواجبَ، وأطاع الله ورسوله وراقب الله فى السِّرِّ والعلانية، ونظر إلى الناس جميعًا نظرَ رحمةٍ ومساواة، وإذا دُعِى إلى شرٍّ أو حدَّثته نفسُه بسوءٍ وفسادٍ قال: إنِّى أخاف الله ربَّ العالمين، إن الضمير الذى ربّاه دينُ الله - عزَّ وجلَّ - وصقله وهذَّبه هو الذى

يحكم على الأمور فى نور كلام الله وأحكام شريعته ويَسْلَمُ الناسُ من شروره، ويبنى ولا يهدم، وهو الوازعُ الدينىُّ نفسُه أو الرقيبُ الداخلىُّ الذى عن الإيمان الصحيح واليقين الصادق ومراقبة الله - عز وجل - تنبعث أعماله ومسالكه وفضائله وأخلاقه فى الطريق الصحيح، لقد عَمُوا هم وأمثالهم وصَمُّوا بسبب ضمائرهم الهزيلة التى غاب عنها نورُ الوحى الإلهىّ وهدايته.

* * *

ارفقوا بذى الروح وأريحوا ذبيحتكم

جاء فى صحيح مسلمٍ من رواية شدَّاد بن أوسٍ - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله كتب الإحسانَ على كلِّ شىءٍ فإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتْلَةَ - بكسر القاف (اسم هيئةٍ) - وإذا ذبحتُم فأحْسِنوا الذِّبحة - بكسر الذال مشدّدةً - وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرته، وليُرِح ذبيحته» فسبحان من أباح لنا من الطير والبهيم ما ننتفع بلحمه ولو شاء لحرّمه علينا، إن الأوامر التى جاءت فى هذا الحديث واجبةُ الطاعة، فهى أوامر ربانيةٌ يُبلِّغها الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يُوحَى.

وفى هذا الحديث قواعدُ كثيرةٌ وفوائد جليلةٌ: فقد كتب الله الإحسانَ على كلِّ شىءٍ، وإن الإحسانَ يقتضى الرفقَ فى كلِّ الأمور والرحمةَ لكلِّ مخلوقٍ مع وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة، وأداءِ العمل على أكمل وجهٍ ممكنٍ، ومع هذا التوجيه العامِّ للأخذ بالإحسان فى كلِّ شىءٍ جاء التخصيصُ بالإحسان فى حالتين وهما: حالةُ القصاص، وحالةُ ذبح الطير والبهيم حتى لا يحدث تجاوزٌ فى مثل هذه الحالة يتعرض معها ذو الروح للإهانة أو للقسوة، وسبحان من سَخَّر لنا الجملَ ونحوه ما لو شاء لسلطه علينا.

«فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة»، وهذا توجيهٌ عامٌّ بالإحسان عند القتل قِصاصًا

فى حدٍّ، وكذلك عند ذبح البهيم، ثم خَصَّ الوصيةَ بالبهيم؛ لأنَّ ذلك أكثرُ شيوعًا وهو ممَّا يجرى كلَّ يومٍ فى البيوت والمجازر والأسواق وغيرها، فقال: «وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذِّبحة» ومعنى إحسان القتل: أن يعمل القائمُ بذلك وينفذ على مقتضى أوامرِ الشرع ولا يقصد التعذيبَ ولا الإهانةَ بقولٍ أو فعلٍ زائدٍ عن المطلوب.

أمَّا إحسانُ الذبح فى البهائم فهو بعد البسملة والتكبير: أن يكون رفيقًا رحيمًا بالبهيمة، وأن لا يَصْرَعَها بغتةً، ولا يلطمَها، ولا يجرَّها من موضع إلى موضعٍ، ولا يقطعَ منها شيئًا وهى حيةٌ قبل خروج الروح.

ومن المطالب التى يؤكِّدها شرعُ الله: أن يوجِّه البهيمةَ نحو القبلة ما استطاع، وأن يُسمِّى اللهَ ويحمده، وأن يقطعَ الحلقُوم والودِجَين الموجودين فى صفحتى العنق، وأن تكون السكِّينُ المستخدَمة حادّةً (غير باردةٍ ولا بليدة)؛ لأنَّ ذلك يُعذِّب الحيوان عند الذبح، بل يجب أن تكون السكين على مستوى من الإحداد يجعلها تمرُّ مرورًا سريعًا يحقِّق المقصودَ ولا يحتاج إلى ضغطٍ يؤذى ولا إلى إعادةٍ أكثر من مرَّةٍ تعذِّب الحيوان، وبعد تمام الذبح يترك البهيمةَ حتى تبردَ وتسكُنَ جوارحُها، ثم يشكر الله ويحمده على هذه النعمة، وعلى أن أحلَّ لنا الطَّيبَ الصالح لطعام الإنسان من الحيوان والطير.

* * *

لا تكونوا مذاييع تروّجون الباطل والمخاوف

ذلك توجيهٌ راقٍ، وحكمةٌ غاليةٌ من حِكَم الإمام عليٍّ بن أبى طالبٍ - رضى الله عنه - رواها حكيمُ بنُ سعد، وأخرجها البخاريُّ فى الأدب المفرد والدارميُّ يقول: «لا تكونوا عُجُلًا مذاييع بُذرًا، فإنَّ من ورائكم بلاءً مبرِّحًا مُكلِّحًا وأمورًا مُتماحلةً رُدُحًا» وفى هذا نهى عن التسرُّع فى الأمور وإشاعة

السوء.

وإنها لفرصةٌ طيّبةٌ لبيان معانى هذه الألفاظ التى تضمَّنها كلامُ الإمام القرشىّ الحجازىّ، وهو من أفصح الناس بعد الرسول الحبيب ﷺ كالخلفاء الراشدين، فهذه الألفاظ لم تعُد ضمنَ لغةِ الأدب والشعر فى عصرنا الحاضر، وإنَّ إحياء هذه الألفاظ وأمثالها لمن واجبات أهل الأدب والعلم لتصيرَ مأنوسةً ومألوفةً كما كانت من ذى قبل.

عُجُلًا: بضم أوَّله وثانيه: أى أهل عَجَلةٍ فى نقْل الكلام دون تَثَبُّتٍ وتريّثٍ، والعَجَلة فى كل الأمور مذمومةٌ على أى حال.

مَذاييع: جَمْع مِذياعٍ، من أذاع الشىء، وهى صيغةُ مبالغةٍ، والمراد هنا الذين يتلمّسون عيوبَ الناس، ويبادرون إلى إشاعتها والإساءة إلى الآخرين، فإن كان المذيع كاذبًا مُفتريًا كان جُرمُه أعظمَ، وإن إذاعة الفاحشةِ والأخلاقِ الرديئة تسىء إلى المجتمع نفسه، وقد تنتقل عدواها إلى السليم السالم منها.

والبُذُر: بضم الباء والذال: جمعُ بَذُور بفتح الباء، وهو الشخص الذى لا يستطيع أن يكتم سرًّا، ففيه توبيخٌ وتسفيةٌ لعمل المُفشين للأسرار، وفيه نهىٌ شديدٌ عن التعجُّل فى نقل الأخبار والتسرُّع فى إذاعة السُّوء عن الناس، وإنَّ الإنسان المهذَّب إذا علم بعيبٍ عن أحدٍ فليذكرْ عيوبَ نفسِه وليصلحها أولًا، فليس ثمَّةَ إنسانٌ خالٍ من النقص والعيب إلا من عصم الله كالأنبياء والمرسلين وفى الحكمة: «طُوبى لمَن شغَله عيبُه عن عيوب الناس» ومن حِكَم المسيح عليه الصلاة والسلام: «مَن كان منكم بلا خَطيئة فليَرْمها بحجَر»، وذلك حين رأى بعضَ الناس يشمتون فى زانية وقد حُكِمَ عليها بالرجْم، فخجل معظمهم من أنفسهم.

وقد حذَّر الإمام علىُّ بنُ أبى طالبٍ من أن شيوعَ الفاحشةِ واستخفافَ النَّاس

بالكلام عن أعراض الآخرين وأحوالهم يؤدى إلى ظهور فِتنٍ ثقيلةٍ قاسيةٍ إن لم يتدارك الناسُ أمورهم، ويحفظوا ألسنتهم عن اللغو والباطل وعن إشاعةِ السوء، وذلك فى قوله: «فإن من ورائكم بلاءً مُبرِّحًا مُكلحًا وأمورًا متماحلةً رُدُحًا».

والمُبَرِّح: بضمِّ الميم وتشديد الراء مكسورةً: الأمرُ المتعِب المؤذى والبَرْحُ: بفتح فسكون: الشِّدةُ والشرُّ والمشقَّة، ومُكْلِحًا: بضمِّ أوله: أى يَكْلَحُ الناسَ لشدَّته، نقول: شتاءٌ كالحٌ، وأمرٌ كالحٌ، أى شديدٌ مؤلمٌ. وأمورًا مُتماحلةً: أى فتنًا طويلة المدَّة، ورُدُحًا: بضمِّ الرَّاء والدَّال: أى ثقيلةً، وهو جَمْعُ «رَدَاح» وهو الجملُ المُثقَل بحِمْله الذى لا يقوى على النهوض به لثقل هذا الحِمْل.

وإنَّ أعظمَ تنبيهٍ وتبصيرٍ بأمر يخصُّ تقبيحَ الاشتغالِ بعيوب الناس وإشاعةِ السوء عنهم مع النهى عن غمزِهم ولمْزِهم والطعنِ فيهم نجده فى مثل قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١] قال ابن عباسٍ: «أى لا يطعن بعضُكم على بعضٍ»، وقال الإمامُ علىُّ ابنُ أبى طالبٍ - رضى الله عنه-: «القائلُ الفاحشةَ والذى يُشيع بها فى الإثم سواء» فطوبى لمن أمسك لسانه إلا عن حقٍّ يوضِّحه أو خيرٍ يدلُّ عليه أو باطلٍ يُنبِّه الناسَ لمساوئه، وقانا الله السوء.

* * *

نفسك أحبُّ شيءٍ إليك فأحسن إليها وتجنَّب أهل الغفلة

إنَّ نفسَ الإنسان التى بين جنبيه هى أحبُّ شيءٍ إليه، وأعزُّ الأنفس عليه، فإذا أحسن إليها كان لها مُحبًّا، وعليها شفيقًا، وإن أساء إليها كان لها ظالمًا وعليها قاسيًا، إذ يُشقيها بالذنوب، ويُتْعِسُها بالجرأة على المعاصى.

إنَّ الإحسانَ إلى نفسك يكون: بصحَّة العقيدة، وسلامة الإيمان، وبطاعة الرحمن، وبالخوف من الذنب، ومُجانبة مسالكِ الشيطان، وبقوة الرجاء فى رحمة الربِّ، والطمع فى عفوه وإحسانه، مع الثباتِ على طريق الصالحين، والتفكُّر فى العاقبة والتزام العمل الصالح للاستعداد لها، أما الغفلةُ عن المصير، مع مرور الليالى والأيام دون اعتبارٍ واتِّعاظٍ فإنَّه من خِصال أهل الشقاوة الذين يظلمون نفوسهم، ويبخلون عليها بما فيه نعيمُها وسعادتها.

قيل لرجلٍ حكيمٍ: ما بال القلوبِ قاسيةٌ لا تنفعها موعظةٌ؟ فأجاب: «لأنَّ الله أنعم عليكم فلم تشكروه، وإذا أذنبتم ذنبًا لم تستغفروه، وإذا علمتم بخيرٍ لم تعملوا به، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وعلمتم سيرَ الأنبياء وأهل الإيمان الصحيح والعمل الصالح ولم تعملوا مثلَ عملهم».

إن العاقل المتبصِّر يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، ويَزِنُ أعمالَه لنفسه قبل أن تُوزن عليه، ولا تغرّه الأمانى، ولا تخدعه الدنيا عن المصير المحتوم فيعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، ويَصرف جُهده وطاقته لما يعود عليه نفعُه فى دنياه وآخرته، وإذا وقع فى الذنبِ بادر إلى النَّدم والتوبة وأقبل على الطاعة راجيًا مؤمِّلًا، لا ييأس من رحمة الله؛ فمن فضل الله على عباده أنَّه يُثيبهم برحمته ويُعاقب بعدله، ولا يعذب أحدًا بغير ذنب، وقد دعا عبادَه إلى عدم اليأس من قبول التوبة ومغفرة الذنب، كما أطمعهم فى مضاعفة الثواب ومحْو السيئات إذا هم أقبلوا على الله بالتوبة وإخلاص المَحبَّة والصبر على الطاعة، ومن ذلك قوله تعالى من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ وقوله من سورة هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [١١٤]، وتلك نعمةٌ جليلةٌ ينتفع بها أهلُ العقل والبصيرة

فَيُقبلون على الطاعات رجاءَ رفْع الدرجات ومحْو السيئات، مع صدق العزم وإخلاصِ القلب، وقد جاء فى الكتب السماوية السابقة: «من يزرع البِرَّ يَحصُدْ السلامة، ومن يزرع السوءَ يحصدْ الندامةَ» وقد سُئل ابنُ عباسٍ - رضى الله عنهما - عن الكبائر: أسبعٌ هى؟ قال: «هى إلى سبعمائةٍ أقربُ منها إلى سبعٍ، غير أنه لا كبيرةَ مع استغفارٍ، ولا صغيرةَ مع إصرار» فعلينا أن نَفرَّ من الكبائر فرارنا من النار المُحرقة وأن نُنزِّه جوارحنا عن الصغائر؛ لأنَّ الصغيرةَ مع التكرار تصير كبيرةً، وإنَّ الإصرارَ عليها معصيةٌ نسأل الله السلامةَ منها، فينبغى لنا أن نوجِّه قُوانا نحو الخير والبر والهدى وما يُرضِى عنَّا المنعمَ الوهّاب راجين راهبين، وأن يغلب الخوفُ على قلوبنا فى حال القُوَّة والنشاطِ والشباب، وأن يغلب عليها الرجاءُ فى حال الضعف والشيخوخة مع عدم الانقطاع عن الاتصال بربِّ العزة والجلال بأداء الفرائض والإكثارِ من النوافل، وكثرة ذكره وشكرِه والصبر على البلاء والقناعة بالحلال الطيِّب فى المأكل والملبس ونفقاتِ الأولاد، مع دوام المراقبة، واستصحاب الخوف والرجاء.

* * *

ارحموا وتراحموا
تطمئنُّ النفوس وتزدهر الحياة

إنَّ الرحمةَ رقَّةٌ فى القلب تبعث صاحبها على الرفق فى الأمور، والحنوِّ على الضعيف، والرقَّة للصغير، والعطفِ على البائس والمسكين، والشفقةِ على ذوى الأسنان، واللطف للخادم والأجير، كما تبعث الرحمةُ على السعى فيما يُصلح الأولاد ويصونهم من العبث والضياع، وفيما تستقيم به أخلاقُهم وأفكارُهم وأعمالُهم على النحو الذى يُرجَى به رحمةُ الله بهم وإحسانُه عليهم ورضاه عنهم، فهذا مكسبُ الوالدِ من أولاده ومكْسَبُه لهم أن يكونوا على خير

حالٍ من العفّة والعفاف والتقوى والطاعة، ومن نظافة اليد، وطهارةِ القلب، وسلامة العقل والبدن، ومحبَّةِ الأسرة مع تبادُل أفرادِها التراحُمَ والتعاطفَ والاحترام، بالقول الطيّب، وأداءِ الواجب، ومسالمةِ الجيران، ومفارقةِ البطالين وأعوان الشيطان، ومع البُعد كلّ البُعد عن كلّ ما يَشِينُ النفسَ ويَعيبها ويُسىء إلى البدن ويضرُّه، مثل البُعدِ عن المخدِّر والمُسْكر والتدخين ومجالسِ الشيطان.

إنَّ الرحمة مرآةٌ صافيةٌ تنعكس المحبَّةُ على صفحتها فتضىء للمرء طريقَ حياته، مسترشدًا بتعاليم الدين وبأوامر ربِّ العالمين، منتهجًا طريقَ النبيِّ الأمين ﷺ.

فالذى يُحبُّ نفسه يرحمها ويطلبُ لها بفعله وبقوله وبعلاقاته الطيِّبة الأمنَ والأمانَ والراحةَ والاستقرار والاحترام المتبادل، ويرحمها من ذُلِّ المعاصى بعزّة الطاعة للرحمن، فإن نفسك التى بين جنبيك هى أعزّ النفوس لديك، والعزيز يُصان من مهالك التمرّد والعصيان، ومن عواقب كلِّ ما يجلب لها غضبَ الديّان الذى لا يغيب عنه شىءٌ من أمور عباده.

إنَّ الإنسان إذا رحم نفسه عفّ عن الحرام بكل صوره وأشكاله، وإذا رحم أولاده سعى لهم من حلالٍ طيِّبٍ وطهّر بيته من كلِّ ما يُسىء إلى أخلاقهم ويُشوِّش على عقولهم، وحنا عليهم مع الرفق والحزم حتى يصيروا على خير حالٍ، وهو الحال الذى يَسُرُّ الأحبَّةَ ويَجلب المحبَّة.

وإذا رحم المرءُ جيرانه ورحموه، ورحم المُتفاعلين معه فى مُعترك حياته ورحموه، فإنَّ ذلك يُثمر التراحمَ فيرحم الناسُ بعضُهم بعضًا، كما كان الحال لدى السلف الصالح وجيلِ الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - وبذلك يزول الغشُّ وتُمحَى الأحقادُ من القلوب، وتنقضى العداواتُ والحزازاتُ إلى

غير رجعةٍ، وتطمئنُّ القلوب فى البيع والشراء وتبادلِ المنافع والسلع، كما تطمئنُّ النفوس فى المقاولات، وتختفى السّنجُ والسكاكين والآلاتُ الحادَّة من أيدى الحائرين الضالين، ولا تجد من المقاولين وأهل الصنعة والتجارة من يتخذ من الحريف (الزبون) نفسِه سلعةً يستثمرها قساةُ القلوب أهلُ الطمع والجحود بالتضليل والحيل والتدليس، ونحو ذلك من أساليب الغشّ والخِداع فى المقاولة ممَّا هو عند التحقيق أشدُّ ضررًا وقسوةً وعنفًا من السرقة من الجيوب، فهل عرفنا؟

إنَّ الرحمة إذا شاعت فى القلوب، فرحم الناسُ بعضُهم بعضًا لزالتْ المخاوفُ ولاستقامت الأمورُ، ووثق كلُّ واحدٍ بأخيه واطمأنَّ الناسُ على سلامة الأعمال والوفاء بالعهود والوعود وإعطاء الصنعة حقَّها من كلِّ الوجوه بلا إخلالٍ ولا تضليلٍ، فمع الرحمةِ والخوف من الله تتحقَّق الأمانة، ويسطع نورُ الصِّدق وإتقانِ العمل:

وفى الحديث الشريف: «من لا يَرْحمْ لا يُرحَمْ»

[أخرجه البخاريُّ من حديث أبى هريرة].

«ارحموا مَن فى الأرض يرحمْكم من فى السماء».

«الراحمون يرحمهم الرحمن».

«الشَّقِيُّ مَن نُزِعَتْ من قلبه الرحمةُ».

❋ التوقير للكبير والرحمة للصغير:

إنَّ إعطاء كلِّ ذى حقٍّ حقَّه من أقوى دعائم البناء الاجتماعىِّ السالم من عوامل الخلل والاهتراء، ومن ذلك توقيرُ الصغير للكبير، ومساندةُ القوى الضعيفَ، ورحمةُ الكبير للصغير، إنَّها حقوقٌ يجب تبادلها بين أبناء الأمَّة، وهى آدابٌ تُراعَى بأمانةٍ وصدقٍ عن رغبةٍ وطواعيةٍ نابعةٍ من الوازع الداخلىِّ

الذى ربّاه الدين، وهذّبه صدقُ اليقين، وأيقظه وصقله نورُ الوحى الإلهىّ.

ومن نماذج هذه التربية السليمة ما يتلقّاه أولادنا فى المساجد والمدارس والبيوتِ من التوجيهات الاجتماعية الشريفة عن خير البريّة ومعلّم الخير ﷺ، ومنها ما أخرجه البخاريُّ والنسائىُّ عن أبى هريرة - رضى الله عنه-: «أن رجلًا جاء إلى النبىّ ﷺ ومعه صبىٌّ يضمُّه إليه، فقال للرجل: «أترحمه؟» قال: نعم، قال ﷺ: «فاللهُ أرحمُ بك منكَ به، وهو أرحم الراحمين» فالراحمون يرحمهم الرحمن، ولا تُنزع الرحمةُ إلا من القلب الشقىّ، فعلى نقيض عمل الرجل فى القصّة السابقة ما جاء فى الصحيحين برواية أبى هريرة: «أنَّ الأقرع بنَ حابسٍ وهو من أهل الرياسة فى بنى تميمٍ رأى الهادِىَ الحبيبَ ﷺ يُقبّل حفيده الحسن بنَ علىّ - رضى الله عنهما - فقال الأقرع: «إن لى عشرةً من الولد ما قبّلتُ أحدًا منهم، فنظر إليه ﷺ ثم قال: «مَن لا يَرحم لا يُرحم» ذلك أنَّ تقبيل الوالدِ صغيرَهُ عاطفةٌ فطريّة محمودةٌ دافعُها المحبةُ التى تُولِّد الشفقةَ والرحمة، وفى رواية عائشة - رضى الله عنها - عند البخارىّ ومسلم وابن ماجة: أنه ﷺ قال لأعرابىّ فى جفاء الأقرع بن حابس مع الولد: «أوَ أملِكُ أن نزَعَ اللهُ من قلبك الرحمة» إنَّ الرحمةَ للصغير مع الرعاية والرفق، ومع التلطُّف فى التوجيه والتربية، مع الملاحظة والحزم ومراعاةِ العُمر والسنّ، إنَّ ذلك يساعد على النمو النفسىّ والعقلىّ فى الاتجاه الصحيح المتوازِن الذى يجعل الولدَ ساكنَ الفؤاد مطمئنًّا محبًّا لمن حوله، راغبًا فى قبول إرشادهم بعيدًا عن الرعونة والاضطراب، وعن الخوف من الوالد والمعلّم؛ فالغلامُ إذا أحبَّ الكبير وقّره، وارتاح له وتقبّل منه، وانتفع بتوجيهه وتعليمه له عن رغبةٍ ورِضًى.

وإذا كان من حقِّ الصغير علينا الرحمةُ والرعايةُ المناسبة فإنَّ من حقِّ ذى الشَّيبة أن نحتفظ له بالهيبة فى نفوسنا مع التوقير والإجلال وتقديم العون

المناسب عند الحاجة، وقد أخرج البخاريُّ والحاكم عن أبى هريرة قول رسول الله ﷺ: «من لم يرحمْ صغيرَنا ويُجلّ كبيرنا فليس منَّا» أى ليس على طريقة الذين أدبَّهم الإسلام، إذ يأخذ الطائشُ الذى لا يُوقِّر الكبير بمعايير وأخلاق السفهاء وذوى النفوس الرديئة، وقد جاء هذا التوجيهُ الرشيدُ والتنبيهُ على فضيلة الأمة التى تعرف حقَّ الكبير، وتحنو على الصغير وتربِّى أبناءها على هذه الأنماط العالية من الأخلاق الكريمة، جاء فى أكثر من روايةٍ وبعباراتٍ متعدِّدةٍ عند البخاريِّ وغيره، ومن ذلك رواية عَمرو بن شُعيبٍ: «ليس منَّا من لم يرحمْ صغيرَنا ويُجلَّ كبيرنا»، ورواية عبد الله بن عمرو: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقِّر كبيرنا» إنَّ الرحمة مع الحزم بعقلٍ ورَوِيَّة مع الصغير، وإن الهيبةَ مع التوقير والإجلال للكبير وتوافر الرعاية المناسبة لكلٍّ منهما لمن أعظم الأمارات على سلامة البنية الاجتماعية.

إنَّه الإسلام الذى وضع لكلِّ أمرٍ ولكلِّ علاقةٍ بين الناس ميزانًا يُناسب الفطرةَ السليمة، ويدفع بالأمة فى مدارج الحياة الراقية بجانبيها الرُّوحىِّ والجسدىِّ، وصلى الله وسلَّم على المبعوث رحمةً للعالمين الذى بعثه ربُّه ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاق، ويرفعَ صَرْحَ أعظم وأنفع الآداب.

* * *

آمنا بالله

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

(آل عمران)

«إنَّ أهلَ الإيمانِ الصحيح والعمل الصالح رجاؤُهم عظيمٌ فى رحمةِ الله، وإنَّ الخلودَ الأبدىَّ فى نارِ جهنَّم إنَّما يكون لمن مات على شِرْكٍ وكُفرٍ ونفاقٍ قلبىٍّ، أو الذى يموت من المسلمين مُرتدًّا عن دينه دونَ توبةٍ نَصوحٍ ورجوعٍ

إلى الله قبل فواتِ الأوان».

قال الله تعالى من سورة النساء: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الآيتان).

أقول وأسأل الله التوفيق:

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا فى سياق الحثِّ على التزام شريعةِ الله وأحكامِه ووجوب الامتثالِ لِمَا أمر به سبحانه فى الآيات التى سبقتهما، فمن آمن وأطاع ربَّه فله الحسنى، ومن عصى ربَّه واتبع هواه ورفَضَ ولم يقبل ما أمر الله به فعليه عاقبةُ وبالِ أمره وتمرُّده.

لقد جاءت الآيتان للترغيب فى الانقياد لأمر الله اعتقادًا وعملًا، وللترهيب من المعصية ومن التمرُّد على التعاليم الإلهية المقتضيةِ صالحَ البشرية وتنظيمَ أحوال الناس على أساسٍ وثيقٍ من العدل والمصلحة، ويدلُّنا على ذلك أنَّ الآية بدأت بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ واسمُ الإشارة «تلك» يعود إلى الأحكام التى سبقتهما وهى فى شأن اليتامى ووجوب رعايتهم وحفظ أموالهم، وبشأن الوصايا وألا يتجاوزَ الـمُوصى حدودَ ما بيَّنه الشارع الحكيم، وبشأن المواريث وحقوق الورثة فى تركة الميت والأنصبة التى تمَّ بيانها وتحديدها.

وقد أُطلق على شرائع الله وأحكامه لفظ: «حدود الله» على سبيل التمثيل، فكما لا يجوز لك أن تتجاوز الحدَّ الفاصلَ بينك وبين جارك فى حقلٍ أو دارٍ ونحوهما، فكذلك لا يجوز للمكلَّف أن يتجاوز شرائعَ الله وأحكامه إلى غيرها: كميراث البنت والابن - مثلًا - فقد اقتضت حكمةُ الله وكمالُ عدله: أولًا: أنَّ البنت تَرث وكانت مهضومةَ الحقِّ قبل الإسلام، وثانيًا: أنَّها ترثُ ما

يوازى نصفَ مجموع ما يستحقُّه الابن (أخوها) من التركة، وفى ذلك غاية العدل والإنصاف، مع تكريم الإناث وتأكيد حقوقهنَّ التى كانت مُهدَرةً قبل ظهور الإسلام.

❋ **الطاعة والمعصية**: وإنَّ ورود الطاعة وجزائها، وورودَ المعصية وجزائها فى ختم الآيات المتعلقة باليتامى وأموالهم، وبالوصايا، وبالمواريث إنَّما لإلزام الموحِّدين بالانقياد والامتثال اعتقادًا وتطبيقًا لأحكام الله، فمن تجاوز حدودَ الله، وعمل بغير ما أمر به سبحانه عن عمدٍ منه وجَحْدٍ لحدود الله وأحكامه فإنه يموت عاصيًا اللهَ ورسولَه، وجزاؤه كما بيَّنته الآية الكريمة ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنه ارتكب الكبيرةَ عن قصد وجحْدٍ للحكم الإلهىّ ورفْضٍ له عن عمدٍ مع إيمانٍ بغير حكم الله فى المسألة نفسها، أمّا من تاب ورجع وندم فإن الله يتوب عليه بفضله وإحسانه [والله أعلم].

وأمّا من ارتكب المخالفةَ، وهو مؤمنٌ بحكم الله غيرُ جاحدٍ لأمره ونهيه فإنه لا يدخل فى عِداد الكافرين الجاحدين وإذا مات على الإيمان الصحيح فإنه يصدق فيه قولُ الله تعالى من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾، وهؤلاء إذا دخلوا النار تنفعهم شفاعةُ الشافعين بإذن الله وفضله.

فالطاعةُ وجزاؤها، والمعصيةُ وجزاؤها، جاءتا متقابلتين فى الآيتين الكريمتين للتأكيد والتوضيح والإلزام بوجوب الامتثال والانقياد عن إيمانٍ وعملٍ، وفى ذلك اجتثاثٌ لجذور ما كان يجرى عليه العملُ قبل الإسلام من ظلم اليتيم واليتيمة وظلم البنات والإناث بصفةٍ عامَّةٍ، فلم تكن أحوالهنَّ ممَّا يليق بكرامتهنَّ وحقوقهنَّ فى أحوالٍ كثيرةٍ.

وعلى هذا:

١ - فإن إنكارَ حدودِ الله ورفضَ أوامره لعدمِ الإيمان بها أو عدم الثقة فيها، وكذلك السخرية منها ونحو ذلك يؤدى إلى خروج الشخص من ربقة الإسلام، فمن تاب توبةً نصوحًا قبل الغرغرة والاحتضار من عصاة المؤمنين أو من المشركين والملحدين، ومات على إيمانٍ صحيحٍ، فإنَّ الله سبحانه يقبل توبته بفضله وإحسانه، كما وعد فى كتابه الكريم، فهو سبحانه لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون الشرك والكفر من المعاصى لمن يشاء من عباده الذين يموتون على توحيدٍ خالصٍ نقىٍّ وتوبةٍ نصوحٍ.

٢ - وإن العبدَ المؤمنَ لا يجوز له أن يُحِلَّ عن قصدٍ وعمدٍ ما حرَّمه الله، كما لا يجوز له أن يُحرِّم ما أحلّه اللهُ فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فمن فعل ذلك، ومات على مُعْتَقدِه الباطل، دون توبةٍ نصوحٍ ورجوعٍ إلى الله ونَدَمٍ مات على طريقٍ غير طريق الإسلام، واللهُ أعلمُ بنوايا عبادِه وأحوالِهم.

٣ - ولذا جاء فى التعليق على آية المعصية يقول ابن جُريجٍ وابن جبيرٍ «ويتعدَّ حدوده» فى جميع الأحكام استحلالًا يدخله نارًا خالدًا فيها وإنَّ عدم الإيمان بأحكام الله وشرائعه يخلع شجرةَ الإيمان من القلب.

٤ - وهذا الوعيدُ الإلهىُّ إنذارٌ شديدٌ وتهديدٌ لكلِّ من تُحدِّثه نفسُه بحجْبِ حقوقِ بعض الورثةِ عنهم بالتحايل وغيره لتهريب حقوقهم إلى غيرهم، وذلك للردع والزجر عساه يتراجع خوفًا من الله، وفى الحديث الشريف: «من فرَّ من ميراث وارثِه قطع اللهُ ميراثَه من الجنَّة يوم القيامة» وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، وفى لفظٍ: «من قطع ميراثًا فرضه الله ورسوله قطع الله ميراثه من الجنَّة»(ابن ماجة).

٥ - ومثل هذا: الإضرارُ فى الوصية وتَجاوُزُ حدودِ ما أمر الله به وبيَّنه رسولُه فيها، ولنتدبر عظمَ الجُرم فى ذلك فى الحديث عند الترمذىِّ وأبى

داود: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنةً فإذا أوصَى - أى فى ماله - حاف فى وصيته - أى ظلم وجار - فيُخْتَم له بشرٍّ عمله فيدخل النار».

وفى لفظ الترمذىِّ: «إن الرجلَ ليعمل والمرأةَ بطاعة الله ستين سنةً، ثم يحضرهما الموتُ فيُضارَّان فى الوصية فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة - الراوى - ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ (الآية: ١٢).

❋ المعصية والتوبة:

١ - إنَّ المعصية الكبرى هى الشرك والإنكار والنفاق القلبىُّ سواء كان الشركُ فى النيات أو فى الأفعال، أو فى الأقوال، وإن الذى يموت على هذا، فهو خالدٌ مخلَّدٌ فى نار جهنَّم، كما بيَّن الله فى كتابه الكريم، وليس لبشرٍ الاجتهادُ فى هذا ومثله، ممَّا جاء به الوحى فى الكتاب والسنّة المطهَّرة.

٢ - يجب المبادرةُ إلى التوبة النصوح لأنه لا تُقبل التوبةُ عند الاحتضار والغرغرة.

٣ - إن الكبائر جاء تغليظُ العقوبة والوعيدُ بالعذاب فيها، وذلك مثل قاتل النفس عمدًا بغير حقٍّ وكشارب الخمر عن قصدٍ وعلمٍ بأنَّها خمرٌ، ومثلهما تاركُ الصلاة، وغير ذلك من المعاصى، فالذى يموت من مرتكبى المعاصى من الموحّدين، وهو مؤمنٌ بأن ما فعله معصيةٌ وأنَّه حرامٌ لا يجوز استحلالُه، وأنه بعمله هذا فهو عاصٍ لله بما صنع، فإن لم يسبق عليه الكتابُ بالنطق بكلمة الكفر، ومات على الإيمان الصحيح، فحسابُه على الله ومصيره إلى الشمول بعفو الله حسبما تقتضيه رحمةُ الله وعدله سبحانه.

ذلك لأن هذه الكبائر إن وقعت عن استحلالٍ فهو الكفر، وإن وقعت عن جهلٍ وسفهٍ وطيشٍ مع سلامة الإيمان والإقرار بالحلال والحرام فإنَّها المعصية.

✽ **المبادرة إلى التوبة**: وإن المؤمن ينبغى له أن يبادر إلى التوبة النَّصُوح، وعلى أن تكون هذه التوبةُ خالصةً مع الندم، وعدم العودة إلى المعصية وعدم الإصرار عليها، ولنتدبَّر قوله سبحانه فى أهل النفاق، وهم أخسُّ من الكفار المجاهرين بكفرهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ (النساء).

وإن الله - عزَّ وجلَّ - هو الغنىُّ المتعالى عن أن يُعذِّب عبدًا آمن إيمانًا صادقًا صحيحًا، وشكر وأخلص الطاعة لله، وفى شأن الكفار يقول سبحانه من سورة الأنفال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الآية: ٣٨). وإن شرط القبول هو سلامةُ الإيمان وصدقُ اليقين وإخلاصُ العمل لله مع صحَّته، بأن يكون على سُنَّة رسول الله ﷺ ومع عدم العودة إلى هذا الذنب العظيم، وأن يكون الإيمانُ والتوبة فى فُسحةٍ من العمر أى قبل الاحتضار والغرغرة.

✽ **لا دليل على خلود المؤمن العاصى فى النار**:

ومما سبق يتبيَّن بفضل الله عدم صحَّة مزاعم من استشهد بالآية الكريمة من سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [١٤] أو آية النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ (الآية: ٩٣).

من استشهد بهما على أن مرتكب الكبيرة من الموحِّدين مخلَّدٌ فى النار، وخلص من ذلك برأيه إلى أنه لا شفاعةَ فى عصاة الموحِّدين، مع أنَّ الشفاعةَ الكُبرى ثابتةٌ للرسول ﷺ وكذلك الشفاعات التى بيَّنتها السُّنَّةُ المطهَّرة.

وذلك أنَّ المراد من الخلود فى الآية الكريمة السابقة من سورة النِّساء:

المكثُ الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص القرآنية على أنَّ عصاة المؤمنين لا يخلَّدون فى النار، وإنَّ الجمهور على أنَّ القاتل إذا تاب وأناب وعمل عملًا صالحًا واستقام على دين الله بَدَّل الله سيئاته حسناتٍ وعوَّض - سبحانه برحمته - المقتولَ من ظلامته وأرضاه عن طِلابته.

وما قيل عن ابن عبَّاسٍ وغيره من أنّه: (لا توبةَ لقاتل المؤمن عمدًا) محمولٌ على التغليظ والزجر والترهيب من هذه الكبائر القاسية الفظيعة، حفظنا الله من غضبه وعذابه.

وبالتالى فلا دليل على انتفاء الشفاعة بجميع أنواعها الواردة فى الكتاب والتى بيَّنتها السُّنَّة المطهَّرة.

ولا دليل على خلود أهل المعاصى والكبائر من المؤمنين الصادقين فى النار خلودًا أبديًا ما دام الشخص مات على صحة إيمانٍ وسلامة يقينٍ وطوبى لمن مات على توبةٍ نصوحٍ، فأمرُه إلى الرحمن الرحيم قابلِ التوبِ وغافرِ الذنبِ بفضله وإحسانه.

❋ **ولكن يُخشى**: أن المؤمنَ الموحِّدَ مرتكبَ المعاصى المصرَّ عليها يُخشى عليه أن يَسبق عليه الكتابُ فينطقَ بكلمة الكفر بدلًا من النُّطق بكلمة الإيمان عند الاحتضار، فيموت كافرًا ويُخلَّد فى النار لهذا السبب، لذا يجب اجتنابُ المعاصى صغيرها وكبيرها، وتجب المبادرةُ إلى الرجوع والتوبة والاستغفار وعدم الرجوع إلى المعصية، كما يجب علينا تجديدُ التوبة والإنابة فى كلِّ لحظةٍ وساعةٍ، لا نغفل عن ذلك ويجب الإكثار من الاستغفار مع حضور القلب، وإنَّ المؤمن لا ييأس من رحمة الله أبدًا.

وقد جاء فى السُّنَّة أنَّ تارك الصلاة كافرٌ، أى المُصرُّ حتى الموت وعدم التوبة عن ذلك والرجوع بإخلاص، فإن مات على ترك الصلاة فأمرُه إلى الله،

ولكنَّه يُخشى عليه النطقُ بكلمة الكفر عند الموت، وعند بعض المحقِّقين الأخذُ بظاهر الحديث الوارد في ذلك - والله أعلم - وقس على ذلك. علمًا بأنَّ الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرةً، فليتنبّه أولو الألباب، ونسأل الله السلامة عند الغرغرة، والله أعلم بأمور عباده، وعلينا أن نُحسن الظنَّ بالله مع التوبة النصوح والاستعانة به سبحانه فى التوفيق والثبات عليها.

وأخيرًا - إنَّ المؤمن لا ينفعه إلَّا؟

* الإيمانُ الصادقُ والتوحيد الخالص، وتجديد التوبة، والثقة فيما عند الله من الرحمة مع الخوف والرجاء.

* العملُ الصالح بالإخلاص من القلب، وعدم الرياء، مع الاتِّباع لسُنَّة نبيِّه ﷺ.

* الاستمرار على الإيمان الصحيح وعلى العمل الصالح الذى فيه اتّباعٌ للنبى ﷺ حتى نهاية العمر وحتى يأتى الغيابُ عن الوعى عند استقبال الموت، وهو على إيمانٍ صحيحٍ، ويُلهمه ربُّه النطقَ بكلمة التوحيد خالصًا من قلبه بفضل الله وإحسانه.

* أن يتخلَّص المؤمن من التبعات والمظالم قبل فوات الأوان مع التودُّد إلى الناس بطلب السماح خصوصًا فى الغِيبة والنميمة والشتيمة وأشباهها وغير ذلك من المظالم المالية والحقوق التى فى الذِّمَّة - والله أعلم -.

* وإنَّ الله من فضله يعذِّب بعدله، ويثيب الموحِّدين الصادقين برحمته فاللَّهمَّ اشملنا برحمتك وعفوك. آمين.

* * *

مثالٌ وبيانٌ:

عقوبة شارب الخمر إذا لم يَتُبْ منها:

جاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من شَرِبَ الخمرَ فى الدُّنيا، ثُمَّ لم يَتُبْ منها، حُرِمَها فى الآخرة».

وفى تعليقه قال الإمامُ الفقيهُ المحدِّثُ النوويُّ: «قيل يدخل الجنَّةَ - أى ما دام مات مؤمنًا صادقا فى إيمانه لم يستحلَّ الخمر - ولكنه يُحَرمُ شُربَها، فإنَّها من فاخر أشربة الجنَّة، فَيُحْرمها هذا العاصى لشُربها فى الدنيا» وتُقْبل توبته فى الدنيا برحمة من الله وإحسانِه.

وهذا ردٌّ على من أخذ بظاهر هذا الحديث، وقال: بعدم دخوله الجنَّة لأنَّه إذا حُرِم شربها وهى شرابُ أهلها دلَّ على أنَّه لا يدخلها، وفى كلام الإمام النووىِّ كفايةٌ فى ردِّ هذا القول، فمن مات مؤمنًا صادقًا إذا عُوقب على معاصيه فى نار جهنمَ فإنَّ إيمانه الصحيحَ يشفعُ له بإذن الله وفضله سبحانه.

وفى حديث عائشة - رضى الله عنها - عند البخاريِّ «كلُّ شرابٍ أسْكَر فهو حرامٌ»، واللَّفظُ فى حديث أبى موسى ومعاذٍ رضى الله عنهما عند البخارى: «كلُّ مُسكرٍ حرامٌ».

[كتاب الأشربة].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

[المائدة]

القِسمُ الرّابعُ:

مِنْ أَدَبِ النُّبُوَّة فِي العِلاقَاتِ الإنسانيَّة

محبّة القلوب له

لم يكن محمّد الهادى ﷺ صاحبَ مالٍ فتطمعَ القلوبُ فى مودّته، ولم يكن صاحب سلطانٍ يُغرى النفوس بالتزلُّف إليه وطلبِ محبّته، ولم يكن صاحبَ قوّةٍ ولا أعوانٍ تدفع الرّجالَ للنّفاق والرضوخ لسطوته.

فهلَّا فكَّرنا؟ كيف جمع ﷺ حوله قلوبًا محبَّةً مطيعةً، وكانت فى جاهليتها مُتنافرةً فصارت بفضل ما حباه اللهُ من أدب النفس، وكمالِ العقل متناصرةً متآلفةً، وكانت قد أحبّته قبل بعثته لصدْقه وأمانته وتمام أدبِه، فلمَّا دعا إلى الله قال أهلُ العقل والحكمة: إنَّه الصادق الأمينُ ذو الخلق العظيم آمنَّا بما جاءنا به من عند ربِّه.

بل وأكثر من هذا، أنَّهم هجروا الوطن العزيز مكّةَ المكرَّمةَ وتركوا القوم والعشيرةَ والمالَ فى سبيل نُصرة دينه واتقاءِ الفتنة فى فترة المحنة المكّيَّة، ثم صاروا مجاهدين يبذلون الأرواح والأموال طلبًا لمرضاة ربِّ العالمين، لم يطلبوا دنيا ولا عوضًا عمَّا بذلوه فى سبيل الله.

أرخصُوا كلَّ شىءٍ فى سبيل ما جاءهم به الحبيب وطاعةً لله ولرسوله وتلك آيةٌ شاهدةٌ بأنه رسولُ ربِّ العالمين إلى الناس كافَّةً، وإلا ما كان يحدث هذا الانتقالُ الفُجائىُّ من العصبية القبلية والحمية الجاهلية والانفرادية التى اتسم بها ضميرُ الجاهلية؛ الانتقالُ من هذا إلى طور المدنية العلياء، والحضارةِ العظيمةِ التى جمعت قلوبَ الناس على المحبّة والوفاء والعدل والمساواة وتلك لوحدها من أعظم دلائلِ نبوّته الهادية عليه الصَّلاةُ وأبهَى السّلام.

قدوتنا الحسنة فى معارج الخير والحقّ

❋ **مَن ذا الذى ما سَاءَ قَطُّ؟**

إنه محمَّدٌ الهادى، أكمل النّاس خَلقًا، وأتمُّهم أدبًا وخُلقًا، أدَّبه ربُّه وجمَّله بأحسن مكارم الأخلاق، وأزكى محاسن الآداب، وأعلى فى العالمين ذِكْرَه، فكانت له الحُسنى فقط، وكان سراجًا منيرًا، ونورًا مبينًا، هَدَى إلى الحقّ وخالص الإيمان.

جاء فى صحيح مسلمٍ أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت عن رسول الله ﷺ: «ما ضرب رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا إلا أن يجاهدَ فى سبيل الله، وما نِيلَ منه شىءٌ قطُّ فينتقمَ من صاحبه إلا أن يُنتهك شىءٌ من محارم الله فينتقم لله».

❋ **مع أهله**: أمَّا فى بيته وبين أهله فكان أحسنَ الناس عِشرةً، وأكرمهم خُلقًا، وأعظمَهم حِلمًا وتواضعًا، وأبَرَّهم، وأكثرهم مُؤانسَةً لأهله، وقد سُئلت السيدة عائشةُ: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى بيته قالت: «كان ألينَ الناس، بسَّامًا ضاحكًا، لم يُرَ قطُّ مادًّا رِجليْه بين أصحابه».

وفى مسند الإمام أحمد وصححه ابن حبَّان عنها قالت: «كان ﷺ يَخيط ثوبَه، ويَخصِف نعله» وزاد أحمد: «ويرفعُ دلْوَه، ويَرْفى ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخدم نفسه».

أما خِدمته ﷺ فى بيته فكما يقول أهل العلم: «وهذا يتعيَّن على أوقاتٍ، فإنه ثبت أنه كان له خدمٌ، فتارةً بنفسه، وتارةً بغيره، وتارةً بالمشاركة»

[قسطلانى: المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمَّديَّة المقصد الثالث].

معنى هذا أنَّه ﷺ كان يضرب المثلَ فى دماثة الخُلق، والرفق بالأهل، والرحمة بالخادم، سواءٌ من حيث المشاركةُ فى أعمالهم أو الاستقلالُ ببعض

الأعمال فى المنزل أحيانًا، أو من حيث عِفَّةُ اللسان والتوجيهُ الرشيد بالقدوة والكلمة الطيِّبة.

❋ **والخادم ناله شرف الحِلم والرفق**: لقد كان ﷺ لا ينهر خادمًا، ولا يضربه، ولا يُسيء إليه، وقد روى الترمذىُّ عن أنسٍ قال: «خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى: أفٍّ قط، ولا قال لشىءٍ صنعتُه، لِمَ صنعتَه؟ ولا لشىءٍ تركتُه، لِمَ تركتَه؟».

ولفظ هذا الحديث فى صحيح البخارىِّ وفى كتابه «الأدب المفرد» قال أنسٌ: قدم النبىُّ ﷺ، وليس له خادمٌ، فأخذ أبو طلحة - وهو زيد بنُ سهلٍ زوجُ أمِّ سليم أمِّ أنسٍ - أخذ بيدى، فانطلق بى حتى أدخلنى على النبىِّ ﷺ فقال: يا نبىَّ الله، إنَّ أنسًا غلامٌ كيِّسٌ لبيبٌ فليخْدُمْك، قال أنسٌ: فخدمته فى السفر والحضر، مقدمه المدينة، حتى تُوفِّى ﷺ: ما قال لى عن شىءٍ صنعتُه، لِمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا قال لشىءٍ لم أصنَعْه، ألا صنعتَ هذا هكذا؟ وفى روايةٍ زيادةٌ: «فما قال لى أُفٍّ قطُّ».

والأمر فى قوله: فليخدمك: للاستئذان أى ائذنْ له أن يخدمك.

وكلمة: صنعتُه بتاء المتكلِّم، أى مما لا ينبغى صُنْعُه ولم يؤذن به، أو لِمَ صنعته على وجهٍ لا يليق أو غير سليمٍ؟

وفى الحديث ما يدلُّنا على كمال خُلقه ﷺ إذ لا يصدر منه حتى ما يلوم به خادمَه فيما يتعلق بعمله فى خدمته ﷺ.

❋ **بيان**: ومثل هذا التسامح الكريم لا يكون بطبيعة الحال لو أن الأمر كان يتعلق بالتكاليف الشرعية الموجبةِ للحقوق الربانية، أو كان يختصُّ بحقوق غيره من الناس - والله أعلم -.

❋ **ومن الرفق بالخادم**: ثم تأمَّل كرم الخُلق فى عتاب الخادم الذى شغله

اللعبُ عن عمله: قالت أمُّ المؤمنين هندُ بنتُ أمية «أمُّ سلمة»: إن النبىَّ ﷺ كان فى بيتها، فدعا وصيفةً له - أو لها - فأبطتْ، فاستبان الغضبُ فى وجهه فقامت أمُّ سلمةَ إلى الحجاب فوجدتْ الوصيفةَ تلعب، ومعه ﷺ سِواك، فقال عليه السلام: «لولا خشيةُ القَوَدِ يومَ القيامةِ لأوجعتُكِ بهذا السواك»

[أخرجه البخارىُّ فى الأدب المفرد وابن سعدٍ فى الطبقات].

وأبطت: أى أبطأت، والوصيفة، والوصيف: الغلام إذا بلغ حدَّ الخدمة، والوصيف: الخادم غلامًا كان أو جاريةً، وربَّما قالوا للجارية «وصيفةً».

فانظر إلى هذه المعاملةِ السامية للخادم، وتلك المساواةِ الكريمة فى العلاقات الإنسانية التى قرَّرها الإسلامُ، فلولا خشيتُه ﷺ من القصاص يوم القيامة لضربها بالسواك، فما بالك بمن يستخدم السوط أو العصا فى غير محله؟

❁ **اختار شرف العبودية**: لقد كان لنبيِّنا ﷺ الحظُّ الأوفرُ من التواضع والحلم، وحُسن الخُلق وحسبنا من تواضعه ﷺ أن خَيَّره ربُّه - عز وجل - بين أن يكون: نبيًّا ملكًا ونبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون: نبيًّا عبدًا، فشرّفه ربُّه وأعطاه باختياره التواضعَ أن جعله ﷺ: «أوَّلَ مَن تَنشقُّ عنه الأرضُ، وأولَ شافع، وأول مُشَفَّع» فقابل ﷺ هذه النعمةَ الجليلة بمزيدٍ من التواضع، «فلم يأكلْ متَّكِئًا بعد ذلك حتى فارق الدنيا».

ونهى ﷺ عن إطرائه والمبالغةِ فى مَدْحه حتى لا يقعَ أهلُ الإسلام فيما وقع فيه غيرُهم من تقديسٍ للأشخاص واعتقادهم أنَّهم يَضرُّون وينفعون وإعطائهم حقوقَ الألوهية، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا، ولذا قال ﷺ: «لا تُطرونى كما أطرتْ النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدُ الله ورسوله فقولوا: عبدُ الله ورسوله»

[أخرجه الترمذيُّ].

❋ وحَظِى الضعيف والجَافى بشرف كرم خُلقه:

ووصفت السيِّدة عائشةُ - رضى الله عنها - سهولةَ طبعه ﷺ فقالت: «ما كان أحدٌ أحسنَ خُلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحدٌ من أصحابه إلَّا قال: لبَّيك».

وقد كان ﷺ يعود المرضى، ويشهدُ الجنازةَ، ويصبر على ذى الحاجة إذا دعاه ليبيِّن له حاجتَه، فكان ﷺ يُلبِّى دعوتَه، ويقف يستمع إليه فى صبرٍ وتواضعٍ حتى يقولَ ما عنده ثم يَقضى له مطلبه، ويُدخلَ السرورَ على قلبه بالكلمة الطيِّبة - كما جاء بيانه عند البخاريِّ وأحمد والترمذيِّ فى الشمائل.

وكما كان يصبر على الضعيف، كان يحلم ويعطفُ على ذى الجفوة والخشونة من الأعراب، ومن ذلك ما أخرجه البخاريُّ من حديث أنسٍ قال: «كنتُ أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية فأدركه أعرابيٌّ فجبذ بردائه جبذةً شديدةً، قال أنس: فنظرتُ إلى صفحة عاتقه، وقد أثَّرت فيه حاشيةُ البُردِ من شدَّة جبذتهِ، ثم قال الأعرابيُّ: يا محمدُ مُرْ لى من مال الله الذى عندك، فالتفتَ إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاءٍ».

فأىُّ حِلم أعظمُ من حِلمه ﷺ وصبره على الأذى فى النفس والمال وتأمَّل هذا التجاوزَ عن جفاء من يُريد تألُّفَه على الإسلام، وتأمَّلْ أخْذه الناسَ بالتدريج فيما يُراد لهم من الخير لإصلاح نفوسهم، وتهذيبِ أخلاقهم.

قالت أمُّ المؤمنين عائشة: «لم يكن النَّبىُّ ﷺ فاحشًا، ولا متفحِّشًا، ولا يَجزى بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح» [أخرجه الترمذي].

أى: لم يكن له الفُحش خُلقًا ولا مُكتسبًا؛ والفُحش: هو كلُّ ما خرج عن مقداره حتى يُستقبحَ، ويدخلُ فيه القولُ والفعلُ والصفةُ لكنَّ استعماله فى القول أكثر.

والمُتفحِّش: بتضعيف الحاء الذى يتعمَّد ذلك ويكثر منه ويتكلَّفه.

❁ **إنَّما بُعثت رحمةً**: وحسبُنا فى البرهان على صبره على الأذى يُصيبه فى نفسه عَفْوُه عن عدوِّه المحارب له فى أشدِّ ما نالوه به من الجِراح والجَهْد بحيث كُسِرَت رُباعيتُه، وشُجَّ وجهُه، وكان ذلك يوم أُحُدٍ، وقد شقَّ ذلك على أصحابه شديدًا، فقالوا: لو دعوتَ عليهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «إنِّى لم أُبْعَثْ لعَّانًا، ولكنِّى بُعثت داعيًا ورحمةً، اللهمَّ اغفر لقومى - أو اهْدِ قومى - فإنَّهم لا يعلمون».

نقل القسطلانىُّ فى المواهب اللَّدنِّية بالمنح المحمَّديَّة(١) عن ابن حبَّان: قال: أى اغْفِرْ لهم ذنبهم فى شجِّ وجْهى، لا أنه أراد الدعاءَ لهم بالمغفرة مطلقًا، أى بصفةٍ عامَّةٍ إذ لو كان كذلك لأجيب - عليه السَّلام - ولو أجيب لأسلموا كلُّهم - كذا قال رحمه الله -.

قال القسطلانى: «وههنا دقيقةٌ» وهى أنَّه ﷺ لمَّا شُجَّ وجهُه الشريف عفا، وقال: «اللَّهمَّ اهْدِ قومى» وحين شغلوه عن الصَّلاة يوم الخندق قال: «اللهم املأ بطونَهُم نارًا» فقد تحمَّل الشجَّةَ الحاصلةَ فى وجهِ جسده الشريف وما تحمَّل الشجةَ فى وجه دينه، فإنَّ وجه الدين هو الصلاة، فرجَّحَ حقَّ خالقه على حقِّ نفسه.

❁ تحليلٌ وتعليلٌ ولكلِّ موقفٍ حالٌ: ذلك أنَّ حِلمه وصبرَه على خشونة الأعراب، وحِلمَه وصَبْرَه إزاء أذى المشركين له إنَّما هو فيما كان من حقِّ نفسِه الشريفة، وأما إذا كان لله فإنَّه يمتثل فيه أمر الله تعالى من الشدة، كما

(١) هذا الكتاب ثلاثة مجلدات كبيرة وله طبعة من أوائل القرن العشرين من الميلاد، وقد اختار أحمد بن محمد طاحون المقصد الثالث وطبعه بعد تنقيحه وتهذيبه مع الضبط ووضع عناوين كثيرة واختصار ما لا يضر بالسياق ولا يقطع ترابط المعانى والأفكاروتم طبعه تحت عنوان: (الزهور الندية فى خصائص وأخلاق خير البرية ﷺ). وطبعته الأولى فى عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م) بالقاهرة وله طبعة أخرى بالقاهرة عام (١١٤٢٣هـ: ٢٠٠٢م).

قال له سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣ والتحريم ٩).

لقد غضب ﷺ لأسبابٍ مختلفةٍ مرجعُها إلى أنَّ ذلك كان فى أمر الله وأظهر الغضبَ فيها ليكونَ أوكدَ فى الزجر، فصبرُه وعفوُه إنما كان يتعلَّق بنفسه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه، فلقد كان حِلمُه يسبق غضبَه، ولا تزيده شدَّةُ الجهل (أى الخشونة والسَّفَه) عليه فيما يلحقه من أذى الناس وجفائهم إلا حلمًا وكرمًا وسماحة خُلقٍ.

* **وشَهد له بالرسالة سماحتُه وحلمه**: وهذا رسول الله ﷺ يشتدُّ عليه زيدُ ابنُ سَعْنَةَ وكان قبل إسلامه من أجلِّ أحبار اليهود، إذ أخذ زيدٌ بمجامع قميصِه وردائه ﷺ ونظر إليه بوجهٍ عابسٍ، ثم قال زيدٌ: ألا تقضينَّ يا محمَّدُ حقِّى، فواللهِ إنكم يا بنى عبد المطَّلِب مُطْلٌ - أى تُسوِّفون فى أداء الديون - وكان لزيدٍ دينٌ بقى على موعد أدائه يومان أو ثلاثةٌ، وهنا غضب عمر - رضى الله عنه - واشَّتد على الرجل بالقول.

وإذا برسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكونٍ وتُؤَدة، وتبسُّم ثم قال: «أنا وهو كنَّا أحوجَ إلى غير هذا منك، يا عمر، أن تأمُرَنى بحُسن الأداء، وتأمرَهُ بحُسن اتِّباعه» - أى بحسن طلبه برفقٍ وفى موعده.

ثم بلغ الموقفُ فى السماحة أقصى غايةٍ من أعظم إنسانٍ، إذ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «اذهبْ به يا عمرُ فاقْضِه حقَّه وزِدْه عشرين صاعًا مكانَ ما رُعته» - أى بدل مِمَّا تسبَّبتَ له من الخوف بشدَّة قولك وغضبك - ففعل عمر ما أُمر به.

قال زيد بنُ سعنة: «فقلتُ يا عمر، كلُّ علاماتِ النبوَّة قد عرفتُها فى وجْه رسولِ الله ﷺ حين نظرتُ إليه، أى بعد قدومه المدينة - إلا اثنتين لم

أَخْبُرُهُما: يَسبق حِلمُه جهله - أى غضبه - ولا تزيدُه شدَّةُ الجهل عليه إلَّا حِلمًا، فقد خَبَرتُهما - أى تأكَّدتُ منهما بالاختبار - فأُشْهِدكَ: أنِّى قد رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا».

❁ العبرة يا أحباب الله ورسوله:

❁ إنَّ من تأمَّل سيرتَه ﷺ مع أهله وأصحابه، وغيرهم من الفقراء والأيتام، والأرامل، والأضياف، والمساكين علم أنَّه قد بلغ من رقَّةِ القلب، ولينهِ الغايةَ التى لا مَرْمَى وراءها لمخلوق، وأنه ﷺ كان يَحْزم ولا يتهاون فى حدٍّ من حدود الله وحقوقه ودينه.

❁ وحارب وجاهد، وكان جهاده خالصًا لله وحده.

ولم يضرب ﷺ مسلمًا قطُّ ولا غيرَ مسلم إلا بحقٍّ كما حكم بقطع يد السارق، ورجم الزَّانى ونحو ذلك، وكان يباسط أصحابه بما يجعل القلوبَ تزداد له حبًّا ومهابةً، كما كان يُمازِحهم ويُخالطهم، ويُحادثهم، ويُؤنسُهم، ويأخذ معهم فى تدبير أمورِهم، ويشاركهم فى العمل كما فعل فى حفر الخندق يوم الأحزاب، وكما شاركهم بجمعه الحطبَ لإعداد الطعام وطَهْيه، وكان يداعبُ صبيانَهم، ويُجلسهم فى حجره، ويُجيب الدعوةَ من الفقير والغنىِّ، ويَقبل الهدية، ويُثيب عليها، ولكن لا يقبل الصدقة.

❁ وكان يُحبُّ أن يخرجَ إلى أصحابه وهو سليمُ الصدر خالٍ من أى كدر تجاه واحدٍ منهم فكان يقول لهم ما معناه: «لا يُبلِّغْنى أحدٌ منكم عن أحدٍ شيئًا فإنِّى أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر».

❁ وكان يُلقى السلام على مَن لقيه، ويقفُ مع مَن يستوقفُه ليُفضى إليه بما فى نفسه، وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا مع الكبير والصغير - أحيانًا -.

❁ ومن مُباسطته للصغير ما أورده الشيخان والترمذىُّ عن أنسٍ: أنَّ أخًا

صغيرًا لأنسٍ اسمه أبو عُمير كان له نُغَيْرٌ - عصفورٌ - يلعب به، فمات العصفورُ، فرآه ذاتَ مرَّةٍ حزينًا، فقال: «ما شأنه؟ قالوا: مات نِغْرُه، فقال ﷺ: يا أبا عميرٍ ما فعل النُّغَيْر؟» وكان كُلَّما رآه سأله وآنسه بحلْو شمائله وكريم تواضعِه ورفقه.

❋ وقد بلغ من سعَة الصَّدر ودوام البِشْر، ولين الجانب، والإقبالِ بوجهه المنير على أصحابه بابتسامته المشرقة أن كان يظنُّ كلُّ واحدٍ من أصحابه أنَّه أحبُّهم إلى قلبه الشريف ﷺ.

❋ ما عاب ﷺ طعامًا مُباحًا قطُّ إن اشتهاه أكله وإلا تَركَه - كما جاء فى الصحيحين - أمَّا الحرامُ فكان يَذمُّه ويَنهى عنه.

❋ كانت حياته ﷺ حلمًا وعلمًا ونورًا وهدايةً ورحمةً، ولولا ما رزقه الله من كمال العقل والأدبِ وتمام مكارم الأخلاق وعظيم التواضع والإيناسِ لأصحابه بِمُباسَطتِهم وإدخالِ السرور على قلوبهم لما قَدَرَ أحدٌ أن يقعدَ معه، ولا أن يسمعَ كلامه، لِمَا رزقه الله من المهابة والجلالةِ لذا أُثِرَ عنه أنه كان يجلس على الأرض أو يضطجع بها ويتحدَّث مع بعض نسائه قبل أن يخرج إلى الناس.

❋ **ولقد أُثِر عنه - أيضًا - قوله**: «إنَّما أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكلُ العبد وأجلسُ كما يجلسُ العبد» وكان يذكر دومًا أنَّه من الأرض وإليها فأورثه الله - عزَّ وجلَّ - رِفعتَه إلى السماء، وحسبُه شرفًا أنه أحبُّ الخلق إلى الله، وحسبنا شرفًا أنَّنا من أتْباعِه ﷺ.

❋ **حضارة الرحمة والخير والسلام:**

إنَّ الحبيبَ ﷺ اصطفاه ربُّه وحفظه وأدَّبه، وقد تربَّى على يديه ﷺ جيلٌ حمل الأمانة وأوفى بما عاهد اللهَ عليه، فكان خيرَ جيلٍ فى تاريخ بنى الإنسان

علمًا وخُلقًا ومسلكًا، وقد وضع قواعدَ أعظم حضارةٍ فى التاريخ: حضارةِ العلم والعمل، والعقلِ والروح، إنَّها حضارةٌ جمعت بين الدنيا والدين، ونبذت الباطلَ والسوءَ والفساد، وكان للفضائل الثابتة والأخلاقِ الكريمة فيها صرحٌ عالٍ، فسعد الناسُ فى ظلالها بالرحمة والعدل والمساواةِ والتعاون على الخير، والمؤاخاة والأمن وتكريم الإنسان، واحترام الكبير والرفق بالضعيف والصغير.

فاللهمَّ ارْزُقنا حُسْنَ الاقتداء به، وصلِّ اللهمَّ عليه وعلى آله وأصحابه وعلى من صلَّى عليه وسلَّم من الموحِّدين إلى أن تقوم الساعة.

* * *

فى يوم الاثنين ٢١ من شوال ١٤٢٤ (١٥ من ديسمبر ٢٠٠٣) تمت المراجعة بحمد الله وفضله فى قرية «شَمَّا» إقليم المنوفية، مركز أشمون.

والحمدُ للَّه ربِّ العالمين، اللهمّ اجعلْه عملاً صالحًا نافعًا خالصًا لوجهك الكريم، تكفِّر به السيِّئات، وترفعُ الدَّرجات، وتحشرنا بفضلك وإحسانك فى زُمْرَةِ النبى الأمين وأصحابِه وأحبابِه الطاهرين عليه الصلاةُ وأبهى السلام وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين.

أحمد بن طاحون

شمّا فى: ٢١ من شوال ١٤٢٤

١٥ من ديسمبر ٢٠٠٣م

كَشَّافُ الكِتَاب

كشّاف الكتاب

* * *

القسم الثانى:
قطوفٌ دانيةٌ من السِّيرة الشَّريفة الهادية

* * *

القسم الثَّالث:

من نور هديه وتوجيهاته الشَّريفة ﷺ

* * *

القسم الرابع:
من أدب النبوّة فى العلاقات الإنسانية

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق).
* رياض الفالحين ومنار السالكين.
* البيان (ست رسائل).
* البستان: الجزء الثانى من كتاب البيان (مجموعة رسائل).
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خسمة أجزاء).
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير.
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب: فضل الله الصمد فى توضيح «الأدب المفرد» للإمام البخارى].
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب: «تجريد التوحيد المفيد» للإمام المقريزى [القرن التاسع] (طبعة منقحة ومزيدة).
* أخرج كتاب «الشكر» لابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف.
* كتاب التوكل للإمام ابن أبى الدنيا [مع زيادات وتعليقات].
* الزهور الندية فى «خصائص وأخلاق خير البرية»: «تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنيّة بالمِنَح المحمدية» للإمام القسطلانى [القرن العاشر].
* أذكار ودعوات مباركات.
* إلى البرهان يا أولى الألباب.
* مع القرآن الكريم.
* مع بحر النور (الهادى البشير) ﷺ.
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد.
* يوم الفرقان.
* فجر الإسلام «عرض قصصى».
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء (جزءان).
* فى أنوار سورة الفرقان.
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم.
* المنار الهادى (حضارة الإسلام وأوربا).
* دليل الحج والعمرة والزيارة بالسؤال والجواب.
* الدعاء المبرور لحجاج بيت الله المعمور.

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى اللّه (دراسة وتطبيق) .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خمسة أجزاء).
* أخرج كتاب الشكر وكتاب التوكل للإمام ابن أبى الدُّنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب : « تجريد التوحيد المفيد » للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* دليل الحجِّ والعمرة بالسؤال والجواب .
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب : فضل اللّه الصمد فى توضيح «الأدب المفرد » للإمام البخارى] .
* أذكار ودعوات مباركات .
* في شهر الصوم خواطر ومسائل .
* إلى البرهان يا أولى الألباب .
* حضارة الإسلام وأروبا .
* مع القرآن الكريم .
* الدعاء المبرور لحجاج بيت اللّه المعمور .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* يوم الفرقان .
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم .
* فى فجر الإسلام « عرض قصصى » .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* الزهور النديّة فى « خصائص وأخلاق خير البرية » : « تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى .
* فى أنوار سورة الفرقان .
* فلسطين والقدس أمانة الآباء فى عنق الأبناء .
* البيان [ستّ رسائل] .
* في « مصطلح الحديث » تيسير وضبط وتوضيح كتاب الشيخ عبد الغنى محمود ورسالة للشيخ محمود خطاب السبكى .
* البستان (١٤ رسالة) .
* مع بحر النور الهادي البشير ﷺ .
* الأمن والرخاء أم الفتنة العمياء .
* صاحب الخلق العظيم (فى نور سورة القلم وهدايتها) .
* تحديد الربح سَلفًا أو نسبته : ما حدُودُه ؟ (رسالة) .
* الصيدلى والصيدلة (رسالة محققة في أخلاق المهنة) .
* وهلك أبو لهب وحمالة الحطب . (رسالة) .

تذكرة

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبى الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير فى حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ - مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود فى عام ١٩٢٧ من الميلاد فى « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية فى مصر ، حرسها اللّه .

٢ - مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعنيت به أمه الصالحة - رحمهما اللّه وغفر لهما - فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطًا لدخول الأزهر .

٣ - بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الدينى التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم فى التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

الحياة العملية :

* اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية فى إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة

* وفى عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية فى مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

* التحق بالبنك الإسلامى للتنمية فى جدة فى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧م) ، وزار نحو ١٨ دولة إسلامية ، ومعظمها للعمل فى أمانة مؤتمرات البنك الإسلامى للتنمية السنوية وبقى حتى التقاعد فى الخامسة والستين ، ثم التحق بمنظمة المؤتمر الإسلامى بجدة لمدة ثلاث سنوات استقال بعدها وعاد إلى مصر بحمد اللّه وفضله .

* اشتغل بالخطابة وهو طالب فى مساجد قريته ثم فى القاهرة .

* قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى نحو عشرين عامًا .

* عضو التوعية الإسلامية فى الحج من عام ١٣٩٣ من الهجرة ١٩٧٣ من الميلاد ولنحو ١٦ عامًا .

وفى جدة اشتغل بالكتابة وقد طبع له ما يزيد على خمسة وثلاثين كتابًا ورسالة كما اشتغل بالخطابة فى عدد من مساجد جدة .

ونشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعد صفحة « دعوة الحق » اليومية فى صحيفة البلاد - ومقرها جدة - لسنوات عديدة .

والحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .